خليل عبدالكريم

قريش

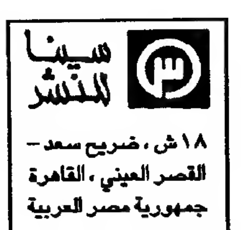
من القبيلة الى الدولة المركزية



١٨ ش ، ضريح سعد –
القصر العيني ، القاهرة
جمهورية مصر العربية

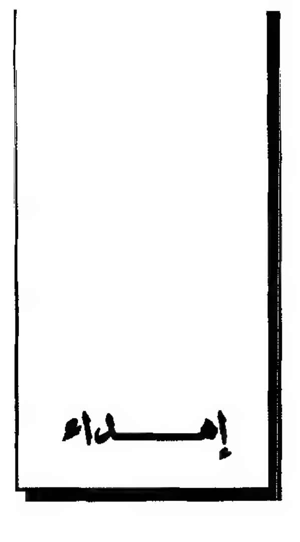






الطبعة الثانية ١٩٩٧

المحتويات



إهـــداء

إلى : الذين يؤرقهم الشوق إلى قراءة التاريخ العربى الإسلامى وهو مكتوب كتابة موضوعية بعيدة عن الحواجب التى تحجب العقل مثل العواطف الفجة والأساطير واللاماورائيات . . .إلخ .

وإلى : الأكاديميين الذين ينادون بضرورة إعادة كتابة التاريخ العربى الإسلامى ولكنهم لا يفعلون إما حرصا على مكاسبهم - التى هى فى آخر المطاف عرض من الدنيا قليل - وإما تحرزاً من المتاعب التى سوف تلاحقهم لو أقدموا على ذلك .

وأخيرا إلى : القلة الشجاعة القابعة فى مصر وعدن ودمشق وبيروت والمغرب والجزائر وتونس التى بدأت تمشى فى هذا الطريق الوعر الخطر غير عائبة بما فيه من أشواك بل ألغام ، والتى تصر على حمل مشاعل «التنوير» مهما كلفها ذلك من ثمن ، والتى تؤمن بأن الفجر حتما سوف يطلع مهما طال أمد الظلام ومهما تمترس خلف ترسانات الثروات الأسطورية وسلطات الطواغيت الحاكمة التى تدرك أن بقاءها على عروشها رهن باستمرار الظلاميات .

إليهم جميعا :

أهدى هذا الكتاب مساهمة متواضعة ولبنة صغيرة فى تشييد صرح آن الأوان ليرتفع .

خليل عبد الكريم

مقـــدمة
الطبعة الثانية

عندما تنفد خمسة آلاف نسخة - فى غضون عامين فحسب - من كتاب يتناول موضوعا جادا ، لا صلة له بتلك الموضوعات التى تروج الكتب وتضاعف أرقام توزيعها ، فان هذا يدل على أن القارىء العربى - رغم ما يشيعه البعض عنه - قارىء واع .

هذا من ناحية . .

ومن ناحية أخرى . . فقد صدق حدسنا وهو أن هناك الكثيرين (الذين يؤرقهم الشوق إلى قراءة التاريخ العربى الإسلامى وهو مكتوب كتابة موضوعية بعيدة عن الأساطير التى تحجب العقل مثل العواطف الفجة والأساطير والماورائيات . .) كما ذكرنا فى الاهداء . إذ تبين أن هناك الألوف المؤلفة ممن ينطبق عليهم هذا التوصيف ذلك أن ثلثى النسخ على أقل تقدير يتناول كل نسخة منها خمسة قراء ، إن لم يكن أكثر ، خاصة بعد ارتفاع أثمان الكتب للأسباب المعروفة .

ولم يكن الاقبال على (قريش) قاصرا على القراء فى مصر وحدها أو البلاد العربية بل تعداها إلى المقيمين فى حواضر بلاد الفرنجة حتى ان اثنين من اشهر دور النشر فى عاصمة أوروبية كبيرة أدرجته فى قوائمها وعرضته فى مكتباتها وكان للدارسين فى جامعات تلك الدول نصيب ملحوظ من الالتفات للكتاب والالحاح على شرائه .

هذه بعض العوامل التى أدت إلى نفاد النسخ المطبوعة من (قريش) والمطالبة بطبعة جديدة .

ولكن بالمقابل لماذا ووجه الكتاب بالصمت المطبق؟ إذ لم يحظ بدراسة رصينة ، والقليل للغاية الذى كتب عنه يتراوح ما بين الإشارة العابرة والدراسة الخفيفة حتى هذه لم تحدث سوى مرة واحدة!!!

أنا لا أميل للتفسير التأمرى للأحداث فلقد ضرب الصمت مؤلفات (الرافد) الذى يسعدنى أن أكون واحدا من أعضائه ولقد تعمدت اختيار كلمة (الرافد) لتوصيفه إذ هو لم يبلغ بعد رتبة التيار ولو أننى على ثقة انه سوف يصل إليها طال الزمن أو قصر لأنه يسير فى الاتجاه الصحيح وهو رافد فكرى متميز له منهجه الفريد واسلوبه المغاير وآلياته المستحدثة وأدواته الخاصة .

ولقد كان لدار (سينا للنشر) فضل - نعم فضل إطلاق شرارته الأولى حتى أن هناك من يطلق عليه (مجموعة سينا) .

وإذ أن الشيء بالشيء يذكر :

فعندما فرغت من تأليف كتابى (الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية) عرضت مخطوطه على ثلاث من دور النشر (التقدمية) اثنتان منها فى القاهرة والثالثة فى بيروت ولكنها تخاذلت عن نشره وقدمت اعذارا أوهى من خيوط العنكبوت مما اصابنى باحباط بالغ ولكنى لما عرضته على (سينا للنشر) لم تتردد فى نشره رغم ما فيه حتى ان الأستاذ الدكتور/ صادق جلال العظم فى كتابه (ذهنية التحريم) ادرجه فى قائمة الكتب التى أثارت الرجعية وأن المؤسسة الدينية الرسمية طالبت بمصادرته (ص ٣١٥ من الطبعة الأولى - تشرين/ نوفمبر ١٩٩٢) ونعود للسياق فنقول :

إن هذا الرافد وان بدا للعين المتعجلة ضعيفا واهنا إلا ان آثاره لم يتم تقديرها حق قدرها بعد ، بل إن وزن هذه النتائج الشديدة الخطورة له فى الوقت الراهن لا يجيء دقيقا لانها (النتائج والآثار) لم تتضح قسماتها ولم تبرز ملامحها بعد .

* * *

ومن الطريف انها لم تظهر فى كتابات التلامذة ، أو التابعين أو الجيل الثانى أو السائرين على الخط نفسه وعددهم إلى الآن لا بأس به وان خفى أمرهم إلا على اعضاء (الرافد) نقول انها لم تظهر على هؤلاء فقط بل تعدتهم إلى الواقفين على الضفة الأخرى من النهر : المناوئين والمخاصمين فقد أخذوا يعيدون حساباتهم العتيقة ويغيرون نظرتهم التقليدية إلى كثير مما كانوا يعدونه : بديهيات ومسلمات وثوابت بعد ان تيقنوا انها ليست كذلك أثر اطلاعهم على طروحات (مجموعة سينا) . . . والذى يمارى فى ذلك ندعوه إلى القاء نظرة على كتاباتهم منذ بضعة أعوام مضت ويقارنها بكتاباتهم هذه الأيام .

وعلى قدر ما كانت خصومتهم عنيفة وحملتهم شرسة وهجومهم ضاريا على عدد من اصدارات (المجموعة) ورمى اصحابها بالاتهامات النمطية المعروفة لدى القارىء فان ذلك لا يصرف نظرة الفطن اللبيب عن التأثيرات التى تنطبع بها محرراتهم الأخيرة ، بل إن الجرأة بلغت باحدهم وهو من اعلاهم صوتا وأوسعهم انتشارا لدى قراء الصحف اليومية مصرية أو عربية - بلغت به إلى أن يسطو على عدد من أفكار (المجموعة) وينسبها إلى نفسه تأكيدا لما يصفه به البعض مخدوعا فيه ، بالاستنارة والتفتح ، معتمدا فى ذلك على ضعف الذاكرة العامة ، متناسيا أن تاريخ الفكر سوف يضع لا محالة - فى نهاية المطاف الأمور فى نصابها الصحيح وسيحكم : من هو صاحب الريادة؟

***

وفى رأينا أن الصمت إزاء (قريش) وأغلبية الكتب النظيرة التى اخرجها افراد (الرافد) مرده إلى أن نقدها أو حتى عرضها بطريقة وان بقدر من الموضوعية أمر تنوء به اكتاف من يباشرون هذا العمل فى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية - أما المؤهلون له من الأساتذة والجامعون والأكاديميون والمتخصصون . . . الخ . فهؤلاء لهم حساباتهم ، فلو انهم قالوا كلمة انصاف فى حقها وحق اصحابها فسوف يترجم ذلك إلى أنهم

انحازوا إلى (الرافد) وحملوا بطاقة عضويته وفى هذه الحالة سوف يصبحون من (المغضوب عليهم) .

وهم يفرون من ذلك لانه سيؤدى بطريقة الحتم واللزوم إلى حرمانهم من الكثير الذى لا طاقة لهم بمفارقته . . أو سيحول دون مطامحهم وان شئت قلت : مطامعهم التى يحلمون يقظة ومناما بتحقيقها على أرض الواقع . . ونحن لا يعنينا الصمت لأننا على ثقة كاملة بما نقدم عليه وننجزه وان دواعى الصمت موقوتة . . وانه فى نهاية الشوط : ﴿فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض﴾ ١٧/ الرعد .

***

وخلال العامين اللذين مضيا ، لم نكف عن الحفر والتنقيب والبحث والدراسة فى مادة الكتاب وما يحف بها لأن هذا الموضوع ككل يشغل حيزا وسيعا من تفكيرنا ومن ثم ففى هذه الطبعة سوف يجد القارىء العديد من الاضافات التى تتراوح ما بين فقرة قصيرة أو طويلة وفصل كامل وبعضها على قدر ملحوظ من الاهمية وقد ساعدت هذه الزيادات كثيرا على اضاءة جوانب كانت متوارية أو لم تستوف حظها من التبيين .

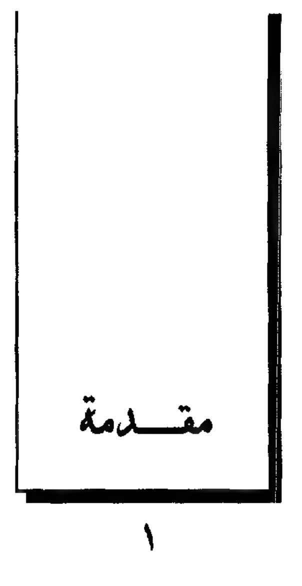
ولكن أبدا لم نحذف أو نعدل شيئا مما جاء فى الطبعة الأولى إذ عقب المراجعة المتأنية وإعادة القراءة وترجيع المطالعة تأكد لنا أن المحور الذى يدور عليه الكتاب صحيح ولا يحتاج إلى حذف أو تعديل ونأمل أن تنال هذه الطبعة (الثانية) من القبول والحفاوة ما لقيته الطبعة الأولى ، وبالله وحده التوفيق .

خليل عبدالكريم

الدقى

١٢ من ذى القعدة ١٤١٦هـ

٣١ من مارس ١٩٩٦م



مقـــدمة

١

فى سقيفة بنى ساعدة اجتمع المهاجرون والأنصار لبحث مسألة من يخلف محمداً - صلى الله عليه وسلم - فى الرئاسة بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً ، (فتكلم أبو بكر وكان رشيداً فقال : نحن قريش والأئمة منا[١] ، وعندما احتدم النقاش بين الفريقين استطرد رضوان الله تعالى عليه قائلاً : ولن تعرف العرب الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : هذا الشأن بعدى فى قريش[٢] ثم التفت إلى أحد زعماء الأنصار وهو بشير بن سعد رضى الله عنه ، وقال له : نشدتك الله هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الأئمة من قريش؟ فقال - أى بشير - اللهم نعم[٣] ، وقبل ذلك أورد البلاذرى بسنده : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى عمر ابن الخطاب أبا عبيدة بن الجراح ، فقال له : ابسط يدك نبايعك[٤] . ومعلوم أن عمر بن الخطاب قرشيّ ، وأبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه

---

(١) أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذرى فى **أنساب الأشراف** ، الجزء الأول ، ص ٥٨٣ . تحقيق د . محمود حميد الله ، نشره معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٥٩م .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٨٤ .

(٣) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٥٧٩ .

كذلك من قريش ، فالمبايع - بكسر الياء - والمبايع - بفتحها - كلاهما من قريش . ولما تمت البيعة إلى أبي بكر رضى الله عنه ، كان فى نفس على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - منها شيء ، فتوجه إليه أبو عبيدة - رضى الله تعالى عنه - منطلقا وقال : يا ابن عم إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك - أي مشيخة قريش - ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالاً ، فسلم لأبى بكر هذا الأمر ، وإنك إن تعش ويطل بقاؤك ، فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق[٥] ولكن علياً كرم الله وجهه - لم يرضه ذلك التلطف من جانب أبي عبيدة - رضوان الله عليه - فثار ثائر على وقال : يامعشر المهاجرين لاتخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم وتدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه ، فوالله يامعشر المهاجرين لنحن أحق الناس به ، لأننا أهل بيته[٦] . هكذا أفصح على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - أن الخلاف كان على سلطان محمد - عليه الصلاة والسلام - وأن أحق من يخلفه في هذا السلطان هم أهل بيته .

عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه فور - سماعه خبر وفاة النبى - صلوات الله وسلامه عليه - بادر بمبايعة رجل من قريش ، هو أبو عبيدة ابن الجراح - رضى الله عنه ، وأبو بكر - رضى الله عنه بدوره يرشح رجلين من قريش ويقول : إن تطيعوا أمرى تبايعوا أحد هذين الرجلين :أبا عبيدة وكان عن يمينه ، أو عمر بن الخطاب وكان عن يساره[٧] ويقرر فى حسم أن قريشاً وحدها هى صاحبة الحق فى هذا الأمر ، ويذكر الأنصار بما

(٥) د . محمد حسين هيكل فى **الصديق أبو بكر** ، ص ٦٤ ، الطبعة السابعة ، دار المعارف بمصر .

(٦) المرجع نفسه ، ص ٦٥ .

(٧) البلاذرى فى **أنساب الأشراف** ، ص ٥٨٢ مرجع سابق .

قاله رسـول الله - عليه السلام- : هذا الشأن بعدى فى قريش والأئمة من قريش ، وعندما يتباطأ على - كرم الله وجهه - ينطلق إليه أبو عبيدة - رضى الله عنه - ويخبره أن تولية أبى بكر - رضى الله عنه - الخلافة ، كان عن رأى مشيخة قريش أصحاب الخبرة والتجربة ، وأنه إذا طال عمره فستؤول إليه - إلى على رضى الله عنه - أى أن أبا عبيدة - رضوان الله تعالى عليه - كان على يقين جازم أن السلطان لن يخرج من قريش ، ولن يفلت من يدها .

٢

فى المسألة المعروفة بـ (جمع القرآن) ، الذى بدأ فى خلافة الصديق - رضى الله عنه - وانتهى فى عهد إمارة مروان بن الحكم ، على المدينة المنورة .

لما توفيت حفصة ، أرسل إلى عبد الله بن عمر أخيها ليرسلن بها ، أى بالصحف التى لديها ، فساعة رجعوا من جنازة حفصة ، أرسل بها عبد الله بن عمر ففشاها وحرقها ، مخافة أن يكون فى شىء من ذلك اختلاف لما نسخ عثمان - رحمة الله عليه)[٨] . وكان عثمان - رضى الله عنه - قد انتهى إلى كتابة (المصحف الإمام) ، ووزع عدداً من النسخ على الأقاليم ، واستبقى إحداها فى المدينة . فى هذه المسألة نرى عمر بن الخطاب - رضوان الله تعالى عنه - يقول : لا يملين فى مصاحفنا إلا غلمان قريش)[٩] . كذلك (أرسل عثمان إلى زيد بن ثابت وسعيد بن

(٨) الإمام أبو بكر بن عبد الله بن داود سليمان شعث السجستانى فى **كتاب المصاحف** ، ص٢٨ ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

(٩) الإمام شهاب الدين القسطلانى ٨٥١/ ٩٢٣ هـ فى **لطائف الإشارات لفنون القراءات** ، الجزء الأول ، ص٦٢ ، تحقيق وتعليق الشيخ عامر السيد عثمان ود . عبد الصبور شاهين ، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م . (نشرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ،مصر) .

العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وعبد الله بن الزبير ، أن انسخوا الصحف فى المصاحف ، قال للرهط القريشيين الثلاثة : ما اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم .(١٠)

على الرغم من أن زيد بن ثابت - رضوان الله تعالى عليه - تربى فى كنف الوحى ، إذ كان عمره إحدى عشرة سنة حين مقدم النبى - صلى الله عليه وسلم - المدينة المنورة ، فقالوا : يارسول الله ، هذا غلام بنى النجار ، وقد قرأ - أى حفظ - مما نزل عليك سبع عشرة سورة ، فقرأ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ذلك فأعجبه ذلك ، ويروى الذهبى أن ابن عمر قال يوم مات زيد بن ثابت رحمه الله ، فقد كان عالم الناس فى خلافة عمر وحبرها ؛ ويروى ابن سعد ، أن سليمان بن يسار (٣٤ - ١٥٠هـ) قال : ما كان عمر ولاعثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحداً فى القضاء والفتوى والفرائض والقراءة ، ويروى أن عامراً الشعبى قال : غلب زيد بن ثابت الناس بالقرآن والفرائض ، وهو - إضافة إلى ذلك - كان يحفظ القرآن ويقرأه بالعرضة الأخيرة ، التى عرض بها جبريل عليه السلام القرآن على النبى - صلى الله عليه وسلم - فى العام الذى قبض فيه ، وقد ظل زيد مترئسا بالمدينة ، فى القضاء والفتوى والقراءة والفرائض فى عهد عمر وعثمان وعلىّ فى مقامه بالمدينة وبعد ذلك خمس سنين ، حتى ولى معاوية سنة أربعين ، فكان أيضا حتى توفى سنة خمس وأربعين .(١١)

وكان زيد يكتب لرسول الله ص الوحي وغيره . . واستخلفه عمر

---

(١٠) **لطائف الإشارات لفنون القراءات** ، مرجع سابق ، ص٢٦ .

(١١) **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لعز الدين بن الأثير الجزري ، تحقيق وتعليق محمد ابراهيم البنا وآخرين ، ص ٨٧٢ ، ٩٧٢ من المجلد الثاني ، طبعة الشعب بمصر .

على المدينة ثلاث مرات في الحجتين وفي خروجه إلي الشام وكان عثمان يستخلفه أيضا على المدينة إذا احتج . . وروى حميد الأسود عن مالك بن أنس قال : كان إمام الناس عندنا - يعني المدينة - بعد عمر زيد بن ثابت .[١٢]

وروى عنه من الصحابة : ابن عمر ، وابوسعيد ، وابوهريرة ، وأنس ، وسهل بن سعد ، وسهل بن حنيف وعبدالله بن يزيد الخطمي ومن التابعين : سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وسليمان بن يسار وأبان بن عثمان وخارجه . .[١٣]

ولكن كل هذه الصفات الفريدة التى تميز بها الصحابى العالم بالقراءة زيد بن ثابت - رضوان الله عليه - والتى رفعت مكانته إلى درجة عالية لاتقاس بها صفات سعيد وعبد الرحمن وعبد الله بن الزبير - رضى الله عنهم - فى هذا المضمار ، لم تؤهله لأن يكون الحكم ، وتغدو كلمته هى الفاصلة عند الاختلاف ، لأنه غير قرشى ، والباقون من قريش ، أى أن المعيار الذى وضعه الخليفة عثمان ذو النورين - رضى الله عنه - فى هذه القضية ليس معياراً علمياً ، ولكنه سياسى بالدرجة الأولى .

وكان عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - من أعيان علماء الصحابة ، وبعد وفاة الرسول - عليه الصلاة والسلام - رحل إلى الكوفة ، وأخذ يفيض هناك على المسلمين من علمه الذى نهله من

---

(١٢) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ، لأبي عمر يوسف ، بن عبدالبر ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ص ٨٣٥ ، ص ٩٣٥ ، المجلد الثاني ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، دار الجيل ، بيروت .

(١٣) غانم قدور الحمد فى **رسم المصحف - دراسة لغوية وتاريخية** ، ص١١٢ ، ١١٣ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م من منشورات اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجرى ،بغداد ، العراق ، والكتاب عبارة عن رسالة ماجستير قدمت إلى قسم اللغة العربية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ، نوقشت يوم ٣٠/ ٩/ ١٩٧٦ أمام لجنة بإشراف د . عبد الصبور شاهين .

الرسول ، عليه السلام ، وأسس فيها - أى فى الكوفة - مدرسة مرموقة لها تاريخ ناصع بين مدارس العلم الإسلامى بعمومه ، وقد كان [فى الكوفة ستون شيخاً من أصحاب عبد الله بن مسعود ، وكان فى بنى ثور الذين نزلوا الكوفة ثلاثون رجلا ، مافيهم دون الربيع بن خيثم المشهور بعبادته وورعه وعلو مكانته فى الحديث ، وكان فيها كميل بن زيد النخعى ، وعامر بن شراحيل الشعبى ، وسعيد بن جبير الأسدى ، وإبراهيم النخعى ، وأبو إسحق السبيعى ، وعبد الملك بن عمر ، وغيرهم](١٤) .

وقال رسول الله ص في حقه (انك غلام معلم) واصطفاه الرسول لنفسه واختص به دون غيره حتى ظن بعض الصحابة أنه من أهل بيت النبوة وقال الرسول ص (من أحب أن يقرأ القرآن غضا طريا - كما انزل فليقرأه على قراءة أم ابن عبد - أي بن مسعود - رواه ابن شيبه في «مصنفه» واحمد في «مسنده» وورد في (صفة الصفوة) وبعثه عمر بن الخطاب إلى العراق وكتب لأهله أما بعد : فاني قد بعثت اليكم عمارا أميرا وعبدالله بن مسعود معلما ووزيرا وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ص ، وكان ابن مسعود يقول عن نفسه : لقد علم أصحاب رسول الله اني اعلمهم بكتاب الله . . . سلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا أنا أعلم بليل نزلت أم بنهار . . في سهل نزلت أم في جبل .(١٥)

هذا الصحابى العالم - عبد الله بن مسعود - رضوان الله تعالى عليه

(١٤) محمد عجاج الخطيب الأستاذ بكليتى الشريعة والتربية بجامعة دمشق ، فى **السنة قبل التدوين** ، الصفحة ١٦٧ ، الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت-لبنان . وقد رجع الباحث فى هذه الخصوصية إلى كل من : الباقلانى والذهبى وابن عبد البر وابن سعد .

(١٥) **موسوعة الفقيه عبدالله بن مسعود** ، تجميع د . محمد رواس قلعه جي ، بتصرف ص٧ ، ٨ ، ٩ من المقدمة ، الطبعة الثانية ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، دار النفائس ، لبنان .

- عندما سمعه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه يقرأ (عتى حين) أى (حتى حين) ، وهى جزء من الآية ١٧٤ من سورة الصافات ، أنكر عليه ذلك [وكتب إليه : إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، وهى قبيلة عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - فأقرئ الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، وكان ذلك قبل أن يجمع عثمان - رضى الله تعالى عنه - الناس على قراءة واحدة][١٦] ، أى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يرى أنه ليس من حق مسلم أن يقرأ القرآن إلا بلهجة قريش ، على الرغم من وجود حديث صحيح ومشهور (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ماتيسر منه) . . ويؤكد د . عبد الصبور شاهين أن (هذا الحديث ورد إلينا عن طريق أربعة وعشرين صحابياً ، منهم أبىّ بن كعب ، وأنس ابن مالك ، وعبد الله بن عباس ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر . . . إلخ][١٧] ، إن عمر بن الخطاب أنكر على عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قراءة القرآن بلهجة هذيل ، مع وجود الرخصة التى حملها الحديث الشريف ، الذى كان هو - أى عمر رضى الله عنه - أحد رواته ، وأمره بحزم ، بضرورة القراءة بلغة قريش ، حتى لايكون لها أى منافس ، لا هذيل ولا غيرها ، وليزداد الناس التفافاً حولها ، وهذا منزع سياسى لحماً ودماً .

فما الذى دعا كلاً من عمر وعثمان - رضى الله عنهما - للحرص على أن يدّون المصحف بلغة قريش ، ألأن القرآن هو دستور الإسلام؟[١٨]

---

(١٦) الإمام ابن حجر العسقلانى فى **فتح البارى شرح صحيح البخارى** ، الجزء العاشر ، ص٤٠٢ .

(١٧) د . عبد الصبور شاهين فى **تاريخ القرآن** ، ٢٢ ص ٢٥ ، من سلسلة « دراسات فى القرآن والعربية» الطبعة الأولى ١٩٦٦م ، دار القلم بالقاهرة .

(١٨) **الدستور** كلمة فارسية معربة ومعناها القانون الأساسى .

وكتابه الأعظم وعموده الفقرى؟ ؛ أم لأنه السند والركيزة والعماد لدولة قريش التى قامت فى يثرب؟ .

أما القول بأن القرآن نزل بلغة قريش ، فإن أساتذة علوم القرآن لهم رأى مخالف ، فعلى سبيل المثال [قال أبو بكر الواسطى فى كتابه «الإرشاد فى القراءات العشر» : فى القرآن خمسون لغة ، ثم قام بتعدادها ، وأضاف : ومن غير العربية : الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريانية والعبرانية والقبط][19] . بل إن الإمام السيوطى ذكر فى النوع الثامن والثلاثين فيما وقع فى القرآن بغير لغة العرب ، ما استغرق من كتابه (الإتقان فى علوم القرآن) أكثر من سبع صفحات من القطع الكبير . الإمامان الواسطى والسيوطى - طيب الله ثراهما - من كبار علماء علوم القرآن كما رأينا ، يؤكدان أن القرآن نزل بلغات عديدة ، أو لهجات عديدة ، أو ألسنة عديدة منها ماهو خارج عن نطاق اللغة العربية ، لسان أهل شبه الجزيرة العربية ، إذن فلابد أن الدافع الذى حفز كلاً من عمر وعثمان - رضى الله عنهما - إلى الإدلاء بتينك المقولتين ، هو دافع سياسى بحت .

٣

ضرب الخليفة الثانى عمر بن الخطاب - رحمه الله تعالى - مثلاً فريداً فى عدل الحاكم ، و[انطلق يحقق الرخاء لرعيته فى ظل ظليل من العدل والمساواة والأخوة الإنسانية] .[20] و[كفل للناس حرية العقيدة وحرية الفكر ، ورعى للإنسان وقاره واحترامه وعزته وكبرياءه] .[21] و[كان

(١٩) شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشافعى المتوفى سنة ٩١١ هـ فى **الإتقان فى علوم القرآن** ، الجزء الأول ص ١٧٧ ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ نشرته مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

(٢٠) عبد الرحمن الشرقاوى فى **الفاروق عمر** ، ص ٢٩٢ الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر بمصر .

(٢١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

عادلاً لأنه قوى ومستقيم بتكوين طبعه ، وإن شئت فقل أيضا بتكوينه الموروث] . .[22] ولا يختلف اثنان على عدل عمر ، ويخرج عن نطاق بحثنا ، سوق أمثلة على التزامه الصارم بالعدل ، ولكن عندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسى - لعنه الله تعالى - وأخذ رأيه فيمن يخلفه قال : [ما أجد أحق بهذا الأمر ، من هؤلاء الرهط الذين توفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو عنهم راض ، فسمّى علياً وعثمان وطلحة وسعداً وعبد الرحمن والزبير ، وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له فى هذا الأمر شئ][23] ، وقال لأبى طلحة الأنصارى : يا أبا طلحة إن الله - عز وجل - طالما أعز الإسلام بكم ، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار ، فاستحث هؤلاء الرهط ، حتى يختاروا رجلاً منهم ، وقال لصهيب : صل بالناس ثلاثة أيام ؛ وأوصى بأن من يخالف من هؤلاء الستة مايستقر عليه رأى الباقين (يشدخ رأسه بالسيف) وإن رضى ثلاثة منهم رجلا ً، ورضى الثلاثة الآخرون رجلاً ، فليحكموا عبد الله بن عمر ، فإن لم يرضوا بحكمه ، فيتم اختيار من ارتضاه الفريق الذى يضم عبد الرحمن بن عوف ، ثم انتهى الأمر باختيار عثمان - رضى الله عنه - خليفة . هنا نجد أن الخليفة العادل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يحدد ستة نفر ، كلهم من قريش ، ليتولى واحد منهم رئاسة الدولة من بعده ، ويضع ابنه عبد الله - رضى الله عنه - وهو قرشي ليشترك فى الاختيار ، وليصير حكماً إذا تعادلت الأصوات ، وترك عمر - رضى الله عنه - أصحاب رسول الله - عليه الصلاة والسلام - من سائر القبائل وفى مقدمتهم الأنصار (الأوس والخزرج) ، ومنهم عدد لايحصى ممن ينطبق عليه

(22) عباس محمود العقاد **من عبقرية عمر** ، ص 26 - (د . ت .) دار الهلال بمصر .

(23) الإمام البخارى فى **صحيح البخارى** ، قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضى الله عنه .

الشرط الذى حدده عمر - رضى الله عنه - وهو رضاء الرسول - عليه السلام - عنه حتى وفاته ، وهنا يحق لنا أن نسأل [عن حق هؤلاء الرهط فى تقرير مصير الخلافة دون سائر المسلمين؟ إذا كان مجرد رضا النبى عنهم - إذا فرضنا صحة ذلك ، مع أن بعض المؤرخين قد أشار إلى غضب الرسول على طلحة - كافياً لترشيحهم للشورى ، فلماذا لم يدخل عمر آخرين ، ممن كان الرسول راضيا عنهم من المهاجرين والأنصار)[٢٤] .
لايوجد نص فى القرآن الكريم أو السنة المشرفة ، يخول عمراً - رحمه الله تعالى - أن يأمر بشدخ رأس من لايوافق على ما يستقر عليه رأى الباقين ؛ ولعل مقولة عمر هذه هى التى جذّرت سنة قتل المعارضين بالسيف ، التى طبقت طوال التاريخ الإسلامى ، ومازالت سارية المفعول حتى اليوم [وهل يجيز القرآن أو سنة الرسول ، ضرب أعناق رجال من المسلمين ، لمجرد أنهم يجتهدون برأى ، يخالف رأى الرهط الذى فيه عبد الرحمن بن عوف؟ . فكيف وهؤلاء الناس من خيرة المسلمين بشهادة عمر نفسه؟][٢٥] ، لاحظ أن عمراً - رضى الله تعالى عنه - أشرك غير القريشيين فى عملية اختيار الخليفة الذى يأتى من بعده ، ولكنه - غفر الله له - أناط بهم أدواراً هامشية لاتنتهى بداهة بتنصيب واحد منهم أميراً للمؤمنين ، فقد عهد إلى صهيب - رضى الله عنه - وهو من خيرة صحابة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وممن توفى وهو عنهم راض - أتم مايكون الرضا - عهد إليه بالصلاة بالناس - والصلاة تسمى بـ (الإمامة الصغرى) . وندب أبا طلحة الأنصارى . وهو من أعيان الصحابة ، وله أياد بيضاء فى نصرة الإسلام والرسول الذى توفى وهو عنه

(٢٤) د . نورى جعفر فى **على ومناوؤه** ، تقديم عبد الهادى مسعود ، تعليق السيد مرتضى ص ٦٠ الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، نشر مطبوعات النجاح بالقاهرة .
(٢٥) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

راض ، ندبه عمر وخمسين أنصاريا ، لخفارة البيت الذى كانت تتم بين جنباته المشاورات ، ومن اللافت للنظر أن عمراً - سامحه الله تعالى وغفر له - قال لأبى طلحة الأنصارى وصحبه من الأنصار : لطالما أعز الله جل جلاله بكم الإسلام ! ! ! والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن على الفور لاعلى التراخى : لماذا - إذن - لم يُتِح عمر - رضى الله عنه - لهؤلاء الأنصار الذين طالما أعز الله بهم الإسلام ، ممارسة حقهم المشروع الذى كفله لهم الإسلام ، وهو الترشيح والاختيار فى عملية البيعة ، خاصة وأن كثيرين منهم تتوافر فيهم الشروط اللازمة للخلافة؟؟؟ إن اختيار عمر إيلاء الأمر النخبة - والنخبة صالحة للتعبير عن الأفكار والمبادئ السامية ولكنها ليست للشعب بحال ، والخلافة منصب أول فى الحكم الإسلامى فهى من حق الشعب لا من حق ستة أفراد ، ولخير ألف مرة أن تحدث أحاديث وأحداث وحوادث بسبب الشورى من أن تحدث وفاقية هشة ، تجر ذيولاً تنفث فيها الرياح ولهيب الفتن ، وإذا كانت الرسالة معصومة ، فالخلافة بشرية ، ليست لها العصمة](٢٦) .

وفى رأينا أن الذى حدا عمر بن الخطاب - غفر الله له - للعدول عن مبدأ الشورى ، وإسناد الأمر لجماهير المسلمين ، لانتخاب من يتولى حكمها ، هو التزامه القاعدة التى استقرت ، وهى وجوب أن يكون الخليفة من قبيلة قريش دون غيرها من القبائل [ومع احترامنا اختيار عمر ، إلا أنه أدى إلى كوارث وقعت على الجسد الإسلامى ، ومازالت حتى اليوم بعد أربعة عشر قرناً تفعل فعلها فى التفريق والتمزيق](٢٧) ذلك أن توازنات القوى والمصالح - داخل قبيلة قريش - دفعت إلى

(٢٦) د . على شلق فى **العقل السياسى فى الإسلام** ، ص ٣٧ الطبعة الأولى ١٩٨٥ دار المدى ، بيروت ، لبنان .

(٢٧) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

تنصيب عثمان بن عفان - رضى الله عنه - خليفة ، وهو الذى قالت فى حقه بعد سنوات قليلة الصديقة بنت الصديق ، أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها- [هذا ثوب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته][28] ، وكان هذا الاختيار فاتحة حدوث ماعرف فى التاريخ الإسلامى بـ (الفتنة الكبرى) ، التى أوجدت فى الأمة الإسلامية صدعا مازالت آثاره حية إلى اليوم ، وسوف تظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وذلك فان حزب التجار والاغنياء بقيادة بني أمية قد عاد لاستلام السلطة التي كانت في أيديهم قبل الإسلام وانتصر على حزب المستضعفين بقيادة علي بن أبي طالب ثم تكرر ذلك بصورة قاطعة عندما تسلم معاوية ذروة الخلافة مجددا بذلك قيادة أبيه - أبي سفيان - لقريش - ولا نعني بذلك غلبة الأمويين على الهاشميين نهائيا فالخلاف أو التنافس بين هذين الفرعين يخرج عن نطاق دراستنا لأننا نتناول قريش ككل لا كأجزاء وهذا الموضوع (التنافس بين الاثنين) كان ولازال موضوع شد وجذب بين المؤلفين قدامى ومحدثين .

وقد كان فى حزب الأغنياء أفراد من بطون شتى وكان قائده أبوسفيان ثم جاء عثمان ثم معاوية ولقد كان فى حزب التجار والاغنياء أشخاص من بنى هاشم منهم : نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب وابولهب والعباس ابن عبدالمطلب ، أما الأحاديث التى تذكر أن العباس كان مسلما وخرج مكرها لقتال المسلمين فى بدر فقد وضعت كما نرجح فى عهد أحفاده (العباسيين) مثل الخبر الذى ذكر عن حضور العباس مع النبي العقبة الثانية أو عقبة السبعين التى تمت فيها بيعة الحرب بين محمد والانصار

---

(٢٨) سعيد الأفغانى فى **عائشة والسياسة** ، ص ٤٤ الطبعة الأولى ١٩٤٧م ، لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ، نقلاً عن **نهج البلاغة** ، لابن أبى الحديد ، الجزء الثانى ، ص ٧٦ .

وكانت هناك صلة حميمة بين أبى سفيان والعباس استمرت بعد الإسلام - وهو الذى أخذ له الأمان من محمد عند فتح مكة مما أثار ثائرة عمر بن الخطاب - الذي كان أقرب إلي حزب المستضعفين - وحدثت بينه وبين العباس فى هذه الخصوصية مشادة لأن عمرا كان يميل إلى عقاب أبى سفيان بضرب عنقه جزاء لأفعاله فى الكيد للإسلام ومحاربته إياه .

وأيا كان الأمر فالذى لا مشاحة فيه ان إنتصار حزب الأغنياء والتجار منذ تولى عثمان الخلافة وبعد ذلك معاوية وانتقالها إلى الأمويين : سفيانيين ومروانيين ثم إلى العباسيين كان له أثر بالغ على التاريخ الإسلامى لا فى بواكيره الأولى بل على طول امتداده ولم يقتصر التأثير على الناحية السياسية فحسب بل طال النواحى الفكرية والفقهية وطبع الفقه الإسلامى بطابع خاص لم يستطع أن يتخلص منه .

وبعد هذه الاستطرادة نعود إلى السياق . . . فنقول :

٤

ترك الخليفة العادل عمر - سامحه الله - مشيخة المسلمين من كبار المهاجرين ، من غير قبيلته قريش - والأنصار وسائر القبائل ، من ذوى الأحلام والنهى والخبرة والتجربة والسبق فى الإسلام ، وحيازة شرط رضى نبى الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الذى برر به عمر اختياره الستة القريشيين - ولم يدخل أولئك حتى فى إبداء الرأى وتقديم المشورة وإسداء النصح ، فى حين أنه أشرك ابنه عبد الله - رضى الله عنه - لمجرد أنه قرشي فى المشاورة ، بل وأعطاه حق التحكيم إذا تساوت الأصوات ، ونحن نورد فيما يلى شهادة عمر - رضى الله تعالى عنه - فى ابنه عبد الله (وفى رواية أن عمرا قال : من أستخلف لو كان أبو عبيدة بن الجراح؟ فقال له رجل يا أمير المؤمنين ، فأين أنت من عبد الله بن عمر؟ . . .

فأجابه عمر : قاتلك الله ، والله ما أردت الله ، بهذا أستخلف رجلاً ليس يحسن أن يطلق امرأته ! !)(٢٩) فكيف استساغ عمر - رضى الله عنه - أن يشرك رجلا ، ليس يحسن أن يطلق امرأته فى مشاورة وتحكيم اختيار رأس الدولة ، فى وقت من أدق الأوقات التى مرت على المسلمين؟ ! كذلك نثبت توصيف عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - لملكاته وقدراته العقلية [روى أن ابن عمر - رضى الله عنه - مر بالشعبى يوماً ، وهو يحدث بالمغازى ، فقال ابن عمر : شهدت القوم وإنه لأعلم بهم منى] .(٣٠) فى حق عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - يقول الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ، شيخ مذهب الأحناف [لولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفقه من ابن عمر] .(٣١) وعلقمة هذا ، هو علقمة بن قيس ؛ من كبار فقهاء الكوفة ، ومن شيوخ أبى حنيفة ؛ ولكن ما شفع لعبد الله ابن عمر - رضى الله عنه - برغم شهادة أبيه فيه ، وتوصيفه لذاته ، وتقييم الإمام الأعظم أبى حنيفة له ، نقول . ما شفع له أنه من قريش .

ومما دونته كتب التاريخ الإسلامى ، أن طلحة - رضى الله عنه - أحد الستة الذين عينهم عمر - رضى الله عنه - كان غائبا عن المدينة آنذاك ، ومن ثم لم يشترك فى اختيار الخليفة [ثم قدم طلحة بن عبيد الله ، أحد

---

(٢٩) د . أحمد الحفناوى فى **حركات ومؤامرات مناهضة فى تاريخ الإسلام** ، ص ٩٥ ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ،جمهورية مصر العربية .

(٣٠) أبو حنيفة الدينورى المتوفى ٢٨٢ هـ فى **الأخبار الطوال** ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مراجعة د . جمال الدين الشيال ، صفحات : و ، ش من مقدمة المحقق عبد المنعم عامر ، الطبعة الأولى (د . ت) ، من سلسلة (تراثنا) نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، بالإقليم الجنوبى (مصر) بالاشتراك مع دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر .

(٣١) شيخ الإسلام الإمام أحمد بن تيمية الحرانى فى **علم الحديث** ، ص ٣١ ، تحقيق وتعليق الشيخ موسى محمد على ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ ، نشر دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيق عمر بمصر .

أعضاء مجلس الشورى من غيبته فى اليوم الذى بويع فيه لعثمان ، فقيل له : بايع عثمان فقال : أوكل قريش راض به؟ قيل : نعم][32] فالسؤال الأول الذى سأله طلحة - رضى الله عنه - بعد عودته للمدينة ، عندما طلبت منه المبايعة لعثمان - رضى الله عنه - هو : أكل قريش راض به؟ . . فهو حريص كل الحرص على استبيان موقف قريش ، ولم يقل هل الأنصار راضون به ، أو هل المسلمون جميعهم راضون به؟ .

٥

عندما انفجرت «الفتنة الكبرى» بين المسلمين ، باغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وتولى الإمام على - رضى الله عنه - الخلافة ، نازعه فيها معاوية بن أبى سفيان ، وتقابلت جيوش الطرفين فى (صفين) ، ولما لاحت بوادر هزيمة جيش معاوية ، كتب إلى عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - وكان وقت ذاك ضالعا مع أمير المؤمنين على - رضى الله عنه - ويقود ميسرة جيشه - يعرض عليه أى معاوية قسمة الإمبراطورية العربية بينهما أى بين على ومعاوية - فيكتفى معاوية بملك الشام ، ويقنع الإمام على بملك العراق لأن هذه الحرب الضروس ، سوف تفنى قريشاً وحيث لم يبق فى نظر معاوية من مشيختها ، إلا ستة نفر (وقد قنعنا بما فى أيدينا من ملك الشام ، فاقنعوا بما فى أيديكم من ملك العراق ، وابقوا على قريش ، فإنما بقى من رجالها ستة : رجلان بالشام ورجلان بالعراق ورجلان بالحجاز ؛ فأما اللذان بالشام ، فأنا - أى معاوية - وعمرو بن العاص ، وأما اللذان بالعراق فأنت - أى عبد الله بن عباس

(٣٢) الشيخ صادق عرجون فى **عثمان بن عفان** ، ص ٦٩ ، الطبعة الأولى ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧م ، من منشورات جماعة الأزهر للتأليف والنشر ، أصدرته دار التوزيع والطباعة والنشر بالقاهرة .

- وعلى ، وأما اللذان بالحجاز فسعد بن أبى وقاص وابن عمر أى عبد الله ابن عمر بن الخطاب(٣٣) ولما تلقى عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - هذه الرسالة ، سخط ، ولم يوافق معاوية على أن مابقى من قريش ستة رجال ، وفى تقديره أن قريشاً أوسع من ذلك ، وفيها من الرجال كثير ، [وأما قولك إنه لم يبق من قريش غير ستة ، فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها](٣٤) .

فهنا نجد معاوية ، كل ما أقلقه من تلك الحرب المشئومة ، أنها ستفنى مشيخة قريش وأنه لم يبق من رؤوسها ، سوى ستة نفر ، ولم يشر لامن قريب ولا من بعيد ، إلى أن تلك المعارك راح ضحيتها عشرات الألوف من المسلمين ، فيهم الصحابة والقرّاء (حفظة القرآن) والتابعون ، وأنها كلفت من الأموال والأملاك مالا يحصيه العدّ ، وأنها وهن شديد للمسلمين والإسلام ، يطمع فيهم عدوهم الذى يحيط بهم من كل جانب ، وأنها فتنة عمياء يتعين وضع حد لها ، حماية للإسلام ومستقبله ، كل هذا لم يدر بخلد ابن أبى سفيان ، إنما كان هاجسه الأول والأخير ؛ هو قريش ومشيختها ، ومن ثم اقترح على عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - قسمة الإمبراطورية بين علىّ - رضى الله عنه - ومعاوية ، الأخير يبسط يده على الشام ، يتحكم فيه كيف شاء ، والأول يتملك العراق ، وكلاهما من الذؤابة العليا من قبيلة قريش ، وبذلك لايخرج السلطان عنها ، ولايفلت زمام الحكم من يديها .

ولكن عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - يشجب هذا الاقتراح لا لأن معاوية على باطل ، فى حين أن الإمام على بن أبى طالب على حق ، وأنه الخليفة الشرعى والأحق بالخلافة من الوجوه كافة ولا بسبب أنه

(٣٣) نصر بن مزاحم المنقرى **فى وقعة صفين** ، تحقيق وشرح الشيخ عبد السلام هارون ، ص ٤١٤ ، الطبعة الثانية ١٣٨٢هـ ، نشر المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة .

(٣٤) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

لايجوز وجود إمامين فى الوقت نفسه ، إنما لأن ابن عباس - رضى الله عنه - يرى أن قريشاً فيها الكثير من الرجال ، وأن هذه الفتنة لن تقضى عليها ، فهى غنية بالشخصيات القادرة على تولى السلطان ، والتربع على كراسى الحكم (فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها) .

٦

الرأى بأن النزاع على السلطان كان بين أفراد من قريش نفسها ، لابين المسلمين ، ولم يكن بسبب حوافز دينية ، أو من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا ، أو لرفعة شأن الإسلام ، هذا الرأى لم يذهب إليه رموز قريش وحدهم ، بل فطنت إليه القبائل التى كانت فى صفوف الطرفين ؛ فعلى سبيل المثال انقسمت قبيلة (خثعم) إلى شطرين ؛ أولهما فى صف أمير المؤمنين على - رضى الله عنه - وكان على رأسه أبو كعب ، والآخر فى صف معاوية ، وكان يقوده عبد الله بن حنش الخثعمى ، وأخذ أبو كعب يقول لأصحابه : يامعشر خثعم خدموا ، أى اضربوهم فى سوقهم ، وأخذ صاحب الشام يقول : يا أبا كعب الكل قومك فأنصف ، فاشتد قتالهم ، فحمل شمر بن عبد الله الخثعمى من أهل الشام على أبى كعب رأس خثعم الكوفة ، فطعنه ، فقتله ، ثم انصرف يقول : رحمك الله يا أبا كعب ، لقد قتلتك فى طاعة قوم ، أنت أمس بى رحماً منهم ، وأحب إلى نفساً منهم ، ولكن ، والله ما أدرى ما أقول ، ولا أرى الشيطان إلا قد فتننا ، ولا قريشاً إلا قد لعبت بنا] ،(٣٥) فهنا نرى أن الخثعميين يدركون أنهم يقاتلون لحساب قريش فحسب .

ولقد تردد عمرو بن العاص فى بداية الفتنة : هل يعتزل الفريقين؟ أم ينضم إلى واحد منهما؟ فاستشار ولديه : عبد الله ومحمداً ، أما عبد الله فقد أشار عليه بالوقوف على الحياد ، وأما محمد فقال له : (أرى أنك

---

(٣٥) **وقعة صفين** ، مرجع سابق ، ص ٢٥٧ .

شيخ قريش وصاحب أمرها ، وإن تصرم هذا الأمر وأنت خامل ، تصاغر أمرك ، فالحق بجماعة أهل الشام ، فكن يداً من أياديها)[٣٦] ، هكذا أفصح محمد بن عمرو عن رأيه بصراحة تامة ؛ أنه لايجوز لأحد شيوخ قريش وسادتها ، عدم الاشتراك فى الصراع الدموى المحتدم بين أبنائها ، على سلطان قريش ، وقد وافقه على ذلك أبوه عمرو بن العاص ، إذ كيف يسوغ وهو من أعيان مشيخة قريش ، أن يلزم داره فى هذا العراك المستعر على الحكم ، إنه إذا فعل ذلك صار خاملاً أبد الدهر ، وضاع عليه نصيبه فى ذلك الملك القرشي .

هذه شواهد تاريخية حرصنا على أن تجئ موثقة أشد مايكون التوثيق الدقيق ، تقطع بأن الدولة التى قامت فى يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) ، على يد النبى العربى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى - صلى الله عليه وسلم - حوالى سنة ٦٢٤م ؛ هى دولة قريش ، التى ظلت تعمل على إنشائها منذ ما يقرب من مائتى عام ، عندما وضع لبناتها الأولى (قصيّ بن كلاب) ، حتى تحققت لها الشروط الموضوعية من الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية .

وكم كان صادقاً وصريحاً سعيد بن العاص القرشى حينما قال : (إنما هذا السواد بستان قريش) ، فقد روى الطبرى أن سعيداً هذا حين جاء والياً على الكوفة (جعل يختار وجوه الناس يدخلون عليه ويسمرون عنده ، وأنه سمر عنده ليلة وجوه أهل الكوفة منهم : مالك بن كعب الأرحبى ، والأسود بن يزيد ، وعلقمة بن قيس النخعيان ، وفيهم مالك الأشتر ، فقال سعيد : إنما هذا السواد ، بستان قريش)[٣٧] .

---

(٣٦) **وقعة صفين** ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

(٣٧) الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى **تاريخ الرسل والملوك** ، المعروف بـ **تاريخ الطبرى** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٣١٨ ، الجزء الرابع ، طبعة ١٩٦٩ ، دار المعارف بمصر .

هذا الكتاب الذى نقدمه بين يدى القارئ ، هو تبيان لإرهاصات قيام دولة قريش ، والتى وضع حجر الأساس لها ، قصىّ بن كلاب فى مكة ، ولما تحققت لها الشروط الموضوعية قامت في يثرب ، على يد حفيده محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه السلام .

خليل عبد الكريم



الباب الأول

المقدمات الذاتية

١

المؤسس الأول: قصىّ بن كلاب

مائة وخمسون عاماً انقضت، بين وضع البذرة فى الأرض، وبين حصاد الزرع وجنى الثمار، بين الحلم والحقيقة، بين رمى أحجار الأساس، وبين استكمال البناء والانتفاع به وسكناه. هذه المدة هى التى تفصل بين وفاة قصىّ بن كلاب فى الحجون فى مكة عام ٤٨٠ ميلادية، وبين قيام دولة قريش فى يثرب، على يد حفيده محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - صلى الله عليه وسلم - بدءاً من عام ٦٢٢ ميلادية، فقصى هو المؤسس الأول لتلك الدولة، فهو الذى وضع اللبنات الأولى فى صرحها ثم تابع أولاده وأحفاده من بعده، على الأخص هاشم وعبد المطلب تعلية البنيان حتى اكتمل بمعرفة حفيده محمد - صلى الله عليه وسلم - ويتعين أن نلم بسيرة قصى، لنحايثه فى خطواته، وهو يؤسس دولة قريش، ويحولها، من قبيلة مستضعفة تسكن الجبال والشعاب وأطراف مكة إلى القبيلة الحاكمة التى تمسك بزمام السلطة والثروة فى العاصمة الدينية المقدسة، وتسكن الأبطح أكرم بقاعها، وتقيم بيوتها فى الحرم ذاته، وتغدو أشرف قبائل جزيرة العرب، ويطلق على أفرادها «أهل الحرم»، ويصبح الإصهار إليهم، مكانة رفيعة تتطاول إليها أعناق شيوخ القبائل الأخرى، وكما تحيط الشعوب فى مختلف بقاع الأرض

ميلاد زعمائها وقادتها بحكايات عجيبة خارقة للمألوف : الهنود مع بوذا ، وبنو إسرائيل مع موسى ، والنصارى مع عيسى ، أحاطت قريش ميلاد قصى بأسطورة مماثلة ولكنها ساذجة تتفق مع ثقافة عرب الجزيرة آنذاك ، وسوف نرى أن الأسطورة عينها تتكرر مع حفيده عبد المطلب ، أحد الذين لعبوا دوراً مميزاً فى قيام دولة قريش .

والحق أننى لم أجد فيما قرأت عن قصى ، خيراً مما خطه الإمام محمد ابن يوسف الصالحى الشامى ، وهو من مؤرخى القرن العاشر الهجرى ، وربما أتاح له تأخره النسبى الاطلاع على كتب التواريخ والسير ، منذ عصر التدوين حتى زمانه ، فألف موسوعة ضخمة فى سيرة النبى العربى محمد - صلى الله عليه وسلم - أطلق عليها «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد» وهذا ماجاء بها عن قصى بن كلاب : (قال الرشاطى - رحمه الله تعالى - : وإنما قيل له قصى لأن أباه كلاب بن مرة كان تزوج فاطمة بنت سعد بن سيل ، لقب باسم جبل لطوله واسمه خير ضد شر ، ويقال إن سعداً هذا أول من حلى السيوف بالفضة والذهب ، فولدت له زهرة وقصيا ، فهلك كلاب وقصى صغير ، وقال السهيلى رضيع ، قال الرشاطى : فتزوج فاطمه أم قصى ربيعة بن حرام بن ضبة فاحتملها ربيعة ومعها قصى ، فولدت فاطمة لربيعة رزاحاً ، وكان أخاه لأمه ، فربى فى حجر ربيعة ، فسمى قصيا لبعده عن دار قومه ، وقال الخطابى : سمى قصياً لأنه قصا قومه أى تقصاهم بالشام ، فنقلهم إلى مكة ، وقال الرشاطى : وإن زيداً وقع بينه وبين آل ربيعة شر فقيل له : ألا تلحق بقومك؟ وعير بالغربة ، وكان لايعرف لنفسه أباً غير ربيعة ، فرجع إلى أمه وشكا إليها ماقيل له ، فقالت : يابنى أنت أكرم نفساً وأباً ، أنت ابن كلاب بن مرة ، وقومك بمكة عند البيت الحرام ، فأجمع قصى على الخروج فقالت له أمه : أقم حتى يدخل الشهر الحرام ، فتخرج فى حاج

العرب ، فلما دخل الشهر الحرام ، خرج مع حاج قضاعة ، حتى قدم مكة ، فحج وأقام ، فعرفت له قريش قدره وفضله وعظمته ، وأقرت له بالرياسة والسؤدد ، وكان أبعدها رأياً ، وأصدقها لهجة ، وأوسعها بذلاً ، وأبينها عفافاً ، وكان أول مال أصابه مال رجل قدم مكة بأدم (جلود) كثير ، فباعه وحضرته الوفاة ولاوارث له ، فوهبه لقصى ودفعه له .

وكانت خزاعة مستولية على الأبطح ، وكانت قريش تنزل الشعاب والجبال وأطراف مكة وما حولها ، فخطب قصى إلى حليل بن حبشية الخزاعى ابنته حُبَّى ، فعرف حليل نسبه فزوجه ابنته وحليل يلى الكعبة وأمر مكة ، فأقام قصى معه ، وولدت له حبى أولاده ، فلما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه ، هلك حليل ، وأوصى بولاية البيت لابنته حبَّى ، فقالت : لاأقدر على فتح الباب وإغلاقه ، فجعل ذلك إلى أبى غبشان واسمه المحترش بن حليل وكان فى عقله خلل ، فاشترى قصى منه ولاية البيت بزق خمر وقعود ، فضربت به العرب المثل فقالت : أخسر صفقة من أبى غبشان .

فلما أخذ قصى مفتاح البيت إليه ، أنكرت خزاعة ذلك ، وكثر كلامها ، وأجمعوا على حرب قصى وقريش ، وطردهم من مكة وماوالاها .

فبادر قصى فاستصرخ أخاه رزاح بن ربيعة فحضر هو وإخوته ، وكانت بنوصوفة تدفع الناس بالحج من عرفة إذا نفروا من منى ، فلم يجسر أحد من الناس أن ينفر ولا يرمى حتى يرموا ، فلما كان هذا العام فعلت بنو صوفة كما كانت تفعل ، فأتاهم قصى بمن معه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة ، فقال لبنى صوفة :نحن أولى بهذا منكم فقاتلوه ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً وكثُرَ القتل فى الفريقين فانهزمت صوفة وغلبهم على ماكان بأيديهم من ذلك ، فانحازت خزاعة وبنو بكر

عن قصى ، وعلموا أنه سيمنعهم كما منع من ذلك بنى صوفة ، وأنه سيحول بينهم وبين الكعبة وأمر مكة ، فاجتمع لحربهم ، فخرجت خزاعة وبنو بكر ، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح ، وأن يحكموا رجلا من العرب فحكموا يعمر بن عوف بن كعب المعروف بـ «الشداخ» ، فقضى بينهم بأن قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة ، وأن أى دم أصابته قريش من خزاعة ، موضوع يشدخه تحت قدميه ، وأن ماأصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وبنى كنانة ففيه الدية ، فودوا خمسمائة وعشرين دية ، وثلاثين جريحا ، وأن يخلى بين قصى وبين البيت ، فسمى يعمر بن عوف بـ «الشداخ» ، لما شدخ من الدماء ووضع .

فولى قصى أمر الكعبة ومكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، فملكوه عليهم ، ولم تكن مكة بها بيت فى الحرم ، وإنما كانوا يكونون بها ، حتى إذا أمسوا خرجوا ، لايستحلون أن يصيبوا فيها جنابة ، ولم يكن بها بيت قديم .

فلما جمع قصى قريشاً - وكان أدهى من رئى من العرب - قال لهم : هل لكم أن تصبحوا بأجمعكم فى الحرم حول البيت ؟ فو الله لايستحل العرب قتالكم ولايستطيعون إخراجكم منه ، وتسكنونه فتسودوا العرب أبداً ، فقالوا : أنت سيدنا ، ورأينا تبع لرأيك ، فجمعهم ثم أصبح فى الحرم حول الكعبة ، وكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكاً أطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، وحاز شرف مكة كله جميعا ، فسمى «مجمعاً» لجمعه قومه وفى ذلك قال الشاعر : أبوكم قصى كان يدعى مجمعاً :- به جمع الله القبائل من فهر .

وبنى دار الندوة ، والندوة فى اللغة : الاجتماع لأنهم كانوا يجتمعون

فيها للمشورة وغير ذلك ، فلا تنكح امرأة ، ولا يتزوج رجل من قريش ، ولا يتشاورون فى أمر ، إلا فى داره ، ولا يعقدون لواء حرب إلا فيها يعقدها لهم قصى ، أو بعض بنيه . قال أبو عبيدة : ولما ولى قصى أمر مكة ، قال : يامعشر قريش إنكم جيران الله وجيران بيته وأهل حرمه ، وإن الحجاج زوار بيت الله ؛ فهم أضياف الله وأحق الأضياف بالكرامة ، أضياف الله فترافدوا فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا ، ولو كان مالى يسع ذلك قمت به ، ففرض عليهم خراجاً تخرجه مرتين من أموالها ، فتدفعه إليه فيصنع به طعاماً وشراباً ولبنا وغير ذلك للحاج بمكة وعرفة ؛ فجرى ذلك من أمره حتى قام الإسلام ، قال السهيلى - رحمه الله تعالى - : وكان قصى يسقى الحجيج فى حياض من أدم ينقل اليها من بئر ميمون وغيرها خارج مكة وذلك قبل أن يحفر - العجول ، وروى البلاذرى عن معروف بن خربوذ وغيره قالوا : كانت قريش قبل قصى تشرب من بئر حفرها لؤى بن غالب خارج مكة ؛ ومن حياض ومن مصانع على رؤوس الجبال ، ومن بئر حفرها مرة بن كعب مما يلى عرفة ، فحفر قصى بئراً سماها «العجول» ؛ وهى أول بئر حفرتها قريش بمكة ، ومنها يقول رجاز الحاج :

نروى من العجول ثم ننطلق   إن قصياً قد وفى وقد صدق

بالشبع للناس ورىّ مغتبق .

ويروى أن قصيا قد أحدث وقود النار بالمزدلفة ليراها من دفع من عرفة .

وقسم قصى مكارمه بين ولده : فأعطى عبد مناف السقاية والندوة فكانت فيهم النبوة والثروة ، وأعطى عبد الدار الحجابة واللواء ، وأعطى عبد العزى الرفادة والضيافة أيام منى ، فكانوا لايجيزون إلابأمره ، ثم مات قصى بمكة ، فأقام بنوه بأمر مكة بعده فى قومهم ، ودفن بالحجون

فتدافن الناس بعده بالحجون) [١] . . ومعذرة عن طول النص ولكن فى اعتقادى أنه لازم لتوضيح قسمات المؤسس الأول لدولة قريش فى مكة أمام القارئ ، وتبيان الإجراءات التى اتخذها فى سبيل إقامتها .

أطلق الدكتور سيد القمنى على قصى لقب «دكتاتور مكة» [٢] ولكننا ، نخالفه في ذلك ؛ فـــ (هو وصف نرى أنه لاينطبق تماماً ، خاصة وأن الحياة القبلية فى الجزيرة - جزيرة العرب - كانت لاتطيق الدكتاتورية ، ولعل هذا أوضع مايكون فيما سمى بـ « أيام العرب» ؛ الذى يعد سجلاً للمعارك التى دارت بين القبائل العربية بعضها البعض ، أو بينها وبين بعض ملوك فارس ، وكان مرجعها النفور الشديد من أى ممارسة دكتاتورية ، ولو أن قصياً كان يتمتع بالشمائل التى امتاز بها مؤسسو الدول عادة من قوة الشكيمة ومضاء العزيمة ، بالإضافة إلى سعة الأفق ونفاذ البصيرة)[٣] . . ولعل القارئ قد لاحظ ماوصف به الإمام محمد بن يوسف الصالحى قصياً ، أنه كان أدهى من رئى من العرب - ولسنا فى حاجة إلى التدليل على تلك الملكات الى تمتع بها المؤسس الأول قصّى . و منعاً للإطالة ، خاصة وأن النص الذى نقلناه من كتاب « سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد » قد استغرق حيزاً كبيراً ، نكتفى فى إيجاز بالإشارة إلى الخطوات التى رسمها ونفذها قصى بدهاء شديد نحو

(١) الإمام محمد يوسف الصالحى الشامى المتوفى سنة ٤٩٢ هـ فى موسوعة **سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد صلى الله عليه وسلم** ، ص ٣٢١ / ٣٢٥ من الجزء الأول ، تحقيق د . مصطفى عبد الواحد ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، السيرة النبوية ، الكتاب السابع والعشرون ، ويطلق عليها « السيرة الشامية » .

(٢) د . سيد القمنى فى **دور الحزب الهاشمى والعقيدة الحنفية فى التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية** ، بحث نشر بالعدد التاسع من مجلة الماستر «مصرية» .

(٣) خليل عبد الكريم فى **الدراسة التى أثارت السلفوية الحديثة** ، الجزء الثانى والأخير ، مقال نشر ، ص ٦٥ من العدد ٥٢ من مجلة «أدب ونقد» ، نوفمبر ١٩٨٩ م .

تحويل قريش من قبيلة مشتتة ومتفرقة لامكان لها إلاروؤس الجبال ، إلى قبيلة قوية تسكن أحسن بقعة فى مكة ؛ وهى «الأبطح» ، والاتجاه إلى تكوين أول دولة عربية فى وسط شبه جزيرة العرب :

(أ) أول مافعله قصى هو أنه أصهر إلى رأس قبيلة خزاعة وسيد مكة ، صاحب ولاية الكعبة حليل بن حبشية الخزاعى فى ابنته «حبًّى» ، ثم توصل إلى ولاية الكعبة ؛ البيت الحرام الذى تعظمه قبائل جزيرة العرب على بكرة أبيها ، وكان القسم به هو اليمين الحاسمة التى يحرم الحنث فيها :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

ولما أدركت خزاعة خطورة هذا الأمر ، لأن الذى يمسك بولاية الكعبة يحكم مكة ، عزمت على قتاله فاستعان بأخيه من أمه رزاح بن ربيعة فأعانه وإخوته على ذلك ، ثم إنتزع من بنى صوفة الوظيفة الدينية التى كانت بيدهم ؛ وهى دفع الحجاج من عرفة بعد معركة طاحنة ، وقصى (هو أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم) [٤] ، وهيمن على حجابة البيت وسقاية الحجاج والرفادة ، وفرض على قريش خراجا تدفعه إليه من أموالها ، فيصنع به طعاماً وشراباً للحجاج فى مكة وعرفة ، وهو لم يكتف بذلك ، بل حفر بئراً سمَّاها «العجول» ، لسقى الحاج والمعتمر ، كما أمَر بإيقاد النيران على جبال ومرتفعات المزدلفة ، ليراها من دفع من عرفة ، كل هذا يدل على أن قصياً أولى « الحج » عناية فائقة ؛ لأنه الملتقى السنوى لقبائل جزيرة العرب كافة ، من شتى أقطارها ، وفيه تروج التجارة وتنعقد عدة «أسواق» قرب مكة وماحولها ، مثل سوق عكاظ وذى المجنة ، وفيها - علاوة على التجارة - كان يتبارى الشعراء فى عرض

(٤) محمد رضا فى كتابه **محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم** ، صفحة ١٢ (د . ت .) . . نشر مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر .

قصائدهم ، فالحج إذن موسم دينى تجارى ثقافى ، وكانت ممارسات قصى تلك التى ذكرناها ، بمثابة إعلان منه للعرب ، أن دولة مركزية قامت فى مكة ، وإعلام أن قريشاً تحولت من قبيلة مستضعفة إلى دولة تحكم البيت الحرام ، وفى سبيلها إلى حكم الجزيرة كلها ، عن طريق جمع شمل كل القبائل تماما مثلما للفرس دولة وللروم دولة . وثمة ملاحظة فى هذا المقام وهى أن هذه الخطوة المبكرة من قبل قصى فى الاهتمام بشعيرة الحج وهى من الشعائر القليلة - إن لم تكن الشعيرة الوحيدة التى كانت موضع إجماع من قبائل الجزيرة حتى تلك التى كان يفشو فيها دين سماوى مثل اليهودية والنصرانية - هذه الخطوة المبكرة من قبل قصى كانت الالتفاتة الأولى لأهمية «المقدس» ، و استخدامه كمدماك لشد أزر «الدولة» ، وهو ماسيواصل العمل به والسير فى طريقه ، أحفاده من بعده باقتدار عجيب .

(يهتم علم الإجتماع الدينى اهتماماً كبيراً ، بدراسة العلاقة بين الدين وبعض مجالات الحياة الاجتماعية ؛ كالعلاقة بين الدين والنظام الاقتصادى ، والكنيسة والدولة ، والدين والسياسة ، والدين والأسرة . . . إلخ) . .(٥) وكانت وجهة نظر علماء الأنثر وبولوجيا ؛ هى تبيان وظيفة الدين فى المجتمعات القديمة أو البدائية أو اللاكتابية أو الأمية سواء ، فى البنى التحتية أو البنى الفوقية (ولقد أوضع الأنثر وبولوجيون اللاحقون أمثال مالنوفسكى وراد كليف براون فى دراساتهم الحقلية ، أن الدين يمارس وظيفة هامة فى المجتمعات البدائية ؛ هى تدعيم التماسك الاجتماعى وضبط سلوك الأفراد) . .(٦) هذا هو أثر الدين فى الأنساق

---

(٥) د . محمد محمود الجوهرى فى **المدخل إلى علم الاجتماع** ، ص ٣٨٩ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ، دار الثقافة ، للنشر والتوزيع ، القاهرة .

(٦) بوتمور فى **تمهيد فى علم الاجتماع** ، ترجمة نخبة من أساتذة علم الاجتماع بالجامعات المصرية ، ص ٣١٣ ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٣ ، دار المعارف بمصر .

الاجتماعية القاعدية ، ولكن ماهو أثره على البنى السلطوية؟ أو بمعنى آخر ماهى العلاقة بين الدين والسلطة؟ وماهو موقع استراتيجية المقدس من استراتيجية السلطة؟

(المقدس هو أحد أبعاد الحقل السياسى ، ويمكن أن يكون الدين أداة للسلطة ، ضمانا لشرعيتها ، وإحدى الوسائل المستخدمة فى إطار المنافسات السياسية)[٧] ، وقد أوضحت الدراسات التى أجريت على كثير من المجتمعات القديمة (أن البنى الطقسية والبنى السلطوية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ، وأن ثمة اتصالاً بين ديناميـاتهما الخاصة)[٨] ، و(أن السلطة السياسية تملك السيطرة العامة على المقدس ، وتستطيع استخدامه لصالحها فى جميع الأحوال)[٩] . إذن بدأ قصى فى السير فى طريق استخدام الدين ، واستثمار المقدس فى أمرين :

(أ) نشر التماسك بين قبائل العرب عن طريق شعيرة الحج ، باعتبارها الشعيرة المجمع عليها من القبائل كافة بخلاف الأصنام التى كانت تتعدد فيها ، ثم الانتقال من وتيرة التماسك ، إلى مرحلة التوحيد تحت هيمنة قريش .

(ب) توظيفه كرافعة شديدة الفعالية ، وذات أثر سحرى فى النفوس فى يد السلطة ، والإلحاح على هذه الدعوى حتى ترسخت ، وأصبح القرشيون ذاتهم شخوصاً مقدسة ، أو - على أقل القليل - تخالطهم قداسة ملموسة ، ومن ثم أطلق عليهم «أهل الحرم» . ومن البدهى أن شيخهم أو رئيسهم يتمتع بقدر أوفر من القداسة ، ولذلك ليس اعتباطا

---

(٧) جورج بالانديه فى **الأنثروبولوجيا السياسية** ، ترجمة جورج أبى صالح ، ص ٩٣ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ م ، منشورات مركز الإنماء القومى ، بيروت .

(٨) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٩) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

ماقاله المؤرخون عن قصى «كان أمره فى قريش فى حياته ومن بعد موته كالدين المتبع ، فلا يعمل بغيره» ، وصار توظيف الدين سنة من بعده ، اتبعها أبناؤه وأحفاده بذكاء بالغ .

ثانيا : جمع بطون أفخاذ قبيلة قريش التى كانت مستضعفة ومشتتة تسكن الشعاب ورؤوس الجبال وأطراف مكة ، وأتاح لها سكنى أشرف بقعة فى البلد الحرام «الأبطح» ، ومن ثم سمى «مجمعا» ، وبعد ذلك خطا خطوة جريئة ؛ وهى أنه أمرهم أن يبنوا بيوتهم فى الحرم ، وحول البيت ، وعلله بجملة وردت على لسانه كشفت عما كان يخطط له ؛ وهى قوله «فو الله لا تستحل العرب ، قتالكم ، ولايستطيعون إخراجكم فتسودوا العرب أبدا» ، فأجابوه لذلك ، وسيادة قريش لكل العرب كان هو الهاجس الأقوى الذى ملك على قصى لبه وعقله وكل تفكيره ، والهدف الذى نذر حياته له ، ومن ثم أخذ يحكم التدبير له ، ثم أكمل الخطة من بعده ، أولاده وأحفاده ، والسيادة على عرب الجزيرة لاتتم إلا بإنشاء دولة مركزية فى مكة على غرار الروم والفرس .

ثالثا : بنى قصى دار الندوة وفيها كانت تتم المشاورات ، لابين شيوخ قريش فحسب ، بل بين شيوخ القبائل الأخرى (فكان بيته عبارة عن «ناد للعرب» ، بل ملجؤهم فى جميع المشكلات ، سواء كانت هذه المشكلات قومية أو شخصية)[١٠] ولم تكن دار الندوة للشورى فقط ، بل كانت جميع الأمور الهامة تتم بين جدرانها : عقد ألوية الحرب ، خروج قوافل التجارة ، إبرام عقود النكاح ، وبذلك عدت دار الندوة مقراً للحكم المركزى الوليد ، إذ لم يحدثنا التاريخ العربى عن دار مثلها فى أى بقعة فى

---

(١٠) محمد رضا فى ، **محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم** ، مرجع سابق ، الصفحة ذاتها .

جزيرة العرب ، وهذا كله يفسر لنا المقولة التى كررها الإخباريون كثيراً عن قصى أنه «أول من أصاب ملكاً أطاع له به قومه» .

وهذا ما أجمع عليه الاخباريون بلا خوف .

فكان قصي أول رجل من بني كنانة أصاب ملكا وأطاع له قومه فكانت له الحجابة والرفادة والسقاية والثروة واللواء والقيادة فلما جمع قصي قريشا بمكه سمي مجمعا .(١١)

(١١) أبو الوليد محمد الارزقي ، **أخبار مكه وما جاء فيها من الاثار** ، تحقيق رشدي صالح ، الجزء الأول ، ص ٧٠١ ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، دار الأندلس ، بيروت .

٢

الخلائف يواصلون المسيرة

أولاً : هاشم : يوضح القسمات

من عادة العرب أن يختص الأب ابنه الأكبر ، بكرائم ماخلفه من منصب أو جاه أو غيره على سائر أبنائه ، باعتباره «ولى العهد» ، ولازالت هذه العادات متأصلة فى المجتمع العربى حتى الآن ، وهى ليست مقصورة على العرب وحدهم ، بل إنها موجودة فى كثير من المجتمعات ، ويطلق عليها علماء الاجتماع «التعاقب» ؛ وهو انتقال حقوق المنصب والدرجة والجاه والوضع ، ويؤكد د . مصطفى الخشاب أن بقايا هذه الظاهرة (ورواسبها موجودة فى كثير من المجتمعات المعاصرة مثل وراثة المهنة والوضع الاجتماعى ووراثة الفرق الدينية ومشايخ الصوفية والطوائف الحرفية وماإليها) (١) .

وجرياً على هذه القاعدة جعل قصى إلى بكره عبد الدار : الحجابة والرفادة والسقاية واللواء والندوة ، ويرى الإخباريون أنه فعل ذلك حتى يسامى عبد الدار إخوته فى الشرف ؛ إذ أنهم فى حياة أبيهم ارتفعت مكانتهم الاجتماعية فى قريش دونه ، ولم يستطع هؤلاء أن يعارضوا

---

(١) **معجم العلوم الاجتماعية – مادة «تعاقب»** ، ص ١٥٣ ، مرجع سابق .

أباهم صاحب الكلمة النافذة ، خاصة وأن ذلك كان تقليداً عربياً مستقراً كما ذكرنا ، ولكن الجيل الذى خلفهم ، تمرد على هذا الوضع وثار عليه ، بعد أن انتقلت تلك المآثر التى اختص بها قصى عبد الدار إلى بنيه من بعده ، ويبدو أنه ورثهم معها الخمول وعدم نباهة الذكر ، ولذلك فإن هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بن عبد مناف أجمعوا أن يأخذوا من بنى عبد الدار بن قصى ماكان قصى جعله إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة ورأوا أنهم أحق بها منهم لشرفهم عليهم ، وفضلهم فى قومهم ، وكان الذى قام بأمرهم هاشم بن عبد مناف)[٢] . انقسمت قريش إلى ثلاثة فرقاء :

أولهم انحاز إلى بنى عبد الدار ، والآخر إلى بنى عبد مناف ، والثالث وقف على الحياد ، وسمى بنو عبد مناف ومن والاهم بـ «المطيبين» ، وسمى بنو عبد الدار ومن آزرهم بـ «الأحلاف أو لعقة الدم» واستعد كل فريق لحرب الآخر ، ولكنهم أخيراً تداعوا إلى الصلح واتفقوا على أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة ، والباقى يظل فى أيدى بنى عبد الدار .

لقد أمعنت النظر فى هذه القسمة ، وتساءلت : كيف يترك ل «بنى عبد الدار» وهم الأقل شرفاً والأخفض مكانة والأدنى منزلة ، الوظائف السياسية والعسكرية الهامة مثل : اللواء والندوة ، ويكتفى «بنو عبد مناف» بـ «الرفادة والسقاية» وهما عملان أصغر مرتبة ، ولا يدخلان فى بابى السياسة والحرب ، وفيم إذن كان الشقاق الذى كاد أن يرتفع إلى حد امتشاق السيوف وإراقة الدماء ؟؟؟

توصلت إلى إجابة لعلها تكون صحيحة :

بادئ ذى بدء ، المجتمع العربى فى الجزيرة كان ولا يزال حتى الآن وإن

---

(٢) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، الجزء الأول ، ص٥٦ ، مرجع سابق .

بصورة أبهت [٣] ، يقدر الكرم ، ويعتبره فضيلة يعلى من شأن من يتحلى بها ويضعه فى مكان أعلى ، والسقاية والرفادة وظيفتان لحمتاهما الجود ، وسداهما البذل والعطاء ، ومن ثم فإن القائم بهما تلهج بذكره والثناء عليه ركبان الحجيج والمعتمرين .

هذه واحدة .

أما الأخرى ، فهذان العملان يتصلان مباشرة بشعيرة الحج التى تقدسها العرب ، وتؤديها قبائل شبه الجزيرة العربية كافة ، بمقولة إنها من إرث إبراهيم وولده إسماعيل ، الجد الأعلى للعرب المستعربة ، حتى القبائل التى فشت فيها اليهودية والنصرانية يحدثنا الإخباريون ، أنها كانت تحج .

الحج فريضة دينية ، والدين رافعة من أهم الروافع التى أولاها مؤسسو دولة قريش عناية فائقة ورعاية مكثفة وقد بدأ هذا الاتجاه «قصى» ؛ المؤسس الأول كما فصلنا القول ، فلما انتقلت الراية إلى هاشم ، سار على الدرب نفسها ، وتعمق على يد عبد المطلب وازداد ضوحاً ، بل أصبح (الدين) هو الفعالية الأولى ، لإنشاء دولة قريش على يد الحفيد محمد عليه السلام ، من هذا المنطلق كان رضاء هاشم قائد بنى عبد مناف ب «السقاية و الرفادة» .

أما اللواء ، فإن قريشاً قبيلة تجارة فى المقام الأول ، وإن نبغ فيها أبطال حرب قبل الإسلام وبعده . أما الندوة ، فسوف نعرف فيما يلى أن هاشماً وضع يده عليها فى هدوء ودون جلبة ، واتخذها مقراً للحكم كما كان يفعل جده «قصى» ، هذا بالإضافة إلى أن دار الندوة ، وإن كانت مملوكة لبنى عبد الدار فهى مشاع لمشيخة قريش يجتمعون فيها ، بل إن بعض الباحثين يرى أنها كانت نادياً للعرب جميعهم [٤] .

---

(٣) الحجاج والمعتمرون يتعرضون حالياً فى مكة والمدينة إلى استغلال واستنزاف بشعين .

(٤) محمد رضا ، **محمد رسول الله** ، ص ٢٢ ، مرجع سابق .

أما الحجابة ، فهى أشبه بالعمالة الإدارية ، حقيقة إن من يتولاها تكون فى يده مفاتيح الكعبة ، كعبة مكة ؛ أقدس الكعبات فى الجزيرة العربية آنذاك ، ولكن فتح الكعبة وغلقها ، مسألة ليست ذات خطر ، فالطواف حولها ، والدعاء عندها ، والذبح للأصنام والاستقسام بالأزلام بجوارها ، كل ذلك كان يتم سواء كانت مفتوحة أو مغلقة ، رضى حاجبها أم سخط ، فالحجابة - إذن - عمل شرفى لافعالية له .

هذا فى رأينا سر اختيار «بنى عبد مناف» وزعيمهم هاشم لتينك المأثرتين : الرفادة والسقاية ، وإطلاق أيدى «بنى عبد الدار» فيما خلاهما .

* * *

(كان هاشم موسراً ، إذا حضر الحج قام صبيحة هلال ذى الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيخطب قريشاً ، ويحض على رفادة الحاج التى سنها قصى ، فكانت بنو كعب بن لؤى وسائر قريش يجتهدون فى ذلك ، ويترافدون ، ويخرجون ذلك من أموالهم حتى يأتوا به هاشماً ؛ فيضعه فى داره ، وكان يأمر بحياض من أدم ، فتجعل فى موضع زمزم ، قبل أن تحفر فيستقى فيها من البيار التى بمكة فيشرب الحج ، وكان يطعمهم بمكة قبل التروية بيوم ، ثم بمنى وجمع وعرفة ، يثرد لهم الخبز واللحم والجبن والسمن والسويق والتمر ، ويحمل لهم الماء فيطعمهم ويسقيهم حتى يصدروا أى يرجعوا) (٥) .

هكذا نرى هاشماً يهتم بأمر الحاج الوافد على مكة ، فيطعمه ويسقيه ، ويدفع القرشيين إلى المساهمة فى دفع تكاليف الرفادة كل حسب طاقته ، وتبدأ هذه الضيافة فى اليوم السابع من هلال ذى الحجة ، أى قبل يوم

---

(٥) الإمام أبو الربيع سليمان الكلاعى ، **الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء** ، الجزء الأول ، ص ١٤٦ ، مرجع سابق .

التروية ؛ وهو اليوم الثامن ، ويستمر ذلك حتى يصدر الحاج ، أي يعود إلى بلده ، ويتتبعه في أماكن تواجده : مكة ومنى وجمع وعرفات ، وكان الطعام الذي يقدم إليه من أجود الأنواع ، أما الماء فكان يجلبه له من جميع بيار مكة (لم تكن زمزم قد حفرت بعد ، إذ المعروف أن الذي حفرها هو عبد المطلب) ، وحفر هاشم لهذا الغرض بيراً سميت بـ «بذَّر» . وكان (هاشم يخرج في كل سنة مالاً كثيراً) [٦] .

إن اهتمام هاشم بحجاج البيت الحرام ، فضلاً على دلالته على سجية الكرم المتأصلة فيه ، وحثه القرشيين على المساهمة في الرفادة ، يقطع بوعيه التام ، بما في ذلك من إعلام للحجاج الذين يقصدون مكة من شتى نواحي شبه الجزيرة العربية ، أن في مكة حكومة تبسط سلطانها على المدينة المقدسة ، وأنها جديرة بحكم عرب الجزيرة كلهم ، والإحساس العميق بسيادته على مكة ، امتدادا للسلطان الذي أسسه جده قصي ، ولإشعار جميع من فيها بهذه الهيمنة ، وعندما حدثت - فيما بعد - مجاعة سافر إلى الشام (غزة بفلسطين) ، واشترى دقيقاً كثيراً فأمر به ، وعمل ثريداً هشم وأطعم المكيين ومن ثم سمى هاشماً إذ أن اسمه (عمرو) وقد سجل الشاعر هذه الواقعة في قصيدة منها :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف [٧] .

ولا نريد أن نكرر ماسبق أن قلناه ، إن عناية هاشم بأمر الحجيج ، وتيسير شعيرة الحج لكل عرب الجزيرة العربية ، حتى الفقراء منهم ، بإمدادهم بالطعام الجيد والماء الوفير لهم طوال موسم الحج ، تأكيد من

---

(٦) تقي الدين المقريزي ، **كتاب التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم** ، ص ٣٩ ، حققه وعلق على حواشيه د . حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م ، دار المعارف بمصر .

(٧) مسنتون أي أصابتهم سنة مجاعة .

جانبه أن الدين ركيزة متينة من ركائز دولة قريش ، وهذا المنهج استنه كما ذكرنا فى البحث الخاص بـ «قصى» ، قصى نفسه ، وقد سار على هذه الوتيرة من بعد هاشم ابنه عبد المطلب ، بل توسع فيها كما سيجىء فى الكلام عليه ، ثم جاء من بعدهم الحفيد محمد عليه الصلاة والسلام ، فغدا على يديه «الدين» ، هو شعار دولة قريش التى أقامها فى يثرب .

* * *

إذا كان قصى هو الذى أرسى حجر الأساس لـ «دولة قريش» ، فإن هاشماً هو الذى أوضح معالمها وأبرز قسماتها ، وظل دوره فعالاً حتى إنشائها على يد حفيده محمد عليه السلام ، ذلك أن هاشما كان صاحب نظرة شمولية ؛ بمعنى أن نشاطه المتوثب والمتولد عن همة عالية ، امتد لأكثر من ناحية فى تدعيم الدولة التى كانت فى طور البروز ، فبدأ بـ (الاقتصاد) ، الذى هو عماد أى دولة ، فقد حول تجارة مكة من المحلية (ذلك أن قريشاً كانو قوماً تجاراً ، وكانت تجارتهم لاتعدو مكة ، إنما يقدم الأعاجم بالسلع فيشترون منهم ويتبايعون فيما بينهم ، ويبيعون من حوله من العرب ، فلم يزالوا كذلك حتى ذهب هاشم إلى الشام ، وطلب من قيصر أمانا لقومه ، ليقدموا بلاده لتجاراتهم فأجابه لذلك ، وكتب لهم قيصر كتاب أمان لمن أتى بهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فكلما مر بحى من أحياء العرب أخذ من أشرافهم إيلافاً لقومه ، يأمنون به عندهم وفى أرضهم من غير حلف ، إنما هو أمان الطريق ، واستوفى أخذ ذلك ممن بين مكة والشام ، فأتى قومه بأعظم شئ أتوا به بركة فخرجوا بتجارة عظيمة)[٨] . و(قال الرشاطى : كانت قريش تجارتهم لاتعدو مكة ، حتى

(٨) الكلاعى ، **الاكتفاء** ، الجزء الأول ، ص ١٤٧ ، مرجع سابق .

نشأ هاشم بن عبد مناف ، وربل وعظم قدره)[9] [10] ثم يسوق الصالحي قصة ركوب هاشم إلى الشام ودخوله على قيصر فـ (كلمه فأعجبه كلامه ، وأعجب به وجعل يرسل إليه ويدخل عليه) [11] وأخذ منه كتاب أمان لمن أتى منهم إلى بلاده ، وأخذ الإيلاف من أشراف القبائل مابين مكة والشام ، فكان ذلك أعظم بركة (ثم خرجوا أى القرشيون ، بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوزهم ويوفيهم إيلافهم الذى أخذلهم من العرب ، فلم يبرح يجمع بينهم وبين العرب حتى ورد الشام)[12] ، ولم يكتف هاشم بذلك بل دفع إخوته الثلاثة إلى أن يأخذوا أمانا ويعقدوا عقوداً مع سائر الملوك الذين كانوا على حوافى جزيرة العرب فـ (خرج المطلب بن عبد مناف ، وهو يسمى الفيض لسماحته وفضله إلى اليمن ، فأخذ من ملوكهم أمانا لمن تجر من قومه إلى بلادهم ، ثم أقبل يأخذ لهم الإيلاف ممن كانوا على طريقه من العرب ، وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة ، فأخذ منه أمانا كذلك لمن تجر من قريش إلى بلاده ، ثم أخذ الإيلاف من العرب الذين على الطريق ، وخرج نوفل ابن عبد مناف وكان أصغرهم إلى العراق أخذ عهداً من كسرى لتجار قريش ، ثم أقبل يأخذ الإيلاف ممن مر به من العرب ، فجبر الله قريشاً بهؤلاء النفر الأربعة من بنى عبد مناف ، فنمت تجارتهم واتسعت تجارتهم ، فكان بنو عبد مناف يسمون لذلك «المجيرين» أو «المجيزين» ، والعرب تسميهم (أقداح النضار) ، لطيب أحسابهم وكرم

---

(٩) الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، **سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد** ، الجزء الأول ، ص ٣١٦-٣١٧ ، مرجع سابق .

(١٠) **ربل** أى قوى واشتد .

(١١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(١٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

أفعالهم)[١٣]و [١٤] . بهذا تحولت مكة من قرية صغيرة من قرى القوافل ، يقنع أهلها بما تنقله القوافل التى تمر بها من بضائع يتجرون فيها مع جيرانهم فى يثرب والطائف وأعراب البوادى والوافدين للحج والعمرة ، إلى مدينة كبيرة لها علاقات تجارية مع أكبر القوى الاقتصادية المحيطة بها ، وفى مقدمتها الدولتان العظيمتان فى ذلك الزمان : فارس والروم .

كذلك نمت ثروات سادات قريش وعظم مالهم ؛ الأمر الذى سارع فى تفكيك البنية القبلية ، ونمى فيهم روح الملكية الخاصة والفردية ، بدلاً من الملكية المشاعية أو شبه المشاعية التى تتميز بها الحياة القبلية . كل هذا ساعد على بذر بذور الحياة المدينية التى تحتم وجود حكومة تضبط أمورها ، ولم تعد سلطة شيخ القبيلة ومجلس القبيلة كافية ولا مناسبة للحياة الجديدة ، مما ساعد على قبول فكرة حكومة مركزية تهيمن على المدينة المقدسة ، التى غدت بذلك - أو إلى جانب ذلك - مدينة التجارة العالمية والثروات الواسعة ، التى لم يكن للعرب عهد بها قبل ذلك ، فضلاً عن أن ذلك أفرز أيضاً آثاراً جانبية مثل انقسام المجتمع المكى إلى ملأ يملكون المال الوفير ، وإلى فقراء حتى من قريش ذاتها بعد نماء الثروات لذلك الحد ، وكل هذا سوف يكون موضع دراسة موسعة إلى حد ما فى الأبحاث القادمة .

والإيلاف الذى أخذه الأبناء الأربعة - علامة على عهود الأمان التى أعطاها لهم الملوك - كان له أثر كبير فى حركة قوافل قريش داخل الجزيرة ؛ فى الطريق من وإلى الشام والعراق واليمن والحبشة ؛ ذلك أن القبائل كانت تسترزق من نهب القوافل التى تمر بأرضها ، ولكن الإيلاف منعهم من ذلك (فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء

(١٣) الكلاعى ، **الاكتفاء** ، الجزء الأول ، ص ١٤٨ ، مرجع سابق .

(١٤) **النضار** هو الذهب الخالص .

الإخوة فلا يتعرض لهم)[١٥] . وفى تفسير الإيلاف قال الخليل بن أحمد الفراهيدى : آلف يؤالف وقال الأزهرى : الإيلاف شبه الإجارة بالخفارة ، وسواء كان هذا أم ذاك فإن الإيلاف ضرب من المال ، يدفع طواعية كهدايا أو منح لرؤساء القبائل التى تمر بحرمها القوافل التجارية القرشية ، ولكن يمتنع فى الإيلاف عنصر الالتزام أو الإكراه لمكانة بنى عبد مناف الأربعة لدى أولئك الرؤساء ولأن العرب كانت تعظم القرشيين وتدعوهم «أهل الحرم» ، ويرى الإمام محمد بن يوسف أن (الإيلاف أن يأمنوا عندهم وفى طريقهم وأرضهم بغير حلف إنما هو أمان طريق) ، [١٦] ويوافقه على ذلك الفيروز آبادي وذهب إلى أن الايلاف الذي جاء في سورة قريش هو العهد وان اللام في (لايلاف قريش) للتعجب أي اعجبوا لايلاف قريش ، وبعد ان ذكر الايلافات التي اخذها الاخوة الاربعة بنو عبدمناف أضاف (وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الامصار : الشام ، الحبشة ، اليمن ، فارس ، بحبال هذه الاخوة فلا يتعرض لهم وكأن كل أخ أخذ حبلا من ملك ناحيه سفره أمانا له) .[١٧]

ويؤكد الفيروز آبادي ذلك بقوله (وتأويله أنهم كانوا سكان الحرم آمنين في امتيارهم وتنقلاتهم شتاء وصيفا والناس يتخطفون من حولهم فاذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد)[١٨] .

---

(١٥) الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، **الجامع لأحكام القرآن** ، المعروف بـ «تفسير القرطبى» فى تفسيره «سورة قريش» ، طبعة كتاب الشعب ، مصر .

(١٦) الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى ، **سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد** ، الجزء الأول ، ص ٣١٦ ، مرجع سابق .

(١٧) الفيروز آبادي في **القاموس المحيط** ، مادة ألف ، الجزء الثالث ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، نشره الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٨) المصدر السابق نفسه .

وعودتنا إلى ذكر الإيلاف مرة أخرى ، هو تبيان هدف آخر بخلاف الغرض الظاهر ؛ حماية قوافل قريش وتجاراتها ، ونعنى به هو أن قريشاً بهذه الإيلافات قد غدت متميزة عن سائر العرب ، إذ أن القبائل كانت تستقضى جعلاً من كل من يمر بحماها أو أرضها ، حتى كسرى نفسه عندما كان يبعث بتجارة داخل الجزيرة كان يدفع جعلاً لكل قبيلة تمر هذه التجارة بأرضها برغم أنها كانت محروسة بـ «أساورة» كسرى ، أى جنوده الأشداء ، وعندما كان يتقاعس كسرى لسبب أو لآخر عن دفع «الجعالة » لأى قبيلة تمر بها قافلة ، كانت القبيلة تعتدى عليها ، وقد حدث أن قافلة لكسرى مرت بأرض قبيلة تميم لم تدفع الجعالة المعهودة ، قام بنو تميم بنهبها ، وأسر جنود كسرى «الأساورة» ، بل إنهم أسروا (هوذة بن على) ، وكان ملكا على قبيلة بنى حنيفة ، ولم يفكوا أسره إلاّ بعد أن دفع دية مضاعفة (١٩) .

إن نجاح هاشم بن عبد مناف وإخوته الثلاثة فى عقد هذه الإيلافات التى ينتفى منها - كما قلنا - عنصر الإكراه - والتى هى ليست أحلافا ، ورضا رؤساء القبائل بها دليل لايقبل الشك على علو مكانة هاشم وبنى عبد مناف ، وارتفاع نجمهم فى الجزيرة ، وشعور شيوخ القبائل بأن وضعا جديداً أخذ يتبلور فى مدينة القداسة «مكة» ، خاصة وأن هؤلاء الرؤساء لم يعطوا الإيلافات تلك ، إلا بعد أن أطلعوا على كتب الأمان التى حررها ملوك فارس والروم واليمن ، ولابد أنهم تساءلوا فى قرارة أنفسهم : هل يعطى الملوك مثل هذه الكتب إلا لمن بلغ شأواً بعيداً فى السؤدد والسلطان ، واستن هاشم رحلتى الشتاء والصيف الأولى إلى اليمن والحبشة ، والأخرى إلى الشام وفلسطين ، وكلاً من الإيلاف وهاتين

---

(١٩) محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون ، **أيام العرب فى الجاهلية - يوم الصفقة** ، ص ٢ ، (د. ت) ، دار إحياء الكتب العربية ، البابى الحلبى وشركاه بمصر .

الرحلتين ورد ذكره فى القرآن الكريم فى «سورة قريش» وفى الشعر :
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف .

واهتم هاشم أيضاً بتوثيق علاقاته الدبلوماسية مع الممالك الواقعة على أطراف الجزيرة ، فكان (يدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه)(٢٠) . . (وخرج أخوه عبد شمس إلى النجاشى بالحبشة . . . وخرج أخوهما نوفل إلى الأكاسرة بالعراق . . . وخرج المطلب إلى حمير باليمن)(٢١) هذه السفارات الدبلوماسية لملوك الأرض المعروفين آنذاك ، كانت موضع إعجاب وتقدير شديدين من العرب قاطبة ، فقال منهم عبد الله بن الزبعرى ، وقيل بل هو أبوه :

يأيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد مناف
الآخذون العهد من أفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف

والشعراء فى ذلك الزمان ، كانوا هم أهل الثقافة ورجال الإعلام وألسنة القبائل .

وذكر الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى رواية موجزها ، أن قيصر بعث إليه ليتزوج ابنته (٢٢) وسواء صحت هذه الرواية أم بطلت ؛ فالأمر الثابت أن هاشماً كان يفد على ملك أو إمبراطور الروم فيكرمه ويحبوه ، بل بلغ تقديره إياه أنه (كتب إلى النجاشى أن يدخل قريشاً فى أرضه) (٢٣) . . وقرأنا أخبار إرساله إخوته سفراء لباقى الملوك .

والذى يفعل ذلك مع الملوك الذين يقابلونه بالتكريم ، لابد أنه قد بلغ

(٢٠) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، ص ٥٧ ، مرجع سابق .
(٢١) الإمام محمد يوسف الصالحى الشامى ، **سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد** ، ص٣١٧ ، مرجع سابق .
(٢٢) المرجع السابق ، ص ٣١٨ .
(٢٣) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، ص ٥٧ ، مرجع سابق .

مرتبة حاكم المدينة المقدسة ، لامجرد شيخ قبيلة من عشرات القبائل التى تعج بها الجزيرة العربية ، وهذه الحقيقة بلغت أولئك الملوك ، عن طريق جواسيسهم فى مكة الذين كانوا يتزيون بزى التجار .

ولقد قيم حبر الأمة الصحابى الجليل عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - جده هاشماً ، تقييماً صحيحاً ، أوضح دوره الخطير فى بناء دولة قريش فى قوله :

(روى البلاذرى عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ لها الإيلاف وأجاز العيرات لهاشم ، والله ماأخذت قريش حبلاً لسفر ، ولا أناخت بعيراً لحضر إلا بهاشم[٢٤] .

* * *

وثّق هاشم أيضاً صلاته الداخلية ، بأن أصهر إلى العديد من القبائل الكبيرة المشهورة ، فتزوج سلمى بنت عمر بن زيد سيد بنى عدى بن النجار من الخزرج بـ «يثرب» وكانت امرأة حازمة جلدة مع جمال ، رآها تتاجر بنفسها فى سوق النبط فأعجبته وكانت تتأبى على الخطاب بعد طلاقها من زوجها الأول ولكن لما علمت أنه سيد مكة و (عرفت شرفه ونسبه ، زوجته نفسها) . كذلك تزوج هند بنت عمر من بنى الخزرج ، وهكذا ارتبطت قريش بأهل يثرب برباط متين وسوف تزداد هذه الرابطة شدة على يد عبد المطلب (وسوف نشرح ذلك فى المبحث الخاص به) ، أما علاقة محمد عليه السلام بـ (اليثاربة) فمعروفة ، وهذا يدعونا إلى القول بأن نشوء دولة قريش فى تلك المدينة لم يكن مصادفة تاريخية بحت ، وهذه مسألة جديرة بالبحث والتمحيص من قبل علماء التاريخ

(٢٤) الإمام الصالحى ، **سبل الرشاد** ، ص ٣١٧ ، مرجع سابق .

الإسلامى المحدثين الذين مازال أغلبهم يمر على هذه المسائل الحسَّاسة مروراً عابراً مكتفياً بالتعليلات الغيبية التى ذكرها مؤرخو الإسلام القدامى مثل قولهم : (لما أراد الله بالخزرج والأوس الكرامة قيض لهم مقابلة محمد بمنى فى موسم حج فعرض عليهم الإسلام فآمنوا . . .) .

هكذا دون بحث الأسباب الموضوعية الكامنة وراء استجابتهم السريعة لدعوة محمد عليه السلام ، مثل مجاورتهم لليهود وسماعهم منهم نظرية (النبى المنتظر) ، وكوجود علاقات قديمة تمتد لعشرات السنين بين قريش وأهل يثرب .

ألم يفكر هؤلاء المؤرخون المحدثون فى المقارنة بين سبب رفض ثقيف التى تقطن الطائف وهى أقرب إلى مكة من يثرب للإسلام ومحاربتها إياه بشراسة حتى إنهم قتلوا أحد زعمائهم وهو «عروة بن مسعود» عندما دعاهم إليه ، وقبلها صمدوا لجيش الرسول محمد عليه السلام ولحصاره قريتهم حتى عاد أدراجه إلى المدينة انتظاراً لفرصة أخرى ، وبين قبول الأوس والخزرج لديانة الإسلام بسهولة ويسر يلفتان النظر ؟؟؟

إن القول بأن ذلك مرجعه لتمسك ثقيف بمعبودتهم «الطاغية» غير كاف لأن الأوس والخزرج لم يكونوا أضعف إيماناً بأربابهم أو آلهتهم من أهل الطائف . إذن لابد من تقصى الأسباب الموضوعية التى غفل أو تغافل عنها المؤرخون ، وهو مايعزز الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى بموضوعية وعقلانية والنأى عن عهد التعليلات التى تعتمد على الغيبيات والماورائيات والأساطير .

بعد هذه الاستطرادات نعود إلى هاشم ودأبه على تمتين علاقاته فى الداخل بالإصهار إلى أمهات القبائل فى جزيرة العرب :

فقد تزوج أيضا : أم قيلة فهى «الجزور» بنت عامر من خزاعة ، أميمة بنت عدى من قضاعة ، وواقدة «أم عبد الله» بنت عدى من صعصعة ،

وعدى بنت حبيب من ثقيف[٢٥]وصار الإصهار إلى كبريات القبائل من بعد هاشم سنة إتبعها خلفاؤه من بناة «دولة قريش» مثل ابنه عبد المطلب وحفيده محمد عليه السلام الذى تحقق على يده الحلم وتحول إلى واقع وبرزت إلى الوجود دولة قريش فى يثرب .

* * *

وكان من رأى هاشم أن العدالة الاجتماعية مطلب مُلحّ لإقامة دولة قريش لذا كان حرصه عليها وعلى تحقيقها على أرض الواقع شديداً ، فقد رأينا حثه قريشاً على الإسهام فى تكاليف الرفادة التى يستفيد منها بالدرجة الأولى فقراء العرب من الحجاج (. . . فيأتون به هاشما فيضعونه فى داره دار الندوة) [٢٦] وهذا النص صريح فى الإفادة بأن هاشماً كان يتخذ دار الندوة مقراً لحكمه رغم أنها كانت فى التصالح الذى ألمحنا إليه من نصيب بنى عبد الدار ولكنها منذ أن بناها «قصى» وهى شارة السيادة ومقر السلطة .

ولم يكن حرص هاشم على تكريس العدالة الاجتماعية فى موسم الحج فحسب بل فى داخل مكة وبصفة مستمرة لاموسمية ، يقول الإخباريون إنه كانت توجد بين العرب عامة وقريش خاصة عادة تسمى الاحتفاد وتفسيرها (أن أهل البيت منهم كانوا إذا سافت يعنى هلكت أموالهم خرجوا إلى براز من الأرض فضربوا على أنفسهم الأخبية ثم تناوبوا فيها حتى يموتوا ، خوفا من أن يعلم بخلتهم أى فقرهم) [٢٧] ، فأبطل هاشم هذا التقليد الخبيث وقال لقريش (رأيت أن أخلط فقراءكم بأغنيائكم فأعمد إلى رجل غنى فأضم إليه فقيراً بعدد عياله)[٢٨] وفى نظر

---

(٢٥) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، ص ٥٩-٦٠ ، مرجع سابق .

(٢٦) الإمام الصالحى ، **سبل الرشاد** ، ص ٣١٨ ، مرجع سابق .

(٢٧) المرجع السابق الصفحة نفسها .

(٢٨) المرجع السابق الصفحة نفسها .

الإمام القرطبى« أن تلك العادة كانت تسمى (الاعتفار) وتفسير هذه الكلمة عنده : أنه إذا أصابت واحداً منهم مخمصة أى مجاعة جرى هو وعياله إلى موضع معروف فضربوا على أنفسهم خباءً حتى يموتوا اتقاء لمعرة التسول ومد اليد إلى الغير وأنفة من طلب الإحسان من القريب أو الغريب وهو تفسير الصالحى عينه . وحدث أن أسرة من بنى مخزوم شرعت فى (الاعتفار) فبلغ ذلك هاشماً ففزع أشد مايكون الفزع (فقام خطيباً فى قريش وكانوا يطيعون أمره فقال : إنكم أحدثتم حدثا تقلون فيه وتكثر العرب ، وتذلون وتعز العرب ، وأنتم أهل حرم الله جل وعلا وأشرف ولد آدم والناس بكم تبع ويكاد هذا الاعتفار يأتى عليكم ، فقالوا نحن لك تبع فقال ابتدئوا بهذا الرجل - يعنى الذى اعتفر - فأغنوه عن الاعتفار ، ففعلوا) [٢٩] . ونخرج من هذه الخطبة بالحقائق الآتية :-

أ - أن قريشا كانت تطيع أمره وماذلك إلا لأنه كان سيدهم وحاكم مكة .

ب - اعتقاد هاشم الجازم بأن قريشاً أهل حرم الله جل وعلا وأشرف ولد آدم والناس تبع لهم وظل هذا الاعتقاد راسخاً فى نفوس القرشين .

ج - خشية هاشم من أن الاعتفار أو الاحتفاد سوف ينقص عدد قريش ويذلهم .

وسبق أن أوردنا أن هاشماً عندما ضربت قريشاً مجاعة فى إحدى السنوات أحضر دقيقاً من الشام (فلسطين) وجعله ثريداً وهشمه وأطعم من أضير من المكيين من المجاعة . لقد شجب الاحتفاد أو الاعتفار قولاً وعملاً ، وأنقذ فقراء قريش لله من الموت جوعا لشعوره بالمسئولية كحاكم لمكة ، ولاعتقاده أن الظلم الاجتماعى يقوض أركان الدولة التى كان يسعى لتدعيمها بعد أن وضع أساس بنيانها جده «قصى» .

(٢٩) الإمام القرطبى ، مرجع سابق .

كذلك كان هاشم إذا بلغه خبر عن وقوع خلاف بين قبيلتين يؤذن بشر مستطير ، عمل جاهداً ولعل أشهر واقعة فى هذا الصدد تلك التى خطب فيها خطبته المعروفة بـ (الحكيمة) والتى ملخصها أنه (لما وقع بين عذرة وخزاعة هنة فى سبب غلام لامرأة من خزاعة يحطب لها ويعود بكسبه عليها ، فأصابه رجل من بنى عذرة فقتله فحملت عذرة قيمته إلى خزاعة فأبوا أن يقبلوها وقالوا : لايكون ذلك حتى نقتل غلام عمرة بنت قبيضة من سليك ، فتفاقم الأمر بينهم حتى تداعوا بالأحلاف ، فخشى هاشم ابن عبد مناف فساد الحرم وأن تنتهك حرمته فدعا بمنبره المركن ووعد الناس بثر بنى قصى بن كلاب الحرد التى بملتقى الرفاق ، فلما اجتمع الناس قام فيهم خطيباً فخطب خطبته التى تسمى (الحكيمة) اختص فيها بنى نزار دون قحطان ، ومضر دون ربيعة وقريشاً دون سائر القبائل فقال :

معاشر الناس نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وولد النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسلطان الحرم ، لنا ذروة الشرف ولباب الحسب ومعدن المجد وغاية العز . ونحن جبال الأرض ودعائم الحق وسادات الأمم)[٣٠] ودعا الفريقين إلى تحكيم العقل ونبذ الحرب ورأب الشعب وجمع الفرقة (ثم سكت فقال بنو عذرة وبنو خزاعة : قد رضينا بحكمك ياأبانضلة وانصرف القوم عن صلح) [٣١] .

من هذه الخطبة أيضا نخرج بالحقائق التالية :-

أ - أن هاشما عندما جمع القبيلتين المتنازعتين بنى عذرة وخزاعة

---

(٣٠) أبو القاسم الزجاجى ، **أخبار أبى القاسم الزجاجى** ، تحقيق د . عبد الحسين المبارك ، ص ١٩٦ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠ ، دار الرشيد سلسلة كتب التراث ٩٥ ، وزارة الثقافة والإعلام ، العراق .

(٣١) المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

لفض خلافهما كان دافعه لذلك (خشية فساد الحرم وانتهاك حرمته) أى زعزعة استقرار الدولة التى يسهر على شئونها .

ب - أنهم استجابوا لدعوته فوراً وهذا لمقامه كسيد لمكة وحاكم للبلد الحرام .

ج - كان له (منبر مركن) شأن الملوك .

د - أنهم رضوا بحكمه دون تردد .

هـ - وصف قريشاً بأوصاف لاتدع مجالاً لأدنى شك بإيمانه بأنها سيدة العرب ومالكة أمرهم عبارات بالغة الدلالة ، ناطقة بذاتها ، ليست فى حاجة إلى تفسير وغنية عن أى تأويل . ولقد ورث أبناؤه وأحفاده عنه هذا الإيمان وغدا فى نفوسهم عقيدة راسخة رسوخ الجبال ؛ أن قريشا لم تعد قبيلة كسائر قبائل شبه الجزيرة العربية ، بل هى دولة حاكمة على أقدس مدينة ، وحائزة على شرف الهيمنة على أقدس كعبة فيها ، وأنها بصدد التحول إلى دولة مركزية سوف تسيطر على بلاد العرب من أدناها إلى أقصاها .

و - أن من حضر من القبائل وسمع تلك الخطبة (الحكيمة) لم يجرؤ على أن يعارض كلمة واحدة منها ؛ لأنهم يوقنون فى مستقر نفوسهم أن ماصرح به هاشم حق لامرية فيه ، وأن «قريش الدولة» غدت واقعا ملموساً ، وأنها اليوم تمسك بيديها زمام الأمور فى مكة ، وفى الغد القريب سوف تسيطر على الجزيرة العربية كلها .

* * *

هذه لمحات سريعة عن الجهود التى بذلها هاشم فى رفع بنيان دولة قريش ، وسوف يواصل تعليته من بعده ابنه عبد المطلب ، حتى يكتمل على يد حفيده محمد عليه السلام .

ثانياً : عبد المطلب : الدين يظاهر الدولة

نحن أمام شخصية باهرة استطاعت أن تستوعب الأفكار أو النظريات السياسية التى كانت سائدة فى زمانها وكيف أن السياسة اختلطت بالدين ، أو بمعنى أصح خلطته بها ، لتثبيت أركانها ، وهو ماقام به حكام الإمبراطوريه الرومانية الشرقية على وجه الخصوص (فقد كان قسطنطين «٣٠٦/ ٣٣٧م» يعتبر نفسه مبعوث العناية الإلهية)[٣٢] وكان ذلك (بداية النموذج البيزنطى الذى يجمع فيه الإمبراطور حقاً بين القيصر والبابا ، وما إن أهل القرن السادس حتى كان الإمبراطور يوجه السياسة الكنسية وفقاً لهذه النظرية القيصرية البابوية ، القائلة - بأن الإمبراطور هو نائب الله على الأرض) [٣٣] إذن فى القرن السادس الميلادى بلغت نظرية خلط السياسة والحكم بالدين ذروتها وغدا الإمبراطور نائب الله على الأرض[٣٤] .

عبد المطلب عاش فى القرن السادس الميلادى إذ أنه توفى (بمكة سنة ٥٧٨ م بعد عام الفيل فبثمانى سنين وله عشر ومائة سنة) [٣٥] ويرى البعض أنه عاش مئة وثمانية عاماً .

وهنا يثور سؤال ماهى صلة أهل مكة وعبد المطلب بالإمبراطورية الشرقية الرومانية (البيزنطية) حتى تصل إليه أفكارها ونظرياتها فى الحكم

---

(٣٢) نورمان ف . كانتور ، **التاريخ الوسيط : قصة حضارة البداية والنهاية** ، ترجمة وتعليق د . قاسم عبده قاسم ، القسم الأول ص ٧٤ ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م ، دار المعارف بمصر .

(٣٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣٤) لعل هذا هو الجذر التاريخى لنظرية الحاكمية الإلهية التى نادى بها حديثاً : أبو الأعلى المودودى فى شبه القارة الهندية ، ثم استعارها منه سيد قطب ثم تبنتها جماعات العنف السياسية الإسلامية .

(٣٥) محمد رضا ، **محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم** ، ص ٣٠ ، مرجع سابق .

والسياسة وخلطهما بالدين أو خلط الدين بهما ؟ نجيب عن هذا السؤال بالآتى :-

أ - ذكرنا فيما سلف أن هاشما أبا عبد المطلب كان على صلة طيبة بـ «قيصر الروم» يدخل إليه فيكرمه ويحبوه .

ب - كانت قوافل قريش «التجارية » دائمة التردد على الشام «خاصة فى رحلة الصيف» والشام إحدى ممالك الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، بل إن بعضها كان يصل إلى أنقرة ، وعبد المطلب رجل من قريش وأحد أثريائها وفيما بعد أصبح سيد مكة ، والتجار الذين كانوا يسافرون إلى هناك لايغمضون عيونهم ، ولا يغلقون آذانهم ، ولا يسدون أذهانهم ، ولا يعطلون عقولهم ، خاصة وأن القرشيين بشهادة القرآن الكريم كانوا أهل ذكاء وفطنة ، وكانوا أيضا على درجة متميزة من الحضارة بالقياس إلى غيرهم من العرب ، دعك من الأعراب .

ج - إن علاقات قريش بالشام وقياصرة الروم استمرت حتى بعد ظهور النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وحكاية وفود أبى سفيان بن حرب بن أمية ورجال من قريش على «هرقل» الروم وسؤاله إياهم عن محمد ونسبه وأتباعه ومعاركه الحربية . . . . إلخ مسطورة فى أمهات دواوين السنة وكبريات كتب السيرة النبوية (عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا سفيان أخبره : أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها[٣٦] أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ، ودعا بالترجمان ، فقال : أيكم أقرب

(٣٦) فى **مختار الصحاح** للإمام الرازى : ماد الشيئ تحرك وبابه باع ومادت الضّان تمايلت وماد الرجل تبختر وهى فى المتن تعنى هادن .

نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ قال أبو سفيان أنا أقربهم نسباً . . . إلخ)[٣٧] .

د – كان بمكة تجار من الروم ، وكان بعضهم يتخذ من التجارة ستاراً يغطى به مهمته الأساسية وهى التجسس لحساب قيصر أو هرقل ، وهؤلاء من المحتم أن صلات ربطتهم بتجار مكة وكبرائها وأثريائها ، مما يستدعى الحوار فيما بينهم ، وتبادل الآراء والأفكار والحديث فى الشئون العامة ، وهكذا من المنطقى أن يكون عبد المطلب وغيره من زعماء قريش قد أطلعوا على ما يجرى لدى الروم من أحوال السياسة والاقتصاد والدين . ويلتقط عبد المطلب فكرة إلباس الدولة ثوب الدين لتدعيمها ، نحن لانزعم أن عبد المطلب أخذ النظرية البيزنطية بحذافيرها ولكنه استخلص منها جوهرها وهو فاعلية الدين فى ترسيخ الحكم إذا رفع شعاره ، وتثبيت أعمدة الدولة إذا تسربلت بردائه .

إن الادعاء بعزلة مكة عما حولها وتقوقعها على ذاتها ، إدعاء فاسد يذهب إليه البعض حتى يثبت أن الإسلام نزل فى بيئة مغلقة بعيدة عن الفكر وجاهلة وأمية ، ظنا منه أنه بذلك يخدم الإسلام فى حين أنه يضره ويضيره . وتفنيد هذا الادعاء وبيان فساده والكشف عن بطلانه تولاه باحثون جادون لاتحكمهم العاطفة الفجة (فهم يعتقدون أن العرب كانوا قبل الإسلام أمة منعزلة تعيش فى صحرائها ، ولاتعرف العالم الخارجى ولا يعرفها العالم الخارجى ، وهم يبنون على هذه قضايا ونظريات)[٣٨] ، ثم يشجب العميد د . طه حسن وجهة النظر هذه بشدة ويقول (كلا ؛ القرآن يحدثنا بشئ غير هذا ، القرآن يحدثنا بأن العرب كانوا على اتصال

(٣٧) أخرجه البخارى فى صحيحه .

(٣٨) طه حسين ، **فى الشعر الجاهلى** ، ص ٢١ ، الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ ، ١٩٢٦م ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة .

بمن حولهم بل كانوا على اتصال قوى)[٣٩] . فإذا ثبت أن أهل مكة كانوا على اتصال بغيرهم من الأمم أو من حولهم منها فإن انتقال الأفكار أمر طبيعى لايمارى فيه أحد ، وعبد المطلب فى الذؤابة العليا من أهل مكة (قريش) إذن هو لابد أن يكون على علم بما كان يجرى من أمور فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) ، ويعرف كيف كانت تحكم وماذا كان يدعيه حكامها ، وسمع عن نظرية القيصرية البابوية وأن الإمبراطور أو قيصر أو هرقل كان يعلن على الملأ أنه نائب الله على الأرض ، فأدرك وهو من صفوة قريش لماحية بل وألمعية مدى أثر الدين فى تدعيم الدولة ، وتوثيق أركانها وترسيخ قوائمها ، فأعجبه ذلك أيما إعجاب فطبقه بطريقة فذة واقتدار بالغ بكيفية تتوافق مع موجبات بيئته ومقتضيات مجتمعه وكان موفقا فى ذلك غاية التوفيق ، إذ أثبت التاريخ فيما بعد أن الدين كان له أثر لايباريه فيه أى عنصر آخر فى نجاح دولة قريش التى استمرت بعد عبد المطلب مايناهز تسعة قرون .

* * *

استوعب عبد المطلب الدرس جيداً واستثمر الدين بكل وظائفه : الرؤى والأحلام والأساطير والرموز والنبوءات (سوف يجيئ الكلام على كل واحد منها على حدة) وهى الأدوات عينها التى يستعملها الدين لإيقاع الهيبة ، ولغرس القداسة فى النفوس ، جمع بين الدين والحكم ؛ فكان يلقب بـ «سادن الكعبة» و«سيد البطحاء» فى الوقت نفسه تماما مثل القيصر البابا ، أما الذى أخبرنا أن عبد المطلب (كان سادن الكعبة)[٤٠] فهو شيخ الإسلام فضيلة الإمام الأكبر د . عبد الحليم محمود عندما عرّب كتاب «محمد رسول الله» الذى ألفه آتين دينيه / سليمان إبراهيم ،

---

(٣٩) طه حسين ، **فى الشعر الجاهلى** ، مصدر سابق ، ص ٢١ .

(٤٠) اتين دينيه / سليمان بن ابراهيم ، **محمد رسول الله** ، ترجمة د . عبد الحليم محمود ود . محمد عبد الحليم محمود ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩م ، دار المعارف بمصر .

وأضاف (كما كان عبد المطلب أميراً من أمراء قريش التى هى من أنبل قبائل العرب)[٤١] . أى أنه جمع بين القداسة الدينية والإمارة الدينوية ، وأكد الإخباريون القدامى أنه (كان يتأله ويعظم الفجور . . . وكان سيد قريش حتى هلك)[٤٢] هنا نجد أن ابن سعد وهو من أقدم وأوثق المؤرخين يجزم بأن عبد المطلب كان يجمع بين التأله والسيادة ، (والتاله هو التنسك والتعبد) [٤٣] وفي الخطبة التي القاها عبدالمطلب بين يدي سيف بن ذي يزيد عندما ذهب على رأس وفد قريش يهنئه على ظفره بالحبشة ذكر (عبدالمطلب) أنه واحد من سدنه البيت الحرام الذي بمكه أي الكعبة)[٤٤] وبلغ من تألهه فى رواية ابن سعد أن الكنز الذهبى الذى وجده عند حفر زمزم أمر به فضرب صفائح فى وجه الكعبة وجعل قفل بابها ومفتاحه من الذهب ، ومعلوم أن كعبة مكة هى قدس الأقداس عند العرب حتى اليوم (وكانت جرهم حين أحسوا بالخروج من مكة دفنوا الغزالين وسبعة أسياف قلعية وخمسة أدراع سوابغ فاستخرجها عبد المطلب . . . فضرب الغزالين صفائح فى وجه الكعبة وكانا من ذهب وعلق الأسياف على البابين يريد أن يحرز به خزانة الكعبة وجعل المفتاح والقفل من ذهب)[٤٥] ، وأطلق عليه د . سيد محمود القمنى (أستاذ الحنفية وزعيمها) ، [٤٦] وفى حقه يقول الأستاذ عباس محمود العقاد (كان عبد

---

(٤١) **محمد رسول الله** ، مرجع سابق ، ص ٧٥ .

(٤٢) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، الجزء الأول ، ص ٦٥-٦٦ ، مرجع سابق .

(٤٣) **مختار الصحاح** ، للإمام الرازى «مادة أله» .

(٤٤) ابوالوليد الأزرقي ، **أخبار مكه وما جاء فيها من آثار** ، تحقيق رشيد الصالح ، الجزء الأول ، ص ١٥١ ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، دار الأندلس ، بيروت .

(٤٥) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، الجزء الأول ، ص ٦٥ - ٦٦ ، مرجع سابق .

(٤٦) د . سيد محمود القمنى ، **الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية** ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، دار سينا بمصر .

المطلب متديناً صادق التدين ، مؤمناً بمحارم دينه فى الجاهلية ، لأن ثقة الإيمان طبيعة فى وجدانه وهو أول من حلى الكعبة بالذهب من ماله) [٤٧] .

إن مظاهر تأله عبد المطلب متعددة منها :

أ - (الاعتكاف فى غار حراء للتحنث فى شهر رمضان والإكثار من عمل البر وإطعام المساكين طواله) [٤٨] ويؤكد د . جواد علىّ على أن المتحنفين (ذكرنا أن عبد المطلب كان منهم أو زعيمهم برأى د . سيد القمنى) دأبوا على الاعتكاف فى المواضع الخالية البعيدة عن الناس وأنهم كانوا (يتحنثون فيها ويتأملون الكون يتلمسون الصدق والحق والتحنث والتعبد ، فكانوا يتعبدون فى تلك المواضع الهادئة الساكنة مثل غار حراء ، وقد ذكر أن الرسول كان يتحنث فيه الليالى يقضيها فى الغار)[٤٩] .

ب - (وكان ممن حرَّم الخمر فى الجاهلية) [٥٠] .

ج - (وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيئات الأمور) [٥١] .

---

(٤٧) عباس محمود العقاد ، **مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية** ، ص ١٩٤ ، (د . ت .) ، مكتبة دار العروبة بالقاهرة .

(٤٨) خليل عبد الكريم ، **الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية** ، ص ٣٥ ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ م ، دار سينا للنشر بالقاهرة .

(٤٩) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء السادس ، ص ٥٠٩-٥١٠ ، الطبعة الثانية ، كانون الثانى/ يناير ١٩٧٨ ، نشر دار العلم للملايين ، بيروت ، ومكتبة النهضة بغداد .

(٥٠) الإمام الصالحى الشامى ، **سبل الهدى والرشاد** ، الجزء الأول ، ص ٣١٤ ، مرجع سابق .

(٥١) شيخ الإسلام فضيلة د . عبد الحليم محمود ، «حاشية بقلمه» بهامش ص ٧٥ من كتاب **محمد رسول الله** ، تأليف آتين دينيه / سليمان بن إبراهيم نقلها الإمام الأكبر من كلام سبط إبن الجوزى ، مرجع سابق .

د - (وكان يؤمن بالدار الآخرة ورفض فى آخر عمره عبادة الأصنام ووحد الله سبحانه وتعالى) [٥٢] .

هـ - (تؤثر عنه سنن جاء القرآن الكريم بأكثرها وجاءت بها السنة منها :

١ - الوفاء بالنذر (٢) المنع من نكاح المحارم (٣) قطع يد السارق (٤) منع قتل الموءودة (٥) تحريم الزنا (٦) ألا يطوف بالبيت عريان[٥٣] .

هذه لمحة سريعة عن «القسمات الشخصية» لعبد المطلب من «الجانب الدينى» ، يبين فيها أنه أدرك - حتى ينجح فى مسعاه فى دمج ضفيرة الدين فى نسيج الدولة - أنه يتعين عليه أن يبدأ بنفسه حتى تكون هناك مصداقية لدعواه ، ونأمل ألا يفهم من هذا أن تلك السمات كانت مستعارة أو مصطنعة ، حاشا وكلا ، فهو كما يبين مما قرأناه عنه فى المصادر كافة التى أتيحت لنا أنه كان «متألها» بحق وعن عقيدة ، ولكن كان يعلم وهو الرجل المحنك صاحب التجارب العميقة ، ضرورة ضرب المثل بالنفس بداية ، وأهمية القدوة عند دعوة الناس إلى أية عقيدة ، فهنا تلازمت أو تزامنت طبيعته المتألهة مع نهجه فى مزج الدين بالدولة وضرورة ذلك حتى تكتسب الدولة القداسة التى إذا انغرست فى نفوس المحكومين أثمرت طاعة كاملة وانقياداً تاماً ، وساهمت القداسة فى نشر سلطان الدولة لا على مكة وحدها ؛ بل على الجزيرة بأسرها وأثبتت الوقائع أنه كان حصيفا بعيد النظر إذ ساعد الدين على استمرار دولة قريش قروناً عديدة ، ولايهم تغيير نوعية الدين فهذا مبحث يند عن

---

(٥٢) د . عبد الحليم محمود ، **محمد رسول الله** ، الحاشية نفسها .

(٥٣) المرجع السابق ، الحاشية نفسها .

موضوع كتابنا ، ولكن المهم هو جوهر الفكرة ولبابها ، حتى لو قيل إن الفكرة استعارها عبد المطلب من حكام بيزنطة فى القرن السادس الميلادى كما أسلفنا ، يبقى له الفضل فى «تعريبها» أى تطبيقها بكفاءة نادرة على المجتمع العربى ، وهو فضل كبير ظلت قريش لآماد طويلة تعترف له به ، وتقدره من أجله أعظم تقدير .

* * *

استخدم عبد المطلب أدوات الدين التى ذكرناها آنفاً لتأكيد مكانة قريش عامة لدى جميع العرب ولأهل مكة خاصة ، فبدأ عبد المطلب بالرؤى والهواتف التى تجيئه فى منامه (قال عبد المطلب : إنى نائم فى «الحجر» إذا أتانى آت فقال : احفر طيبة ، قال : قلت : ماطيبة ، قال : ثم ذهب عنى فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال : احفر برة ، قال :فقلت : ومابرة ، قال ثم ذهب عنى فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال : احفر زمزم قال : قلت وما زمزم ، قال : لاتنزف أبداً ولاتذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل)(٥٤) ، ولكن لماذا اقترن حفر بئر زمزم بحلم يراه عبد المطلب فى منامه؟ ! ولماذا أصر على أن الأمر بالحفر جاء عن طريق هاتف أو بتعبيره آت أتاه فى المنام يتكلم أو ينطق بـ «سجع الكهان» المليئ بالرموز والألغاز والإشارات؟ ! فى حين أن غيره كثير من قريش وغير قريش حفروا آباراً ، منهم أبوه هاشم ولم يقرنوا فعلهم بهاتف أوآت فى منامهم ؟ إن عبد المطلب كان من جانب رجلاً متألها ، ومن ناحية أخرى تلعب الأحلام دوراً بارزاً فى المجال الدينى والقرآن الكريم فيه العديد من القصص عن أحلام رآها أنبياء

---

(٥٤) الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام ، **السيرة النبوية** ، الجزء الأول ، ص ١٦٧ ، طبعة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ، مكتبة شقرون بالقاهرة .

مباركون مثل إبراهيم ويوسف ، وهي نفسها وردت مع غيرها في التوراة كتاب اليهود المقدس ، واليهود جيران الخزرج في يثرب التي قضى عبد المطلب فيها صباه ولابد أنه سمعها هناك مع أخواله من بني النجار ، ومن ناحية ثالثة فإن الرؤى والأحلام تضفي قدراً وفيراً من القداسة على الموضوعات المتعلقة بها ، إذا حايثتها ملابسات ورموز لها قداستها مثل ماحدث في حلم حفر زمزم مع عبد المطلب ، الذي تلقى الحلم وهو نائم في الحجر (حجر إسماعيل) والهاتف الذي أتاه تحدث بلغة الكهان : الكلام المسجوع والألغاز والرموز والإشارات ، وهذا مايؤكده علماء الاجتماع . (أما الأحلام المعبرة عن النمط الثقافي السائد فهي بحق الأحلام التي توضح بشكل أكثر مباشرة تأثير الثقافة على الأحلام ، فهذا النوع من الأحلام تحدد الثقافة ملامحه وتكافيء صاحبه عليه ، وهو يضم في الغالب بعض الكائنات فوق الطبيعية وتعتبر لذلك (رؤى) وليست أحلاما .أما العناصر الى تتعلق بالأحلام فهي :

أ - تظهر الكائنات فوق الطبيعية في الأحلام لتمد الأفراد بالقوى المختلفة وبالمساعدة وبالطقوس وبالمعلومات . . .

ب - وهناك بعض الطقوس التي يتعين على الإنسان أن يؤديها إذا رأى أحلاماً معينة مثل تقديم أضحية أو الابتعاد من الناس)(٥٥) فحلم عبد المطلب أو رؤياه يعتبر من الأحلام المعبرة عن النمط الثقافي السائد ، وهي الثقافة التي تلقاها في صباه في يثرب عندما كان يعيش مع أمه سلمى وأخواله من بني النجار والتي انتقلت إليه وإليهم من أثر احتكاكهم باليهود وفي الرؤيا أتاه «آت» وهو من الكائنات فوق الطبيعية ، وهو الذي أمده بالمعلومات التي حددت له موضع حفر «زمزم» وسوف نرى أنه في حلم

---

(٥٥) د . محمد الجوهري ، **علم الفولكلور - دراسة المعتقدات الشعبية** ، الجزء الثاني ، ص ٣٠٦ و ٣٢٢ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م ، دار المعارف بمصر .

آخر جاءه هذا «الآتى» ودلّه على الأضحية التى يجب عليه تقديمها شكراً لله وهى ذبح أحد أبنائه الذكور بعد أن بلغوا عشرة .

ولقد نجح عبد المطلب أيما نجاح فيما استهدفه من الرؤيا الخاصة بحفر زمزم وما لابسها من قداسة ، إذ غدت زمزم بئراً مقدسة بل إنها مازالت كذلك بعد مضى مايقرب من خمسة عشر قرناً .

وتقديس زمزم هو فى الوقت نفسه إعلاء لشأن عبد المطلب وبنى مناف وقريش (افتخرت بنو عبد مناف بـ«زمزم» على قريش وعلى سائر العرب ، قال مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد مناف :

وزمزم فى أرومتنا ونفقأ عين من حسدا) (٥٦) .

وينقل إلينا الإخباريون حلماً آخر رآه عبد المطلب فى منامه أيضا فى «الحجر» ، ولكنه فى هذه المرة يتعلق مستقبل «دولة قريش» وكيف أن واحداً من شبابها يخرج من صلبه وهو الذى سوف يقوم بأمرها ويتولى شئونها حتى يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس (قال عبد المطلب : بينما أنا نائم فى «الحجر» رأيت رؤيا هالتنى ففزعت منها فزعاً شديداً فأتيت كاهنة قريش وعلىَّ مطرف خز على منكبى ، فلما نظرت إلىَّ عرفت فى وجهى التغير وأنا يومئذ «سيد قومى» فقالت : مابال «سيدنا» قد أتانا متغير اللون هل رابه من حَدثان الدهر شيئ ؟ فقلت لها : بلى ، وكان لايكلمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى ثم يضع يدها على أم رأسه ثم يبدو بحاجته ، ولم أفعل لأنى كنت «كبير قومى» فجلست فقلت : إنى «رأيت الليلة وأنا نائم كأن شجرة نبتت وقد نال رأسها السماء فضرب بأغصانها المشرق والمغرب وما رأيت نوراً أزهر منها ، أعظم من نور الشمس بتسعين ضعفاً ، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها وهى تزداد كل ساعة بروقا ، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها

(٥٦) ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، الجزء الأول ، ص ١٧٤ ، مرجع سابق .

ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها فإذا دنوا منها أخرهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً ، فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم ، فرفعت يدى لأتناول منها قسماً فقال لى : لانصيب لك منها ، فقلت : ومن له نصيب ؟ فقال : النصيب لها وللذين تعلقوا بها وسبقوك إليها ، فانتبهت فزعاً مرعوباً . فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ، ثم قالت : لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس) (٥٧) .

فى هذه الواقعة التى رواها لنا الإمام الجوزى نرى أن عبد المطلب استخدم الرؤيا لتأكيد هدفه ، وللإيحاء بأن دولة قريش رسالة علوية لابد من تحقيقهاعلى أرض الواقع ووظفت الكاهنة التى يعظمها أهل مكة (لايكلمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى) والتى هى فى نظرهم شخصية مباركة (ثم يضع يدها على أم رأسه ثم يبدو بحاجته) كما أن لها فى نظرهم صلة وثيقة بالقوى العلوية ، وتوظيف الكاهنة هنا من قبل عبد المطلب هو لتوثيق الهدف بخروجه من ضمن من له اتصال بالعوالم الغيبية التى يتقبل الناس كلامها بالتسليم المطلق ؛ لأنه نوع من الإلهام السماوى (فقد كان العرب يفزعون إلى الكهان فى تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم فى الخصومات ليعرفوهم بالحق «من إدراك غيبهم») (٥٨) فلما تقول كاهنة قريش لسيد قريش عبد المطلب «ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس» يصير هذا القول حقيقة

---

(٥٧) الإمام الجوزى ، **الوفاء بأحوال المصطفى** ، تحقيق د . مصطفى عبد الواحد ، الجزء الأول ، ص ٧٩ ، ١٩٨٠ - الطبعة الأولى ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

(٥٨) ابن خلدون ، **مقدمة ابن خلدون** ، تحقيق د . على عبد الواحد وافى ، الجزء الأول ، ص ٣٧٣ ، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧ م ، لجنة البيان العربى بالقاهرة .

مؤكدة لأنها لم تقل ذلك من تلقاء نفسها ولكن عن إلهام أتاها من قوى علوية هى على اتصال بها وأن هذا «من إدراك الغيب» على حد تعبير عبد الرحمن بن خلدون ويصبح التشكيك فيه نوعاً من التجديف والإلحاد ويتولى عبد المطلب وبنو عبد مناف إذاعة هذه النبوءة وإشاعتها بين الناس حتى تؤتى ثمارها .

* * *

سبق أن ذكرنا أن هاشما أبا عبد المطلب تزوج سلمى إبنة أحد سادات بنى النجار من الخزرج فى يثرب فولدت له هناك عبد المطلب وظل فيها حتى ناهز البلوغ إلى أن حضر عمه المطلب وأخذه معه إلى مكة ، واليهود فى ذلك كانوا يعيشون فى يثرب ويختلطون بأهلها من الأوس والخزرج الذين لابد أنهم سمعوا منهم العديد عن ديانتهم التوحيدية وعن قصصهم التى تحفل بها التوراه كتابهم الأقدس ؛ وبداهة أن عبد المطلب سمعها معهم أثناء مقامه بين ظهرانيهم وترسب بعضها فى ذهنه مثل «المسطورة» التى تحكى عن شروع النبى إبراهيم عليه السلام فى ذبح ابنه إسحق عند اليهود «ثم افتدى بكبش (فناداه ملاك الرب من السماء وقال : إبراهيم إبراهيم ، فقال : هأنذا ، فقال لاتمد يدك إلى الغلام ولاتفعل به شيئاً ، لأنى علمت الآن أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى ، فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً فى الغابة بقرنيه ، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه)(٥٩) واستيعاب عبد المطلب لهذه (المسطورة) على وجه التحديد مرجعه أنها تتعلق بـ «إبراهيم» عليه السلام جد العرب المستعربة فهو أبو إسماعيل أبوهم ، وظلت مختمرة فى ذهنه وتعيش فى وجدانه حتى بعد أن كبر وغدا (سيد

---

(٥٩) «سفر التكوين» ، الإصحاح الثانى والعشرون ، من ١١ إلى ١٤ .

البطحاء) فنراه يعيد تشخيصها سواء عن وعى أو عن طريق اللاشعور فهو ينذر لله ذبح أحد أولاده الذكور إذا تكامل عددهم إلى عشرة رجال ، ولكنه فيما يبدو شغلته المشاغل الرئاسية عن الوفاء بهذا النذر الذى لم يسبق إليه أحد من العرب كما قال له «ملأ قريش» وهو الذى يؤكد ماذهب إليه أن ذلك النذر كان من تأثير تلك (المسطورة) عليه إذ لو أن هذا النذر كان معروفاً أو شائعا لدى العرب أو حتى عند قريش لقلنا إن عبد المطلب كان يتأسى فيه بمن سبقوه ، فلما أبطأ فى وفاء مانذره لله (نام ليلة عند الكعبة فرأى فى المنام قائلا يقول : ياعبد المطلب أوف بنذرك لرب هذا البيت ، فاستيقظ فزعاً وأمر بذبح كبش[٦٠] وأطعم الفقراء والمساكين ، ثم نام فرأى قائلا يقول : هو أكبر من ذلك فانتبه ، وقرب جملاً وأطعمه المساكين ثم نام ، فنودى :أن قرب ماهو أكبر من ذلك فقال : وماهو أكبر من ذلك؟ فقيل له :أحد أولادك الذى نذرته فاغتم غماً شديداً)[٦١] ولكنه لايجد مفراً من تنفيذ أوامر «الهاتف» أو «الآتى» ويهم بذبح أصغر أبنائه وأحبهم إليه وتنتهى الحكاية بفداء الابن ، لابكبش واحد كما افتدى إسحق «عند اليهود» وإسماعيل «عند المسلمين» ولكن بمائة من الإبل ، ونجحت هذه الواقعة فى تحقيق الهدف الذى تغياه منها عبد المطلب ، إذ منذ حدوثها صارت تتم مقارنة بين إبراهيم عليه السلام وعبد المطلب وإسحق أو إسماعيل عليهما السلام وابن عبد المطلب الذى قدمه للنحر وأصبح يقال لإسماعيل ولابن عبد المطلب (الذبيحان)

---

(٦٠) ورد ذكر الكبش فى **المسطورة** ، التى سطرت عن النبى إبراهيم عليه السلام .

(٦١) رفاعة رافع الطهطاوى ، **سيرة الرسول وتأسيس الدولة الإسلامية** ، أو **نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز** ، الجزء الرابع ، ص ٣٢ ، من الأعمال الكاملة لـ رفاعة رافع الطهطاوى ، تحقيق محمد عمارة ، الطبعة الأولى ، أيلول/ سبتمبر ١٩٧٧ م ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت - لبنان .

والذى يلفت النظر أن عبد المطلب عندما أراد أن يوفى بنذره لله تعالى لم يقم بذلك سراً فى داره أوفى أحد جبال مكة بعيداً عن الأعين ولكنه فعل ذلك فى فناء الكعبة وعلى مرأى ومسمع من ملأ قريش الذى سارع فحال بين عبد المطلب وبين ماكان يريد - قد يقال رداً على هذا التساؤل إن عبد المطلب أراد ذبح الابن عند قدمى (إساف ونائلة) وهما صنمان لقريش كانا فى فناء الكعبة كما ورد فى بعض كتب السيرة ، ولكن هذا مردود عليه بالآتى :-

أ - أن النذر كان لله لا لـ (إساف ونائلة) .

ب - أن عبد المطلب كان من المتحنفين بشهادة عدد من المؤرخين القدامى «والباحثين المحدثين» والمتحنفون هم موحدون فى المقام الأول وعلى (ملة إبراهيم) ونبذوا الأصنام وسفهوا الذبح لها ذبح الأنعام «الحيوانات» لاذبح إنسان .

أغلب الظن أن عبد المطلب اختار مكان الذبح وهو نادى قريش عن عمد لأنه كان موقناً أنهم سوف يمنعونه ، والذى جاء بـ «الكبش» فى «مسطورة» إبراهيم عليه السلام هو ملاك الرب جبريل عليه السلام قيل إنه أحضره من الجنة ، أما الذى أفتى بذبح مائة من الإبل فداء لابن عبد المطلب فهى عرّافة الحجاز المقيمة بـــ «يثرب» حيث قضى عبد المطلب صباه أو «خيبر» واسمها «قطبة» أو «سجاح» (٦٢) .

ونلاحظ أن الرؤى لاتأتى لعبد المطلب إلا وهو نائم فى أماكن تتسم بالقداسة فحلم عبد المطلب بـــ حفر زمزم أتاه الآتى وهو نائم فى (الحجر) أى حجر إسماعيل كذلك رؤيا «الشجرة المباركة» «أما رؤيا ذبح الابن فقد

---

(٦٢) السهيلى فى **الروض الأنف** ، الجزء الأول ، ص ١٧٧ ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ، طبعة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، مكتبة شقرون بالقاهرة .

وردت عليه وهو نائم عند الكعبة وهذا أمرله دلالة ، لأن الرؤى فى هذه الأماكن المقدسة تستمد منها بالضرورة القداسة .

[فالاعتقاد بأن الآلهة كانت تتجلى للبشر وتعلنهم بإرادتها فى الأحلام اعتقاد شائع فى الأزمنة القديمة - ولهذا كان الناس يذهبون إلى المعابد وغيرها من الأماكن المقدسة ليناموا فيها ويحلموا فيتحدثوا إلى القوى العليا الخفية فى الأحلام ، على أساس الاعتقاد بأن أكبر احتمال لتجلى الآلهة كان فى الأماكن المخصصة لعبادتها][٦٢أ] .

إن تأدية عبد المطلب للدور نفسه الذى قام به جده إبراهيم عليه السلام ، وتشبهه به لم يأت اعتباطا ً، ولكن لهدف لايخفى ؛ وهو إضفاء مزيد من القداسة على سادن الكعبة وأمير مكة بدون مدافع .



ومما سمعه عبد المطلب أيضاً وهو بين أخواله بنى النجار « فكرة ظهور نبى منتظر» أطل أو أظل زمانه وهى فكرة شاعت فى يثرب ثم بعد ذلك فى مكة لاختلاط أهلها باليهود والنصارى[٦٣] وطمع أكثر من متحنف أن يكون هو النبى المنتظر مثل أمية بن أبى الصلت الشاعر المشهور وأحد الأحناف المعروفين ، وعبد المطلب كما ذكرنا كان أحدهم أو أستاذهم وزعيمهم فى رأى د . سيد القمنى ، فضلاً عن عراقة محتده وسمو مكانته فى قومه ، إذن لابد أن يكون الأمل قد راوده فى أن يكون هو النبى المنتظر أو على الأقل أحد ذريته ، ومما زاد هذا الأمل شعشعة فى دماغه

(٦٢أ) سير جيمس فريزر ، **الفلكلور فى العهد القديم** ، المجلد الثانى ، ص٤٢ ، نقلاً عن كتاب **قراءة سياسية للتوراة** ، تأليف شفيق مقار ، ص٢٣٦ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، نشر دار «رياض الريس» - لندن

(٦٣) سوف نتناول هذه الفكرة تفصيلاً فى المبحث الخاص عن «اليهودية والنصرانية» الذى سيجيىء فيما بعد .

حتى سيطر على فكره أن بعض العرافين رشحه أو خليفة من صلبه لتلك الرسالة المجيدة (أخبرنا اليزيدى قال : أخبرنا سليم بن عبد العزير بن أبى نائب من ولد عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن بن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال : خرج عبد المطلب إلى اليمن فى رحلة الشتاء ، فلقيه رجل من أهل «الزبور» فنسبه فانتسب له ، فقال : أتأمرنى أن أنظر إلى شيئ منك ؟ قال : نعم مالم تكن عورتى ، فجعل يقلب وترة أنفه فقال : أني لأرى سحراً فيه نور النبوة ولكنا لانجد النور يكون إلا فى بنى زهرة فهل لك من شاعة ؟ قال : وما الشاعة ؟ قال الزوجة ، قال : أما اليوم فلا ، قال فارجع فتزوج فى بنى زهرة فتروج هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة وتزوج عبد الله ابنه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فقال قريش : فلح عبد الله على أبيه عبد المطلب فولدت له حمزة والمقدم وصفية بنى عبد المطلب ، وولدت آمنة لعبد الله محمداً صلى الله عليه وسلم)[٦٤] ، وروى ابن سعد هذه القصة بصورة قريبة (عن جعفر بن عبيد الرحمن بن المسور بن مخرمة الزهرى عن أبيه عن جده قال : كان عبد المطلب إذا ورد اليمن نزل على عظيم من عظماء حمير فنزل عليه مرة من المر (المرات) فوجد رجلاً من أهل اليمن قد أمهل له فى العمر وقد قرأ الكتب فقال : ياعبد المطلب تأذن لى أن أفتش مكانا منك ؟ قال : ليس كل مكان منى آذن فى تفتيشه ، قال : إنما هو منخراك ؟ قال : فدونك ، قال فنظر إلى بار – وهو الشعر فى منخريه – فقال : أرى «نبوءة» وأرى «ملكاً» وأرى أحدهما فى بنى زهرة ، فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وزوج ابنه

---

(٦٤) أبو القاسم الزجاجى ، **أخبار أبى القاسم الزجاجى** ، تحقيق د . عبد الحسين المبارك ، ص١٢٥ سلسلة «كتب التراث» ، العدد رقم ٩٥ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م ، دار الرشيد وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية .

عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فولدت محمداً صلى الله عليه وسلم ، فجعل الله من بنى عبد المطلب النبوة والخلافة والله أعلم حيث وضع ذلك) (٦٥) .

هنا نجد أن عبد المطلب قد ارتكن إلى كهانة الكهان أو عرافة العرافين(٦٦) فى مسألة توقع ظهور النبوة فى قريش وعلى الأخص فى أولاده (من صلبه) ولا يكتفى بتقبل هذه النبوءات باحتفال واستبشار بل هو يعمل على نشرها بين الناس الذين ظلوا يتناقلونها حتى دونها أصحاب الأخبار فى كتبهم ، ولا شك أن هذه المقولات أو النبوءات عندما تشيع وتذيع بين المكيين والعرب تؤتى ثمارها المرجوة من تقديس قريش أولاً ثم بنى عبد مناف فعبد المطلب وأولاده وبذلك تتعاضد القداسة مع الحكومة وتشد من أزرها . ولم يكن الكهان أو أصحاب العرافة وحدهم هم الذين بشروا عبد المطلب بظهور النبى المنتظر من صلبه بل إن «سيف بن ذى يزن» فعل ذلك ، عندما ذهب إليه عبد المطلب على رأس وفد من أشراف قريش لتهنئته بظهوره على الحبشة (٦٧) .

ومن اللافت للنظر أن «سيف بن ذى يزن» أسرَّ لعبد المطلب بهذه البشارة فى خلوة بينهما لم يشهدها أحد ، فيغدو من البديهى أن من نقلها

---

(٦٥) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، الجزء الأول ، ص ٦٦-٦٧ ، مرجع سابق .

(٦٦) الفرق بين الكاهن والعراف ليس واضحا تماما ، فكلاهما يتصل بالتنبؤ ومعرفة الغيب عن طريق شخص يفترض فيه أن له طبيعة خاصة تميزه عن سائر الناس ، والفرق الوحيد الذي ذكره ابن خلدون بينهما هو أن الكاهن ينسلخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها في لحظة أقرب من لمح البصر - عبدالرحمن بن خلدون ، **المقدمة** ، الجزء الأول ، ص ٣٦١ ، مرجع سابق .

(٦٧) أنظر تفاصيل القصة في« الاكتفاء» ، للكلاعي في فصل بعنوان **بشارة سيف بن ذي يزن بالنبي** ، ص ١٧٨ ومابعدها من الجزء الأول ، مرجع سابق ، وكذلك في **أخبار مكه** ، للأزرقي ، الجزء الأول ، ص ٢٥١ ، مصدر سابق .

إلى الناس هو عبد المطلب نفسه وهو لم يفعل ذلك اعتباطا أو دون هدف أو غاية ؛ هكذا وظف عبد المطلب الأحلام والرؤى والكهانة والعرافة وهى من أدوات الدين بذكاء واضح فى تأكيد قيام دولة قريش .

* * *

إضفاء هالة القداسة على دولة قريش ورئيسها كان عملاً فذاً من جانب عبد المطلب ، باشره بذكاء وسعة أفق ، ومعرفة بموجبات عصره فى سياسة الحكم ، ولكنه لم يقتصر على ذلك أى أن يظل مجرد «سادن الكعبة» بحسب تعبير شيخ الإسلام فضيلة الإمام الأكبر د . عبد الحليم محمود ، بل أولى جانب «السيادة الدنيوية» اهتماماً ملحوظاً ، حقيقة أن أباه هاشما وطأ له الأكناف وذلل له الصعاب وعبّد له الطرق وبذلك وفَّر عليه الكثير ، ولكنه سار فى إكمال الشوط .

فكانت صلاته الخارجية بمن حوله من الملوك ممتازة استمراراً لخط أبيه ، فقد قرأنا سابقاً وفوده على رأس ركب من سادات قريش لتهنئة سيف بن ذى يزن لظهوره (انتصاره) على الحبشة ، وفى الوقت نفسه كان على علاقة طيبة بـ «النجاشى» ملك الحبشة إذ يحدثنا الإخباريون (أن عبد المطلب وحرب بن أمية تنافرا إلى النجاشى فأبى أن ينفر بينهما فجعلا بينهما جد عمر بن الخطاب)[٦٨] ، ولا شك أن تحكيم النجاشى بين عبد المطلب وحرب بن أمية دليل على المكانة الى بلغها عبد المطلب لدى ملك الحبش .كذا رأينا فيما سلف أن عبد المطلب كان ينزل على «أقيال» اليمن عند وصوله إليه وفى إحدى المرات قابل لدى أحدهم العرّاف الذى تنبأ له بظهور نبى من صلبه .

أما فى المجال الداخلى فقد كان يعقد «الأحلاف» مع رؤساء القبائل المعروفة (أتاه نفر من خزاعة فقالوا : نحن قوم متجاورون فى الدار ، هلمّ

(٦٨) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، الجزء الأول ، ص ٦٨ ، مرجع سابق .

فلنحـالفك فـأجابـهم إلى ذلك)[٦٩] وخـزاعـة من أكـبـر قـبـائل جـزيرة العـرب . أما صلته بأهل يثرب وخاصة الخزرج أرومة أمه سلمى فكانت ممتازة (كان عبد المطلب يكثر من زيارة أخواله في يثرب) [٧٠] ، وعندما ثار نزاع بين عبد المطلب وعمه نوفل بشأن أملاك اغتصبها الأخير منه ، استعان بأخواله من بني النجار فأعانوه بـ(ثمانين محارباً يثربياً يحملون السيوف إلى مكة مما دفع نوفلاً إلى التراجع على الفور)[٧١] .

نعود هنا إلى التأكيد على ضرورة دراسة الأسباب الموضوعية التى جعلت من يثرب أول مقر لدولة قريش المعلنة ، وكيف أن ذلك لم يكن مصادفة ولا لأسباب غيبية كما ذهب إليه المؤرخون القدامى ومن جاراهم من المؤرخين المحدثين .

وفى سبيل توثيق عرى الروابط الداخلية ؛ لم يكتف بعقد الأحلاف بل سار على نهج أسلافه وهو النهج نفسه الذى سوف يسير عليه أخلافه ونعنى به الإصهار إلى عدد من القبائل المعروفة : بنى زيد بن مناة بن عامر ، بنى زهرة ، بنى مخزوم ، هوازن ، خزاعة ، والأخيرتان من أكبر قبائل جزيرة العرب ، وهذه الزيجات هى فى حقيقتها أحلاف وإن لم تتخذ صورتها المعهودة . ثم واصل الاهتمام بـ «السقاية والرفادة» اللتين ذكرنا أهميتهما فيما سلف سواء من الناحية الدينية أو الناحية الاجتماعية (ثم ولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب فأقامها للناس ، وأقام لقومه ماكان آباؤه يقيمون لقومهم من أمرهم ، وشرف فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه وعظم خطره فيهم) [٧٢] ، ولعل أبرز

(٦٩) **الطبقات الكبرى** ، مرجع سابق ، ص ٦٦ .
(٧٠) الإمام الصالحى ، **سبل الهدى والرشاد** ، الجزء الأول ، ص ٣١٠ ، مرجع سابق .
(٧١) د . سيد محمود القمنى ، **الحزب الهاشمى** ، ص ٤٤ ، مرجع سابق .
(٧٢) ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، الجزء الأول ، ص ١٦٥ ، مرجع سابق .

مايقدم كدليل على عناية عبد المطلب بـ «السقاية» هو قيامه بحفر زمزم التى غطت أهميتها على البيار التى حفرها أسلافه من قبل ، حتى إنها غدت أشهرها فى نواحى أقطار الجزيرة كافة ، ولذا كان من بين الألقاب التى أطلقت عليه (ساقى الحجيج) ، وقبل ذلك (كان يسقيهم فى حياض من أدم وجلد ، بمكة ، فلما سقى زمزم ترك السقى فى الحياض بمكة وسقاهم من زمزم حين حفرها وكان يحمل الماء من زمزم إلى عرفة فيسقيهم) [٧٣] . وكان لعبد المطلب ابل كثيرة فإذا كان الموسم جمعها يسقي لبنها بالعسل في حوض من ادم عند زمزم ويشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج[٧٤]

وكعادة الملوك الذين يتحرون العدل كان عبد المطلب يتفقد أحوال رعيته ليطمئن عليها ، وفى إحدى المرات كان عائداً من الطائف [٧٥] وكان آن ذلك قد ذهب بصره [٧٦] فسمع عن رجل من مكة أسره نفر من «جذام» لأنهم فقدوا واحداً منهم ، اغتالته بيوت مكة ، فأخذوه بدلاً من صاحبهم ، فأرسل إليهم عبد المطلب ابنه «أبالهب» يسألهم ما الذى دعاهم إلى أسر المكى؟ وتعهد لهم بالبحث عن الجذامى وقال : إن لم تجدوه فـ (أنا أحلف لكم لأعطينكم عشرين أوقية ذهباً وعشراً من الإبل وفرساً ، وهذا ردائى رهنا بذلك فقبلوا منه) [٧٧] فانطلق المكى مسرعاً إلى داره بمكة ولسانه يلهج بالمديح لـ « سيد البطحاء» .

---

(٧٣) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، الجزء الأول ، ص ٦٣ ، مرجع سابق .

(٧٤) **اخبار مكة** ، للأزرقي ، الجزء الأول ، ص ١١٤ ، مصدر سابق .

(٧٥) لعبد المطلب ماء بالطائف يسمى «الهرم» .

(٧٦) تفاوت الإخباريون في تقرير سن عبدالمطلب ما بين ٨٥ سنة و ١١٠ سنة ، ١٢٠ سنة والأول هو الأثبت .

(٧٧) الإمام الصالحي ، **سبل الهدى والرشاد** ، الجزء الأول ، ص ٣١٣ ، مرجع سابق .

وكان عبد المطلب يجير يهودياً [٧٨] فعدا عليه غلمان لـ «حرب بن أمية» فقتلوه فنافر عبد المطلب حرباً إلى «النجاشى» ثم إلى نفيل جد عمر ابن الخطاب الذى قضى لصالح سيد مكة فترك عبد المطلب منادمة حرب وأصبح «عبد الله بن جدعان» أغنى أغنياء مكة نديماً له .عبد المطلب غضب لقتل يهودى استجار به وأصر على منافرة ابن عمه حرب وهو سيد من سادات قريش وترك منادمته أى قاطعه ولم يلتفت إلى أن القتيل يهودى غريب عن مكة وليس من ورائه قبيلة تطالب بديته ، وهذا يقطع بأن عبد المطلب كان مصراً على إقرار العدل فى مكة التى حكمها .

كان عبد المطلب - كما روى لنا أصحاب الأخبار - يذبح عشرات الإبل فلا يصد عنها إنساناً ولا وحشاً ولا طيراً ولذا كان يسمى بـ «مطعم الطير» (لما قضى لعبد المطلب بـ « ذى الهرم» ماء له بالطائف غلبه عليه جندب بن الحارث الثقفى - تنافرا إلى كاهن قضاعى فلما قضى لصالح عبد المطلب استعار عبد المطلب قدوراً ، ثم أمر فنحرت الجزائر ، ودعا من حوله فأطعمهم وبعث إلى جبال مكة بجزائر منها فأمر فنحرت للطير والسباع شكراً لله) [٧٩] .

هذه الصنائع من جانب عبد المطلب محاولة منه لتخفيف المعاناة عن فقراء قريش ، ولامتصاص سخطهم بعد أن تسارع المجتمع المكى فى التفكك نتيجة لتعاظم الأموال واتساع نطاق التجارة ، وتحولها من المحلية إلى العالمية ، وأفول شمس مقومات مجتمع القبيلة الذى كان يتميز ولو بقدر يسير من التعاضد ، واختفاء الملكية الجماعية أو شبه الجماعية التى هى من خصائص المجتمع القبلى وحلول الملكية الفردية محلها ، ولبدء ظهور تمايز طبقى فى المجتمع وانقسامه إلى طبقتين : الأغنياء والفقراء

---

(٧٨) لعل ذلك من أثر نشأته في يثرب التي يسكنها الخزرج والأوس مع اليهود .

(٧٩) الإمام الصالحي ، **سبل الهدى والرشاد** ، الجزء الأول ،ص ٣١٢ ، مرجع سابق .

(حتى من القرشيين أنفسهم) فكان عبد المطلب كحاكم مسئول يعمل جاهداً على رفع - أو إزالة - عوامل التذمر لدى الجماهير المحرومة من أهل مكة من قرشيين وغيرهم .

* * *

ونختتم هذا المبحث عن عبد المطلب بموقفه الذى يبدو غريباً للقارئ المتعجل من الغزوة الخائبة التى قادها الأشرم أبرهة الحبشى على مكة بفيله للاستيلاء عليها للتحكم فى أهم «ملتقى» لطرق القوافل التجارية فى جزيرة العرب ، ولم يوفق له ذلك ، لانتشار الأمراض فى جيشه ومن بينها الجدرى وعدم تحمل عسكره لحرارة شمس الصحراء الحارقة فى الطريق من اليمن إلى مدينة القداسة لقد أظهر عبد المطلب حنكة يعز نظيرها ودهاءً وبصراً بالأمور كلها تثير الدهشة البالغة :

١ - فهو لم يحارب الحبش لأنه يوقن من قرارة نفسه أن قريشاً قبيلة تجارة لاقبيلة حرب[٨٠] فأمرهم باللجوء إلى شعاب الجبال .

٢ - أنه كان يدرك أن حرارة الصحراء ومصاعب الانتقال من اليمن إلى مكة ، سوف تقوم بدلاً من القرشيين التجار وأرباب المال بهزيمة الأحباش ودحرهم[٨١] .

(٣) أظهر للأشرم استخفافه واستهانته به وبجيشه عندما قابله إذ أن كل ماطلبه منه هو أن يأمر برد المائتى بعير المملوكة له والتى اغتصبها منه بعض جنده ، وكان الحبشى يتوقع منه التسليم وإمضاء شروط الصلح ، وهذا الموقف من جانب عبد المطلب - فوق دلالته على دهائه البالغ - كان له تأثير نفسى صاعق على أبرهة إذ أصابه بالحبوط خاصة وأن جنوده

(٨٠) نذكر هنا بأن عبد المطلب عندما أراد استرداد أملاكه من مغتصبها عمه نوفل استعان بأخواله من بنى النجار بيثرب فأعانوه بـ « ثمانين فارساً » .

(٨١) كما قامت ثلوج وجليد وشتاء روسيا القارص بهزيمة جيش نابليون .

كانوا يسقطون مرضى ضحية الحرارة الشديدة والأوبئة الفتاكة .

٤ - شن عبد المطلب حرباً نفسية من نوع آخر عند ماأفهم الأشرم أن مكة بلد حرام بها بيت الله الحرام وكعبتها مقدسة ، لها رب يحميها ، وكان القائد الحبشي نصرانياً تشتعل في نفسه العاطفة الدينية وتشغل فيها حيزاً كبيراً(٨٢) خاصة وأنه لابد قد سمع من عبد المطلب أو غيره أن الذى وضع قواعد بيت مكة هو إبراهيم - عليه السلام - أبو الأنبياء الذى له في نفوس أتباع المسيح عليه السلام مكانة عالية (يبدأ الإصحاح الأول من (إنجيل متى) بالآتى : كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داوود ابن ابراهيم)(٨٣) .

٥ - بعد أن أمر عبد المطلب أهل مكة بالخروج منها والتحرز في جبالها وشعابها وقممها توجه إلى الكعبة وأخذ بحلقة يأبها وأنشد بصوت جهورى وأهل مكة يسمعونه : لاهم (اللهم) إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك ، لايغلبن صليبهم . . . ومحالهم عدواً محالك إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمرما بدالك(٨٤) .

بذلك أعلن عبد المطلب المكيين ثم العرب من ورائهم أن المعركة هى بين رب البيت والأشرم لابين عبد المطلب والمذكور في حين يعلم عبد المطلب بحكم تجاربه العميقة وبصره بالأمور وبما وصله من أخبار معسكر الأحباش وماشاهده هو بنفسه وبعينى رأسه من أحوالهم المتردية عندما ذهب لقائدهم ليسترد أبعره أنهم وقائدهم مهزومون لامحالة قضت عليهم حرارة الصحراء اللاهبة والأمراض والحميات ، ذلك أن هذه الحملة الفاشلة وقعت في أشد الشهور اشتعالاً بالقيظ ، والدليل على

(٨٢) بنى أبرهة كنيسة في صنعاء يسميها الإخباريون «القليس» وهذا يقطع بتدينه .

(٨٣) «إنجيل متى» ، الإصحاح الأول .

(٨٤) ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، الجزء الأول ، ص ٧٠ ، مرجع سابق .

ذلك : أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم ولد (فى فجر الاثنين لإثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول - ٢٠ أغسطس ٥٧٠م)[٨٥] ولقد حقق الإمام محمد ابن يوسف الصالحى يوم ميلاد محمد عليه السلام وانتهى إلى أنه (بعد الفيل بخمسين يوماً ، وقال ابن كثير وهو أشهر وصححه المسعودى السهيلى وزادا أنه الأشهر والأكثر)[٨٦] ، فإذا كان المولد النبوى يوم ٢٠ أغسطس ٥٧٠م وأنه كان بعد الفيل بخمسين يوماً يكون «الفيل» أى حملة أبرهة قد وقعت فى أواخر شهر يونيو ، وفيه تصل درجة حرارة الجو إلى خمس وخمسين فى الظل داخل مكة فكم تبلغ فى الصحراء والجبال المحيطة بها ؟ إذن عبد المطلب كان يعلم علم اليقين أن الهزيمة الماحقة واقعة لامحالة بالأحباش .

قال ابن اسحق : وحدثني يعقوب بن عتبه بن المغيرة بن الاخنس انه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام .[٨٧]

وقد فشلت حملة ابرهة بظروف بعيدة عن المكيين فقد تفشى المرض في جيش ابرهة وهو على أبواب مكة .[٨٨]

٦ - بذكاء شديد استثمر عبد المطلب تلك الهزيمة النكراء فنسبها إلى القوى العلوية الغيبية التى تحمى البيت الذى لاذ بحلقته داعياً ربه وحاميه وهم جميعا يشهدون . وأن ماوقع لأبرهة وجنوده كان إكراماً لقريش وسادن كعبتها وأسرته على وجه الخصوص ، وآمن المكيون ومن بعدهم العرب جميع العرب - بهذا التصور ، وطافت هذه الحكاية تصك أسماع كل من له أذنان فى جزيرة العرب وماجاورها (قال إبن اسحق فلما ردّ الله

(٨٥) محمد رضا ، **محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم** ، ص ١٩ ، مرجع سابق .
(٨٦) الإمام الصالحى ، **سبل الهدى والرشاد** ، الجزء الأول ، ص ٤٠٤ ، مرجع سابق .
(٨٧) الكلاعى ، **الاكتفاء** ، الجزء الأول ، ص ١٣٥ ، مرجع سابق .
(٨٨) الأزرقى ، **أخبار مكة** ، الجزء الأول ، ص ١٤٨ ، مصدر سابق .

الحبشة عن مكة وأصابهم ماأصابهم من النقمة ، عظّمت العرب قريشاً وقالوا : هم أهل البيت قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم)[٨٩] .

* * *

هذا هو الدور المزدوج الذى قام به عبد المطلب «سادن الكعبة » و«أمير مكة » ، والذى ساهم به مساهمة فعالة فى تعلية بنيان «دولة قريش » التى أوشكت على الإعلان عن نفسها بصورة باهرة فى«يثرب » على يد حفيده محمد عليه الصلاة والسلام .

(٨٩) د . إبراهيم أحمد إبراهيم الشريف ، **مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول** ، ص ٦٧١ ،(د . ت .) ، دار الفكر العربى ، مصر .

٣

حلـــف الفضـــول

بعد وفاة عبدالمطلب افتقرت قريش إلى الزعامة ، لم يظهر من بعده من يمسك بمقاليد الأمور فى العاصمة المقدسة مكة ، ولعل عدة عوامل تضافرت على ذلك أهمها : عدم وجود شخصية كارزمية (آسرة) تستطيع أن تهيمن على بطون وأفخاذ قريش ، وتدين لها كلها بالولاء كما كان هو الشأن مع عبد المطلب ، ومنها أن قريشاً كانت فى طريق التحول من القبيلة إلى الدولة ، ولو إننا ندرك أن وصف الدولة مازال فى بواكيره ولم يصل بعد إلى غايته ، ولكنه بدأ بالفعل ، وإلا أسقطنا الجهود الجبارة التى بذلها قصي وهاشم وعبد المطلب ، وحكمنا عليها باللاجدوى أو العبث ، ولعله من السابق لأوانه أن نذكر هنا العوامل الاقتصادية التى ساعدت على هذا التحول ؛ إذ سوف يأتى ذلك فى الحديث عن المقدمات الاقتصادية . إن التحول من القبيلة إلى الدولة له موجبات خاصة ومستلزمات معينة تختلف عن التقاليد القبلية ، ومن أبرزها وجود حكومة قد تكون جماعية فى البداية يتولى اختصاصاتها نفر من المتنفذين وأصحاب الصدارة ، وهو الدور الذى قام به «حلف الفضول» ، إذ كان هو المَعْبَر (منطقة العبور) لحكومة المدينة التى تشكلت فى مكة فيما بعد من «الملأ» أو أصحاب الجاه والثروة والمكانة من قريش ، والتى كانت هى

بدورها المقدمة الضرورية لقيام الدولة التى شاءت ظروف تاريخية أن تتخذ «يثرب» عاصمة لها على يد النبى محمد بن عبد الله حفيد عبد المطلب ، بدلاً من أن تكون «مكة» هى حاضرة دولة قريش .

* * *

فما هو إذن «حلف الفضول » ؟

(الحلف فى الأصل هو اليمين والعهد ، وسمى العهد حلفاً لأنهم يحلفون عنده) .(١)

عرفت قريش قبل حلف الفضول أكثر من حلف :

(بعد وفاة قصى تنازعت قريش فى الذى كان جعله لابنه عبد الدار من السقاية والرفادة واللواء والندوة والحجابة . نازعهم بنو عبد مناف ، وقامت كل طائفة من قبائل قريش وتحالفوا لنصرة حزبهم ، فأحضر أصحاب بنى عبد مناف جفنة فيها طيب فوضعوا أيديهم فيه وتحالفوا فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت « الكعبة » فسموا بـ « المطيبين») (٢) .

(وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً فسموا بـ « الأحلاف ») (٣) .

(وكان هؤلاء وأولئك يوشكون أن يقتتلوا فى حرب تذيب قريشاً لو لا أن تداعى الناس إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف : السقاية والرفادة

---

(١) على بن برهان الدين الحلبى ٩٧٥/ ١٠٤٤هـ : **إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون أو السيرة الحلبية** ، ص ٢١١ ، الجزء الأول (د . ت .) ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

(٢) ابن كثير ٧٠١ / ٧٧٤ هـ : **السيرة النبوية** ، تحقيق د . مصطفى عبد الواحد ، ص ٢٥٧ ، الجزء الأول (د . ت .) ، دار إحياء الكتب العربية بمصر .

(٣) الإمام أبى محمد عبد الملك بن هشام المعافرى المتوفى ٢١٣ هـ : **سيرة ابن هشام** ، ص ١٥٣ ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ/ ١٩٧١) ، مكتبة شقرون بالقاهرة .

وأن تبقى الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار ورضى الفريقان بذلك وظل الأمر على ذلك إلى أن جاء الإسلام) (٤) .

يعلل بعض خصوم قريش عدم نشوب قتال بين الفريقين بأن قريشاً ليست أهل حرب وأن أبناءها تنقصهم الشجاعة اللازمة لخوض غمار المعارك وشدائدها ، وهذا رأى غير صحيح تنقضه وقائع التاريخ من قبل ومن بعد ، وفى رأينا أن الأسباب التى دفعت الفرقتين للتصالح ونبذ العراك هى :

أ – شعور القرشيين بقوة صلة الرحم فيما بينهم .

ب – وأنهم تجار ومصالحهم التجارية سواء فى الأسواق الداخلية أو الخارجية سوف تضار بنشوب الحرب .

ج – فضلاً عن أنهم « أهل الحرم » الذين تنظر إليهم قبائل العرب نظرة احترام ؛ بل وتقديس ، واحترابهم سوف يقلل من هيبتهم فى عيون الآخرين ويضع من مكانتهم التى يتمتعون بها فى الجزيرة العربية .

وهناك حلف آخر سمى بـ « حلف لعقة الدم » ومناسبته اختلاف بطون قريش وأفخاذها حول من يكون له شرف وضع « الحجر الأسود » فى مكانه من الكعبة عند تجديد بنائها (ثم إن القبائل جمعت الحجارة لبنائها جعلت كل قبيلة تجمع على حدتها ثم بنوا ، حتى إذا بلغ البنيان موضع الركن اختصموا كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوزوا (أى انحازت كل قبيلة إلى جهة) وتحالفوا وتواعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى الجفنة فسموا بـ «لعقة الدم» ، فمكثت قريش أربع ليالٍ أو خمساً على ذلك ؛ ثم إنهم اجتمعوا

---

(٤) د . محمد حسين هيكل : **حياة محمد** ، ص ١٢٢ ، الطبعة الحادية عشر ١٩٧١م ، دار المعارف بمصر .

فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض الرواة أن أبا أمية بن المغيرة كان - عامئذ- أسن قريش كلها . قال : يامعشر قريش إجعلوا فيما تختلفون فيه أوّل من يدخل من باب المسجد يقضى بينكم فيه ، فكان أول من دخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم) (٥) . وها نحن نرى مرة أخرى أن قريشاً تعدل عن القتال وتلجأ إلى أسلوب التحكيم لمنع اندلاع الحرب بينهم . والذى لامشاحة فيه أن وجود قريش فى مدينة (يسميها القرآن قرية) هى مكة د فعهم إلى مستوى حضارى أرقى بكثير من قبائل البوادى مما غرس فيهم اللجوء إلى إعمال العقل والمنطق وضبط النفس وعدم الاندفاع وراء غريزة حب القتال والعنف ؛ وخاصة بين بعضهم بعضاً وفى البلد الحرام الذى تقدسه كل العرب .

* * *

أما عن «حلف الفضول» .

فهناك فيما يعرف بـ « أيام العرب » أربعة حروب كلها يطلق عليها الإخباريون « حرب الفجار» إذ إستحلت فيها الأشهر الحرم أى «وقع القتال فيها على خلاف العرف الذى كان مستقراً بين القبائل العربية وقد استمرت عشر سنين :

الأولى : بين كنانة وهوازن والثانية : بين قريش وكنانة والثالثة : بين كنانة وبنى نضر بن معاوية والرابعة والأخيرة : بين كل من قريش وكنانة كلها وبين هوازن ، وحدثت فى العام الخامس والعشرين السابق على البعثة المحمدية وقد شهدها محمد عليه السلام مع قومه وعمره خمسة عشر عاماً (ولقد استمرت حرب الفجار هذه بين قريش وهوازن أربع

---

(٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : **تاريخ الرسل والملوك** ، المعروف بـ **تاريخ الطبرى** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر .

سنين ذلك أنها كانت تتجدد كلما إجتمع العرب فى «عكاظ» وانتهت بصلح دفعت فيه قريش دية عشرين رجلاً من هوازن . . . وكانت هوازن قد ساقت قريشاً فى أول سنة منها إلى أن لاذت بالحرم) (٦) .

إزاء ذلك (شعرت قريش بعد الفجار أن ماأصابها وما أصاب مكة جميعا بعد موت هاشم وموت عبد المطلب من تمزق الكلمة وحرص كل فريق على أن يكون صاحب الأمر قد أطمع فيها كل العرب بعد أن كانت أمنع من أن يطمع فيها طامع)(٧) ، أى أن قريشاً أو حكماءها قد أحسّوا بفراغ سياسى بعد هاشم وعبد المطلب واستدلوا على ذلك بما حدث فى حرب الفجار وأن الحال لو استمر على ذلك فسوف يغرى العرب بهم أى أن ماقام به كل من هاشم وعبد المطلب نحو تعلية بناء الدولة التى وضع أحجار أساسها قصى «مجمع قريش» سوف تذروه الرياح وأن بطون قريش وأفخاذها أخذت كلمتها تتفرق وطفق كل واحد منها يتشوف لتكون له كلمته المستقلة بعد أن كانت كلمة عبد المطلب تجمعهم وتوحد صفوفهم - لذا فكر الزبير بن المطلب وأعمل التفكير فخرج من ذلك أن مآل ذلك كله هو انحدار قريش وتقويض البنيان الذى شارك فى تشييده عن قريب أبوه عبد المطلب ومن قبله آباؤه وأجداده ، ومن ثم فمنصرف قريش من حرب الفجار (دعا الزبير بن عبد المطلب فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم فى دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا لنكونن مع المظلوم حتى يؤدّى إليه حقه مابلّ بحر صوفة ، وفى

(٦) جلال مظهر : **محمد رسول الله - سيرته وأثره فى الحضارة** ، ص ٤٣ ، طبعة ١٩٧١م ، مكتبة الخانجى بمصر .

(٧) د . محمد حسين هيكل : **حياة محمد** ، ص ١٣٤ ، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧١ ، دار المعارف بمصر .

التـآسى فى المعـاش ، فـسـمت قـريش ذلك الحلف بـ « حلف الفضول»[٨] .

(والزبير بن عبد المطلب هو أكبر أعمام النبى عليه الصلاة والسلام وهو عم شقيق له والزبير أبو طالب وإسمه عبد مناف وعبد الله أخوة أشقاء أمهم فاطمة بنت عمر المخزومية ، وضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد أما عبد الله ابنه فكان معدوداً فى الصحابة وكان الزبير يكنى بابنه الطاهر وكان من أظرف فتيان قريش وبه سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه الطاهر وكان الزبير يرقّص محمداً وهو صغير ويقول له :-

محمد ابن عبدم . . عشت بعيش أنعم . . فى دولة ومغنم . . دام سجيس الأزلم .

وأخبر الزبير أن ظالما كان بمكة قد مات فقال بأى عقوبة كان موته فقيل له : حتف أنفه فقال : وإن ، فلابد من يوم ينصف الله فيه المظلومين ، ففى هذا دليل على إقراره بالبعث - وابن عبدم زاد الميم كما تزاد فى ابن فيقال ابنم وسجيس الأزلم أى أبد الدهر) [٩] .

رغم ركاكة الشعر الذى نسبه السهيلى إلى الزبير بن عبد المطلب فإنه يفصح عن أمنيته فى أن يواصل الحفيد مسيرة الدولة التى بدأها أجداده وذلك فى إنشاده له وهو يرقّصه «عشت بعيش أنعم فى دولة ومغنم» ، كذلك يتضح من تعليقه على وفاة أحد الظلمة فى مكة حتف أنفه أنه يؤمن بالبعث وذلك من تأثير أبيه عبد المطلب الذى كان أستاذ الحنيفية فى زمانه ، أما تسمية النبى محمد عليه الصلاة والسلام ابنه بـ الطاهر إذ كان

---

(٨) محمد رضا : **محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم** ، ص ٣٧ ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٥هـ / فبراير ١٩٦٦م .

(٩) الإمام السهيلى ٥٠٨ / ٥٨١هـ ، **الروض الأنف** ، ص ١٣٢ ، الجزء الأول ، قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرءوف ، الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م ، مكتبة شقرون بالقاهرة .

يكنى الزبير بأبى الطاهر دليل على إعجابه بعمه وتقديراً له لعقده «حلف الفضول» والداعى لحلف الفضول «الزبير» فيه مسحة واضحة من «الحنيفية» ، ولديه شعور طاغ بأهمية الدولة التى بدأها آباؤه ، وبضرورة سيرورتها متمنيا من صميم قلبه وفى قرارة نفسه أن يستمر الأبناء فى استكمال صرحها .

أما عبد الله بن جدعان الذى عقد حلف الفضول فى داره فكان أغنى أغنياء مكة ، وكان يسمى بـ (حاسى الذهب) لأنه كان يشرب فى كؤوس من الذهب الخالص .

(وكان بنو تيم فى حياته كأهل بيت واحد يقوتهم وكان يذبح فى داره كل يوم جزوراً وينادى مناد : من أراد الشحم واللحم فعليه بدار ابن جدعان وكان يطبخ عنده الفالوذج فيطعم قريشاً) (١٠) .

وبنو تيم هم رهط عبد الله بن جدعان وهم فى الوقت نفسه رهط أبى بكر - رضى الله عنه- ويبالغ بعض الرواة فيذكر أن جفان طعام ابن جدعان كانت تبلغ قامة الرجل بل إن بعضها كان يتسلق إليه بسلم ؛ وأيا كان الأمر فإن مثل هذا الرجل الفاحش الثراء كان يهمه استتباب الأمور فى مكة حفاظاً على مصالحه المالية والتجارية خاصة وأن الإخباريين يذكرون السبب المباشر لحلف الفضول هو (أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف : عبد الدار ، مخزوماً ، جمحاً ، سهماً ، عدى بن كعب فأبوا أن يعينوه على العاصى بن وائل وزبروه أى انتهروه ، فلما رأى الزبيدى الشر ، أو فى على أبى قبيس (جبل بمكة) عند طلوع الشمس وقريش فى أنديتهم حول الكعبة فنادى بأعلى صوته :

(١٠) على برهان الدين الحلبى : **السيرة الحلبية** ، المرجع السابق ، ص ٢١١ .

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ياللرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ولاحرام لثوب الفاجر الغدر
فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : مالهذا مترك . . . . إلخ)[11] .

فهذه الواقعة تدل على أن الأمور قد اضطربت فى مكة والتجارة ، وهى عصب الحياة فيها ، بدأت تتعرض للمتاعب وهذا يسئ إلى أهلها ويلحق أبلغ الأضرار ويؤثر على سمعتها التجارية ، بالإضافة إلى قداستها الدينية وهذا مرده إلى افتقاد مكة لسلطة سياسية تردع المعتدى وترد عنه غيه .

* * *

ويسرد الإخباريون من الوقائع مايقطع بأن « حلف الفضول » قد أثمر وحقق النتائج التى تغياها من ورائه عاقدوه وأنه كان نقلة إلى (حكومة الملأ) وأنها جميعها خطوات نحو الدولة التى قامت فى يثرب ومن بين تلك الوقائع التى ذكروها :

(أن رجلاً من خثعم قدم مكة حاجاً أومعتمراً ومعه ابنة يقال لها «القتول» من أوضأ نساء العالمين فاغتصبها منه «نبيه بن الحجاج» وغيبها عنه ، فقال الخثعمى من يعدينى على هذا الرجل ؟ ، فقيل عليك بـ «حلف الفضول» فوقف عند الكعبة ونادى «ياالحلف الفضول» فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب وقد انتضوا سيوفهم يقولون : جاءك الغوث فما لك ؟ فقال : إن نبيها ظلمنى فى بنتى وانتزعها منى قسراً ، فساروا معه حتى وقفوا على باب داره فخرج إليهم فقالوا له : أخرج الجارية ويحك قد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه فقال : أفعل ولكن متعونى بها الليلة فقالوا والله ولا شخبة لقحة (أى برهة وجيزة) فأخرجها إليهم[12] .

---

(١١) ابن كثير : **السيرة النبوية** ، المرجع السابق ، ص ٢٦١ .
(١٢) المرجع نفسه ، ص ٢٥٧و٢٦١ .

فى هذه الواقعة كان «حلف الفضول» هو الفيصل وصاحب الكلمة القاطعة بعد أن عمل عاقدوه على إعمال نصوصه ، وانتصروا لرجل خثعمى من العامة ، إذ لم تعن الرواية بذكر اسمه وردوا إليه ابنته الحسناء رغم أن مغتصبها كان من وجوه قريش ، وتلك النازلة لها صلة بالأمور المالية أو التجارية ولكنها كانت تمس المشاعر الدينية ، فقد ذكر الإخباريون أن الخثعمى قدم مكة حاجاً أو معتمراً وهذه المناسك كانت ، بل ولازالت حتى الآن ، فى مقدمة مصادر الدخل والتمويل لأهل مكة ، فإذا أشيع بين العُمَّار والحجاج تعرضهم للأذى والاغتصاب من القرشيين أدى ذلك إلى إحجام قبائل العرب عن الوفود لمكة للحج أو الاعتمار . ونودّ أن نلفت الانتباه هنا إلى أن الحج كان شعيرة مقدسة تؤديها القبائل كافة وكانت كعبة مكة تقدسها أيضاً تلك القبائل على الرغم من وجود بضع وعشرين كعبة فى شبه الجزيرة العربية آنذاك ، وإذا اختل موسم الحج انعكس الأثر مباشرة على التجارة داخل البلد العتيق بالإضافة إلى أنه يودى بسمعة قريش بين العرب ، ويسقط هيبتها ويهدر كرامتها لظهورها بمظهر العاجز عن حماية الجار واللائذ بالحمى والمستجير بالحرم .

ذلك هو الدور البالغ الأهمية الذى أداه «حلف الفضول» الذى كان أول من نادى به الزبير الابن الأكبر لسيد مكة «عبد المطلب» ، والذى رعاه وتحمس له عبد الله بن جدعان ؛ أكثر القرشيين غنى وثروة .

ولقد أدرك محمد عليه السلام الأهمية السياسية البالغة ، والأثر الاقتصادى الناجع لـ «حلف الفضول» لذلك قال (شهدت فى دار إبن جدعان حلفاً لو دعيت به فى الإسلام لأجبت) وفى رواية أخرى : (ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم ولو دعيت به لأجبت) .

بل ان هذا الحلف بقيت آثاره بعد الإسلام حتيى لقد نادى به الحسين بن علي حين وقعت بينه وبين الوليد بن عتبه بن أبى سفيان والى المدينة منازعة فى مال كان بينهما وقد تداعت أطراف الحلف لنصرة الحسين مما اضطر الوليد إلى انصافه .(١٣)

إذن كان «حلف الفضول» بمثابة التجربة أو (البروفة) لـ حكومة مكة أو (حكومة الملأ) التى تشكّلت فيما بعد ، والتى كانت هى بدورها المقدمة لدولة قريش التى قامت . كما ذكرنا لأسباب تاريخية - فى يثرب بدلاً من مكة على يد محمد عليه السلام .

* * *

ذكر أ . محمد رضا فى كتابه « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم» أن أطراف حلف الفضول (تعاقدوا وتعاهدوا ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه مابلّ بحر صوفة وفى التآسى فى المعاش ، فسمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول) (١٤) .

لم أجد عبارة «وفى التآسى فى المعاش» لافى «سيرة ابن هشام» ولا فى «الروض الأنف» وهما من أمهات كتب السيرة النبوية ولاأدرى من أين أتى بها أ . محمد رضا وماهو مرجعه فى ذلك ؟ وإذ أنه فى نظرى باحث رصين ، وكتابه المذكور كتاب جيد رغم صغر حجمه فقد رجحت أن لهذه العبارة أصلاً فى واحد من كتب التراث فى السيرة النبوية ، وأنها بالقطع ليست إضافة من محمد رضا ، ولقد صدق ظنى ، فبعد البحث والتنقيب وجدت أن الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى أوردها فى كتابه «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد» المعروف بـ «السيرة الشامية»

---

(١٣) د . احمد ابراهيم الشريف : **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول** ، ص ١٤٣ ، نقلا عن ابن هشام وابن كثير وابن الاثير (د .ت .) ، نشر دار الفكر العربي بمصر .

(١٤) فضلاً انظر الهامش رقم ٨ .

وهو فى الحق موسوعة ضخمة فى السيرة النبوية إذ يقول (فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم فى دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً فى ذى القعدة من شهر حرام قياماً فتعاقدوا ليكونن يداً واحدة للمظلوم على الظالم ، حتى يؤدى إليه حقه مابلّ بحر صوفة وما رسا حراء وثبير «جبلان بمكة» ، وعلى التآسى فى المعاش فسمت قريش ذلك الحلف «حلف الفضول» وقالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضول من الأمر ثم مشوا إلى العاصى بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه) (١٥) .

ولا شك أن أطراف الحلف المذكور ضمنوه «التآسى فى المعاش» لأن أحوال المجتمع المكى آنذاك كانت تنذر بحدوث هزة خطيرة ، وإذا لم يتم تلافيها فسوف تقتلعه من أساسه ، وأنه من المستحيل دوام الحال على ماكان عليه ذلك أنه (مع تعاظم المال والاستثمار الربوى كان الأغنياء يزدادون ثراءً فى حين كان الفقراء والمعدمون من أحرار القبيلة يزدادون ضنكاً وفقراً وإملاقاً ، تتوضح معالم التفاوت الاقتصادى والتمايز الاجتماعى إلى درجة انقسم فيه المجتمع المكى إلى طبقتين غير متناسبتى العدد والعدة : طبقة التجار والمرابين وسدنة الكعبة وأصحاب السلطة والأريستقراطية المكية أو الملأ أو الأعزاء كما فى القرآن الكريم وهم يشكلون أقلية المجتمع المكى ، وطبقة الصعاليك والفقراء أو الأراذل كما فى القرآن الكريم وهم يؤلفون أغلبية المجتمع المكى) (١٦) .

إذن يكون «التآسى فى المعاش» الذى ورد فى السيرة الشامية على لسان أطراف حلف الفضول ، هو مساهمة منهم فى محاولة التخفيف من حدة التمايز الطبقى ، وتضييق شقة الفروق بين الملأ والأراذل (حسب

---

(١٥) ص ٢٠٨ من المجلد الثانى ، تحقيق د . مصطفى عبد الواحد ، نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية/ لجنة إحياء التراث الإسلامى بالقاهرة ، طبعة ١٣٩٤هـ / ١٩٨٥م .

(١٦) برهان الدين دلّو : **مساهمة فى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى** ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م ، دار الفارابى بيروت .

تعبير القرآن الكريم) خاصة وأن الأخيرين لم يكونوا الأرقاء والموالى . . . إلخ فحسب بل منهم أحرار القبيلة الفقراء المعدمون ، ولسد الطريق عليهم حتى لايقوموا بثورة تعصف بالنظام كله وتقوض أركانه ، ومن ثم فلم يكن من قبيل المصادفة أن يجىء هؤلاء فى مقدمة من اتبع محمداً عليه السلام إذ بهرتهم وخلبت ألبابهم مبادئ العدالة الإجتماعية التى كان يدعو إليها وأن الناس سواسية كأسنان المشط . . . الخ .

وربما لفت نظر القارئ ماورد فى نص السيرة الشامية «وقالوا لقد دخل هؤلاء فى فضول الأمر» والفضول جمع فضل ، والفضل إما أنه «ضد النقص والنقيصة» [١٧] أو أنه «مازاد على الحاجة» [١٨] فإذا أخذنا بالتفسير الأول كان معنى ذلك القول أن أصحاب حلف الفضول تخلوا عن النقيصة التى تباعدهم عن رد المظالم ومواساة الفقير المعدوم ، وإذا أخذنا بالتفسير الآخر كان مفاده أن أصحاب الحلف زجوا بأنفسهم فيما لاحاجة لهم به وهو الانتصار للمظلوم والعون للمحتاج . ولعله بعد ذلك يكون من نافلة الحديث أن نذكر أن أهداف الحلف بهذه المثابة أهداف سياسية بكل المعايير وبجميع المقاييس ، اضطلع بها أولئك النفر من قريش بعد أن رأوا وأحسّوا بالفراغ السياسى الذى خيم على مكة بعد وفاة عبد المطلب وأن عليهم أن يتحركوا ويعملوا شيئاً وكان هذا العمل مقدمة لما هو أكبر منه .

قبل أن نشرع فى الحديث عن «حكومة الملأ» ملأ - قريش نناقش

(١٧) **مختار الصحاح** ، للشيخ الإمام محمد بن أبى« بكر بن عبد القدر الرازى عنى بجمعه محمود خاطر ، مراجعة لجنة مركز تحقيق التراث ، طبعة ١٩٨٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٨) **المعجم الوسيط** ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥ / ١٩٨٥م ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

تفسير باحث جاد هو أحمد عباس صالح لـ «حلف الفضول» فى كتابه «اليمين واليسار فى الإسلام» [١٩] ذلك أنه لايقر وجهة النظر التى ترى أن الدافع لعقد ذلك الحلف هو عدوان بعض القرشيين على زوّار مكة الذين يفدون إليها للحج أو الاعتمار أو المتاجرة وأن العلة وراء ذلك هو افتقار مكة إلى زعيم يمسك بيديه زمام أمورها بعد وفاة عبد المطلب .

يقول الباحث (وليس هذا سبباً وجيهاً لأن الحلف لم يضم قبائل قريش بل جانباً منها ، فلو أن الأمر بقصد حماية التجارة وتأمينها لتداعت كل القبائل للدخول فيه) ص ٣٨ وفى رأيه أن الدافع لعقد حلف الفضول هو أن (الفريق الأقل ثروة بدأ يتكتل ليقاوم سلطان الثروة الجديدة ولهذا نشأ حلف الفضول) ص ٣٧ . ومع تقديرنا لاجتهاد أ .صالح الذى بدا واضحاً فى كتابه ، فإننا نرى أن ماذهب إليه بخصوص «حلف الفضول» لا يثبت للتفنيد الموثق بالحقائق التاريخية ، فليس صحيحاً أن ثروة جديدة بدأت تطرأ على تجار مكة أيام حلف الفضول ؛ بل إن أرستقراطية قريش طفقت تعرف طريقها إلى اليسر والغنى منذ أن بدأ هاشم يعقد «الإيلاف» مع رؤساء القبائل والمعاهدات مع ملوك الروم والفرس والحبشة ليؤمّن الطرق أمام قوافل مكة فى ذهابها وإيابها ، خاصة فى رحلتى الشتاء والصيف ، وللأسباب السياسية التى أحاطت بدولتى الفرس والروم وهو ماسنفصله فى البحوث القادمة .

هذه واحدة .

أما الأخرى فإن أطراف حلف الفضول لم يكونوا كما رأى أ . صالح(الفريق الأقل ثروة) ص ٣٧ فقد ضم ذلك الحلف :

(١٩) أحمد عباس صالح ، **اليمين واليسار فى الإسلام** ، الطبعة الأولى ١٩٧٢ ، المؤسسة العربية للدارسات والنشر ، بيروت .

أ) **بنى هاشم** : ومنهم العباس بن عبد المطلب الذى يعترف الباحث نفسه أنه كان من كبار أغنياء مكة ؛ بل امتدت ثروته إلى يثرب فتملك بستاناً فيها ص ٢٤ ، ومنهم «أبو لهب» الذى قال فى حقه القرآن الكريم (ما أغنى عنه ماله وماكسب) وهو توصيف بالغ الدلالة على غناه .

ب) **بنى تيم** : وعلى رأسهم عبد الله بن جدعان الذى عقد الحلف فى داره ، والذى كشفنا فيما سبق عن مدى ثروته ، والذى لايخلو كتاب من كتب السيرة ؛ بل ومن كتب الأدب التراثية مثل الأغانى وعيون الأخبار لابن قتيبة ، من قصص تقطع بغناه ، ومنهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه الذى وصفه أ . صالح بأنه (من كبار التجار فى مكة) ص ٣٧ .

ج) بنى أسد : ومنهم يزيد بن زمعة الأسود وفى حقه يقول الباحث (ويزيد من كبار الأغنياء فى مكة) ص ٣٥ .

د) **بنى زهرة** : وهم من الذؤابة العليا من قبيلة قريش ، وإليهم أصهر عبد المطلب فتزوج هو هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة وزوج ابنه الأصغر عبد الله ، آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فهى أم النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا يعتقد عاقل أن سيد مكة فى زمانه يقصد إلى فرع خامل من قريش ويصهر إليه . وقد يقال إن عبد المطلب فعل ذلك لسماعه إلى «مسطورة» كانت شائعة تحكى أن بنى زهرة سوف تظهر أو تنبثق منهم «النبوة» وأن حبراً يهودياً وكاهنة منهم تنبئا بذلك ، ومن ثم فلا صلة بإصهار عبد المطلب إليه بغناهم أو ثروتهم ، بل طمعاً فى احتياز النبوة منهم ، والتى قالت «المسطورة» إنها سوف تجيىء من إناثهم لا من ذكورهم .

وقد يكون هذا من الردود السائغة المقبولة لولا أننا قرأنا فى كتب

السيرة كلها أن بنى زهرة كانوا من أصحاب الثروة ، وأنه كانت لديهم أموال جسيمة فى القافلة التى كان يقودها أبو سفيان ، والتى خرج محمد وصحبه إليها ، ولكنها أفلتت منهم لأن أبا سفيان غيَّر خط سيرها لما علم بخروج المسلمين فى طلبها ، ولما علم بنو زهرة بنجاة القافلة وسلامة أموالهم عدلوا عن المضى مع باقى القرشيين فى حرب محمد عليه السلام وصحابته رضوان الله تعالى عليهم ومن ثم لم يشتركوا ضدهم فى غزوة بدر الكبرى ، يقول ابن سيد الناس (وقال الأخنس بن شريق وكان حليفاً لبنى زهرة : يابنى زهرة قد أنجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا بى جبنها وارجعوا فإنه لاحاجة بكم بأن تخرجوا فى غير ضيعة لا ما يقول هذا يعنى أبا جهل فرجعوا فلم يشهدها زهرى ولا عدوى أيضاً)[٢٠] .

فلو لم يكن لبنى زهرة ثروة يخشون عليها لما خرجوا لحمايتها والذود عنها ، ولكن لكياستهم وحكمتهم عندما أيقنوا بسلامتها عادوا أدراجهم من حيث أتوا أخذاً بنصيحة حليفهم الأخنس بن شريق ، فهل يقال بعد ذلك كأنهم كانوا فقراء؟ ولعلنا بذلك نكون قد سقنا الأدلة التى تقطع بأن البطون الأربعة من قريش التى أسست حلف الفضول : هاشم ، تيم ، أسد ، زهرة ، لم يكونوا أقل غنى من سواهم من البطون الذين لم يشاركوا فيه .

وحتى يدعم أ . صالح نظرته الخاطئة لحلف الفضول نراه يقول (ولهذا نشأ حلف الفضول بين هاشم وعبد المطلب وأسد وزهرة ، وهو حلف اتفقت فيه هذه القبائل على أن تنصر بعضها بعضاً) ص ٣٨ . ومع

---

(٢٠) ابن سيد الناس : **عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والأثر** ، ص ٢٥١ من المجلد الأول (د . ت) ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان .

التجاوز عن ذكر الباحث لبنى عبد المطلب مع بنى هاشم لأن الأخيرين يشملونهم ، فإنه ليس صحيحاً أن قبائل حلف الفضول (إتفقت على أن تنصر بعضها بعضاً) وكنا نرجو أن يدلنا الباحث على المرجع الذى استقى منه هذه العبارة ، والصحيح أن كتب السيرة اتفقت على أن عاقديه تغّيوا منه نصرة أى مظلوم والتآسى فى المعاش ، والقصد منهما استتباب الأمن ومحاولة تخفيف التمايز الطبقى لمنع انفجار الفئات المحرومة ، وهما هدفان يختلط فيهما الاقتصاد بالسياسة كما أوضحنا ، ولم يذكر واحد من كتب التراث ما ذكره الباحث وهو : أن هدف الحلف تناصر عاقديه ، وإذا كان هذا من اجتهاده فقد أخطأ لأن هذه البطون تربطها صلات النسب والمصاهرة والمصالح التجارية مما يجعلها فى غنى عن عقد حلف بينها للتناصر ؛ والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن بداهة ؛ هذه البطون تتناصر ضد من ؟ هل ضد باقى بطون قريش؟ وأى قريش : قريش الظواهر أم قريش البطاح؟ ومنذ متى تحاربت بطون قريش بعد أن ألف بينها قصىّ «مجمع قريش»؟ ألم تنته كل مشاريع الاقتتال إلى صلح؟ فيم إذن يكون التناصر؟ أما إن قال : التناصر ضد الأجنبى أو الغريب قلنا له : ولم تتناصر أربعة أبطن فقط دون باقى البطون؟ .

إن الذى لاشك فيه أن الباحث خلط بين هذا الحلف وسابقيه حلف المطيبين وحلف الأحلاف . ومن الغريب أنه يعود فيذكر فى موضع آخر أن فى الحلف (تجار كبار وتجار صغار . . . ومن المؤكد أن تكتل حلف الفضول ليس لوناً من الصراع الطبقى الخاص ، إنما هو تكتل سياسى تقوده نفس طبقة كبار التجار) ص ٤٣ - هكذا يوقن فى نهاية المطاف بتهافت الأسباب التى حاول أن يعلل بها نشوء حلف الفضول ، وأخذ يؤكد الحقيقة التى ذكرناها فى السابق والتى موجزها أن الحلف المذكور هو فى الأساس تكتل سياسى ، القصد منه ملء الفراغ الذى خيّم على ربوع مكة بعد وفاة هاشم وعبد المطلب ، ليستتب الأمن فى مدينة القداسة

والتجارة ، وأنه كان المعبر والمقدمة لـ (حكومة الملأ) ، التى كانت بدورها «المقدمة» لـ «دولة قريش» التى أسسها فى يثرب محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه الصلاة والسلام .

٤

حكومة الملأ" ملأ قريش "

نبدأ بتعريف «الملأ» تعريفاً يحوط به من جوانبه كافة حتى تتضح صورة حكومته :

يعرِّف (الراغب الأصفهانى) الملأ بقوله : (جماعة يجتمعون على رأى فيملأون العيون رواءً ومنظراً والنفوس بهاءً وإجلالاً ، يقال فلان ملء العيون أى معظّم عند من رآه وكأنه ملأ عينه من رؤيته)[1] . أما د . حسين مروة فهو يسلط فى تعريفه للملأ الضوء على الجوانب الاقتصادية والقمعية إذ يبرز الإمكانات المالية أى الثروات التي أتاحت لأعضاء الملأ الإمساك بزمام السلطة عن طريق الاستعانة بقوة قمعية فيقول (كان الملأ المكى هو المظهر الأوّلى لتجلى سيطرة قريش بشكلها الذى يمكن تسميته فى عصرنا بـ «الشكل السياسى» فهو أى الملأ يمثل آنئذ البذرة الجنينية للدولة أى المؤسسة السياسية التى تهيمن على النشاط الاقتصادى فى المجتمعات الطبقية . وهو فى الوقت نفسه يمثل ولادة هذه الطبقة فى

(١) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ) ، **فى المفردات فى غريب القرآن** ، مادة « الملأ » ، ص ٤٧٣ ، طبعة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

المجتمع الجاهلىّ : فقد كان الملأ المكى وهو يتشكل تاريخيا من جماعة كبار التجار والمرابين ومالكى العبيد من أهل مكة يجمع كل السلطات فى هيئة واحدة هى «الملأ» نفسه ، وقد عززت هذه الهيئة سلطانها بجهاز قمعى كما تدل الأخبار عن أحابيش مكة ، فنحن نفهم من هذه الأخبار أن جماعة الملأ اتخذت من الأحابيش هؤلاء شرطة مسلحين يحرسون الكعبة كما يحرسون منازل أعضاء الملأ أنفسهم ، إن لهذه الحراسة دلالة فى موضوعنا . فإن إقامة شرطة لحراسة الكعبة كان يعنى أمراً غير مايتبادر للأذهان من رعاية قداستها فحسب ، بل هو حماية أموال القرشيين الذين استغلوا هذه القداسة ليودعوا الكعبة خزائن أموالهم . أما إقامة شرطة لحراسة منازلهم فكان يعنى حمايتها من غضبة الفئات الناقمة فى المدينة أى فى مكة ولنقمة الحجاج الفقراء)[٢] .

وفى هامش المتن يورد د . حسين مروة التعريف اللغوى لـ «الملأ» فيقول (اسم الملأ المكى يستمد مضمونه التاريخى هذا من دلالته اللغوية فهو كما تقول المعاجم يعنى الأشراف والعلية والقوم ذوى الشارة أى ذوى المظهر الحسن والشرف وفى «المنجد» الملأ : جمع أملاء : أشراف القوم الذين يملأون العين أبهة والصدور هيبة)[٣] ويفسر لنا فى الهامش عينه كلمة «الأحابيش» بقوله : (الأحابيش فى مصطلح التاريخ الجاهلى يطلق على فئة من العبيد السود البشرة الذين يرجعون لأصل أفريقى وتسميتهم بـ« الأحابيش » منشؤها ظن الإخباريين أنهم من أصل حبشى وقد استخدمهم أثرياء مكة فى مختلف الأعمال والخدمات)[٤] .

ويعرف هادى العلوى « الأحابيش» بأنهم (قوة قتال منتخبة كانت

---

(٢) د . حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، الجزء الأول ، ص ٢٣١ .

(٣) المرجع السابق ، هامش الصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق ، هامش الصفحة نفسها .

قريش تعتمد عليها في حروبها)[٥] هنا نجد أن العلوى لم يشر إلى أن « الأحابيش » كانوا قوة قمعية في خدمة «الملأ» إنما كانوا قوة حربية اعتمدت عليها قريش - قبيلة التجارة - في حربها مع غيرها من القبائل وهو تعريف أدنى إلى الصواب والاتساق مع الحقائق التاريخية ؛ ففي كتب السيرة أن قريشاً (بعثوا إليه أي إلى محمد عليه الصلاة والسلام الحليس ابن علقمة أو ابن زبان وكان يؤمئذ سيد الأحابيش)[٦] بل إن ابن هشام ينسب الحليس هذا ويقول عنه إنه (أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة)[٧] مما يدل على أنه ليس عبداً حبشياً إلا إذا كان قد تسَّيد على «الأحابيش» وهو ليس منهم وهو فرض يحتاج إلى دليل ثبوت .

وتورد كتب السيرة أنه «أعرابى» أى من أبناء البوادى وقد وصف الرسول عيه السلام قومه بأنهم متألهون أى متدينون (ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان ، أحد بن الحارث بن عبد مناة بن كنانة وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاماً لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا له : إجلس ، فإنما أنت أعرابى لاعلم لك ، فغضب الحليس عند ذلك وقال : يامعشر القوم والله ماعلى هذا حالفناكم وماعلى هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ! والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ماجاء

(٥) هادى العلوى ، **من قاموس التراث** ، مادة الأحابيش ، الطبعة الأولى ١٩٨٨ ، دار الأهالى ، بيروت-لبنان .

(٦) الإمام أبى محمد عبد الله بن هشام المعافرى المتوفى س ٢١٣هـ ، **سيرة ابن هشام** ، الجزء الرابع ، ص ٢٦ ، قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرؤوف ، مكتبة شقرون .

(٧) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له : كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به)[8] وهذا النص قد أورده بعض كتب السيرة مثل (عيون الأثر فى المغازى والشمائل والسير) لابن سيد الناس .

ويبين من هذا النص أن الأحابيش من قبائل البادية الأعراب الذين تربطهم بقريش محالفات وعقود على النصرة فى الحرب ولقد تأكد ذلك فى « السيرة الحلبية » إذ عرّف مؤلفها على بن برهان الدين الحلبى (أن الأحابيش هم بنو الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة وبنو المصطلق بن خزيمة أى وأنه قيل لهم ذلك لانهم تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له «حبشى» وتحالفوا حبش هم وقريش على أنهم يد واحدة على من عاداهم ماسجاليل ووضح نهار وماسار حبشى فسموا «أحابيش قريش»)[9] وبذلك يكون الصواب قد جانب د . حسين مروة عندماعرَّف «الأحابيش» بأنهم (فئة من العبيد السود البشرة الذين يرجعون لأصل أفريقى وتسميتهم بـ «الأحابيش» منشؤها ظن الإخباريين أنهم من أصل حبشى وقد استخدمهم أثرياء مكة فى مختلف الأعمال والخدمات)[10] .

ولكن باحثاً آخر هو برهان الدين دلّو يؤيد د . حسين مروة فى أن «الأحابيش» (فرقة عسكرية قوامها العبيد السود ومرتزقة العرب كجهاز

---

(٨) الإمام أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعى الأندلسى (٥٦٥ - ٦٣٤ هـ) ، فى كتابه **الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء** ، الجزء الثانى ، ص ٢٣٥ ، تحقيق د . مصطفى عبد الواحد ، طبعة ١٣٨٩ هـ ، مكتبة الخانجى بالقاهرة .

(٩) على بن برهان الدين الحلبى (٩٧٥ - ١٠٤٤هـ) ، **فى إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون** ، الشهير بـ « السيرة الحلبية » ، الجزء الثانى ، ص ٦٩٥ ، الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م ، الناشر : شركة مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

(١٠) فضلاً أنظر الهامش رقم ٤ .

قمعى لتعزيز سلطان الملأ ولحماية النظام الاجتماعى الجديد)[١١] وقد نسب ذلك إلى د . جواد على وأنه أورده فى «المفصل» فى الجزء الرابع ، ص ٣٢ - وبالرجوع إلى المفصل تبين لنا للأسف أن ذلك لم يكن رأى د . جواد على إنما هو المستشرق « لامانس» وحتى هذا الأخير لم يقل إن الأحابيش فرقة عسكرية قوامها من العبيد السود ومرتزقة العبيد كجهاز قمعى لتعزيز سلطان الملأ ولحماية النظام الاجتماعى الجديد كما ادعى برهان الدين دلّو بل إن ماقاله «لامانس» بالحرف الواحد (إنهم قوة عسكرية ألفت من العبيد السود المستوردين من أفريقية ومن عرب مرتزقة كونتها مكة للدفاع عنها)[١٢] فـ «لامانس» لم يقل إن الأحابيش جهاز قمعى كونه الملأ لتعزيز سلطانه ولحماية النظام الاجتماعى الجديد بل قال عنهم إنهم قوة عسكرية للدفاع عن مكة - ولعل الفرق واضح بين النصين ، ولعل مادفع الأستاذ برهان الدين دلو إلى تحريف نص لامانس هو تعزيز وجهة نظره التى تتفق مع وجهة نظر د . حسين مروة التى سوف نناقشها فيما بعد ، ومما هو جدير بالذكر أن رأى « لامانس » كان موضوع إعراض من بعض زملائه من المستشرقين .

أما الدكتور جواد علىّ فهو يؤيد ماجاء فى المصادر العربية عن الأصل العربى لـ«الأحابيش» ويُرجع تاريخ حلف قريش مع الأحابيش إلى زمن عبد مناف بن قصى وأن المطلب بن عبد مناف بن قصى ، قاد بنى عبد مناف وأحلافها من الأحابيش «يوم ذات نكيف» لحرب بنى ليث بن بكر .[١٣] ويورد د . جواد على تعليلاً آخر لـ (تسمية بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ومن أيدها من بنى المصطلق وبنى الهون بـ

(١١) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الثانى ، ص ٣٦٥ .
(١٢) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء الرابع ، ص ٣٢ .
(١٣) المرجع السابق ، ص ٣١ .

«الأحابيش» هو أن من الممكن أن تكون هذه التسمية قد وردت إليهم من أجل خضوعهم لحكم الحبش وذلك قبل الإسلام بزمن طويل)[١٤] .

وأيا كان سبب تسميتهم بـ « الأحابيش » فقد ثبت أنهم لم يكونوا عبيداً أفارقة ولا كانوا قوة قمعية كونها «الملأ» لحراسة أموالهم ولقهر فقراء مكة والوافدين عليها من العمّار والحجيج وإنما كانو قبائل عربية وقوة عسكرية تحالفت معها قريش واستعانت بها فى حروبها مع أعدائها .

ويؤكد د . أحمد ابراهيم الشريف صاحب كتاب (مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول) وهو كتاب جيد أحاط بموضوع بحثه احاطة حسنة أن (الاحابيش كانوا بطونا من القبائل العربية الضاربة حول مكة من كنانه وخزيمة بن مدركة وخزاعة تجمعوا وتحالفوا معا وأخذوا في الاندماج والتكتل في طريقهم إلى تكوين قبيلة عربية بواسطة الحلف الذي كان سببا في تكوين كثير من القبائل العربية القديمة ثم تحالفوا مع قريش في النصف الثاني من القرن السادس) .[١٥]

وبذلك يثبت أن الرأى الذى قال به د . حسين مروة وتابعه فيه أ . برهان الدين دلّو ، غير صحيح ناقضته ونقضته الأدلة التاريخية الموثقة ، ولو أنه ليست ثمة مايمنع أنه كانت لدى عدد من تجار مكة وأثريائها عبيد من أصل أفريقى وحبشى بالذات ولكنهم لم يصلوا إلى أن يكونوا قوة عسكرية أو قمعية استخدمها الملأ من قريش فى قمع وإرهاب الفقراء إنما كانوا يعملون فى كافة أوجه النشاط فى خدمة سادتهم ولابأس أن تكون من ضمن تلك الخدمات الحراسة ؛ ويؤكد د . صالح أحمد العلى أنه

(١٤) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .

(١٥) د . احمد ابراهيم الشريف ، **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول** ، ص١٦٠ ، مصدر سابق .

(لايوجد دليل على كثرة العبيد بمكة)[١٦] .

والبادي أن مروه ودلو قد تابعا لامانس الذي كان يذهب إلى أن الاحابيش كانوا زنوجا من بلاد الحبشة وان رواة السيرة تعمدوا القول بأنهم عرب انفوا ان يقولوا أن قريشا كانت في الجاهلية تستعين بالسودان في الدفاع عن حريتها ، والمعروف عن لامانس تحيزه ضد العرب والإسلام فضلا عن أنه لم يقدم دليلا على مقولته تلك وأكثر منه أبانه عن تهافتها أن كتاب السيرة الصقوا بقريش فى الجاهلية نقائص أوعر منها وأفحش ونحن نأخذ على مروة ودلو متابعتهما ل لامانس دون تدقيق وتمحيص .[١٧]



إن نظرة د . حسين مروة إلى الجانبين الاقتصادى والقمعى فى توصيفه لـ (ملأ قريش) نابعة من تأثره بالمفهوم الماركسى للطبقة الحاكمة التى تركز مختلف أشكال القوة فى يدها : (الاقتصادية والعسكرية والسياسية) [١٨] .

ومع تقديرنا لاجتهاد د . حسين مروة فى تحليله وللتصور الذى ينطلق منه فإن تطبيقه بحذافيره على المجتمع العربى وخاصة قبيل الإسلام منهج غير سديد ولا يعطينا الصورة الدقيقة لـ «ملأ قريش» إذ من الصعب

---

(١٦) د . صالح أحمد العلى ، **تنظيمات مكة والمدينة عند ظهور الإسلام** ، مجلة الاجتهاد ، العدد السابع من السنة الثانية ربيع ١٩٩٠ م/ ١٤١٠ هـ ، دار الاجتهاد ، بيروت-لبنان .

(١٧) د . أحمد ابراهيم الشريف ، **مكة والمدينة** ، ص ١٦٠ مرجع سابق من بحث كتبه لامانس في المجلة الاسيوية بعنوان «الاحابيش والتنظيمات الحربية في مكة» .

(١٨) بوتومور ، **الصفوة والمجتمع** ، دراسة فى علم الإجتماع السياسى ، ترجمة وتقديم د . محمد الجوهرى وآخرين ، الفصل الثانى وعنوانه «من الطبقة الحاكمة إلى صفوة القوة» ، ص ٤٧ وما بعدها ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ م ، دار المعارف بمصر .

قياسه على «الإقطاع الأوروبي» الذى تأسس على «الطبقة المحاربة» أو على الأقل إعتمد عليها والذى سيطر فى وقت واحد على الأرض الزراعية والقوة العسكرية والسياسية كما حظى بالتأييد المطلق من جانب الكنيسة لتشابك المصالح بين الطرفين ، فمع التسليم ببروز العنصر المالى فى الملأ المكى ومع اعتبار بعض أفراده فى عداد المرابين والمستغلين للطبقات المنتجة مثل مربى الماشية والفلاحين (كان لبعضهم مزارع فى الطائف ويثرب) إنما لاشك كانت هناك عناصر أخرى ساهمت فى اختيار أعضاء «الملأ» مثل توافر صفات العقل والحكمة والخبرة التى محصتها السنون (لهذا كان أكثر رجال دار الندوة من البالغين المتقدمين فى السن) وعرّف علماء العربية « الملأ» أنه الرؤساء والجماعة وأشراف القوم ووجوههم ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم ، روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً من الأنصار وقد رجعوا من بدر يقول : ماقتلنا إلا عجائز صلعاً ؛ فقال عليه السلام : «أولئك الملأ من قريش لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعلك» ؛ أى : أشراف قريش ، فالملأ إنما هم القوم ذوو الشارة والتجمع للإدارة (١٩) .

فهنا نجد النبى محمداً عليه الصلاة والسلام مع عداوة (الملأ) له (سوف نوضح فيما بعد الوجه الذى كان يعاديه الملأ فى محمد) وتعذيبهم لأتباعه فى أثناء مقامه بمكة ثم خروجهم لحربه فى غزوة بدر الكبرى ورغم عودته منتصراً عليهم فيها فإنه وصفهم بما علمه عنهم وبما لمسه فيهم وخبره عنهم «لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعلك» أى أنهم كانوا يتميزون بأفعال جيدة إذا قاس مسلم صحابى أفعاله بأفعالهم

(١٩) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء الخامس ، ص ٢٣٦ ، مرجع سابق .

لاحتقر فعله إلى جانبها وهذه الأفعال لاتصدر إلا من ذوى النهى والأحلام ، وهو ماشهد به فى حقهم «مونتجمرى واط» إذ يقول (إن قرارات ملأ مكة تعمل استناداً إلى قوة فضائل الرأى وخططهم لاعلى البلاغة الخطابية التى تستطيع أن تجعل الشر يظهر بمظهر الخير)[٢٠] .

حقيقة إن بعض أعضاء الملأ المكى وصل (إلى مستوى من الغنى والترف يضاهى مستوى الملوك)[٢١] ولكن لم يرفعوا جميعهم إلى تلك الدرجة من الثروة ، فضلاً عن أن بعضاً منهم كان يتولى أعمالاً من التجنى وصفها بالاستغلال واستحلال عرق الطبقة العاملة مثل : سقى الحجيج وعمارة المسجد وكان يقوم بها العباس بن عبد المطلب والرفادة الموكولة إلى الحارث بن عامر من بنى نوفل والسدانة والحجابة اللتين كان يضطلع بهما عثمان بن طلحة من بنى عبد الدار ؛ فهذه الوظائف منبتّة الصلة بالربا وامتصاص عرق الكادحين بل هى أدنى إلى أعمال المروءة والمعروف والخير ، وسواء كانت تلك العمالات قد قصدت لذاتها - لأننا يتعين علينا ونحن نقيم الملأ ألا ننفصل عن بيئته والأعراف المحيطة به وكانت تدعو إلى إكرام الضيف وتحض على مد يد العون لابن السبيل لأن موجبات العيش فى تلك البيئة كانت تحتم ذلك - أم كان الهدف من ورائها (أن قريشاً تريد أن تزين للعرب زيارة البيت)[٢٢] ، نقول سواء كان هذا أم ذاك فإنها تجعل مقارنة أصحابها بالإقطاعيين فى أوروبا فى عصورها الوسطى الذين كانوا يعيشون على عرق الأقنان أم بالرأسماليين أصحاب الفبارك الذين يجمعون ثرواتهم من فائض القيمة الناتج عن

---

(٢٠) نقل هذه الشهادة أحمد عباس صالح ، **فى اليمين واليسار فى الإسلام** ، ص ٢٩ ، مرجع سابق ، الطبعة الأولى ١٩٧٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت -لبنان .

(٢١) عطا الله جليان ، **مجتمع قريش السياسى والدينى فى عام الفيل** ، ص ١٨ ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٧ م ، مؤسسة دار الكتاب الحديث ، بيروت - لبنان .

(٢٢) محمد كرد على ، **الإسلام وحضارة العرب** ، ص ١٣٩ ، مرجع سابق .

عمل الشغيلة مقارنة فاسدة تعد نوعاً من استنبات «نظرية» فى غير أرضها ؛ بداهة نحن لانرفض النظرية أو نهون من شأنها أو نقلل من قيمتها العلمية والثقافية وآثارها السياسية والاجتماعية فى البلدان العديدة التى أخذت بها وطبّقتها (فلقد كانت نظرية ماركس فى الوقت الذى ظهرت فيه أكثر النظريات التى عرفتها العلوم الاجتماعية شمولاً ونضوجاً ، لذلك ليس من المستغرب أن تكون هذه النظرية قد سيطرت على «الفكر الاجتماعى» فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وكذلك القرن العشرين [٢٣] ؛ ولكن مانطلبه أو نطالب به هو أن يكون المنهج هو الاستهداء بالمبادئ العامة التى تتمحور عليها النظرية لا أخذ النظرية بقضها وقضيضها ولزوم مراعاة ظروف مجتمعاتنا العربية وخصائصها وأنساقها التى لاشك أنها تختلف عن المجتمع الأوروبى الذى ظهرت فيه النظرية .

وهذا هو عين ماينادى به كثير من المفكرين حتى من داخل الحركة الماركسية ذاتها ، نذكر منهم على سبيل المثال : (انطنيو غرامشى) الإيطالى (إن التقريرية التى كانت فى روسيا مباشرة وكانت تطلق الجماهير فى الشوارع صوب الفضاء الثورى ، تتعقد فى أوروبا الوسطى والغربية نتيجة لكل هذه البنى السياسية الفوقية التى خلقها التطور الأكبر للرأسمالية وتجعل عمل الجماهير أبطأ وأكثر حرصاً وهى تتطلب بالتالى من الحزب الثورى استراتيجية كاملة وتكتيكا أكثر تعقيداً وأطول نفساً من الاستراتيجية والتكتيك اللذين احتاج إليهما البلاشفة فى الفترة مابين آذار - مارس وتشرين الثانى - أكتوبر ١٩١٧) [٢٤] .

هذا النص قد يكون منقطع الصلة بموضوع بحثنا إنما أوردناه لنثبت أن

---

(٢٣) بوتومور ، **الصفوة والمجتمع** ، ص ٤٤ ، مرجع اسابق .

(٢٤) **فكر غرامشى** ، مختارات جمعها : كالوس سالينارى وماريو سبينيلا ، تعريب تحسين الشيخ على ، ص ١٠٤ و١٠٥ (د . ت .) ، دار الفارابى ، بيروت-لبنان .

هناك مفكرين ماركسيين أدركوا منذ سنوات طوال (ولد غرامشى فى كانون الثانى - يناير ١٨٩١م وتوفى فى ٢٧ نيسان - إبريل ١٩٣٧م) أنه من المستحيل الأخذ بالتصور الماركسى أو النظرية على علاتها بل لابد من إدخال تغييرات عليها تتناسب مع جميع الظروف البيئية والحضارية والتاريخية للمجتمع الذى يبغى السير على ضوء مبادئها وألا يتم تطبيقها حرفياً «حذو النعل بالنعل» كما تقول العرب .

نعود بعد ذلك إلى ملأ قريش أو ملأ مكة لنقول إنه فعلاً وجد من بين وجوهه أثرياء أماثل عاشوا عيشة مترفة وأن بعضاً منهم عاش على الربا وعلى استغلال عرق الكادحين ولكن ليس من الصحيح تاريخياً أنهم جميعهم كانوا كذلك بل وصل عدد كبير منهم إلى عضوية «الملأ» لصفات ذاتية مثل رجاحة العقل والذكاء والفطنة وحنكة السنين وسعة الأفق ونفاذ البصيرة- والحسب والشرف وأن أعضاء حكومة دار الندوة حقيقة أمسكوا بزمام السلطة السياسية ولكن ليس عن طريق جهاز قمعى أو فرقة عسكرية أو تنظيم سلطوى ، ولكن للثراء من جانب - وصاحب المال له منزلة فى النفوس وهيبة لدى الناس فى كل زمان ومكان - وكذلك لمميزات البعض الآخر الشخصية وملكاتهم الفردية التى وصفناها ؛ كذلك نحن نختلف مع د . حسين مروة أن محور سيطرة الملأ وهيمنته على مكة كان هو النشاط الاقتصادى وحده بل كانت إلى جانبه عناصر أخرى أو محاور أخرى منها الدينى مثل الأعمال التى اختص بها بنو عبد الدار والاعتبارى مثل التقدم فى السن وهو ملمح مازال حتى الآن متجذراً فى المجتمعات كافة العربية وخاصة الريفية والبدوية . كذلك نخالفه فيما ذهب إليه من أن مجتمع مكة كان مجتمعاً طبقياً بالمعنى المتعارف عليه فى الأدبيات الماركسية وهذا ماسوف نشرحه فى الفصول القادمة .

ولا يُفهم من تقييمنا لـ «ملأ قريش» أنهم كانوا يعملون لصالح المحكومين تماماً وأنهم كانوا يحرصون على رفاهتهم ولكن مانريد أن ننتهى

إليـه أنهم لم يبلغـوا تلك المنزلـة من السـوء ولـم تصل صـورتهم إلـى تلك الدرجة من القتامة التى رسمها لهم د . حسين مروة .

* * *

ولكن ممن تكونت حكومة الملأ - ملأ قريش ؟

وكيف كان شكلها ؟

وماهو الوصف الذى يمكن أن يطلق عليها ؟

يقول د . طه حسين إن قريشاً (كان لها سادة أو شيوخ يلتئم منهم مجلس فى المسجد الحرام أو فى دار الندوة ، وأن هذا المجلس تعرض عليه مشكلات التجارة وتعرض عليه المشكلات التى تكون بين أحيائها ، وقد تعرض عليه المشكلات التى تثور بين الأفراد إن بلغت من الخطر أن تثير خصومة بين حيين أو أكثر)[٢٥] .

والعميد هنا يخط لمجلس ملأ قريش خطوطاً فيها كثير من التبسيط وينسب إليه قدراً وفيراً من السذاجة ولم يكن حاله كذلك ولم تحصر مهام حكومة الملأ على حل مشكلات التجارة أو تلك التى تنفجر من حين لآخر بين الأحياء أو بين الأفراد ، وتبلغ حداً خطيراً ينذر بشر مستطير ، بل إنها مارست كل أوجل ماتباشره الحكومات فى زمانها وفى جميع الأزمنة :

(فى العقد الفريد : من انتهى إليه الشرف فى الجاهلية فوصله بالإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن وهم : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم فكان : (١) من هاشم : العباس بن عبد المطلب يسقى الحجيج (٢) ومن بنى أمية : أبو سفيان ابن حرب وكانت عنده راية قريش «العقاب» (٣) ومن بنى نوفل : الحارث بن عامر

(٢٥) د . طه حسين ، **مرآة الإسلام** ، ص ٨٨ ، طبعة ١٩٥٩ م ، دار المعارف بمصر .

وكانت إليه الرفادة (٤) ومن بنى عبد الدار : عثمان بن طلحة وكان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة والندوة (٥) ومن بنى أسد : يزيد بن زمعة بن الأسود وكانت إليه المشورة (٦) ومن بنى تيم : أبو بكر الصديق وكانت إليه الأشناق وهى الديات والمغارم (٧) ومن بنى مخزوم : خالد بن الوليد وكانت إليه القبة والأعنة (٨) ومن بنى عدى : عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة (٩) ومن بنى جمح : صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار فهى الأزلام (١٠) ومن بنى سهم : الحارث بن قيس وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لآلهتهم)[٢٦] ، ويورد محمد كرد على نصاً مشابهاً عن اختصاصات أعضاء حكومة الملأ ثم يستطرد قائلاً (ومعنى هذا أن أهم الأعمال التى فيها قيام مجتمعهم (أهل مكة) قد أسند النظر فيه إلى أفذاذ من بطون معروفة)[٢٧] وإذا كان الأستاذ محمد كرد على فى هذا النص لم يذكر كلمة «حكومة» فإن باحثين آخرين أكدوا أن أولئك العشرة كانوا هم حكومة الملأ التى كانت تتولى السلطة فى مكة ، منهم الأستاذ أحمد عباس صالح (تتولى السلطة فى مكة تلك الحكومة المكونة من عشرة رجال يمثلون القبائل المختلفة من الظاهر ولكنهم فى الواقع يمثلون القوة العالمية التجارية للمجتمع المكى)[٢٨] ، (ولما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة وجد فيه حكومة ثيوقراطية فى يدها السلطة السياسية والدينية)[٢٩] كما يؤكد أ . برهان الدين دلوّ أن (حكومة دار الندوة أو الملأ كانت تتمتع بسلطات تشريعية وتنفيذية

(٢٦) نقلاً عن كتاب **اليمين واليسار فى الإسلام** ، تأليف أحمد عباس صالح ، باختصار من ٣١ - ٣٣ ، مرجع سابق .

(٢٧) محمد كرد على ، **الإسلام وحضارة العرب** ، الجزء الأول ، ص ١٣٨ ، مرجع سابق .

(٢٨) أحمد عباس صالح ، المرجع نفسه ، ص ٣٤ .

(٢٩) د . توفيق سلطان اليوزبكى ، **دراسات فى النظم العربية الإسلامية** ، ص ٣٩ ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م ، نشرته جامعة الموصل ، العراق .

وقضائية وإدارية تتناول الشؤون العامة والخاصة لسكان مكة ومنها :

(١) تبحث قضايا الحرب والسلام ، وتتخذ القرار بإعلان الحرب أو الجنوح إلى السلم وحل الخلافات التى قد تحدث فى قريش وأى طرف آخر بطريق التفاوض (٢) تبحث شؤون التجارة والأسواق والحج وهى المرافق الرئيسية التى تعمل فيها غالبية أهل مكة (٣) تبحث قضايا اجتماعية بما فيها القضايا الخاصة بسكان مكة مثل عقد الزواج والختان والمعاملات والبلوغ «بلوغ عمر الشباب» وغيرها (٤) يبحث فيها الملأ مسألة أخرى فكانوا ينتدون فيها أى يجتمعون للخير والشر وعلى حد تعبير ابن سعد يتشاورون فى أمر مانزل بهم) [٣٠] وللدكتور جواد على رأى فى توزيع اختصاصات الحكم بين أعضاء الملأ (أما ما يتعلق بأمر المدينة كلها كأمر مكة مثلاً من أمور تتعلق بأحوال السلم والحرب ، فيترك النظر فى ذلك إلى الملأ (ملأ مكة) مثلاً وهم وجوه مكة وسادتها من كل الأسر فيجتمعون فى «دار الندوة» أو فى دور الرؤساء للنظر فى القضايا والبت فيها ، ولا نجد فى مكة نوعاً من التخصص فى الأمور الظاهرة آنذلك إنما كان عن استئثار بعض الرجال البارزين بعمل من الأعمال[٣١] ؛ ونحن لانوافق د . جواد على ما ذهب إليه من أن الأمر كان يرجع إلى استئثار نفر من الرجال البارزين ببعض الوظائف إنما مرده فى نظرنا إلى مواهب أولئك الذين تولوها وصلاحيتهم لها ومقدرتهم عليها وسجاياهم ؛ فعلى سبيل المثال :

(أ) عند ما تولى أبو بكر - رضى الله عنه - «الأشناق» وهى الديات

---

(٣٠) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الثانى ، ص ٣٦٣ ، مرجع سابق

(٣١) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء الخامس ، ص ٢٤٧ ، مرجع سابق .

والمغارم اختير لها لمعرفته التامة بالأنساب التى تساعده على تحديد قيمة الديات والمغارم الواجب دفعها .

(ب) وأسندت إلى خالد بن الوليد - رضى الله عنه - «الأعنة» لفروسيته وعبقريته الحربية حتى قيل عنه بحق إنه «لم يهزم لافى الجاهلية ولا فى الإسلام» .

(ج) ولما نقرأ أن «السفارة» أوكلت إلى عمر الخطاب رضى الله عنه - نتذكر على الفور أن الرسول محمداً عليه الصلاة والسلام قبل توقيع صلح الحديبية طلب منه أن يذهب إلى مكة ليفاوض مشيخة قريش ، مما يقطع بصلاحيته التامة لهذه المأمورية وأن النبى عليه السلام كان يعرف جيداً ذلك عنه ؛ فلم يكن الأمر إذن أمر استئشار بل كما يقول المثل الحديث «وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب» ، ومن الأعمال التى كانت تضطلع بها حكومة الملأ القرشى «العمارة» وقد أسندت إلى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه - (وكان ينهى الناس من أن يتكلم أحدهم فى المسجد الحرام بهجر ولارفث ولا أن يرفع صوته)[٣٢] لتأكيد قدسية «المسجد الحرام» فى نفوس الناس ولتثبيت هيبته فى قلوبهم ، إذ القرشيون أنفسهم استمدوا مكانتهم العالية منه ، فقد درجت العرب على تسميتهم بـ «أهل الحرم» وبه كانوا يمتازون على سائر القبائل ، وفى خبر آخر أن شيبة بن عثمان قد وليها أيضاً ، وغدت عمارة البيت على عمومها من مفاخر قريش ، قد أشير إليها فى القرآن الكريم (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر)[٣٣] ومن الواضح أنها لم تقتصر على مراقبة سلوك قصاد المسجد الحرام بل شملت عدة مسائل أخرى تتصل بتعميره خاصة وأن الكعبة قد تعرضت

(٣٢) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، مرجع سابق ، ص ٢٤٩ .
(٣٣) الآية ١٩ من سورة التوبة وتسمى أيضاً سورة براءة .

لبعض النوازل التى صدعت بنيانها ، ومن البديهى أن العمارة تغاير السدانة والحجابة وهما وظيفتان دينيتان اختص بهما بنو عبد الدار واختصاص فرع من قبيلة بشؤون العبادة وإقامة الشعائر وآداء الطقوس أمر شائع فى كثير من الديانات ؛ ففى اليهودية نجد أن سبط هارون هو الذى يتولاها . وفى الوقت الذى ذهب فيه برهان الدين دلّو إلى أن حكومة دار الندوة تمتعت بسلطات متنوعة منها السلطة القضائية ، يرى د . صالح أحمد العلى أنه (لم تكن فيها تنظيمات قضائية ولا يوجد منصب للقاضى)[٣٤] ، ونحن نرجح الرأى الآخر لأن كل بطن أو فخذ من قريش كان يسكن شعباً أو محلة يترأسها أحد الكبراء أو السادة المحليين ، وهو الذى كان يقضى فى المنازعات التى تنشب بين الأفراد ، كذلك قرأنا عن «حكام» على مستوى القبيلة يلجأ الناس إليهم للحكم فى قضاياهم ، ومن ثم خلت حكومة الملأ المكى أو القرشي من السلطة القضائية ، إلا أن يستعر أوار الخصومة بين حيين أو فخدين مما قد ينبى بعواقب وخيمة ، فهنا تتدخل حكومة الملأ لفض الاشتباك وهو ماأشار إليه العميد د . طه حسين كما رأينا فى مفتتح البحث ، وهذا عمل سياسى أكثر منه تحكيمًا قضائيًا .

نخلص من ذلك كله إلى أن الأرستقراطية القرشية شكلت حكومة الملأ التى تمكنت بثروتها وجاهها ونفوذها أن تمسك بمقاليد الحكم فى المدينة المقدسة «مكة» ولتكون مقدمة لدولة قريش التى أنشأها فى يثرب محمد بن عبد الله - عليه السلام - والتى قدر لها أن تسيطر على شبه الجزيرة العربية وهو الحلم الذى راود أجداده : قصى وهاشم وعبد المطلب .

* * *

(٣٤) د . صالح أحمد العلى ، **تنظيمات مكة والمدينة عند ظهور الإسلام** ، مجلة الاجتهاد ، مرجع سابق .

كانت حكومة الملأ تنعقد فى «دار الندوة» ولو أن العميد الدكتور طه حسين ذهب إلى أنها كانت تجتمع فى المسجد الحرام فى بعض الأحيان، كما أن رأى د. جواد على أنه من الجائز أن يتم الاجتماع فى دار (أحد الأعضاء)؛ ولكن فى الأغلب الأعم فإن مستقرها كان فى «دار الندوة».

فى المبحث الخاص بـ «قصىّ» قلنا عنه إنه أول من أصاب ملكاً من ولد كعب بن لؤى ودانت له قريش كلها بالسيادة والشرف دون منازع، وأنه بنى دار الندوة كشارة لقيام حكومة مركزية تبدأ بالهيمنة على مكة توطئة لحكم الجزيرة العربية بأسرها (وكانت الندوة أو دار مجمع قريش وسيدها قصى تدير مكة وسميت الندوة لأنهم كانوا ينتدون فيها ويتشاورون فى حربهم وأمورهم)[٣٥]، وبعد قصىّ ظلت مركز الحكم ورمز السلطة ومن ثم اتخذتها حكومة الملأ لها مقراً. فدار الندوة هى دار ملأ مكة وهم سادتها ووجوهها وأشرافها وعلية القوم وأولى الأمر فيها أى الأرستقراطية القرشية)[٣٦].

وقال ياقوت: جعل قصي مكة ارباعا وبنى بها دار الندوة فلا تزوج امرأة إلا في دار الندوة ولا يعقد لواء ولا يعزر غلام ولا تدرع جارية إلا فيها وسميت الندوة لانه كانوا ينتدون فيها للخير والشر.

وأهم خصائص دار الندوة أنها كانت دار مشورة قريش.[٣٧]

من هنا تجئ أهمية إلقاء مزيد من الضوء على هذه (الدار)، يساهم فى إبراز قسمات حكومة الملأ: كما ذكرنا أن من بناها هو قصىّ بن كلاب وكانت (قرب الكعبة وبئر زمزم، والراجح أنهم تعمدوا اختيارها فى ذلك

---

(٣٥) عطا الله جليان، **مجتمع قريش السياسى والدينى فى عام الفيل**، ص ٢٣، مرجع سابق، الطبعة الأولى ١٤٠٧ / ١٩٨٧ م، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت-لبنان.

(٣٦) برهان الدين دلو، **جزيرة العرب قبل الإسلام**، الجزء الثانى، ص ٣٦٤، مرجع سابق.

(٣٧) د. أحمد الشريف، **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول**، ص١٢٩، مرجع سابق.

الموضع لتكتسب المناقشات صيغة وقورة) (٣٨) كما (جعل بابها إلى البيت)(٣٩) ولاشك أن قصيّاً - وكان من أدهى العرب - قد اختار لها هذا الموقع لتكون لها فى الصدور هيبة وقداسة ومن ثم فإن القرارات التى تصدر فيها لابد أن تقابل بالتسليم والطاعة (ولم تكن بناية الندوة من الأبنية العامة بل هى ملك خاص لأفراد من بنى عبد الدار)(٤٠) ، ولإضفاء مزيد من الوقار على دار الندوة فقد كان من المحظور دخولها إلا من تعدى الأربعين عاماً وكانت هذه هى سن النضوج عند العرب ، وقد جاء فى القرآن الكريم (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ)(٤١) ، ويذكر فى هذا المقام أن محمداً عليه السلام لم يأته الوحى من السماء إلا فى هذه السن ويبدو أن غير العرب لم يكونوا على هذا المعتقد لأن عيسى بن مريم - عليه السلام - أوحى إليه قبل الأربعين .

واستثنى من قيد بلوغ الأربعين بنو عبد الدار لأنهم «أصحابها» ، ويروى الإخباريون أن الندوة ظلت قائمة حتى عهد الخليفة الأموى معاوية ابن أبى سفيان إذ ظل بنو عبد الدار يتوارثونها (حتى صارت لعكرمة بن عامر بن هشام الذى باعها لمعاوية بن أبى سفيان بمائة ألف دينار)(٤٢) ، ولاشك أن معاوية دفع فيها هذا الثمن لغرض سياسى .

يشرح لنا ابن سعد فى الطبقات الكبرى العلة فى إطلاق اسم الندوة على تلك الدار (وإنما سميت دار الندوة لأن قريشاً كانو ينتدون فيها أى يجتمعون للخير والشر ؛ والندى مجمع القوم إذا اجتمعوا . . . ففيها

---

(٣٨) د . صالح أحمد العلى ، **تنظيمات مكة والمدينة عند ظهور الإسلام** ، مرجع سابق .

(٣٩) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، ص ٣٦٢ ، مرجع سابق .

(٤٠) د . صالح أحمد العلى ، **تنظيمات مكة والمدينة عند ظهور الإسلام** ، مرجع سابق .

(٤١) الآية ١٥ سورة الأحقاف .

(٤٢) د . صالح أحمد العلى ، **تنظيمات مكة والمدينة عند ظهور الإسلام** ، مرجع سابق .

يكون أمر قريش كله وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة مما ينوبهم ، حتى إن كانت الجارية تبلغ أن تدرع فما يشق درعها إلا فيها ثم ينطلق بها إلى أهلها ، ولا يعقدون لواء حرب إلا فى دار الندوة يعقده لهم قصى ، ولا يعذر لهم غلام إلا فى دار الندوة ولاتخرج عير من قريش فيرحلون إلا منها ولايقدمون إلا نزلوا فيها تشريفاً له وتيمناً برأيه) ،[٤٣] وأضاف الازرقي :(وحلفاؤهم كبير وصغير)[٤٤] ومما هو جدير بالذكر أنه حتى الآن طبقا للشريعة الإسلامية (يستحب لمن دخل مكة أن يبادر إلى (البيت) بعد أن يدع أمتعته فى مكان أمين)[٤٥] ، مع ملاحظة ماسبق أن سطرناه : أن دار الندوة كان موقعها بين الكعبة وبئر زمزم وأن بابها كان إلى البيت «الكعبة» ؛ ولم تكن هذه هى البصمة الوحيدة التى تركتها «دار الندوة» فى الوجدان العربى ، فقد ورد فيما سبق أن ابن سعد فى طبقاته الكبرى ذكر أن القرشيين إذا عزموا النكاح عقدوه فى دار الندوة والنكاح هو الزواج ، وفى أيامنا هذه تتم عقود الزواج بالعشرات كل أسبوع فى القاهرة فى المساجد التى بها أضرحة يرقد بداخلها أحفاد قصّى مؤسس دار الندوة .

وكما رأينا من نص ابن سعد وغيره من كتاب السيرة أن قريشاً كانت تباشر أمورها السياسية والاجتماعية والعسكرية كافة على يد الملأ فى دار الندوة ، كذلك المسجد فى فجر الإسلام كانت تتم فيه المشاورات فى الأمور ومنه تخرج السرايا للقتال وتستقبل الوفود وتفض المنازعات وتحرر

(٤٣) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، الجزء الأول ، ص ٥٠ ، طبعة ١٣٥٨هـ ، لجنة نشر الثقافة الإسلامية بدار جمعية الجهاد الإسلامى ، بمصر .

(٤٤) الازرقي ، **أخبار مكة** ، الجزء الثاني ، ص ٢٥٣ ، مصدر سابق ، ود. أحمد ابراهيم الشريف ، **في مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول** ، ص١٢٩ ، مصدر سابق .

(٤٥) السيد سابق ، فقه السنة ، المجلد الأول ، العبادات ، ص ٥٨٤ (د . ت .) ، مكتبة دار التراث بمصر .

الرسائل التى حملها السفراء إلى الملوك والحكام ، وبالجملة كان نسخة مكررة من «دار الندوة» فى هذه الجوانب .

وليس غريباً أن يؤكد غالبية الكتاب «الإسلاميين» حالياً أن المساجد ركائز الجماعة الإسلامية ، وأن يطالبوا بعودة دور المسجد كما كان فى الصدر الأول أزهى عصور الإسلام والحلم الذهبى الذى يداعب أجفانهم فى المنام واليقظة ويأملون فى استعادته(٤٦) ، بل إن هناك جماعات وهيئات أقيمت لتحقيق تلك الغاية ، لعل أولئك الكتاب والباحثين ومنشئي الجماعات والهيئات لايدركون أنهم يتحركون من أعماق اللاشعور الذى انغرز فى أغوار نفوسهم منذ عهود سحيقة ترجع إلى قصى ، نقول لاغرابة فى ذلك إذ أنه مازالت عادات وتقاليد قدماء المصريين تؤثر تأثيراً واضحاً على معتقدات وسلوك المصريين المعاصرين وفى شتى مناحى حياتهم حتى التعبدية والشعائرية ناهيك بالاجتماعية(٤٧) .

وظلت مكانة دار الندوة والمهام التى تنجز فيها أو منها مستمرة حتى فتح مكة ، لأن النظام الذى وضعه قصى ظل معمولاً به لأن القرشيين مافتئوا (يتبعون أمره كالدين المتبع لايعمل بغيره فى حياته وبعد موته)(٤٨) وأخذ الملأ يباشر وظائف السلطة المتنوعة من دار الندوة وهى كما رأينا

---

(٤٦) انظر على سبل المثال : د . حسين مؤنس ، «دور المساجد فى بناء الجماعات الإسلامية» ، مقال بمجلة **الوعى الإسلامى** ، ص ٤٨-٦٣ ، العدد ١١٠٣ ، غرة رجب ١٣٩٣ هـ/ أغسطس آب ١٩٧٣م .

(٤٧) انظر على سبيل المثال : **آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية** ، تأليف د . محرم كمال العدد ٣٨ من سلسلة الألف كتاب (الأولى) ، الطبعة الأولى ١٩٥٦ م ، دار الهلال بمصر .

(٤٨) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، الصفحة نفسها ، مرجع سابق .

تغطى الجوانب كافة التى فصلنا فيها القول فى البحث السابق ومن بين تلك الجوانب : الاجتماعى إذ فيها (إن كانت الجارية تبلغ أن تدّرع فما يشق درعها إلا فيها أى فى دار الندوة ثم ينطلق بها إلى أهلها)(٤٩) ، ويعقب د . صالح أحمد العلى على هذه الفقرة بقوله (ولدينا نص غامض يذكر أن الفتاة إذا بلغت جئ بها إلى دار الندوة مما يدل على أن دار الندوة يسجل فيها المواطنون عند بلوغهم سن الرشد أو سن المواطنة)(٥٠) ، أما حديث د . العلى عن المواطنة والمواطنين وتسجيلهم عند بلوغهم سن الرشد أو سن المواطنة فهو وهم لأن مجتمع مكة فى ذلك الوقت لم يبلغ الدرجة الحضارية التى تؤهله لذلك ، ويبدو أن د . العلى قد نسى أنه عند ظهور الإسلام لم يكن فى مكة بأسرها سوى سبعة عشر رجلاً يعرفون القراءة والكتابة وأنهم استعاضوا عن التسجيل بما يناسب مجتمعهم وهو حفظ الأنساب وكان هناك من هو مختص بها أو ضليع فيها مثل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أما النص أو الفقرة المذكورة فلم يعتورها غموض كما رأى د . صالح فـ (الدرع للجارية «الفتاة» ثوب صغير تلبسه فى بيت أهلها ، فإذا بلغت عمر الشباب شق عنها هذا الدرع وألبسوها درع المرأة أى الثوب الكبير تلبسه المرأة فى بيتها ، وكان الذي يتولي شق درع الجارية بنو عبدالدار بن قصي في دار الندوة (فاذا بلغت الجارية منهم أدخلت دار الندوة فجاب عليها درعها عامر بن هاشم ابن مناف بن عبدالنار بن قصي ثم انصرفت إلى أهلها فحجبوها أو بعض ولده) . (٥١)

---

(٤٩) ابن سعد ، مرجع سابق .

(٥٠) د . صالح أحمد العلى ، **تنظيمات مكة والمدينة عند ظهور الإسلام** ، مرجع سابق .

(٥١) الازرقي ، **أخبار مكة** ، أن حجب الفتاة (الجارية) إذا ادركت البلوغ عاره من الفترة السابقة على الإسلام (يسمونها الجاهلية !)

ويعلل أحد الباحثين ختان الصبيان وشق دروع الصبايا داخل دار الندوة بأنه مجرد تعريف بالبالغين من قريش الذكور والإناث .(٥٢)

ويبدو أن ذلك التقليد كان يجرى فى الجاهلية بـ «مراسم إحتفالية»)(٥٣) فهو إذن ضرب من «طقوس الانتقال» وهو تعبير استحدثه الأنثربولوجى «ڤان جنيب» (للدلالة على مجموعة من الطقوس التى يرعاها الأفراد عند اجتيازهم مرحلة من مراحل تطورهم البيولوجى والاجتماعى من المهد إلى اللحد . ومن هذه الطقوس أن تراعى المرأة الحامل مجموعة من الطقوس مثل عدم حلب اللبن ، وعند ولادة الطفل يراعى كل من والده ووالدته طقوساً أخرى وكذلك الشأن عند تسميته وقص شعره لأول مرة وعند بلوغه سن المراهقة وعند زواجه وفى مرضه وعند موته)(٥٤) ، ومما يؤسف له أن الإخباريين نقلوا لنا هذا (الطقس) فى عبارات مختصرة ولم يفصلوا لنا مراسم الاحتفال ببلوغ الجارية سن الرشد ، إنما على كل حال فإن مثل هذه الشعائر كما يعتقد العالم ليتس (نوع من السلوك الاجتماعى له صفة رمزية تنعكس فى الشعائر والممارسات الدينية وأحياناً يعبر عنها فى سياق العادات والتقاليد الاجتماعية)(٥٥) ؛ ومن الشعائر التى ينطبق عليها هذا الوصف ماتنص

---

(٥٢) أحمد الشريف ، **مكة والمدينة** ، ص ١٣٠ ، مرجع سابق ، وفي رأينا أن هذا تعليل منقوص وإن لم تعوزه الصحة ، ولكن التعليل الأصح هو أن دار الندوة غدت بمثابة دار الحكومة بحيث لاتبرم شئون مدينة التقديس العامة منها والخاصة إلا بين جنباتها .

(٥٣) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، هامش ص ٣٦٣ ، مرجع سابق .

(٥٤) **معجم العلوم الاجتماعية** ، تصدير ومراجعة د . إبراهيم مدكور ، إعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب والمتخصصين مادة (طقوس انتقال) حررها أحمد الخشاب ، ص ٣٦٧ ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٥٥) **معجم علم الاجتماع** ، تحرير البرفيسور دينكن ميتشيل ترجمة ومراجعة د . إحسان محمد الحسن ، الطبعة الثانية ، آذار ١٩٨٦ م ، دار الطليعة ، بيروت-لبنان .

عليه الديانة الإسلامية أنه عند ولادة المولود يقص شعره ويتصدق بوزنه فضة أو ذبح ذبيحة يتصدق بلحمها أو هما معاً ويطلق على هذه الشعيرة الاجتماعية «العقيقة» وهى (التصدق بزنة شعر المولود فضة ، وفى النهاية هى الذبيحة التى تذبح عن المولود وأصل العق : الشق والقطع ؛ وفى الحديث «الغلام مرتهن بعقيقته» وقيل معناه : أن أباه يحرم شفاعة ولده إذا لم يعق عنه ، والرهينة الرهن لله وفى الحديث «كل غلام رهينة بعقيقية» والمعنى : أن العقيقة لازمة لابدمنها ، فشبهه فى لزومها عنه وعدم انفكاكه منها بالرهن فى يد المرتهن)[٥٦] .

ومن بين (طقوس الانتقال) لدى قبائل الدنكا قص شعر المولود لأول مرة وعند بلوغه سن المراهقة وعند زواجه وفى مرضه وعند موته .

كذلك ذكر ابن سعد أنه (لايعذر لهم غلام إلا فى دار الندوة)[٥٧] ؛ وفى قواميس اللغة (واعذر الغلام والجارية أى ختنهما)[٥٨] أى أن ختان الصبيان كان يتم إجراؤه فى دار الندوة وهو كسابقه من «طقوس الانتقال» وجاءت عبارة ابن سعد فى شأنه مقتضبة أيضاً إذ لم يوضح لنا مراسم الاحتفال الذى كان يقام لهذه الشعيرة الاجتماعية ، وهو يقطع بأن قريشاً عرفت الختان ولعلها تأثرت فى ذلك باليهودية مما يدل على أنها كانت منتشرة أو معروفة لديها كما سيجىء فى المبحث الخاص بـ «اليهودية» أو أنها كانت من تأثير «الحنيفية» على القرشيين خاصة وأن اثنين من سادتهم كانا من المتحنفين هما : لؤى بن غالب وعبد المطلب بخلاف من اعتنقها منهم مثل : ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة رضى الله عنها الزوجة

---

(٥٦) د . أحمد الشرباصى ، **المعجم الاقتصادى الإسلامى** ، مادة « العقيقة» ، ص ٣٩٩ ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م ، دار الجيل ، الفجالة – مصر .

(٥٧) ابن سعد ، **الطبقات الكبرى** ، الصفحة نفسها ، مرجع سابق .

(٥٨) **المعجم الوسيط** ، ص ٦١١ من الجزء الثانى ، « مادة أعذر » ، مجمع اللغة العربية بمصر .

الأولى لمحمد عليه السلام وزيد بن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وحتى وقت قريب كان يتم ختان الصبية فى مدينة القاهرة أمام المساجد التى بها أضرحة لأحفاد قصى مؤسس دار الندوة .

لعله من نافلة القول أن نضيف أن إجراء ختان الصبى وشق درع الجارية أو الفتاة فى دار الندوة دليلان لايقبلان الشك على أن «حكومة الملأ» كانت تهيمن على شؤون أهل مكة كافة صغيرها وكبيرها عبر «دار الندوة» وظلت كذلك حتى خلفتها الدولة التى أقامها محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب عليه السلام فى يثرب .



ثم نأتى إلى السؤال الأخير :

ماهو الوصف الذى يمكن أن يطلق على «حكومة الملأ» ؟ وماهو نوع تلك الحكومة ؟

لسنا فى حاجة إلى جهد كبير لنصل إلى أنها حكومة نخبة أو صفوة أو «إيليت» .

(من الحقائق الثابتة التى يمكن أن نلحظها فى الكائنات العضوية السياسية ، هناك دائماً حقيقة واضحة إلى أبعد حد حتى بالنسبة للعين العارضة - ففى كل المجتمعات - ابتداءً من تلك التى حققت بالفعل شوطاً كبيراً من التقدم ثم شهدت أفولاً بعد ذلك حتى تلك التى لاتزال فى قوة تقدمها وقوتها : طبقتان متميزتان من الناس ، طبقة تَحكم والأخرى تُحكم والطبقة الأولى عادة ماتكون أقل عدداً وأقوى سلطة على الوظائف السياسية وأشد احتكاراً للقوة فضلاً عن تمتعها بالمزايا المصاحبة للقوة ، أما الطبقة الثانية فهى الأكثر عدداً والخاضعة لتوجيه

وتحكّم الطبقة الأولى)[٥٩] ، فالملأ القرشى هنا هو الحاكم ويتكون من فئة محدودة من الأشخاص سيطرت بقوة مالها وجاهها ونفوذها على مقدرات السلطة فى مكة واحتكرت الوظائف السياسية وفرضت هيمنتها على باقى السكان : القرشيين الفقراء والموالى والعبيد على حد سواء ومن يفد إلى العاصمة المقدسة لغرض تعبدى أو اقتصادى إذ أن أوامرها كانت تسرى عليهم جميعا ولايستطيعون عصيانها أو حتى مخالفتها . و(أسباب حكم القلة عديدة فى التاريخ أبرزها الدين والنسب والثروة والثقافة والقوة العسكرية ويساعد على هذا تخلف الأكثرية واستسلامها ، ولئن كان لحكم القلة بعض مزايا «فنية غالباً» إلا أنه يهدر مصالح الأغلبية ومشاعرها ويزكى غرور القلة وتعاليها)[٦٠] .

شهدت مجتمعات كثيرة على مر التاريخ فى معظم البلاد «حكم الصفوة وكانت دائماً أكثر الجماعات هيبة وأكفأها أثراً وتتألف عادة من المبرزين المتفوقين على غيرهم وفى السياسة غالباً مايكون الامتياز فى الثروة ، ولكن هذا لايمنع من وجود عناصر أخرى مثل النسب والحسب اللذين كان لهما قيمة معيارية عالية فى المجتمعات القديمة ومنها المجتمع العربى ، ورجاحة العقل والذكاء ونفاذ البصيرة وسعة الأفق وطلاقة اللسان وقوة العارضة وسرعة البديهة والمنجزات الأخلاقية والموهبة العسكرية وهى صفات إيجابية تحسب لها ، بجانب المثالب الى تلازمها عادة مثل : الميل إلى القهر والتسلط والنفور الشديد من المعارضة والأثرة والركون إلى الترف والانكباب على الشهوات والملذات والتعالى

(٥٩) بوتومور ، **الصفوة والمجتمع ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى** ، ترجمة د . محمد الجوهرى وآخرين ، ص ٢٧ ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، دار المعارف بمصر .

(٦٠) **معجم العلوم الاجتماعية** ، ص ٢٣٥ ، مادة «حكم القلة والبيجاركية» ، بقلم د . عثمان خليل عثمان ، مرجع سابق .

والشموخ ، كذلك يميل أعضاء النخبة إلى التماسك أى (أن أفرادها متحدون أى أن كل واحد منهم يعرف الآخر فيتفاعل ويتعاون معه وهذا مايساعد الطبقة على تحقيق أهدافها)[٦١] ، ولكن لايمنع تماسك الصفوة من وجود تنافس بين أعضائها (مثل التنافس الشهير بين بنى هاشم وبنى عبد شمس أو بنى أمية وهما فرعا عبد مناف بن قصى) وفى هذا يقول د . حسين مؤنس (فالعداوة بين بنى هاشم وبنى عبد شمس لم تكن قديمة ولا دموية منذ ميلادهما بل هى نشأت بعد ذلك لأسباب قبلية وأخرى سياسية)[٦٢] ، وكان حرياً بالباحث ألا يستعمل كلمة «عداوة» لأنها كانت فى ذلك الوقت تنافساً لا (عداوة) والتنافس بين أفراد الصفوة أمر طبيعى فـ (ليست الفئة الحاكمة أكثر اتحاداً من الدولة فالعناصر التى تؤلفها تتزاحم لتضمن لنفسها السلطة والهيبة والقدرة المالية)[٦٣] ، إنما لايبلغ ذلك التزاحم درجة الخروج عن مصالح الصفوة أى أن هناك حداً معيناً لايسمح لهم تنافسهم بتخطيه إذ أن من أهم علامات النخبة (أن كل فرد فيها يتفاعل ويتعاون مع الآخرين لبلوغ أهداف معينة)[٦٤] .

ولكن د . أحمد ابراهيم الشريف ينكر قيام خصومة بين بنى هاشم وبنى عبدشمس (أمية) وانهما من عبدمناف وكانت قريش تعتبر بنى عبدمناف عصبة واحدة وفى الروايات التى أتت بهذا الخبر ، ويرى أنها

---

(٦١) **معجم علم الاجتماع** ، ص ٨٣ ، مادة « النخبة : الأقلية الحاكمة : الطبقة العليا الحاكمة الايليت » ، مرجع سابق

(٦٢) د . حسين مؤنس ، من **مقدمة التحقيق** ، ص ٧ . وهى التى صدر بها كتاب **النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم** ، تأليف تقى الدين المقريزى ، حققه وعلق على حواشيه د . حسين مؤنس ، ذخائر العرب ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، دار المعارف بمصر .

(٦٣) جورج بالانديه ، **الأنثر بولوجيا السياسية** ، ترجمة جورج أبى صالح ، ص ١١١ ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م ، من منشورات مركز الإنماء القومى ، بيروت-لبنان .

(٦٤) د . محمد عاطف غيث ، **قاموس علم الاجتماع** ، ص١٥٥ ، مادة : «الصفوة» ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية .

بنيت على قصة اسطورية وهى ولادة هاشم وابنى توأمين ملتصقين[٦٥] .

إن من أهم أسباب تعاون الملأ المكى كصفوة حاكمة هو وجود قرابة بينهم وشعورهم بانحدارهم من جد واحد ، فان رجال قريش استطاعوا ان يحافظوا على وحدة القبيلة وتماسكها ولم يقبلوا اطلاقا ان يحدث تفك صفوفها أو ينشب خلاف يؤدى إلى تعارك العشائر[٦٦] . ومن دوافع تفوقهم الذى أهلهم لتسنم ذرى السلطة هو انتماء عدد منهم مثل : بنى هاشم وبنى أمية وبنى عبد الدار وبنى مخزوم إلى الذؤابة العليا فى قبيلة قريش ، وهو مايسميه ابن خلدون فى (المقدمة) الحسب أو الشرف (وهكذا فالنسب حتى ولو كان صريحاً حقيقيا لا يكفى وحده كمؤهل للرئاسة بل لابد من الحسب والشرف ، والشرف هو شئ متوارث أباً عن جد)[٦٧] ، ويضيف ابن خلدون إلى وراثة الدم (وراثة الخلال الحميدة التى جعلت من الجد الأول رئيساً)[٦٨] مثل الكرم والشجاعة والصدق والمروءة . . . . الخ وهو ماتحقق بقدر معقول فى الملأ القرشى .

نبادر هنا إلى تأكيد التحفظ الذى سبق أن ذكرناه وهو أن توافر هذه الصفات فى كثير أو بعض أفراد حكومة الملأ لم يحولها إلى (حكومة خيرّة) وقفت نفسها على خدمة الفئات المحرومة «المحكومين» والسهر على مصالحهم ، ولكن هذه الميزات الأخلاقية هى أصلاً موضع تقدير مجمع عليه فى المجتمع العربى آنذاك ومن ثم يستحيل على من يتولى

---

(٦٥) د . ابراهيم احمد ابراهيم الشريف ، **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول** ، ص ١٤ ، مصدر سابق ، وعلى كل فكما سبق ان ذكرنا ان هذا المبحث يخرج عن موضوع كتابنا الذي يتناول قريش كقبيلة جامعة لكل بطونها ولا نخص واحدا منها .

(٦٦) د . أحمد ابراهيم الشريف ، **مكة والمدينة** ، ص ١٤٩ ، مرجع سابق .

(٦٧) د . محمد عابد الجابرى ، **فكر إبن خلدون – العصبية والدولة – معالم نظرية خلدونية فى التاريخ الإسلامى** ، ص ٢٧٤ (د . ت .) ، دار الشؤون الثقافية ، آفاق عربية ، بغداد .

(٦٨) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

الرئاسة أن يتغاضى عنها وألا يتحلى بها حتى إنه على مستوى القبائل العادية يراعى فى اختيار شيخ القبيلة لزوم تحليه بهذه الشمائل .

* * *

اختلف الباحثون فى وصف (حكومة الملأ) وتحديد نوعها :

العميد د . طه حسين ذهب إلى أن (حكومة الملأ لم تكن جمهورية أرستقراطية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، ولم تكن جمهورية ديموقراطية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة أيضاً)(٦٩) ؛ فى حين يقارن مونتجمرى واط بين حكومة الملأ وحكومة أثينا إذ (يقارن بين مركز أبى سفيان فى مكة ومركز بير كليس فى أثينا وبالتالى بين الديموقراطية العربية والديموقراطية الاثينية وأن العرب كانوا يعرفون هذه الديمقراطية وإن كانت أقل احتضاناً لفكرة المساواة من ديموقراطية الإغريق)(٧٠) ؛ ففى حين ينفى د . طه حسين وصف «حكومة الملأ» بأنها ديمقراطية يرى «واط» عكس ذلك وأن العرب عرفوا الديمقراطية وإن كانت أضأل من نظيرتها الاثينية إذ جاء عنصر المساواة فيها أقل .

ووصفها د . حسين مروة أنها (شكل من أشكال السلطة السياسية لسيطرة الفئة المالكة على وسائل الثراء واستغلال الآخرين ، يبدو أنه مرتبط تاريخياً بسيطرة الأرستقراطيةالتجارية القرشية)(٧١) .

أما محمد كرد على فيرى أنها (جمهورية صغرى تولى زمامها أمثل

---

(٦٩) د . طه حسين ، **مرآة الإسلام** ،ص ٢٣ ، طبعة ١٩٥٩م ، دار المعارف بمصر ، مرجع سابق .

(٧٠) نقلاً عن كتاب **اليمين واليسار فى الإسلام** ، للأستاذ أحمد عباس صالح ، ص٢٩ ، مرجع سابق .

(٧١) د . حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، الجزء الأول ، ص ٢٣٢ ، مرجع سابق .

الناس وحمل تبعتها الزعماء راضين مختارين)[٧٢] ويتضح من أسلوبه أنه يعمد إلى الطريقة التمجيدية لا إلى التقييم العلمى الدقيق .

وينظر د . توفيق سلطان اليوزبكى (أنها حكومة ثيوقراطية فى يدها السلطة السياسية والدينية)[٧٣] وهذا الباحث قد جانبه الصواب فى هذا التوصيف ، فلم يكن أعضاء الملأ من رجال الدين ولم يدعوا أنهم يحكمون بالحق الإلهى المقدس ؛ حقيقة أن بعضهم كان يتولى أعمالاً دينية مثل الحجابة والسدانة (اختص بها بنو عبد الدار) ولكن لم يكن لذلك تأثير على الحكم بحيث يمكن أن يقال إنه كان مصبوغاً بالصبغة الدينية (اللاهوتية) ، كذلك وظف الدين كـ (مدماك) لتثبيت دعائم حكومة قريش لوجود كعبة مكة التى يقدسها العرب عن بكرة أبيهم رغم وجود بضع وعشرين كعبة فى جزيرتهم وقتذاك ، وأن هذا الاتجاه (توظيف الدين) بدأ مبكراً على يد قصى المؤسس الأول ثم استمر بمعرفة أحفاده من بعده وظل كذلك حتى تحققت الخطة وقامت دولة قريش فى يثرب ؛ ولكن ذلك أيضاً لا يبرر وصف حكومة الملأ بأنها ثيوقراطية .

وفى رأينا أن حكومة الملأ كانت أقرب إلى «دولة المدينة» ، باشرت السلطة فيها أقلية أو ليجاركية استندت إلى الثروة و النسب والحسب والميزات الفردية لأعضائها ووظفت الجانب الدينى لتدعيم سيطرتها ، وأنه من الصعب أن نضفى عليها تصنيفا من نوع تلك التصنيفات التى عرفت فى البلاد الأخرى . خاصة اليونان لأنها وهى تحكم كان من المستحيل عليها أن تخرج عن موجبات التقاليد والأعراف السائدة فى مجتمعها العربى .

---

(٧٢) محمد كرد على ، **الإسلام والحضارة العربية** ، الجزء الأول ، ص ١٣٩ ، مرجع سابق .

(٧٣) د . توفيق سلطان اليوزبكى ، **دراسات فى النظم العربية الإسلامية** ، ص ٣٩ ، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م ، جامعة الموصل ، العراق .

بقيت كلمة قصيرة نختم بها هذا المبحث وهى :

نأمل ألا يفهم من قولنا إن «حلف الفضول» كان هو المقدمة لـ «حكومة الملأ» أن هناك مرسوماً جمهورياً صدر بإقالة «حلف الفضول» بعد انتهاء مهمته وإنشاء «حكومة الملأ» ، أو أن هذه الحكومة حلت محله فى تسلسل تاريخى صارم ، بل إنه من المنطقى أن تكون العناصر الجنينية لهذه الحكومة بدأت تتشكل قسماتها فى رحم المجتمع المكى أثناء قيام حلف الفضول ثم أخذت تنمو رويداً حتى اشتد عودها وأخذت مكانه وسيطرت على مقاليد الحكم فى مدينة القداسة تماما مثل مايحدث وقت السحر عندما تتشابك خيوط أو أضواء الفجر مع فلول ظلام الليل حتى تتلاشى الأخيرة ويطلع الفجر ، ذلك أنه كان من المستحيل بقاء النظام القبلى بسائر تقاليده سائداً فى مكة بعد طروء الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى سوف تكون موضع البحث فى الفصول القادمة وأنه كان من المحتم حدوث تغييرات جوهرية فى المجتمع المكى وفى مقدمتها نظام الحكم .

الباب الثاني

المقدمات الدينية



تمهيد : اليهودية والمسيحية

انتشرت الديانتان الساميتان الإبراهيميتان التوحيديتان : الموسوية والعيسوية أو اليهودية والنصرانية (المسيحية) فى جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام على تفاوت بينهما فى المدى والرقعة أو المساحة ، مع ملاحظة أن أولاهما ليست تبشيرية ولو أن د . محمد حسين هيكل يخالف هذا الرأى ويؤكد (أن رجال الدين فى كلتيهما يبذلون الجهود لنشر الدعوة إلى العقيدة التى يؤمنون بها)[1] ونحن نؤيده فى ذلك ولو أن التبشير فى ديانة اليهود أخف حدة وأقصر باعاً وأقل نشاطا ، وينضم إليه أحمد أمين إذ نراه يقول (عمل اليهود على نشر ديانتهم جنوبى الجزيرة حتى تهود كثير من قبائل اليمن ومن أشهرها ذو نواس)[2] وأيا كان الأمر فالذى لامرية فيه أن هاتين الديانتين التوحيديتين كان لهما وجود وحضور فى شبه الجزيرة العربية (فليس صحيحاً إذن أن الأمة

---

(١) د . محمد حسين هيكل ، **حياة محمد** ، ص ٨٧ ، الطبعة الحادية عشرة ، دار المعارف بمصر .

(٢) أحمد أمين ، **فجر الإسلام** ، ص ٢٣ ، الطبعة الثالثة عشرة ، ١٩٨٢م ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

العربية فى ذلك العصر - يعنى السابق على الرسالة المحمدية- كانت تعيش فى عزلة لاتعرف من أمر الأمم المجاورة لها شيئا ؛ فاليهودية والمسيحية لم تنزلا على أهل الجنوب ولا على أهل الشمال من السماء وإنما جاءتا أولئك وهؤلاء من الاتصال بالأمم المتحضرة المجاورة ، فعزلة الأمة العربية إذن سخف من السخف لاينبغى أن يقبل أو يطمأن إليه)[٣] .

هذا ماراه العميد د . طه حسين فهو هنا يشجب الادعاء القائل بأن عرب الجزيرة قبل الإسلام كانوا معزولين عن العالم ويسم هذا الادعاء بالسخف الذى لايطمئن إليه العقل ومن ثم يتعين رفضه ؛ ويضيف د . محمد حسين هيكل سبباً آخر لانتشار الديانتين الإبراهيميتين آنذاك فى شبه الجزيرة العربية وهو اتصال العرب بما جاورهم من البلاد عند انتقالهم إليهم فى القوافل للمتاجرة معهم (وكان طبيعياً أن يظل العرب الذين يتصلون بنصارى الشام أو بنصارى اليمن فى رحلتى الشتاء والصيف)[٤] ، ورحلتا الشتاء والصيف ورد ذكرهما فى القرآن) الكريم فى سورة قريش وقد سجلهما الشعر الجاهلى فهذا شاعر جاهلى يمتدح هاشماً جد النبى - ص :

عمرو العلاهشم الثريد لقومه سفر الشتاء ورحلة الإيلاف ،

ويرى العميد د .طه حسين (أن مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن وينصح من يريد أن يدرس الحياة ، الجاهلية فعليه أن يدرسها فى نص لا سبيل إلى الشك فى صحته (ادرسها فى القرآن فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلى ونص القرآن لاسبيل إلى الشك فيه . . . وإن هذه بدهية حين تفكر فيها قليلاً)[٥] . إذن رحلتا الشتاء والصيف حقيقة

(٣) د . طه حسين ، **مرآة الإسلام** ، ص ١٠ ، طبعة ١٩٥٩م ، دار المعارف بمصر .

(٤) د . محمد حسين هيكل ، فى **حياة محمد** ، ص ٩٨ ، مرجع سابق .

(٥) د . طه حسين ، فى **الشعر الجاهلى** ، ص١٦ ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م ، مطبعة دار الكتب المصرية .

تاريخية قام دليل ثبوتها بموجب نص لاسبيل إلى الريبة فيه ، كذلك ثبتت بالشعر الجاهلى ، ولو أن الأستاذ العميد د .طه حسين يلقى ظلالاً من الشك على صحة هذا الشعر ، ولكن تلك قضية تتعلق بتاريخ الأدب اشتجر الخلاف حولها واحتدم ، وتخرج عن نطاق بحثنا .

وينكر العديد من الباحثين رد طه حسين الشعر الجاهلى ورفضه اياه وانه تابع فى ذلك استاذه مرجليوث وان ذلك الشعر صور الحياة العقلية والدينية والاجتماعية والاقتصادية بل وحتى السياسية أدق تصوير وان تعليق الشراح القدامى على ذلك الشعر وتفسيرهم له كان سطحيا وساذجا وانهم لو امعنوا النظر فيه لاستبان لهم انه تضمن دلالات عقائدية (كشفت عن الميثولوجيا التى كانت سائدة لديهم) وسياسية واقتصادية مخبوءة تحت السطح لا يفك مغاليقها إلا من له خبرة ودراية بأحوال ذلك المجتمع بل واساطيره[٦] .

ومن اتصال العرب بتلك البلاد التى كانوا يسافرون إليها مرتين كل عام ؛ الأولى فى الشتاء والأخرى فى الصيف ، عرفوا اليهودية والنصرانية وعرفوا توحيد الإله كما أنهم تعرفوا على كتابيهما المقدسين .

وسبب آخر هو انتقال تجار من معتنقى هاتين الديانتين إلى بلاد العرب عامة وإلى مكة خاصة والتى كانت ملتقى القوافل ومركزاً للتجارة العالمية ومستقراً لجواسيس الدولتين العظميين الرومانية والفارسية . ولاشك أن عرب الجزيرة قد احتكوا بهؤلاء من خلال التعامل معهم وسمعوا منهم عقائدهم التوحيدية وانتقلت إلى كثير منهم ، خاصة وأن الوثنية أو التعددية الإلهية لم تعد تقنع شطراً كبيراً منهم ، خلا من له مصلحة منهم

(٦) الدكتور لطفي عبدالوهاب ، **العرب من العصور القديمة - مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام** ، باختصار من ص ٢٥٢ حتى ص ٢٧٠ ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ ، دار النهضة العربية ، بيروت .

فى بقائها وهم ارستقراطية قريش وصناديدها من الأغنياء والمتمولين الذين كان يهمهم أن تظل مكة عاصمة للوثنية لما يجره عليهم ذلك من مغانم . ويذهب د . محمد حسين هيكل إلى أن النصرانية على وجه الخصوص انتقلت إلى بعض القبائل من (مَنْ يفدون عليهم من نصارى الحبشة)(٧) .

ويرى د . محمد سعيد شكرى الأستاذ بكلية التربية بجامعة عدن فى بحث له بعنوان (حركة عبهلة بن كعب العنسى ١٠/ ١١هـ) أن (القبيلة العربية عامة واليمنية خاصة قد تأثرت بالأفكار الدينية النصرانية واليهودية بل المجوسية بالنسبة لثمامة ، ومانصارى الحيرة سواء من الأزد أو جعفى أو بنى الحارث بن كعب وغيرهم إلا دليل على هذا التأثير ، كما أن نصرانية بنى الحارث بن كعب فى نجران دليل على انتشار الديانة والأفكار النصرانية فى القبيلة اليمنية وخاصة القبائل القاطنة على الطرق التجارية الهامة)(٨) .

ومعلوم أن مكة فى مقدمة المدن التى تقع على الطرق التجارية الهامة ، وأنها من أبرز مدن القوافل فى ذلك العهد .

ولما كان لكل من الديانتين التوحيديتين الساميتين الإبراهيميتين فى جزيرة العرب وقتذاك تاريخ خاص ووجود متميز وأمكنة فقد رأينا أن نفرد لكل منهما فصلاً مستقلاً .

---

(٧) د . محمد حسين هيكل ، **حياة محمد** ، ص ٩٨ ، مرجع سابق .

(٨) جامعة عدن – البحوث المقدمة إلى الندوة العلمية حول اليمن عبر التاريخ ، عدن ٢٣ – ٢٥ سبتمبر ١٩٨٩ ، **حركة عبهلة بن كعب العنسى** ، محمد سعيد شكرى ، كلية التربية ، عدن ، ص ٣١ .

١

في اليهودية

ارتبطت اليهودية بمنطقه يثرب (المدينة فيما بعد) أكثر مما ارتبطت بغيرها من المواقع فى منطقة الحجاز ، ومن ثم يستحسن أن نتعرف على تلك المنطقة لندرك الأسباب التى جعلتها مركز جذب للديانة التوحيدية السامية الأولى فى تلك المنطقة بالذات :-

(المدينة المنورة لم تكن قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وحدة مدنية مترابطة ولاهى كانت يثرب فحسب فى سهل المدينة المحصورة بين الحرتين ، وكانت بعض القبائل تنزل على مرتفعات الحرتين وكانت يثرب إحدى هذه الواحات ، ولما كان اليهود قد سكنوا سهل المدينة قبل الأوس والخزرج ، فإن منازلهم التى كانت فى واحة يثرب وما حولها تعتبر أقدم واحات البلد ومركزها العامر ، وإلى جانب يثرب هناك واحات : السنح ورابح وخربى وقباء وحسيكة والبدائع وغيرها ، وعندما استقر الأوس والخزرج فى السهل غلبوا اليهود على أكثر ماكان بأيديهم ، وعمروا واحات قديمة ، وأنشأوا واحات جديدة) [٩] وتاريخ يثرب

---

(٩) د . حسين مؤنس ، فى **أطلس التاريخ الإسلامى** ، ص ١٠١ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، دار الزهراء للإعلام .

القديم مجهول فلا توجد مدونات يمكن الرجوع إليها وكذلك لم تقم أبحاث أثرية يمكن الاستفادة منها . . . ومن المؤكد أن هذه الواحة الخصيبة والتى تقع على طريق التجارة بين اليمن والشام لابد أن تكون سكنتها القبائل منذ زمن بعيد إذ لا يعقل ألا يجذب خصب هذه البقعة وكثرة المياه بها الناس إلى انتجاعها والاقامة فيها ، ووجود يثرب فى الكتابات المعينية يدل على قدمها ويدل على أن المعينين استعمروها . . . وعرفت كذلك باسم المدينة من كلمة (مدينتنا) التى تعنى (الحمى) أى المدينة على رأى المستشرقين الذين يرون أن اليهود المتأثرين بالثقافة الأرمية أو بعض المتهودة من بنى ارم الذين نزلوا يثرب هم الذين دعوها (مدينتنا) ومن هنا جاءت المدينة اما كلمة مدينة على انها اختصار من مدينة الرسول فيرون انه رأى متأخر قال به العلماء .[١٠] ثم يورد الباحث بعض الأسباب الاسطورية فى تعليل الاسم : ويسوق صاحب الرحلة الحجازية رأيا آخر يعتمد فيه على الروايات التى تقول إن موسى حين خرج ببنى إسرائيل من مصر أرسل فرقة من جيشه لقتال العماليق وان هؤلاء الجنود أقاموا بيثرب بعد أن قضوا على اعدائهم وانهم اطلقوا اسم يثرب على المدينة تحريفا لها من الكلمة المصرية اوسربيس ، كما ان اسم طيبة الذى استعمل للمدينة مأخوذ من (طيبة) المصرية وللاخباريين كعادتهم آراء فى الاسم قالوا انها سميت (يثرب) نسبة إلى يثرب بن مهلائيل بن ارم عبيل ابن عوض بن ارم بن سام بن نوح [١١] . ثم يذكر التعليل الإسلامى للإسم وقالوا بل قيل لها (يثرب) من التثريب ، وزعموا أن الرسول لما نزلها كره ان يدعوها يثرب كراهية للتثريب فدعاها (طيبة) و(طابه)[١٢] .

---

(١٠) د . أحمد ابراهيم الشريف ، **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول** ، ص٣١٤ ، ٣١٥ ، مرجع سابق .

(١١) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(١٢) المرجع نفسه ، ص ٣١٦ .

ونعقب على ذلك بأن : كراهية الرسول لاسم يثرب ليس زعما فهناك أحاديث صحيحة تؤكد ذلك بل انه فرض عقوبة على من يدعوها يثرب وهذا مرده لسببين : الأول انه كان يتفاءل ويتشاءم من اسماء الامكنة والاشخاص ويغير ما كان قبيحا أو منفرا ، والآخر : هو تصميمه على أن يترك الصحابة والانصار خاصة وراء ظهورهم كل ما يمت بأدنى صلة بالفترة السابقة على الإسلام . وإلى جانب منطقة يثرب (المدينة فما بعد) كانت هناك منطقة خيبر ، ويرى أ . محمد على قطب (أن الوجود اليهودى فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام كان محصوراً فيها)(١٣) ، ولنتعرف على خيبر ومدى الوجود اليهودى فيها آنذاك (وخيبر التى تقع على بعد مائة وستين كيلو متراً من المدينة كان الوجود اليهودى فيها كثيفاً ، حتى إن خيبر كانت كلها خالصة لهم ليس فيها من الأعراب أحد)(١٤) ويضيف أ . أحمد أمين إلى هاتين المنطقتين مستعمرات أخرى : تيماء وفدك و وادى القرى .

تضاربت الآراء حول أسباب دخول أولى الديانات الإبراهيمية إلى جزيرة العرب ، فعلى حين يؤكد د/ محمد إبراهيم الفيومى أنها لم تدخل للتبشير ولكن لأسباب أخرى منها (أ - زيادة عددهم فى فلسطين إلى أربعة ملايين (ب) اضطهاد الرومان لهم فى القرن الأول (جـ) تدمير الهيكل) (١٥) ، وهذا الرأى قريب مما ذهب إليه عباس محمود العقاد (كان اليهود يهاجرون بجملة قبائلهم من أرض كنعان كلما أصابهم القمع والتشريد من فاتح جديد ، هاجر بنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل جملة

---

(١٣) محمد قطب ، **معارك النبى محمد صلى الله عليه وسلم مع اليهود والاستراتيجية العربية الموحدة** ، ص ١٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، مكتبة مدبولى ، القاهرة .

(١٤) المرجع نفسه ، ص ١٦ .

(١٥) د . محمد إبراهيم الفيومى ، **الفكر الدينى الجاهلى** ، طبعة ١٩٨٣ ، دار المعارف بمصر .

واحدة إلى يثرب بعد أن ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا بالشام)[١٦] فإن أحمد أمين ينحو منحى آخر وهو أن يهود الجزيرة العربية آنذاك كانوا طائفتين ، لابالمعنى العقائدى ، ولكن فريقين أو بتعبيره صنفين (عنصر يهودى نزح إلى بلاد العرب أتوا من فلسطين ، وعرب تهودوا)[١٧] إنما لم يفصح لنا الأستاذ أحمد عن سبب نزوح العنصر اليهودى إلى بلاد العرب من فلسطين ، ويبدو أن بحث أسباب الهجرة اليهودية إلى شبه الجزيرة العربية وما قيل حول هذا الموضوع من آراء عرض للعميد د / طه حسين ، ولكنه لم يهتد فيه إلى رأى يطمئن إليه ولذا نراه يقول (وكانت اليهودية قد استقرت فى شمال الحجاز لأسباب لايحققها التاريخ)[١٨] ونقل إلينا د .صالح أحمد العلى ماخطه أحد المؤرخين السابقين فى هذه الخصوصية (يذكر السمهودى عن بنى قريظة : زعموا أن الروم لما ظهروا على الشام ، خرج قريظة والنضير وهدل هاربين من الشام يريدون من كان بالحجاز من بنى إسرائيل ، فوجه ملك الروم فى طلبهم فأعجزوا رسله - ويظهر هذا النص - يقول د . العلى - أن الجماعات اليهودية التى سكنت المدينة كان أقدمها الذين قدموا بعد استيلاء الروم على بلاد الشام ولعله على أثر استيلاء تيتوس على الدولة اليهودية وتشتيت اليهود)[١٩] فهنا نرى السمهودى يذكر أن بنى قريظة والنضير وهدل نزحوا إلى الجزيرة العربية من بلاد الشام (فلسطين) على

---

(١٦) عباس محمود العقاد ، **مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية** ، ص ٥٩ ، ٦٠٢ ، (د . ت .) ، دار العروبة بمصر .

(١٧) أحمد أمين ، **فجر الإسلام** ، ص ٢٣ ، مرجع سابق ذكره .

(١٨) د . طه حسين ، **مرآة الإسلام** ، ص ٨ ، مرجع سابق .

(١٩) د . صالح أحمد العلى ، **الدولة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم** ، المجلد الأول : «تكوين الدول وتنظيمها» ، ص١٦٧ ،طبعة ١٩٨٨م ، منشورات المجمع العلمى العراقى ، بغداد .

إثر اضطهاد الرومان لهم ، ولكن فى ثنايا النص مايؤكد على وجود سابق لبنى إسرائيل فى منطقة الحجاز ، ويبقى السؤال الذى أثير من قبل : من أين أتى أولئك اليهود القدامى؟ وماهى أسباب هجرتهم إلى الحجاز؟

قد تكون إجابة معقولة ولكنها مختزله : يهود الحجاز وقت ظهور الإسلام نزحوا من فلسطين بعد أن اشتدت عليهم وطأة الروم ، ثم بعد تخريب بختنصر لبيت المقدس .

ولم يعد وجود اليهودية فى شبه جزيرة العرب آنذاك يستند إلى الروايات التاريخية فحسب ؛ بل (قدتم العثور أخيراً على عدد من الحفريات والآثار والكتابات النبطية فيها أسماء عبرانية يعود بعضها إلى القرن الأول للميلاد)[20] (وقد ذهب بعض المستشرقين استناداً إلى دراسة أسماء يهود الحجاز عند ظهور الإسلام إلى أن أولئك اليهود لم يكونو يهوداً حقاً بل كانوا عرباً متهودين تهوّدوا بتأثير الدعاة اليهود)[21] .

ومفاد ذلك أن اليهود الذين هاجروا من فلسطين إلى منطقة الحجاز قد نجحوا إلى حد ما فى تهويد بعض أبناء القبائل العربية فى منطقة الحجاز ، وهو ما انتهى إليه أحمد أمين كما سبق أن ذكرنا من وجود صنفين من اليهود : يهود مهاجرين أو نازحين من فلسطين ، وعرب متهودين .

وقد ظهر يهود بعض العرب فى عدة صور منها أن (المرأة المقلاة فى الجاهلية كانت تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده ، فتهود قوم منهم ، وذكر

(٢٠) د . يحى الشامى ، **الشرك الجاهلى وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام** ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م ، دار الفكر اللبنانى ، بيروت .

(٢١) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء السادس ، ص ٥٣٠ ، الطبعة الثانية ، كانون الثانى/ يناير ١٩٧٨ ، دار العلم للملايين ، بيروت - ومكتبة النهضة ، بغداد ، مرجع سابق .

العلماء أيضاً أن من الأنصار «الأوس والخزرج» من كانوا مسترضعين فى بنى قريظة وغيرهم من يهود فتهودوا ، وأن من الأنصار «الأوس والخزرج» من رأى فى الجاهلية أن اليهودية أفضل الأديان فتهود أولادهم)[٢٢] ، وسبب آخر هو اختلاط اليهود مع العرب (فقد عاش اليهود فى جزيرة العرب معيشة أهلها فلبسوا لباسهم وتصاهروا معهم فتزوج اليهود عربيات وتزوج العرب يهوديات ، ولعل كون بعض اليهود من أصل عربى هو الذى يساعد على تحطيم القيود التى تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس)[٢٣] ولعل مما يؤكد ذلك أن كثيراً من اليهود رجالاً ونساءً حمل أسماء عربية ، كما نبغ عدد من الشعراء اليهود لهم قصائد نقلتها إلينا كتب الأدب العربى كذلك (يرى أو ليرى احتمال كون بنى قينقاع من أصل عربى متهود)[٢٤] .



أما عن البقاع التى انتشرت فيها الديانة التوحيدية الأولى (اليهودية) فأشهرها اليمن (عن طريق اتصال ملوك حمير بيهود يثرب)[٢٥] ويرى أحمد أمين أن اليهود عملوا على (نشر دينهم جنوبى الجزيرة حتى تهوّد كثير من قبائل اليمن ومن أشهرهم ذو نواس الذى اشتهر بحبه لليهودية واضطهاده لنصارى نجران)[٢٦]ويؤكد الأستاذ برهان الدين دلو ذلك فيقول (من اليمن انتشرت ظاهرة التهود بين السكان وتوطدت اليهودية

(٢٢) د . جواد على ، المرجع السابق ، ص ٥١٥ .
(٢٣) د . جواد على ، المرجع السابق ، ص ٥٣٢ .
(٢٤) د . جواد على ، المرجع السابق ، ص٤٢٤ .
(٢٥) د . السيد عبد العزيز سالم ، **دراسات فى تاريخ العرب : تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص٤٣٣ ، (د .ت) ، مؤسسة شباب الجامعات ، الإسكندرية .
(٢٦) أحمد أمين ، **فجر الإسلام** ، ص ٢٥ ، مرجع سابق .

فى هذه المنطقة العربية المتحضرة والمتقدمة اقتصادياً وعمرانياً واجتماعياً وثقافيا وسياسياً)[٢٧] ، أما د . محمد إبراهيم الفيومى فيذهب إلى أن (أصل اليهود باليمن يرجع كما يذهب كتاب السيرة إلى الحبرين اللذين رافقا تبعاً فى رحلته إلى اليمن ؛ أى أن اليهودية دخلت وفق دعوة تبشيرية)[٢٨] .

أما فى الحجاز فقد انتشرت واستقر اليهود فى : يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى . أثرت اليهودية فى مجتمع الحجاز ذلك أن قبائل يهودية مثل بنى قريظة ، وبنى النضير ، وبنى قينقاع ، وبنى زعورا ، وبنى هدل ، وبنى قمعة ، وبنى زيد اللات وهم رهط عبد الله بن سلام الذى أسلم وحسن إسلامه ، كانت عاملاً مهماً فى انتشار الدين اليهودى فى القبائل العربية التى جاورتهم والتى كانت على الوثنية والتعددية الإلهية وخاصة الأوس والخزرج (يقول السهيلى فى الروض الأنف : غير أنه وجد فى الأوس والخزرج من قد تهود وكان من نسائهم من تنذر إذا ولدت وعاش ولدها أن تهوده لأن اليهود كانو أهل علم وكتاب)[٢٩] يضاف إلى ذلك أنهم كانوا على درجة حضارية متقدمة لحد كبير على سائر العرب المجاورين لهم فى تلك الأصقاع (كان جماعة بيثرب من أبناء اليهود فيهم الشرف والعز على سائر اليهود [٣٠] وقد ذكرنا أن بنى زهرة (= من يهود يثرب) كان فيهم الملك وفيهم ثلاثمئة صائغ مما يدل على مكانتهم المتميزة)[٣١] . كذلك (يرى بعض الإخباريين أن ابتداء أمر

(٢٧) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٠ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٩م ، دار الفارابى ، بيروت .

(٢٨) د . محمد إبراهيم الفيومى ، **الفكر الدينى الجاهلى** ، مرجع سابق .

(٢٩) د . محمد إبراهيم الفيومى ، المرجع السابق .

(٣٠) د . صالح أحمد العلى ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ .

(٣١) د . صالح أحمد العلى ، مرجع سابق ، ص ١٧١ .

اليهود فى الحجاز ونزولهم فى وادى القرى وخيبر وتيماء ويثرب إنما كان فى أيام بختنصر ، أما ماورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة اليهود إلى أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام ، وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم ، مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم ، فإنه يستند إلى أساس تاريخى صحيح)[٣٢] ويذهب د . حسن إبراهيم حسن إلى أن (اليهودية انتشرت فى جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام ولاسيما فى اليمن ، كما انتشرت فى وادى القرى وخيبر وتيماء ويثرب ، حيث أقامت قبائل بنى قريظة وبنى النضير وقينقاع)[٣٣] .

ولعل هذا الحديث يوضح مكانة اليهود فى يثرب (يقول رسول الله ص عن يهود بنى النضير : هؤلاء فى قومهم بمنزله بنى المغيرة فى قريش .)

وقال حسان بن ثابت – وهو يراهم وسراة الرجال على الرحال : اما والله ان لقد كان عندكم لنائل للمجتدى وقرى حاضره للضيف وسقباً للمرام وحلم على من سفه عليكم ونجده إذا استنجدتم . فقال الضحاك ابن خليفة واصباحاه نفسى فداؤكم ماذا تم تحملتم من السؤدد والبهاء والنجدة والسخاء؟

قال : يقول نعيم بن مسعود الاشجعى : فدى لهذه الوجوه التى كأنها المصابيح ظاعنين من يثرب . . من للمجتدى الملهوف ؟ ومن للطارق السغبان ؟ ومن يسقى لاعقار ؟ ومن يطعم الشحم فوق اللحم ؟ ما لنا

(٣٢) د . جواد على ، المرجع السابق ، ص ٥١٨ .

(٣٣) د . حسن على حسن ، **تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى** ، الجزء الأول ، ص ٧٢ ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٤م ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

بيثرب بعدكم مقام [٣٤] .

هذا ما قاله محمد (ص) فى حق طائفة من يهود يثرب وهم يهود بنى النضير عندما اجلاهم منها وبنو المغيرة درة قريش . وما قاله فى شأنهم حسان بن ثابت وهو شاعر الرسول - وما شهد به الضحاك بن خليفة الاشهلى وهو من الصحابة وأول غزوة شهدها هى غزوة بنى النضير ولم يملك نفسه حين رأى بنى النضير ينفون من يثرب ان قال تلك العبارة . أما نعيم بن مسعود الاشجعى فقد لعب دورا فى تخذيل الاحزاب التى جاءت لحصار يثرب وذلك فى موقعة الخندق أى من الصحابة المذكورين فى السيرة ومع ذلك رأيناه يتفجع على يهود بنى النضير : ما لنا بيثرب مقام بعدكم .

هذه هى المنزلة التى بلغها اليهود فى يثرب بشهادة الرسول عليه السلام وثلاثة من اصحابه المرموقين منهم اثنان من الانصار خلطائهم .

أما المستوى الحضارى الذى بلغه اليهود فيدل عليه الخبر الآتى الذى يصور رحيل بنى النضير من يثرب بعد نفيهم عنها : (ثم شقوا سوق المدينة والنساء فى الهوادج عليهن الحرير والديباج وقطف الخز الحمر والخضر وقد وصف لهم الناس فجعلوا يمرون قطارا فى اثر قطار فحملوا على ستمائة بعير . . . لقد مر يوم اذن نساء من نسائهم فى تلك الهوادج سفرن عن الوجوه لعلى لم أر مثل جمالهن لنساء قط ، لقد رأيت الشقراء بنت كنانة كأنها لؤلؤ غواص والرواع بنت بن عمير مثل الشمس البازغة فى ايديهن اسورة الذهب والدر فى رقابهن . . . قاله ابو سعيد الخدرى[٣٥] . ومروا يضربون بالدفوف ويزمرون بالمزامير وعلى النساء

(٣٤) الواقرى ، **كتاب المغازى** ، المجلد الأول ، ص ٣٧٤ ، تحقيق مارسون جونز ، مؤسسة الاعلمى ، بيروت .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

المعصفرات وحلى الذهب . . . مظهرين ذلك تجلدا[٣٦] . وابو سعيد الخدرى هو سعد بن مالك الخزرجي الانصارى ومن علماء الصحابة وحفاظ الحديث والمكثرين لروايته وقد انخرط فى جيش محمد وهو ابن ثلاث عشرة سنة والعبارات التى فاه بها صريحة النص والدلالة معا على ان يهود يثرب كانوا على درجة متميزة من الترقى والتمدن ولعل ذلك يظهر إذا قارنا مظهر نسائهم وملابسهن وحليهن وزينتهن بنساء يثرب الأخريات وأرديتهن . . الساذجة .

ويؤكد محمد على قطب (أن اليهود كانوا يسيطرون على يثرب قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إليها سيطرة كاملة ، مستخدمين وسائل ثلاث : الأولى العقيدة الدينية ، الثانية عنصر المال ، والثالثة المكر والدهاء)[٣٧] .

اختلف الباحثون عما إذا كان اليهود هم الذين كانوا يسيطرون على البقاع التى استوطنوها ولهم فيها اليد الطولى أم أنها كانت للعرب دونهم :

يرجح د . جواد على أن الهيمنة كانت للعرب (وقد انتشرت اليهودية جماعات استقرت فى مواضع المياه والعيون من وادى القرى وتيماء وخيبر إلى يثرب ، فبنوا الآطام (الحصون) لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء العرب عليهم ، وقد أمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة فى جوارهم وعلى دفع إتاوة لهم وعلى تقديم الهدايا لاسترضائهم)[٣٨] ، ولكن تقديم الهدايا ودفع الإتاوات لرؤساء القبائل المجاورة كان عرفاً فى جزيرة العرب ؛ وذلك

---

(٣٦) **كتاب المغازى** ، مصدر سابق .

(٣٧) محمد على قطب ، **معارك النبى صلى الله عليه وسلم** ، ص ١٨ ، مرجع سابق .

(٣٨) د . جواد على ، المرجع السابق ، ص ٥١٦ .

ليأمن ساكنو الواحات غارات الأعراب عليهم ، ولايدل بذاته على انتفاء سيطرة قاطنى تلك الواحات على مقدراتها ، ولكن د . جواد على يؤكد فى موضع آخر أن السيادة كانت لليهود ، حتى جاء العرب فتغلبوا عليهم (وسكن يهود يثرب . . . وظلوا أصحاب يثرب وسادتها حتى جاء الأوس والخزرج فنزلوها واستغلوا الخلافات التى كانت قد وقعت بين اليهود فتغلبوا وسيطروا على المدينة أى يثرب وقسموها فيما بينهم فلم يبق لهم من يومئذ عليها سلطان ، وتذكر روايات أهل الأخبار أن مجيئ الأوس والخزرج كان بعد سيل العرم)[٣٩] ولقد تناقض د / جواد على مع نفسه فى ذكر أسبقية سكن يهود يثرب إذ ورد فى موضع آخر أنها كانت فى أيدى الأوس والخزرج ثم طرأ عليهم اليهود (وكانت يثرب عند هجرة اليهود فى أيدى أصحابها الأوس والخزرج ولهم السيطرة والسلطان)[٤٠] ولعلها هفوة أوزلة قلم من جانب د . جواد على ، إذ أن ما يجمع عليه المؤرخون والإخباريون هو أسبقية اليهود فى استيطان يثرب ، ومع ذلك ذكر لنا فى مواضع أخرى سيطرة اليهود على الأصقاع الأخرى التى تواجدوا فيها :

(وقد اشتهر يهود خيبر بين سائر يهود الحجاز بشجاعتهم ، وخيبر موقع غزير المياه قد عرف واشتهر بزراعته وكثرة ما به من نخيل)[٤١] .

(وفدك موضع آخر من المواضع التى غلب عليها اليهود ، وسكانه مثل أغلب يهود الحجاز مزارعون عاشوا على الزراعة كما اشتغلوا بالتجارة وبعض الحرف التى تخصص فيها اليهود مثل الصياغة والحدادة

(٣٩) د . جواد على ، المرجع السابق ، ص ٥١٩ .
(٤٠) د . جواد على ، المرجع السابق ، ص ٥٣٢ .
(٤١) د . جواد على ، المرجع السابق ، ص ٥٢٩ .

والتجارة)[٤٢] أما الفريق الآخر من الباحثين فقد ذهب إلى أن اليهود كانت لهم الصدارة والسيطرة منهم د / صالح العلى الذى يقول (كانت لليهود سيطرة على مقاليد الحكم فى المدينة واتخذوا لها ملكاً يحكمها)[٤٣] ومنهم محمد على قطب الذى سبق وأن ذكرنا رأيه فى أن اليهود كانوا مسيطرين على المدينة (يثرب) قبل الهجرة .

وفى تعليل السيطرة اليهودية أورد الباحثون عدة أسباب :

منهم من يرجعها إلى تفوق اليهود فى التجارة والزراعة والصياغة والحدادة (ومن المعروف أن جماعات يهودية هاجرت إلى العربية الشمالية والحجاز بعد أن دمر الرومان أورشليم سنة ٧٠ ، واستقرت هذه الجماعات فى يثرب وخيبر ووادى القرى وفدك . وعلى الرغم من اختلاط اليهود بالعرب وتعايشهم معهم واحتكارهم لبعض الحرف والصناعات كالزراعة وصناعة الأسلحة والحدادة والصيرفة والتجارة . . . إلخ)[٤٤] وفيما سبق ذكرنا أنه كان بمنطقة يثرب ثلاثمائة صائغ من بنى زهرة وهذ الزعم ، إذا لم يكن فيه مبالغة من قبل الإخباريين وهى إحدى المثالب التى أخذها عليهم ابن خلدون فى «المقدمة» ، فإنه يدل على مدى تقدم اليهود فى الصياغة . وفريق آخر يرجعها إلى إجادتهم أو مهارتهم المالية أو الصيرفة فى رأى د . السيد عبد العزيز سالم ، أو فن المال حسب تعبير محمد على قطب . ولازال اليهود حتى الآن يتوارثون هذه الصفة أو هذه الخاصية ، وهم أيضاً إلى عصرنا الراهن يستخدمون عنصر المال فى السيطرة والهيمنة .

---

(٤٢) د . جواد على ، المرجع السابق ، ص ٥٢٩ .

(٤٣) د . صالح أحمد العلى ، **الدولة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم** ، المجلد الأول ، ص١٧٧ ، مرجع سابق .

(٤٤) د . السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ العرب قل الإسلام** ، ص ٤٣٣ ، مرجع سابق .

ويرجع فريق آخر من الباحثين ذلك إلى معرفة اليهود بالقراءة والكتابة فى حين أن العرب أمة أمية (وكان اليهود فى جزيرة العرب تجاراً ويعانون صنع الأمتعة والصياغة والسيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية ، ويقول ولفنسون : إن اليهود كانوا أساتذة العرب فى تعلم الكتابة العربية)(٤٥) وهذا مايؤكده باحث آخر فيقول (كانت الكتابة قبل الإسلام قليلة فى الأوس والخزرج وكان يهودى من يهود ماسكة قد علم الكتابة فأخذ يعلمها الصبيان) (٤٦) .

لأنهم السيطرة السياسية بقدر ما تعنينا السيطرة الحضارية والمعرفية الناتجة عن أن اليهود كانوا أصحاب علم وبيدهم كتاب مقدس ويؤمنون بوحدانية الإله التى هى لاجدال أكثر تقدماً فى درجة العقيدة الإيمانية من الوثنية والتعددية الإلهية ، التى كانت عليها قبائل جزيرة العرب قبل اختلاط أفرادها بأصحاب عقيدة التوحيد ، فإذا انتهينا إلى ذلك كان القول بتقليد العرب لليهود وتأثرهم بهم وأخذهم عنهم أمرًا مقبولاً ومستساغًا ؛ ذلك أن تقليد الأدنى حضارة للأرقى مسلّم به ، قال عبد الرحمن بن خلدون «فى المقدمة» فى فصل بعنوان (أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعقائده) ويعلله بـ (أن النفس تعتقد فيمن غلبها وانقادت إليه إما بالنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من انقيادها ليس لغلب طبيعى إنما هو لكمال الغالب ، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء وما أرآه والله

(٤٥) محمد كرد على ، **الإسلام والحضارة العربية** ، الجزء الأول ، ص١٢٥ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٨م ، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر .

(٤٦) إبراهيم جمعة ، **قصة الكتابة العربية** ، ص٢٩ ، سلسلة «اقرأ» ، العدد ٥٣ ، إبريل ١٩٤٧م ، دار المعارف بمصر .

أعلم)[٤٧] واليهود كما ذكرنا امتازوا بكتابهم المقدس وثرواتهم العقارية والمنقولة ومهاراتهم فى التجارة والزراعة والصيرفة وسائر الحرف والمهن ، فكان من البديهى أن يؤثروا فى جيرانهم العرب ، وأن هؤلاء الأخيرين يقلدونهم ، ويقتدون بهم ، ويسيرون على منوالهم ، وأهم مايسارعون إلى أخذه عنهم هو الدين أو العقيدة التوحيدية .

قد يكون تأثر العرب باليهودية محدوداً بالقياس إلى تأثرهم بالنصرانية كما سوف نرى فى الفصل القادم ؛ وذلك لكون الأولى ديانة غير تبشيرية ومغلقة على أهلها - الذين يزعمون أن الله اختصهم بها لأنهم شعبه المختار - إنما الذى لامرية فيه أن اليهودية كان لهاتأثير على التفكير الدينى لدى عرب منطقة الحجاز على وجه التخصيص وقد تمثل ذلك فى عدة أمور منها :

الأول : إذاعة عقيدة التوحيد وهى الإيمان بوجود إله واحد ونبذ التعددية الإلهية المتمثلة فى عبادة الأصنام ، وقد يكون الحنفاء أو المتحنفون أكثر من غيرهم تأثراً بهذه العقيدة وقبولاً لها ، ولكن هذا لايمنع من انتشارها فى غيرهم من أبناء القبائل (وعن طريق اليهود فى الجزيرة تسربت الأفكار التوحيدية والتعاليم اليهودية)[٤٨] ويرى كارل بروكلمان (ولقد ساعدت الأديان السماوية اليهودية والمسيحية التى كان لها منذ زمن طويل أنصار وأتباع فى بلاد العرب على استعجال تفسخ الوثنية العربية) [٤٩] ويؤكد ذلك حسين مروة فيقول (إن وجود الديانتين أى اليهودية والنصرانية كان عاملاً مساعداً فى تغيير الوعى الدينى هناك

(٤٧) **ابن خلدون** ، **المقدمة** ، تحقيق د . على عبد الواحد وافى ، الجزء الثانى ، ص ٤٥ ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م ، لجنة البيان العربى بمصر .

(٤٨) برهان الدين دلو ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(٤٩) كارل بروكلمان ، **تاريخ الشعوب الإسلامية** ، ص ٢٨ ، تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، الطبعة الحادية عشرة ، تموز/ يوليو ١٩٨٨ ، درا العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

باتجاه النظر التجريدى نحو مشكلة الوجود متجاوزاً النظرة الوثنية الحسية)[٥٠] ومن رأى أندريه ميكل ، أن الوثنية العربية التى كانت سائدة فى شبه الجزيرة العربية قد (تغيرت باتصالها بالديانتين التوحيديتين القائمتين آنذاك)[٥١] ويذهب د . حسن إبراهيم حسن إلى (إن اليهود عندما نشروا تعاليم التوراة بين عرب الجزيرة والحجاز كان لذلك أثره فى الوثنية الحجازية)[٥٢] .

هكذا نرى أن عقيدة التوحيد كانت معروفة لدى عدد من قبائل جزيرة العرب قبيل ظهور الإسلام ، ومتفشية بينهم بسبب اتصالهم باليهود .

الثانى : ترسيخ عقيدة أو فكرة النبوة ، ثم إشاعة مقولة قرب ظهور نبى يخلص الناس مما يعانونه من جور واضطهاد ، يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً ويتحقق ملكوت الله على الأرض وهى عقيدة (المشيحانية) المستقرة فى طوايا الديانة اليهودية وهى تعنى (ظهور المخلص الذى يحرر اليهود من العبودية لمضطهديهم ويعيدهم من المنفى ويحكمهم بالشريعة فيعم العدل ، ويسود ، السلم وتخصب الأرض)[٥٣] ويطلق عليه فى اللغة العبرية (مشيحوت) و(تعنى الاعتقاد فى مجيئ مسيح يهودى وبطل قومى يتميز بصفات القدرة القتالية التى تمكن بنى إسرائيل من الخروج من حالة الهزيمة العسكرية والفشل السياسى والانحلال الدينى والخلقى ، وتمنيهم بمجيئ عالم مثالى تتحقق لهم فيه

(٥٠) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، المجلد الأول ، ص ٣٠٩ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م ، دار الفارابى ، بيروت- لبنان ، مرجع سابق .

(٥١) أندريه ميكل ، **الإسلام وحضارته** ، ص ٥١ ، ترجمة د . زينب عبد العزيز ، (د . ت) المكتبة العصرية ، بيروت .

(٥٢) د . حسين إبراهيم حسن ، **تاريخ الإسلام السياسى** ، ص ٧٢ ، مرجع سابق .

(٥٣) د . عبد المنعم الحفنى ، **الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية** . الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، دار المسيرة ، بيروت- لبنان .

مايعتقدون من السيادة على سائر الشعوب ، فتأتيهم طائعة عابدة)(٥٤) ، عقيدة النبوة وفكرة قرب ظهور نبى انتشرتا لدى الأوس والخزرج بيثرب كأثر مباشر لاحتكاكهم باليهود واختلاطهم بهم ، ومعاملتهم معهم وجوارهم لهم ، ويحدثنا مؤرخو السيرة النبوية أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم (لقى رهطاً من الخزرج فوقف عليه ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن وكانوا يسمعون أمره وذكره وصفاته)(٥٥) فالأنصار (الخزرج) هنا لم يفاجأوا ، بل كان لديهم علم مسبق استقوه من اليهود : النبى يدعو إلى التوحيد ونبذ الأوثان وبيده كتاب مقدس هو القرآن ، الصورة نفسها التى كانوا يرونها لدى اليهود ولكنها فى هذه المرة تتحقق على يد عربى ينطق بلسان عربى مبين ، فلم تأخذهم دهشة ولم يتولهم عجب ومن ثم سارعوا إلى الإيمان به وبدينه . ويسرد الكلاعى الواقعة بقدر أوسع من التفصيل فيقول : (فجلسوا وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أطل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقكم إليه أحد ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقبلوا ماعرض عليهم من الإسلام) (٥٦) وأنت

---

(٥٤) د . منى كاظم ، **المسيح اليهودى ومفهوم السيادة الإسرائيلية** ، من سلسلة «نحن وهم» ، العدد الأول ، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر ، دولة الإمارات العربية المتحدة - أبو ظبى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م .

(٥٥) أحمد بن يحى المعروف بـ البلاذرى ، **أنساب الاشراف** ، تحقيق د . محمد حميد الله ، الجزء الأول ، ص ٢٣٩ ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٩م ، سلسلة ذخائر العرب ٢٧ ، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر .

(٥٦) الإمام أبو الربيع سليمان الكلاعى الأندلسى ، **الاكتفاء فى مغازى رسول الله صلى الله**

عندما تقرأ كتب السيرة النبوية وخاصة التراثية تجد أن القبائل تعنتت مع محمد عليه السلام ، ولم تقبل ماكان يدعوها إليه ، وردّ كثير منها عليه رداً غير كريم فيما عدا الأوس والخزرج الذين آمنوا بسرعة مذهلة من أثر وجود خلفية لديهم لاتصالهم باليهود . ويواصل كتاب السيرة النبوية حكاية ذلك الوفد الذى قابل الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم فى «منى» عند العقبة (فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥٦ب] . فإذا وضعنا بجانب هذه الواقعة التاريخية أن الرسول عليه الصلاة والسلام ظل فى مكة يدعو إلى دين الإسلام طوال ثلاثة عشر عاماً ، ولم يؤمن به سوى بضع عشرات ، شطر كبير منهم من الأرقاء والمستضعفين الذين جذبتهم مبادئ العدالة الاجتماعية التى كان ينادى بها النبى محمد صلى الله عليه وسلم أدركنا على الفور أن الاستجابة السريعة التى أبداها الأوس والخزرج مردها أن عقيدة النبى المخلص كانت شائعة بينهم من أثر احتكاكهم وجوارهم يهود يثرب ، فضلاً عما يكونون قد استشعروه من أن الإيمان بنبوة هذا النبى العربى سوف (يخلّصهم) من السيطرة الاقتصادية والاجتماعية لليهود .

الثالث : التأثير على الخطاب الدينى لدى العرب إذ تغيرت بنيته تغيراً نوعياً وتحول من السذاجة إلى التجريد ، ودخلته مصطلحات ومفاهيم لم تكن معروفة عندهم قبل ذلك مثل : البعث والحساب والميزان والجحيم وإبليس . . . . إلخ .

عليه وسلم والثلاثة الخلفاء ، ص ٤١٣ ، الجزء الثانى ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م ، منشورات مكتبة الخانجى بمصر .

(٥٦ب) ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، تحقيق د . محمد فهمى السرجانى ، الجزء الثانى ، ص ٣٠ ، طبعة ١٩٧٨م ، المكتبة التوفيقية بمصر .

وهذا ماأكده أحمد أمين إذ يقول (نشر اليهود فى البلاد التى نزلوها فى جزيرة العرب تعاليم التوراة وماجاء فيها من تاريخ خلق الدنيا ، ومن بعث وحساب وميزان ، وكذلك كان لليهود أثر كبير فى اللغة العربية فقد أدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يعرفها العرب ، ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم ، مثل جهنم والشيطان إبليس ونحو ذلك)[٥٧] ونحن نرى أن مقولة أثر اليهود الكبير على اللغة العربية من جانب الأستاذ أحمد أمين فيها نوع من الشطط ، إذ فى مذهبنا أن تأثير الديانة اليهودية على لغة العرب لم يتجاوز نطاق الخطاب الدينى وهذا كما أوردنا أمر طبيعى ، أما خارج هذا النطاق فعلى العكس تماماً ؛ إذ كان اليهود هم الذين تأثروا باللغة العربية ونطقوا - أى تكلموا - بها وظهر فيهم شعراء ساروا على نمط القصيدة العربية .

ويرى برهان الدين دلو أنه عن طريق الديانة اليهودية وتعاليمها تسربت إلى العرب جميعهم (ماجاء فيها من : خلق الدنيا ومن بعث وحساب وميزان ونار وجهنم والشيطان وإبليس)[٥٨] وأوضح ماكان ذلك التأثير على الحنفاء أو المتحنفين ولهم مبحث خاص مستقل ، وعلى الشعراء والخطباء منهم على الخصوص مثل أمية بن أبى الصلت الشاعر المشهور ، الذى قال عنه محمد عليه السلام :آمن لفظه أو شعره وكفر قلبه ذلك لأنه رفض الدخول فى دينه ومثل قس بن ساعدة الإيادى أحد خطباء العرب المعدودين ، وقد ورد فى دواوين السيرة المعتمدة والتى تلقتها الأمة بالقبول والتجلة أن النبى محمداً عليه السلام كان يستمع إلى خطبه ومواعظه فى سوق عكاظ - ولم يدَّع أحد من أولئك المتحنفين أن ملكاً من السماء نزل عليه فأوحى إليه تلك القيم الدينية والمفاهيم

---

(٥٧) أحمد أمين ، **فجر الإسلام** ، ص ٢٥ ، مرجع سابق .

(٥٨) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، ص ٢٢٢ ، المرجع السابق .

والمصطلحات ، إذن هي بلا ريب من أثر اختلاطهم بأهل الكتاب : اليهود أولاً ثم النصارى فيما بعد ، ودراستهم لكتبهم المقدسة وتعاليمهم ويذكر لنا د . صالح أحمد العلى أن اليهود كان لهم (بيت مدراس واحد ويبدو أنه كان المركز الرئيسى إن لم يكن الوحيد)[٥٩] ويصفه عباس محمود العقاد أنه (المدرسة العبرية التى ظلت إلى عهد الدعوة المحمدية)[٦٠] وبداهة أن هذه المدراس اليهودية أو هذه المدرسة العبرانية كانت أبوابها مفتوحة لمن يقصدها من طالبى العلم الدينى من الحنفاء وغيرهم ، خاصة وأن أولئك الحنفاء كانوا على قدر متميز من الثقافة وكان بعضهم يعرف لغة أخرى خلاف العربية ، بل واللغة العبرية على وجه الخصوص . وقد ذكر الإخباريون أن ورقة بن نوفل ابن عم أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله عنها وهى أولى زوجات محمد عليه السلام ، كان يقرأ العبرانية وفى رواية كان يعرف اللسان العبرانى وهذا ثابت فى أكثر من كتاب من كتب السيرة المحمدية ، وورقة هذا كان من أكابر الحنفاء فى مكة وهو الذى بشر محمداً عليه السلام أنه نبى هذه الأمة .

وتنص بعض الروايات على ان ورقة كان ينقل اجزاء من التوراة إلى اللسان العربى أى إلى اللغة العربية ، وكونه ابن عم لخديجة يعنى ان محمدا عليه السلام كان على اتصال حميم به والفترة من زواج محمد بخديجة إلى إعلانه رسالته وهى خمسة عشر عاما فترة معتمة فى كتب السيرة أى لا يُسلط عليها الضوء والذى نرجحه أن محمدا وقد كفته ثروة خديجة شظف العيش وعناء السعى على الرزق كراعى غنم وأخرى يتاجر بمال الغير خارجا بها إلى أطراف الجزيرة . . . الخ لاشك انه فى تلك الفترة اتصل بأصحاب الملل والنحل وأتباع الاديان والمذاهب الذين

(٥٩) د . صالح أحمد العلى ، **الدولة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم** ، المجلد الأول ، ص ٩٦٨ ، مرجع سابق .

(٦٠) عباس محمود العقاد ، **مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية** ، ص ٦٥ ، مرجع سابق .

كانت تعج بهم مكة إما كمقيمين بها أو وافدين للحج والتجارة ، وممن اتصل بهم الصابئة والاحناف أو الحنيفية وعلى رأسهم ورقة بن نوفل بسبب قرابته القريبة لزوجه خديجة ولاريب انه دارت بينهما حوارات ومساجلات وان الاوراق أو الاجزاء التى قام بترجمتها ورقة من العبرانية الى العربية حاضرة فى تلك الجلسات .

بل إن بعض الباحثين يرى أنه قد تمت ترجمة لبعض أجزاء منه التوراة (العهد القديم) واستدل على ذلك بآيات من القرآن الكريم وبمحاولة الحبر اليهودى إخفاء آية الرجم عن النبى محمد عليه السلام ووضع يده عليها كما ورد فى البخارى وأنها لو لم تكن مكتوبة بالعربية لما شرع فى سترها لأن محمداً عليه السلام لم يكن يعرف العبرانية ولا الآرامية(٦٠ب) .

الرابع : من المعروف أن اليهودية شريعة متكاملة ، فهى لم تقتصر على نواحى العقيدة والعبادة والأخلاق كما ستفعل النصرانية فيما بعد ، بل تناولت الحياة من جميع أقطارها ومن بينها الحدود أى العقوبات الجزائية أو الجنائية التى توقع على من يرتكب فعلاً نهت عنه ؛ مثل السرقة والزنا ، ولو أن أحبارهم عندما ارتبطت مصالحهم ومنافعهم ومكاسبهم بأصحاب السلطة والجاه والثروة أحجموا عن تطبيق تلك الحدود على أفراد الطبقة الأرستقراطية أو المتنفذة . وهذه سمة رجال الدين فى كل الشرائع إذ يقومون فى مثل هذه الحالة بتفسير النصوص وتطويعها وتوظيفها بما يتفق ومكانة أفراد الطبقة ذات الكلمة المسموعة وصاحبة السطوة المالية ، وهى العلاقة التى تربط دائماً بين «المقدس» و«السلطة» وفى هذه الخصوصية يقول د . صالح أحمد العلى (وكان الزنا

(٦٠ب) حسنى يوسف الأطير ، «البدايات الأولى للإسرائيليات فى الإسلام» ، **ترجمة التوراة إلى العربية** ، من ص ١٣ إلى ص١٨ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م ، مكتبة الزهراء ، عابدين - القاهرة .

عندهم - أى اليهود - محرماً وحدُّه الرجم ، غير أن سريان الفساد فى الأخلاق جعلهم لايطبقونه على أشرافهم)[٦١] ، تلك الحدود اقتبسها العرب من اليهود فقد كان عبد المطلب الجد المباشر لمحمد صلى الله عليه وسلم والذى كان فى زمانه سيد مكة وحاكمها ، وهو الذى أطلق عليه د . سيد محمود القمنى (أستاذ الحنيفية الأول) إذ كان فى مقدمة المتحنفين ؛ عبد المطلب (استن سننا جاء بها الإسلام فيما بعد منها تحريم الخمر والزنا وإقامة الحد على من يقارفهما) [٦٢] .

هذه التأثيرات كان لها فعاليات بالغة الخطورة فى المساهمة فى قيام دولة بنى قريش فى يثرب على يد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشى عليه الصلاة والسلام .

(٦١) د . صالح أحمد العلى ، **الدولة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم** ، ص ١٧٤ ، مرجع سابق .

(٦٢) خليل عبد الكريم ، «القائد القومى العربى الأول قصى أم محمد» ، مقال بـ **مجلة اليقظة العربية** ، العدد العاشر ، السنة الخامسة ، أكتوبر ١٩٨٩ م .



٢

النصرانية "المسيحية"

انتشرت الديانة التوحيدية الثانية ونعنى بها النصرانية أو المسيحية فى الجزيرة العربية انتشاراً واسعاً وكان حظها من ذلك أكبر من الموسوية أو اليهودية ، وقد شاركت فى ذلك عدة عوامل جغرافية وتاريخية وسياسية واقتصادية .

نبدأ بالجغرافية : الأقطار المحيطة بالجزيرة آنذاك كانت تدين بالمسيحية ؛ فسوريا فى الشمال الغربى والعراق فى الشمال الشرقى واليمن فى الجنوب والحبشة فى الغرب (عن طريق البحر الأحمر) ، ولم تكن شعوب تلك الأقطار بكاملها تعتنق الديانة الإبراهيمية الثانية «النصرانية» ، غير أنها كانت تمثل الديانة الرسمية بالنسبة لغالبيتها أو شطر كبير منها ، وفى الأطراف كانت دولة الغساسنة وكانت ملة أمرائها النصرانية . والإخباريون ينقلون إلينا أن آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الذى أدركته جيوش الفتح العربى (عندما التقى بالخليفة الثالث عمر بن الخطاب كان على نصرانيته ، فعرض عليه الإسلام فأنف منه ، فذهب إلى بلاد الروم فى ثلاثين ألفاً فلما بلغ ذلك عمراً ندم ، وعاتبه عبادة بن الصامت فقال :

لو قبلت منه الصدقة وتألفته لأسلم)[1] وبذلك يثبت أن حكاية إسلام جبلة المذكور ثم ارتداده أنفة من القود الذى توعده به عمر رضى الله عنه (مسطورة) كغيرها من مئات المسطورات التى يحفل بها التاريخ العربى ، وأيضاً فى الأطراف كانت هناك دولة المناذرة فى الخيرة ، والتى بدأت جذور المسيحية تنمو فيها على يد ملكها امرئ القيس الأول ، ثم أخذ عودها يستقيم على عهد حفيده النعمان .

وهكذا بدت الجزيرة العربية وقتذاك محاطة بسوار من الدول والدويلات ، النصرانية فيها إما الديانة الرسمية أو الغالبة .

فى العراق ، وإن لم تكن المسيحية الديانة الرسمية فإنها تأصلت فى الرها وجندى سابور ونصيبين وسلوقية ؛ [2] بل كان فى بعض هذه المدن مدارس فى اللاهوت والفلسفة حازت شهرة واسعة استمرت حتى الخلافة العباسية .

وعن الأسباب التاريخية فالأستاذ العقاد يرجعها إلى (ماألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الأحوال فى صدد المائة الثانية للميلاد ، إذ اضطر كثير من نصاراها أن يلجأ إلى بلاد العرب طلباً للحرية وكان معظمهم يعاقبة) [3] .

ومنها غزو الأحباش لليمن ، ثم محاولة أبرهة الخائبة لمد سلطانه إلى قلب الجزيرة وأن هذه الحملة وإن باءت بالإخفاق فإنها تركت أثراً دينياً وإن جاء محدوداً فى المواقع التى مرت بها جيوش الأشرم . (كذلك انتشرت المسيحية فى قبائل تغلب وغسّان وقضاعة فى الشمال وفى بلاد

---

(١) البلاذرى ، «فتوح البلدان» ، ج/ ١ ١٦١ ، نقلاً عن كتاب **دراسات فى تاريخ العرب : تاريخ العرب قبل الإسلام** ، مرجع سابق .

(٢) د . عبد العزيز السيد سالم ، ص ٤٣٢ ، مرجع سابق .

(٣) العقاد ، **مطلع النور** ، ص ٩٨ ، مرجع سابق .

اليمن فى الجنوب . وقد دخلت العربية بفضل جهود أباطرة الدولة الرومانية الشرقية فى القرن الرابع الميلادى ، وكان من أثر هذه العلاقات الوثيقة بين العرب والبيزنطيين أن تأثر العرب إلى حد ما بالمسيحية ، فانتشرت فى الجنوب عن طريق الحبشة والشمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديار والصوامع)[٤] .

(وفى رواية أخرى - نقلاً عن الطبرى - أن الذى زرع النصرانية فى عرب الجنوب واليمن ذونواس قبل تهوّده فلما تهوّد سمى بـ «يوسف» وهو الذى حفر الأخدود بـ «نجران» ثم قاتل النصارى)[٥] .

(أما فى الجنوب والجنوب الغربى فقد كانت الحبشة من المراكز التى تشعشعت فيها المسيحية إلى بلاد اليمن وبلاد الحجاز وفى الغزو الحبشى الثانى لليمن فى عام ٥٢٥م ، وعلى إثره انتشرت المسيحية انتشاراً واسعاً فى اليمن ، واتخذ أبرهة نجران مركزاًرئيسياً لهذا الغرض وانتشرت المسيحية فى بلاد العرب ، وبوجه خاص فى طئ ودومة الجندل)[٦] (وكانت نجران الموطن الرئيسى للنصرانية فى العربية الجنوبية ، ولعلها الموطن الوحيد الذى توطدت فيه هذه الديانة فى اليمن ، وعند ظهور الإسلام كانت نجران المركز الرئيسى للنصرانية فى اليمن)[٧] .

وذكر د . محمد إبراهيم الفيومى أن (المسيحية دخلت قلب مكة مع الغزو الحبشى لها)[٨] بل إننا سوف نرى فيما يلى أن النصرانية اخترقت قبيلة قريش ذاتها وهى التى كان يتولى أفراد منها سدانة الكعبة وما كان بها من أصنام .

---

(٤) د . حسن إبراهيم حسن ، **تاريخ الإسلام السياسى** ، ص ٧٢ ، مرجع سابق .

(٥) د . يحى الشامى ، **الشرك الجاهلى** ، ص ١٩ ، مرجع سابق .

(٦) د . السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢ ، مرجع سابق .

(٧) برهان الدين دلو ، ص٢٢٦-٢٢٧ ، مرجع سابق .

(٨) د . محمد إبراهيم الفيومى ، **فى الفكر الدينى الجاهلى** ، ص ٩٢ ، مرجع سابق .

ويرى د . الفيومى أيضا أن الاضطهاد الذى وقع على أتباع المسيح عليه السلام كان أول أسباب انتشارها فى الجزيرة العربية (وأنها دخلت مبكراً على يد الحارث الغسّانى) [٩] .

وفى نطاق الأسباب السياسية فهى (تتمثل فى سعى الروم لمد سلطانهم فى الجزيرة العربية عن طريق نشر دينهم على أيدى رجال الدين الذين يبشرون به) [١٠] ولقد (حاولت المسيحية واليهودية أن تتغلغلا فى الجزيرة العربية ، وكانتا متصلتين بالصراع السياسى ، إذ بدت كل منهما حليفة لإحدى الدولتين الطامعتين) [١١] .

ويؤكد عطا الله جليان أنه (كان للمذاهب النصرانية فى مكة والمدينة وصنعاء ونجران واكسوم مرجعيات سياسية ومذهبية مركزية خارجية)[١٢] وهكذا نرى أن السياسة لعبت دوراً كبيراً فى نشر الديانة المسيحية ، وكانت الدولة الرومانية «البيزنطية» توظف الدين لصالحها ، وتوقن أن تنصير القبائل العربية يخدم مصالحها ، بل إنها لم تتورع عن سلوك طريق الغزو المسلح لنشر المسيحية رغم مافى ذلك من مفارقة مضحكة ؛ ذلك أن الديانة المسيحية ، كما تصف نفسها جاءت لتلقى على الأرض السلام وللناس المحبة والمسرة (يصور معظم المؤرخين المنازعة بين اليهودية والمسيحية فى الجزيرة العربية كأنها نزاع دينى محض بين اليهودية والمسيحية فى حين هى بجوهرها - بالرغم من اتخاذها المظهر

---

(٩) د . محمد إبراهيم الفيومى ، **فى الفكر الدينى الجاهلى** ، ص ٩٢ ، مرجع سابق .

(١٠) د . محمد حسين هيكل ، **حياة محمد** ، ص ٨٧ ، مرجع سابق .

(١١) د . عبد العزيز الدورى ، **مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى** ، ص ٩ ، الطبعة الخامسة ، آب ١٩٨٧م ، دار الطليعة ، بيروت - لبنان .

(١٢) عطا الله جوليان ، **مجتمع قريش السياسى والدينى فى عام الفيل** ، ص٦٧ ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧ م ، مؤسسة دار الكتاب الحديث لبنان ، مرجع سابق .

الديني - نزاع سياسى بين ملوك الأحباش والحميريين) [١٣] ويستطرد حسين مروة فيقول (كانت حملة الأحباش على مكة إذن إحدى ظاهرات الصراع على السيطرة السياسية والاقتصادية أساسياً ، لكن الإخباريين لايجدون تفسيراً لها سوى التفسير الدينى المحض)[١٤] ونذكر فى مجال الأسباب الاقتصادية(اتصال العرب بكل من نصارى الشام ومسيحيّى اليمن فى رحلتى الشتاء والصيف)[١٥] كذلك كان عرب الجزيرة وخاصة من يقطنون الأطراف الشمالية على اتصال بكل من الغساسنة والمناذرة ، الذين كانت تفشو فيهم ديانة المسيح . ويذهب الأستاذ العميد د/ طه حسين أن (العرب عرفوا النصرانية فى الشام والعراق ، وربما عرفوها فى مكة أيضاً وفى الطائف ، بفضل التجارة من جهة ، وبفضل من كان يصل إليها من الرقيق من جهة ثانية ، وبفضل بعض التجار الذين غامروا بأنفسهم وتجارتهم فوصلوا إلى مكة واستقروا فيها ، وكذلك عرف العرب المسيحية فى مدينة نجران)[١٦] ومن رأى د . محمد إبراهيم الفيومى (أن المسيحية دخلت مكة ، وأن رحلات قريش التجارية ونظرية تقسيم الناس إلى أحرار وعبيد ساهمت فى إدخال المسيحية فى مكة)[١٧] (أما الحجاز فقد كان يستقبل بانتظام القوافل القادمة من أطراف سوريا ومابين النهرين ، وكانت تلك المناطق تذخر بالأديرة والمعابد فكانت هذه القوافل تحمل معها القصص والموضوعات المسيحية)[١٨] . كذلك (كان فى الحيرة من سراة النصارى من اشتركوا مع سراة قريش فى الأعمال

---

(١٣) حسين مروة ، ص٣٠٧ ، مرجع سابق .

(١٤) المرجع السابق ، ص٣٠٨ .

(١٥) د . محمد حسين هيكل ، **حياة محمد** ، ص٨٩ ، مرجع سابق .

(١٦) د . طه حسين ، **مرآة الإسلام** ، ص ١٠ ، مرجع سابق .

(١٧) د . محمد إبراهيم الفيومى ، فى **الفكر الجاهلى** ، ص ٩٢ ، مرجع سابق .

(١٨) أندريه ميكل ، **الإسلام وحضارته** ، ترجمة د . زينب عبد العزيز ، مراجعة أ . كمال الدين الحناوى ، ص ٥١ ، من منشورات المكتبة العصرية ، صيدا- لبنان ، مرجع سابق .

التجارية مثل كعب بن عيد التنوخى فهو من سراة نصارى الحيرة ، وكان أبوه أسقفا على المدينة ، وكان يتعاطى التجارة وله شركة فى التجارة فى الجاهلية مع عمر بن الخطاب فى تجارة البَزّ وكان عقيداً له)[١٩] ويرى كارل بروكلمان أن (بلاد العرب الداخلية وبخاصة مدن الحجاز التجارية لم تكن تجهل كل الجهل تعاليم المسيحية وتقاليدها بسبب من اتصالهم الدائم بقبائل الشمال)[٢٠] .



ومن أسباب انتشار النصرانية فى جزيرة العرب كذلك وخاصة فى منطقة الحجاز ، وجود عدد كبير من العبيد (الرقيق) الذين كانوا يدينون بها (وقد كانت فى مكة عند ظهور الإسلام جالية كبيرة من العبيد عرفوا بالأحابيش ، ومن هؤلاء عدد كبير من النصارى استورد للخدمة وللقيام بالأعمال اللازمة لسراة مكة . وقد ترك هؤلاء الأحابيش أثراً فى لغة أهل مكة ليظهر فى وجود عدد من الكلمات الحبشية فيها ، مثل الأدوات التى يحتاج إليها فى الصناعات ، وفى الأعمال اليدوية التى يقوم بها العبيد ، وفى المصطلحات الدينية)[٢١] وهو ذاته ما أكده برهان الدين دلو [٢٢] وسبق أن ذكر أن العميد طه حسين قال إن العرب فى مكة والطائف عرفوا النصرانية بفضل من كان يصل إليهم من الرقيق - وجاء فى كتب السيرة النبوية أن محمدا صلى الله عليه وسلم عندما ذهب إلى الطائف يدعو إلى دينه قابل رجلاً نصرانياً من أهل نينوى يسمى «عدّاس» كان غلاماً أى عبداً لعتبة وشيبة ابني ربيعة مما يؤكد انتشار الأرقاء النصارى فى بيوت

---

(١٩) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب** ، المجلس السادس ، ص٥٩٦ ، مرجع سابق .

(٢٠) كارل بروكلمان ، **تاريخ الشعوب الإسلامية** ، ص ٢٧ ، مرجع سابق .

(٢١) د . جواد ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص ٦٠٦ ، مرجع سابق .

(٢٢) برهان الدين دلّو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، ص ٢٢٤ ، مرجع سابق .

الأرستقراطية فى مكة والطائف . وساهم وجود عدد من الأديرة التى يقطنها الرهبان النصارى فى إفشاء الديانة الإبراهيمية الثانية «المسيحية» بين عدد من القبائل (لعبت الأديرة دوراً هاماً فى نشر النصرانية ، وتشير جغرافية توزيع الأديرة على انتشارها حتى فى المواضع القصيَّة من البوادى . وكانت الأديرة تتلقى المعونات من كنائس العراق والشام)(٢٣) ويؤكد د . جواد علىّ على هذه الحقيقة التاريخية فيقول (إن دخول النصرانية إلى جزيرة العرب كان بالتبشير وبدخول بعض النساك والرهبان إليها للعيش فيها بعيدين عن ملذات الدنيا ، وبالتجارة والرقيق ولاسيما الرقيق الأبيض المستورد من أقطار كانت ذات ثقافة وحضارة)(٢٤) وسبق أن ذكرنا أن د . حسن إبراهيم حسن أورد أن جزيرة سيناء كانت آهله بالأديرة والصوامع)(٢٥) (ومن المواضع التى وجدت فيها النصرانية سبيلاً فى أرض العرب : أيله . . . ووادى القرى نزلته قضاعة فهى من أثبت القبائل فى النصرانية . وكان يسكنه نفر من الرهبان ذكرهم جعفر بن سراقة بقوله :

فريقان رهبان بأسفل ذى القرى   وبالشام عرَّافون ممن تنصروا (٢٦)

إن انتشار الأديرة والصوامع فى وادى القرى وشبه جزيرة سيناء بل وفى الأصقاع القاصية من بوادى الجزيرة كان عاملاً فعالاً فى نشر المسيحية بين القبائل ، لأن هؤلاء الرهبان والنساك كانوا يرون لزاما عليهم نشر ديانتهم اقتداء بالمسيح عليه السلام ، ونقرأ فى دواوين السيرة المحمدية أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما بلغ اثنتى عشرة سنة خرج مع عمه

---

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٢٤) د . جواد على ، ص٥٨٧ من المرجع السابق ذكره .

(٢٥) حسن إبراهيم حسن ، ص٨٢ من المرجع السابق ذكره .

(٢٦) برهان الدين دلّو ، ص٢٢٤ من المرجع السابق ذكره .

أبى طالب فى ركب للتجارة سنة ٥٨٢م إلى الشام ، وأنهم قابلوا على الطريق راهباً من أهل النصرانية فى صومعته يسمى بحيرى (وفى نجد اعتنق النصرانية قوم من طيئ وكندة وقد أنشئت أديرة لرهبان النصارى فى جبال طيئ)[٢٧] ، ولقد كان الكثرة من هؤلاء الرهبان على علم بالطب وظّفوه واستخدموه فى توطيد صلاتهم بعدد من شيوخ القبائل والتبشير بدينهم (كان الكثير من المبشرين على علم ووقوف على الطب والمنطق ووسائل الإقناع وكيفية التأثير فى النفوس فتمكنوا من اكتساب بعض سادات القبائل فأدخلوهم فى دينهم أو حصلوا منهم على مساعدتهم وحمايتهم ، فنسب دخول بعض سادات القبائل ممن تنصر إلى مداواة الرهبان لهم ومعالجتهم حتى تمكنوا من شفائهم مما كانوا يشكون منه من أمراض)[٢٨] .

ويرى كارل بروكلمان أنه (ليس من شك فى أن الرهبان الذين انتشرت صوامعهم حتى قبل الصحراء كان لهم كبير أثر فى تعريف العرب بالنصرانية)[٢٩] وبلغ من تمكن النصرانية فى بعض قبائل شبه الجزيرة العربية أن عدداً من أفرادها ذوى النفوذ فيها قام بدوره ببناء أديرة وصوامع .

ويبين مما تقدم أن العديد من الأسباب تضافرت وتعاضدت لإذاعة ديانة المسيح عليه السلام فى الجزيرة العربية ، حتى إن قبائل كبيرة فشت فيها تلك الديانة كما سنوضح فيما بعد ، بل إن المسيحية أو النصرانية دخلت مكة والمدينة المقدسة ومعقل الوثنية آنذاك ، ليس هذا فحسب ؛ بل إنها استطاعت أن تخترق قبيلة قريش صاحبة الولاية على مكة ؛ إذ آمن

(٢٧) برهان الدين دلّو ، ص ٢٢٤ ، مرجع سابق .

(٢٨) د . جواد على ، **المفصل** ، المجلد السادس ، ص٥٨٧ ، مرجع سابق .

(٢٩) كارل بروكلمان ، **تاريخ الشعوب الإسلامية** ، ص٢٨ ، مرجع سبق ذكره .

بالنصراينة بعض بطونها ونفر من رجالاتها - وهنا يتعين علينا أن نضع فى حسابنا أن النصرانية ديانة تبشيرية ليست مغلقة على أهلها كاليهودية ، وكان ذلك أحد عوامل انتشارها .

* * *

تلك كانت أسباب انتشار الديانة السامية والتوحيدية الثانية (المسيحية النصرانية) فى جزيرة العرب . ولكن فى أى البقاع انتشرت ؟ ذكرنا فيما قبل استقرارها فى شمال شبه الجزيرة لدى الغساسنة والمناذرة ومدن الشمال الشرقى (العراق) ثم فى الجنوب فى اليمن وكذلك (فى البحرين وعمان بفضل البعثات التبشيرية) [٣٠] وفى بلاد الحجاز وخاصة وادى القرى ، وكذا كان أهل نجران نصارى ، وقدم منهم وفد إلى يثرب (المدينة)على عهد محمد عليه السلام برئاسة السيد والعاقب والأسقف ، وظل النصارى بنجران حتى خلافة عمر رضى الله عنه حيث أجلاهم تحت شعار «لايجتمع فى جزيرة العرب (دينان) ولو أن (الطبرى يذكر فى تاريخه أنه كان بنجران فى زمانه بقايا من أهل دين عيسى بن مريم على الإنجيل وأنهم أهل فضل وعبادة)[٣١] (وكما انتشرت المسيحية فى بلاد العرب وبوجه خاص فى طيىء ودومة الجندل)[٣٢] وكانت هناك صوامع فى وادى القرى ووجدت فى نجران كنيسة أطلق عليها «كعبة نجران» ، ومال نفر من العرب إلى الرهبنة وبنوا أديرة ، والإخباريون (يحدثوننا أن حنظلة الطائى فارق قومه ونسك وبنى ديراً بالقرب من شاطىء الفرات

---

(٣٠) د . السيد عبد العزيز سالم ، **دراسات فى تاريخ العرب** ، ص ٤٣٠ ، مرجع سابق .

(٣١) د . يحى الشامى ، **الشرك الجاهلى وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام** ، ص١٩ ، مرجع سابق .

(٣٢) د . السيد عبد العزيز سالم ، **دراسات فى تاريخ العرب** ، ص ٤٣٢ ، المرجع السابق .

يعرف بدير حنظلة)[٣٣] وكان لتنصر المناذرة أثر كبير فى بناء الأديرة والكنائس منها :

كنيسة تسمى بيعة بني مازن ، وأخرى تسمى بيعة بنى عدى ، ومنها كنيسة الباغوتة ، أما الأديرة فكثيرة منها : (دير اللج ، ودير مارت مريم ، ودير هند الكبرى ، ودير هند الصغرى ، ودير الجماجم ، ودير عبد المسيح)[٣٤] .

نظراً لانتشار المسيحية بهذه الصورة ، فقد كان من المحتم أن تقوم الكنيسة بتنظيم شئون العبادة فى تلك المراكز ، ولا تتركها تسير بصورة عشوائية وهذا مارجحه العقاد (ولما كانت للنصرانية هذه المثابة من الامتداد فى بلاد العرب ، لزم عن ذلك ولابد أنه كان للنصارى أساقفة فى مواضع جمة منها لتنتظم بهم سياسة الكنائس ، وقد تقدم ذكر أسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام أسقف وكان لليعاقبة أسقفان : يدعى أحدهم أسقف العرب بإطلاق اللفظ وثانيهما يدعى أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة ، أما النساطرة فلم يكن لهم من هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريك له)[٣٥] كما (عمد جوستنيان فى عام ٥٤٣م إلى تنصيب أسقفين مونوفيزيين مستقلين للمناطق الواقعة على الحدود العربية هما : يعقوب البرادعي وتيودور ، وساعد الحارث بن جبلة ملك الغساسنة فى تمكين المذهب اليعقوبى فى مجالات بعيدة بين العرب فى شمال شبه الجزيرة العربية)[٣٦] ويؤكد أحمد أمين أن (كعبة

---

(٣٣) أحمد أمين ، **فجر الإسلام** ، ص٢٢ ، مرجع سابق .

(٣٤) د . السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص٢٧٧ ، مرجع سابق .

(٣٥) عباس محمود العقاد ، **مطلع النور** ، ص ٩٩ ، مرجع سابق .

(٣٦) د . السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص٤٣٠ ، مرجع سابق .

نجران كان فيها أساقفة معتمدون)[٣٧] و(قد اشتهر من بين رؤساء المسيحية قبل الإسلام قس بن ساعدة ويذكر أدباء العرب أنه كان أسقف نجران ، ويقطع لامانس فى كتابه عن يزيد ببطلان ذلك ويذكر أنه لم يكن له صلة بنجران)[٣٨] وربما كان ظن أدباء العرب ، ذاك الذى ذكره أ . أحمد أمين ، مبعثه أن قساً كان يخطب فى أسواق العرب مثل غيره من دعاة الأديان الذين كانوا يتخذون من تلك الأسواق منابر للتبشير بعقائدهم . وسبق أن ذكرنا أن كتب السيرة النبوية المعتمدة جاء فيها أن النبى محمدا صلى الله عليه وسلم سمع قس بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ ، وأنه ذكر ذلك لوفد بنى إياد عندما وفد إليه فى المدينة عام الوفود ، وأن واحداً منهم أعاد على مسامع محمد عليه السلام مقاطع من الخطبة التى سمعها الرسول . ويقول الدكتور محمد حسين هيكل (كانت سوق عكاظ أكثر أسواق العرب شهرة ، فيها أنشد أصحاب المعلقات معلقاتهم ، وفيها خطب قس وفيها كان اليهود والنصارى وعباد الأصنام يحدث كل عن رأيه آمنا لأنه فى الشهر الحرام)[٣٩] ولكن د . هيكل يذهب إلى أن قُسًّا المذكور (راهب نجران النصرانى)[٤٠] وهو الرأى الذى رفضه لامانس وفنده وسوف نرى فى المبحث الخاص بـ(الحنيفية) أنه من المرجح أن قس بن ساعدة كان من المتحنفين ، ثم أورد د . هيكل إحدى خطب قس التى كان يلقيها فى سوق عكاظ :-

(أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ومن مات فات ، وكل ماهو أت أت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وبحار تزخر ، ونجوم

---

(٣٧) أحمد أمين ، **فجر الإسلام** ، ص٢٦ ، مرجع سابق .

(٣٨) المرجع السابق ، ذات الصفحة .

(٣٩) د . محمد حسين هيكل ، **حياة محمد** ، ص١٣٣ ، مرجع سابق .

(٤٠) د . محمد حسين هيكل ، **فى منزل الوحى** ، ص ٣٩٥ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٧م ، مكتبة النهضة المصرية .

تزهر ، وضـوء وظلام ، وبر وآثام ، وطعم ومـشـرب ، وملبس ومـركب ، مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعـون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركـوا فناموا ، وإله قس بن سـاعـدة ماعلى وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمـانه ، وأدرككم أوانه فطوبى لمن أدركـه فـاتبـعـه وويل لمن خالفه)[٤١] فهنا نجد أن قساً فى خطبته ذكـر الآيات الكونية التى تدل على أن الحياة لم تخلق عبثاً وألمح إلى البعث والنشور والحساب ، والأهم من ذلك كله أنه بشّر بقرب ظهور دين جديد أفضل وأكمل ، ولايأتى بداهة إلا على يد نبى أو رسول . وواضح أن ابن ساعدة قد تأثر بتعاليم الديانتين التوحيديتين الموسوية والعيسوية وبأفكارهما وبقيمهما ، وأخصها عقيدة المخلّص الذى يفك أسر المأسـورين ، ويرفع الظلم عن المظاليم ، ويدخل المسرة على قلوب الحزانى ، وبالجملة يحقق العدل المطلق وهو الحلم الأبدى الذى يقض مضجع البشرية منذ بدء الخليقة ، وتبنى الإسلام هذه الفكرة تحت اسم (المهدى المنتظر) . ومن اللافت للانتباه أن هذه الفكرة أو العقيدة من الأفكار أو العقائد القليلة ، وإذا شئنا قلنا النادرة ، التى يتفق على الإيمان بها أهل السنة والجماعة مع الشيعة ويروون الأحاديث التى تؤيدها - كما أن هذه الفكرة ذاتها هى نقطة التقاء بين الديانات السامية الإبراهيمية الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام ، وتجد نظائر لها فى العقائد الأخرى أيضاً .

إن خطبة قس التى أوردنا فيما سلف بعض نتف منها تذكر كتب السيرة المعتمدة التى تلقتها الأمة بالقبول ، بل والتجلّة ، أن محمداً عليه السلام سمعها أو سمع مثيلاتها فى عكاظ أو ربما فى غيره من أسواق العرب مثل مجنة أو ذى المجاز ودومة الجندل ونطاة خيبر والمشقر وحجر اليمامة ، وإن كان أشهرها عكاظ ، وتلك الأسواق كانت مجال خطب

(٤١) د . محمد حسين هيكل ، **فى منزل الوحى** ، مرجع سابق .

الدعاة والمبشرين الدينيين ، ومعرض قصائد الشعراء ومعلقات فحول الشعراء .

(قدم وفد إياد – قبيلة قس بن ساعدة – على النبى محمدصلى الله عليه وسلم فقال لهم : مافعل قس بن ساعدة ؟قالوا : مات يارسول الله ، قال . كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أجدنى أحفظه فقال رجل من القوم أنا أحفظه يارسول الله ، وتلا عليه الخطبة فقال رسول الله : يرحم الله قسا إنى لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده)[٤٢] ولعل اعتناق قس بن ساعدة لدين عيسى عليه السلام – فى رأى من يذهب إلى ذلك . أما نحن فنرجح أنه كان أحد الأحناف أو المتحنفين – نقول لعل اعتناق قس للمسيحية كان أحد أسباب انتشار النصرانية وفشوها بين أفراد إياد التى كانت واحدة من القبائل التى ذاعت فيها الديانة السامية الثانية – أو المسيحية – وهناك مبحث خاص سوف نخصصه للقبائل التى غزتها المسيحية وانتشرت بين أفخاذها وبطونها واعتنقها أبناؤها ، أو على أقل تقدير عدد وفير منهم ربما يصل إلى الأغلبية ، (ويعد قس بن ساعدة الإيادى من شعراء النصارى العرب مثل أمية بن أبى الصلت وعدى بن زيد)[٤٣] ويذهب الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن (ممن اعتنق المسيحية من مشاهير العرب : أرباب بن عبد القيس ، وعدى بن زيد العبادى ، وأبو قيس ابن أبى دانس من بنى النجار ، وورقة بن نوفل ، وعبيد بن الأبرص الأسدى الشاعر ، وبحيرى الراهب) ؛ وورقة بن نوفل أحد أبناء عم أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله عنها أولى زوجات النبى محمد[٤٤] عليه الصلاة والسلام ، وأول من

---

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٩٥٣ ، ٣٩٦ .

(٤٣) محمد كرد على ، **الإسلام والحضارة** ، الجزء الأول ، ص ١٢٥ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٨م ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٤٤) د . السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص ٤٣٣ ، مرجع سابق .

آمن به ، كما أن ورقة هو الذى قال له انه سوف يكون نبى الأمة ، أما بحيرى الراهب فهو الذى تقابل معه محمد عندما كان غلاما متوجهاً بصحبة عمه أبى طالب إلى الشام للمتاجرة ، ويقال إن (أول من تنصر من ملوك الحيرة النعمان بن المنذر ، قيل على يد الجاثليق عبد يشوع ، وقيل على يد عدى بن زيد العبادى ، ودان بالنصرانية كثير من قبائل العرب النازلين بالحيرة أو بالمنطقة المحيطة بها من بينهم : تغلب من بطون من بكر بن وائل فى ديار بكر ، وكانت هند بنت النعمان زوجة المنذر بن امرئ القيس مسيحية ، فنشأ ابنها عمرو بن المنذر الذى تولى حكم الحيرة فيما بين عامى ٥٥٤/ ٥٦٩م مسيحيا ، وإلى هند هذه ينسب دير هند الكبرى بالحيرة)[٤٥] وكانت تنقلات القبائل أو بطونها أو أفخاذها مستمرة بين أطراف الجزيرة ووسطها ؛ ولذا فإن قبيلة تغلب هذه لم تكن هى الوحيدة التى فشت فيها النصرانية بل الكثير غيرها مثل : إياد قبيلة قس بن ساعدة وتميم وحنيفة وقضاعة وغيرها ، بل إن النصراينة ، اخترقت قبيلة قريش ذاتها ، فقد سبق أن كعب بن عبيد التنوخى وهو من سراة الحيرة النصارى ، وكان أبوه أسقفاً لها ، تعاطى التجارة وشارك فيها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قبل ظهور الإسلام (وقال اليعقوبى : وأما من تنصر من أنحاء العرب فقوم من قريش من بنى أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث بن عبد العزى ، وورقة بن نوفل من أسد)[٤٦] وقد ساق هذه الحقيقة التاريخية برهان الدين دلو[٤٧] .

وبذلك يمكن القول إن النصرانية كانت متغلغلة فى مكة ، واخترقت بعض بطون قريش بل إن البعض يذهب إلى أن المسيحية وجدت داخل

---

(٤٥) د . السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص٤٣٣ ، مرجع سابق .
(٤٦) د . جواد على ، **المفصل** ، المجلد السادس ، ص ٥٩٠ ، مرجع سابق .
(٤٧) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الثانى ، ص٢٢٤ ، مرجع سابق .

الكعبة ذاتها ، ولو إننا من جانبنا نرى أن هذا الرأى ربما يفتقر إلى الأدلة الوثوقية ، وإن استند إلى بعض القرائن التى لاترقى إلى درجة الدليل منها أن (عدَّى بن زيد) وهو من أشهر شعراء العرب النصارى فى الجاهلية يقول :

سعى الأعداء لايألون شراً   عليك ورب مكة والصليب

فكيف يؤمن رجل نصرانى بعيسى والصليب ويقسم بالكعبة مجمع الأصنام ، واتخذه الأب شيخو دليلاً على انتشار النصرانية فى مكة وعلى تنصر أحياء منها وعلى أن النصرانية قديمة فيها . . . وأضاف أن : صور الأنبياء وصور عيسى وأمه التى أمر الرسول بطمسها ومحو معالمها هى دليل على أثر النصرانية فى مكة ولهذا أقسم عدى بها كما أقسم الأعشى بها كذلك :

حلفت بثوبى راهب الدير والتى   بناها قصى والمضاض بن جرهم

والأعشى عاش فى الجاهلية وأدرك الرسول ومدحه) (٤٨) .

وأيا كان الأمر فإن النصرانية كان لها وجود فى جوف الكعبة – حتى مع عدم رقى تلك القرائن لدرجة الدليل الذى تطمئن إليه النفس – ذلك أن محو صورتى عيسى وأمه مريم بأمر محمد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد ورد ذكره فى كتب السيرة .

ويؤكد الأستاذ محمد كرد على وجود صور وتماثيل لكل من عيسى وأمه فى جوف الكعبة فيقول (ومن جملة ماكان فيها يعنى الكعبة صور عيسى وأمه عليهما السلام ، بقيتا حتى رآهما من أسلم من نصارى غسّان وكان على أحد عمد الكعبة تمثال مريم وفى حجرها ابنها مزوقاً) (٤٩) .

عن ابن شهاب ان النبى ص دخل الكعبة يوم الفتح وفيها صور

---

(٤٨) د . جواد على ، **المفصل** ، المجلد السادس ، ص ٦٦٦-٦٦٩ ، مرجع سابق .
(٤٩) محمد كرد علي ، **الإسلام والحضارة** ، ص١٢٣ ، الجزء الأول ، المرجع السابق .

الملائكة فرأى صورة ابراهيم فقال : قاتلهم الله جعلوه شيخا يستقسم بالازلام ثم رأى صورة مريم فوضع يده عليها وقال : امحوا ما فيها من الصور إلا صورة مريم .

اخبرنى محمد بن يحيى عن الثقة عنده عن ابن اسحق عن حكيم بن عباد بن حنيف وغيره من أهل العلم أن قريشا كانت قد جعلت فى الكعبة صورا فيها عيسى بن مريم ومريم عليهما السلام .

قال ابن شهاب : قالت اسماء بنت شقر : ان امرأة من غسان حجت فى حجاج العرب فلما رأت صورة مريم فى الكعبة قالت : بابى وامى انك لعربية ، فأمر رسول الله ص أن يمحو تلك الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومريم .(٥٠)

ولعل من أظهر آثار الديانتين الساميتين على عرب الجزيرة قبل بعثة محمد عليه السلام ؛ شيوع أسماء الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل) نورد على سبيل المثال : آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قتل فى الجاهلية وهو الذى وضع النبى محمد عليه الصلاة والسلام دمه بعد فتح مكة ، وإبراهيم بن الحارث بن خالد التيمى القرشى ، وإسحق الغنوى وهو من الصحابة ، وأبو أيوب الأنصارى ، وهو الذى نزل عليه الرسول عند مقدمه يثرب مهاجراً من مكة وسليمان بن نوفل ، وسليمان بن أبى حتمة القرشى (كما كان اسم عبد المسيح شائعا كثيراً لدى أهل الحيرة خاصة)(٥١) ولعل القارىء قد لاحظ أن عدداً من هؤلاء كان من قبيلة قريش مما يدل على تأثرها بالمسيحية ، كذلك بين

---

(٥٠) **اخبار مكة وماجاء فيها من الآثار** ، تأليف ابي الوليد محمد بن عبدالله بن احمد الازرقي ، تحقيق رشدي صالح ملحق ، الجزء الأول ، ص ١٦٩ ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، دار الأندلس ، بيروت .

(٥١) د جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب** ، المجلد السادس ، ص ٦٨٢ ، ٦٨٨ ، مرجع سابق .

النساء انتشرت الأسماء الواردة فى الكتابين المقدسين مثل : (آسيا بنت الفرج الجرهمية ، مارية مولاة حجرى بن أبى إهاب التميمى حليف بنى نوفل ، وهى التى حبس فى بيتها الصحابى خبيب بن عدىّ ، وحواء بنت زيد بن السكن ، وحواء بنت بجيد الأنصارية ، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش رضى الله عنها إحدى زوجات النبى محمد صلى الله عليه وسلم ومريم بنت إياس الأنصارية وأم عيسى بنت الجزار وأم يحى امرأة أسيد بن حضير أحد زعماء الأنصار) (٥٢) وكلهن صحابيات .

* * *

من هذا كله يبين أن المسيحية كانت منتشرة فى وسط الجزيرة وأطرافها وذلك للأسباب التى أوردناها وكان حظها من الذيوع والانتشار أوفر من الديانة السامية التوحيدية الأولى (اليهودية) لعلل لاتخفى ، فى مقدمتها أن النصرانية ديانة تبشير فضلاً عن استنادها إلى مرجعيات سياسية متنفذة : دولتى الروم والحبشة ودويلتى ، أو إمارتى ، الغساسنة والمناذرة ، والنصرانية كما اليهودية تركت آثاراً عميقة الغور فى عرب شبه الجزيرة على الأخص فى الناحية الاعتقادية ، نذكر :

أولا : ترسيخ عقيدة التوحيد التى وضعت بذرتها اليهودية ، أى الإيمان بإله واحد ونبذ ماعداه ، وترك التعددية الإلهية المتمثلة فى عبادة الأصنام والأوثان ، وسبق أن ذكرنا فى المبحث الخاص باليهودية والذى أفردناه لها ، وعلى وجه الخصوص فى الفقرة الأخيرة ، آراء باحثين انتهوا فيها إلى أن الديانتين الساميتين التوحيديتين بانتشارهما فى القبائل العربية كانتا من أوائل العوامل التى دفعت إلى تفسيخ الوثنية العربية لصالح

(٥٢) الإمام عز الدين بن الأثير الجزرى ، **أسد الغابة فى معرفة الصحابة** ، تحقيق وتعليق د . محمد إبراهيم البنا ، وأ . محمد أحمد عاشور ، المجلد السابع ، **كتاب النساء** ، (د . ت) ، دار الشعب بمصر .

عقيدة التوحيد ، وإلى إقناع العرب وخاصة عقلائهم وحكمائهم بسخف الإيمان بالتعددية الإلهية . ولاشك أنه كان للنصرانية النصيب الأوفر فى ذلك ؛ لأنها كانت أشد ذيوعاً وأكثر انتشاراً من الموسوية (اليهودية) لما سقناه من أسباب ، حتى إن الأمر بلغ بالنصراينة أنها اخترقت قبيلة قريش ذاتها بل إنها دخلت قدس أقداسها ونعنى به الكعبة .

ثانيا : تكريس عقيدة أو فكرة النبوة والتبشير بظهور نبى أطل أو أظل زمانه ؛ ففى الخطبة التى ألقاها قس بن ساعدة فى عكاظ وسمعها محمد عليه الصلاة والسلام (وإله قس بن ساعدة ماعلى وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظل زمانه وأدرككم أوانه ، فطوبى لمن أدركه واتبعه ، وويل لمن خالفه)(٥٣) (وعن مروان بن الحكم عن معاوية بن أبى سفيان عن أبيه قال : خرجت أنا وأمية بن أبى الصلت الثقفى تجاراً إلى الشام ، فكلما نزلنا منزلاً أخذ أمية سفراً يقرؤه علينا فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى)(٥٤) (وقد روى الإخباريون قصصاً عن التقاء أمية بالرهبان وتوسمهم فيه إمارات النبوة وعن هبوط كائنات مجنحة شقت قلبه ثم نظفته وطهرته تهيئة لمنحه النبوة)(٥٥) وأمية هذا (حضر البعثة المحمدية ولم يسلم ولم يرض بالدخول فى الإسلام لأنه كان يأمل أن تكون له النبوة ، ويكون مختار الأمة وموحدها فقد برز نموذجاً للتطهر والزهد والتعبد ، وقد مات سنة تسع للهجرة بالطائف كافراً بالأوثان وبالإسلام)(٥٦) .

(٥٣) د . محمد حسن هيكل ، **فى منزل الوحى** ، ص٣٩٥ ، مرجع سابق .
(٥٤) محمد كرد على ، **الإسلام والحضارة العربية** ، ص١٢٥ ، مرجع سابق .
(٥٥) جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، المجلد الخامس ، ص ٣٨٠ و ٣٨١ ، والمجلد السادس ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، نقلاً عن : سيد القمنى فى كتابه **الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية** ، ص٦٩ ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، دار سينا للنشر بالقاهرة .
(٥٦) د . سيد محمود القمنى ، **الحزب الهاشمى** ، ص٧٠ ، مرجع سابق .

ثالثا : فى الخطاب الدينى تركت النصرانية أثراً فى عرب الجزيرة لايقل عن أثر الموسوية فيه ، ويذهب د . السيد عبد العزيز سالم إلى (أن الشعر الجاهلى يشهد على ذلك)[٥٧] ويؤكد أحمد أمين أن (المسيحية نشرت تعاليمها بين العرب)[٥٨] كما يرى أحمد أمين أيضاً أن (شعراء النصارى ، مثل قس بن ساعدة وأمية بن أبى الصلت وعدى بن زيد ، لهم مسحة خاصة فى شعرهم عليها طابع الدين ومتأثرة بتعاليمه)[٥٩] .

وأورد د . سيد محمود القمنى عدة قصائد للشاعر أمية بن أبى الصلت تتضمن كلمات : الجنة والنار والبعث والحشر والنشور والحساب والرب ذا العرش والميزان ، وآيات الله كالسماء التى رفعت بلا عمد والأرض بلا وتد وبعثة الرسل مثل إبراهيم وإسماعيل ، وقصة الذبح والفداء ، وموسى وهارون ليذهبا إلى فرعون الذى كان طاغيا ، ومريم التى لم تكن بغياً ولاحبلى والملك الذى جاءها وقال لها لاتجزعى وعيسى الذى أتى من الإله آية ولم يكن غوياً ولاشقياً وقصص الأولين مثل عاد وجرهم [٦٠] ويظهر من أدبيات بعض الإخباريين أن بعض أهل الجاهلية كانو قد اطلعوا على التوراة والإنجيل ، وأنهم وقعوا على ترجمات عربية للكتابين منهم ورقة بن نوفل وأمية بن أبى الصلت [٦١] ، وقد أكد البعض ترجمة الإنجيل للعربية آنذاك ، واستدلوا على ذلك بما رواه البخارى فى

---

(٥٧) د . السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص٤٢٩ ، مرجع سابق .

(٥٨) أحمد أمين ، **فجر الإسلام** ، ص٢٧ ، مرجع سابق .

(٥٩)المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(٦٠) د . سيد محمود القمنى ، **الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية** ، ص ٦٩-٧٤ ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ ، دار سينا للنشر بالقاهرة .

(٦١) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، المجلد السادس ، ص ٦٨٠ ، مرجع سابق .

كتاب «بدء الخلق» وفى كتاب «التفسير» عن أنه كان يقرأ الإنجيل بالعربية ويكتب منه ما شاء الله أن يكتب (٦٢) كما يؤكد د / جواد على أن الشعر الجاهلى - يقصد السابق على الإسلام - (قد حفل بالعديد من الألفاظ والعبارات والأفكار المستمدة من عقيدة النصارى مثل الإقرار بإله واحد ، والنهى عن عبادة الأوثان ، والتقرب إليها والرب يكفى الإنسان ويرعاه ويساعده فى حله وترحاله والفناء على كل امرىء وليس أحد من هذه الدنيا بخالد ، والصلوات والقيام والركوع والسجود والتسابيح ، وتقديس اسم الله ، والتسبيح بعد الصلاة لاسيما الضحى والعشى ، والحواريون ورسم المسيح وتلامذته) (٦٣) .

ولعل من نافلة القول أن نضيف أن قصائد الشعراء وخاصة الفحول منهم كانت تقوم بالدور نفسه الذى تقوم به الصحف والمجلات فى عصرنا الحالى ، وكانت هى أداة الإعلام الفعالة ، يحفظها العرب ويرددونها ويتناقلونها فى مجالسهم ، ذلك أن الأمية كانت هى الغالبة عليهم «نحن أمة أمية» هكذا قال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فضلاً عن ولعهم بالشعر وكان للشعراء عندهم مكانة تسامى مكانة الانتلجنسيا فى هذه الأيام ، وعندما كان ينبغ شاعر فى قبيلة عدت ذلك من مفاخرها واعتبرته حدثاً يستحق احتفالية صاخبة ؛ ويذهب أحمد أمين إلى أن شعراء وخطباء النصرانية (أدخلوا على اللغة العربية ألفاظاً وتراكيب لم تكن تعرفها)(٦٤) .

* * *

هذه الآثار الواسعة التى بصمت بها اليهودية والنصرانية الذهنية

---

(٦٢) حسنى يوسف الأطير ، **البدايات الأولى للإسرائيليات فى الإسلام** ، ص ٢٠ ، مرجع سابق .
(٦٣) المرجع السابق ، ص ٦٧ .
(٦٤) احمد أمين ، **فجر الاسلام** ، ص ٢٨ ، مرجع سابق .

العربية آنذاك خاصة فى المجال الدينى ، كانت من العوامل البالغة الخطر فى التمهيد لقيام دولة قريش على يد محمد النبى عليه الصلاة والسلام إذ ساعدت عقيدة التوحيد التى قامت تينك الديانات بنشرها بين عرب الجزيرة قبل الإسلام على تفكيك عرى الوثنية والتعددية الإلهية التى كانت مسيطرة وقتذاك وساهمت فى تفسيخها وفضحها والكشف عن زيفها ومنافاتها للعقل ومجافاتها للمنطق والحس السليم ، بحيث أن الإسلام الذى نادى به محمد عليه السلام فيما بعد ، جاء وقد عبّدت أمامه الطرق وحرثت من تحته الأرض لتتلقى البذور التى ألقاها وهى أيضا بذرة توحيدية . وتكمن أهمية المناداة بالإسلام ضمن مكونات الدولة الوليدة لافى كونه عقيدة خاصة بالعرب ومتميزة عما سبقها فى بعض المناحي فحسب ، بل لأنه كان أحد الأعمدة الركينة التى ارتكز عليها بناء تلك الدولة ، وكان استعمال الدين كمدماك لشد أزر بنية الدولة بدأ قديماً بمبادرة المؤسس الأول ومجمع قريش قصىّ الجد الأعلى لمحمد عليه السلام ؛ لأنه لما كان يتمتع به من ملكات عقلية فذة ونادرة أدرك بثاقب نظره أهمية عنصر الدين فى تعضيد الدولة ومؤازرتها فسار الأحفاد من بعده على هداه ، ومترسمين خطاه .

كما لعبت عقيدة التوحيد دوراً آخر لايقل خطورة وهو المساهمة فى توحيد قبائل الجزيرة العربية ، لأن الإيمان بدين واحد أو عقيدة واحدة يخالف تماما من الوجوه كافة وشتى المناحى اعتقاد كل قبيلة بإله خاص بها ، فالتوحيد فى العقيدة سوف يؤدى بطريق الحتم واللزوم إلى صهر القبائل فى بوتقة واحدة ، أو حتى على الأقل التقريب بينها وإزالة مشاعر التفرد ، وربما النفور ، بما لايستطيعه عامل آخر ، انظر إلى من يعتنقون ديناً واحداً سوف تجد بينهم علاقة حميمة على اختلاف فى عروقهم وتباعد بين ديارهم ، وهكذا كان فعل عقيدة التوحيد التى بذرتها الديانتان التوحيديتان : الموسوية والعيسوية أو اليهودية والنصرانية (المسيحية) فى

شبه الجزيرة العربية ، ولذا عندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم يدعو إلى التوحيد والوحدة ونبذ العصبية ، وجد لصوته صدى ولندائه استجابة خاصة لدى العرب الذين خالطوا أبناء إحدى تينك الديانتين وعلى سبيل المثال : الأوس والخزرج ؛ وهم باعتراف كتب التاريخ الإسلامى من أهم عوامل نجاح الدعوة المحمدية ، ونذكّر فى هذا المقام بقولة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لهم والتى أوردناها فى مقدمة هذا الكتاب (يامعشر الأنصار لطالما أعز الله بكم الإسلام) . وقد واكب التوحيد فى الألوهية الذى نشرته الديانتان المذكورتان بجزيرة العرب نماء الشعور القومى عند القبائل العربية ولقد تمثل ذلك فى هزيمة الفرس أمام العرب فى «يوم ذى قار» وفى انتصار «ذى يزن» ومن ثم فلم يكن من قبيل المصادفة أن يتوجه إلى اليمن لتهنئة وفد من قريش على رأسه عبد المطلب الجد المباشر لمحمد صلى الله عليه وسلم .

وفائدة أخرى جليلة انطوت عليها عقيدة التوحيد ؛ وهى ترسيخ فكرة دولة مركزية يسوس أمورها حاكم فرد ؛ ذلك أن التعددية الوثنية ، أو بعبارة أخرى وجود إله لكل قبيلة أو مجموعة محدودة من القبائل ، يفضى إلى معنى مماثل وهو وجود رئيس لكل قبيلة - أما عقيدة التوحيد التى تنادى بإله أوحد لاشريك له تنتهى إلى وجود حاكم واحد تخضع له كل القبائل ، ويذعن له جميع الناس ، لهذا وجد محمد بن عبد الله القرشى صلى الله عليه وسلم التربة صالحة لتولى مقاليد الدولة التى شاءت الظروف التاريخية أن تكون عاصمتها مدينة يثرب بدلاً من مدينة مكة ، حقيقة أن بعد وفاته لقى خليفته أبو بكر قدراً من المقاومة من بعض القبائل ، ولكن القبائل التى كانت قد مُهِّدت لديها فكرة الدولة المركزية المنبثقة من عقيدة التوحيد والإيمان بالإله الوحيد وقفت إلى جانبه ، حتى تمت له السيطرة على الجزيرة العربية كافة ثم بدأ يمد السلطان العربى خارجها .

كذلك كان للديانتين الإبراهيميتين أو الساميتين جانب آخر ساعد فى

التمهيد لقيام دولة قريش فى يثرب ، هو ترسيخ فكرة مسئولية الإنسان عن أفعاله من خلال الثواب والعقاب لافى الحياة الآخرة ، فحسب بل أيضاً فى الحياة الدنيا بوجود سلطة تتولى توقيع العقاب على المخالفين وهو ماعرف بـ «الحدود» وهذا أمر لم تكن تعهده بهذا المعنى المنتظم القبيلة العربية ، وخاصة تلك التى لم تكن مستقرة فى المدن والقرى والواحات وأقصى ماكانت تعرفه هو الخلع ، أى خلع الفرد الذى يقارف أفعالاً منكرة تجر على القبيلة أو الفخذ المتاعب التى قد تؤدى إلى الحروب والغزوات ، ولعل اقتباس المتحنفين من الديانة اليهودية فكرة المسئولية الجزائية وتوقيع حدود الزنا والسرقة وشرب الخمر على المقترفين لها ، ومثال ذلك ماقام به عبد المطلب أستاذ الحنيفية وسيد مكة فى زمانه والذى يقرب المعنى الذى نهدف إلى توضيحه ، ومن ثم لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم ونادى بكل تلك القيم والتعاليم ، كانت الأذهان مهيأة لها ، ولم تكن غريبة أو مستهجنة ، وكانت تلك من الركائز التى توطدت بها أركان الدولة التى قامت على يديه فى يثرب ؛ لأنه لايتصور قيام أى دولة دون وجود مبدأ المسئولية والثواب والعقاب عن الأفعال .

ليس معنى ماسطرناه فى هذه الفقرة أن الجانب العقيدى هو وحده الذى قام بعبء التمهيد لدولة قريش فى يثرب ، فهذه نظرة أحادية الجانب لانظن أننا قد رمينا إليها ، ولكن ماقصدنا إليه هو أن هذا العامل كان أحد أخطر العوامل الممهدة لنشأة تلك الدولة القرشية ، ولكنه لم يكن هو الفاعل الفرد ، بل لعبت إلى جواره عوامل أخرى أدت أدواراً بالغة الخطر ، وهذا ماسنكشف عنه النقاب فى الفصول القادمة .

* * *

قبل أن نشرع فى الكلام على القبائل التى اعتنقت المسيحية ، نلفت النظر إلى مسألة ذات بال وهى أن القرآن الكريم تحدث عن (النصرانية) لا عن (المسيحية) وعن (النصارى) لا عن (المسيحيين) ونسبة الناصرى

ترجع إلى (الناصرة) القرية التى ولد ونشأ فيها المسيح عليه السلام وتقع فى منطقة الجليل ومن هنا لقب بـ (يسوع الناصرى) .

ورغم أن القرآن المجيد جاء بعد عيسى بأكثر من ستة قرون فانه توقف فى تناوله لـ(النصرانية) عند حد معين ، فهو لم يذكر شخصيات شديدة الخطر فى تاريخ ديانة عيسى بن مريم مثل شخصية بولس او شاؤول الطرسوسى أول من نادى بالوهية المسيح وبالتثليث وبذلك حول مسار المسيحية بكامله ، ولا تحدث القرآن عن حوادث ذات أهمية بالغة مثلما حدث فى مجمع نيقيه ٣٢٥م الذى كرس تلك العقيدة مثلما أصّل لها الأصول وقعّد لها القواعد وابدع اللاهوت اللازم لها ، وامسك عن ذكر تلاميذ المسيح بتفصيل حتى عن اكابرهم ومتقدمهم مثل الصخرة بطرس والاداور التى قاموا بها فى نشر عقيدة المسيح والتضحيات التى قدموها فى سبيل ذلك . وعندما يتحدث (القرآن) عن كتاب المسيحية المقدس يذكر (الانجيل) بالمفرد ولايأتى بكلمة واحدة عن الأناجيل الأربعة المتداولة لدى اتباع يسوع عليه وعلى امه السلام - إن القارىء للقرآن العظيم يشعر بفارق هائل بين حديثه عن اليهودية وبين تناوله للمسيحية .

تكلم على الأولى باسهاب وافر فى العديد من السور والآيات حتى أدق التفاصيل لم يغفلها بينما طرح المسيحية طرحا موجزا مقتضبا أشد ما يكون الايجاز وأبلغ ما يجىء الاقتضاب .

ما تفسير ذلك . .؟

العلة فى رأينا ترجع إلى أن الفرقة (أو الفرق) التى وصلت إلى وسط الجزيرة وغربها . . . إلى منطقة الحجاز كانت هى فرقة (اليهود المتنصرين) أو (اليهود الناصريين) نسبة إلى الناصرة مسقط رأس المسيح أو (النصارى الموحدين) أو (الخوارج) كما تصفهم بعض الكتابات المسيحية .

هذه الفرق أو (الفرقة) هى التى آمنت بالمسيح رسولا وليس إلَهًا ولا هو ابن الله ولا هو ثالث ثلاثة وانه مخلوق وبشر وليس ربا معبودا وانه نبى مثل غيره من الأنبياء وهو كأحدهم أرسله الله تعالى للناس وأن الله جل جلاله خلقه فى بطن أمه مريم العذراء البتول من غير ان يلامسها ذكر وانه روح القدس وكلمة الله تباركت اسماؤه وان روح القدس والكلمة مخلوقان خلقهما الله بقدرته .

ولعل القارىء قد لاحظ أن هذه المعانى أو الاعتقادات التى كانت تؤمن بها تلك الفرقة أو (الفرق) تكاد تكون مطابقة لما جاء بشأنها فى القرآن الكريم مع بعض الفروق التى مردها إلى التزام القرآن الصارم بـ(التوحيد الخالص) النقى من أية شائبة وإلى ميل القرآن إلى تنزيه السيدة مريم تنزيها كاملا (لأن بعض تلك الفرق أو شيعة منها كانت تذهب إلى أن عيسى بن مريم من يوسف النجار) هذه الفرقة أو (الفرق) التى ظلت متمسكة بالتعاليم الصحيحة التى جاء بها المسيح فتعرضت للاضطهاد من قبل شاؤول الطرسوسى أو بولس ففرت بدينها الحق إلى وسط الجزيرة وغربها : مكة - نجران - دومة الجندل - وادى القرى . . . تماما كما هاجر اليهود - كما ذكرنا آنفا - إلى منطقة الحجاز وهذا أمر طبيعى - فالجزيرة العربية (وفيها الحجاز) هى الامتداد الطبيعى للشام وفلسطين ويخبرنا التاريخ ان الهجرات كانت تبادلية بينهما .

وسبق أن أوردنا رأى كل من العقاد والفيومى فى وقوع اضطهاد فى القرن الأول الميلادى على اتباع ابن مريم مما اضطرهم إلى الهروب إلى الحجاز - ووجود فرقة أو (فرق) تؤمن بتعاليم المسيح الصحيحة قامت ادلة على ثبوتها وجاء ذكرها فى المصادر الإسلامية والمسيحية على السواء كما سنذكر بعد قليل (وكون المصادر تصمهم بالمروق أو الخروج أو التحريف لاينفى مسألة ثبوتهم تاريخيا) وركان علماء السلف من

المسلمين على علم بوجودهم خاصة أولئك الذين ارخوا للفرق والملل والفصل والنحل والأهواء والشيع . . . الخ منهم ابن حزم الأندلسى[٦٥] .

وكان من البديهى أن يكف أولئك النصارى عن ذكر بولس أو شاؤول خصمهم اللدود أو عدوهم المبين وقاهرهم وملجئهم للهجرة والهرب وان يصفوه واتباعه بالكفر والمروق عن الدين الصحيح دون افصاح عن اسمائهم أو تعيين لذواتهم اهمالا لشأنهم وازدراء لهم .

وكانت تلك الفرقة أو (الفرق) أيضا لاتعترف إلا بـ(انجيل) واحد انجيلها هى والمعروف بـ(انجيل الابيونيين) أى انجيل (اليهود المتنصرين) أو (اليهود الناصريين) أو (النصارى الموحدين) وكانوا يعتبرون ماعداه تحريفا للانجيل الصحيح الذى بشر به يسوع . ولقد تحدث القرآن عن تحريف أهل الكتاب لكتبهم المنزلة وحصرا عن نسيان النصارى حظا مما ذكروا به (س المائدة/ ١٤) . الخلاصة أن هذه الفرقة أو (الفرق) فى صميم اعتقادهم أنه (انجيل) واحد ومن ثم لم تذكر الاناجيل الاربعة لأنها فى نظرها باطلة .

ويخبرنا باحث مسلم أن تلك الفرقة أو الفرق (كانت تقول ان بولس مرتد وتسلّم بـ(انجيل متى) لكن هذا الانجيل عندها مخالف لهذا الانجيل المنسوب إلى متى الموجود عند معتقدى بولس الآن فى كثير من المواضع ولم يكن البابان الأولان فيه ، فهذان البابان وكذا كثير من المواضع محرفة عند هذه الفرقة ، ومعتقدو بولس يرمونها بالتحريف[٦٦] .

---

(٦٥) لمن شاء مزيد من التفصيل فعليه بكتاب **الفصل في الملك والاهواء والنحل** ، ابن حزم الأندلسي ، ت٤٥٦ هـ ، ص ٤٧ ، الجزء الأول ، د .ث .ن . ، مكتبة السلام العالمية بالقاهرة .

(٦٦) الشيخ رحمه الله بن خليل الهندي ، **اظهار الحق** ، ج/ ١ ، ص١٨٣ ، ط الخيرية ، ١٣٠٩هـ ، نقلا عن كتاب **عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية** ، حسني يوسف الأطير ، ص٣٠ ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، دار الانصار ، القاهرة .

والفرقة المعنية فى الفقرة السابقة هى فرقة (الابيونيين) وهى من أشهر فرق اليهود المتنصرين أو الناصريين أو الموحدين وهى تقطع بأن (انجيل متى) قد حرف خاصة فى البابين الأولين وهما اللذان يتناولان قصة ميلاد عيسى وعذراوية امه مريم [٦٧] .

أما المراجع المسيحية فتقول عن (الابيونيين) : وجد فى فلسطين مسيحيون من اليهود باسم (ناصريين) و(ابيونيين) ولا نستطيع الجزم هل كانا مذهبين منفصلين أو أنهما كانا جناحين لمذهب واحد من ذوى الآراء المتحررة أو الضيقة .

فالبعض مثل هارناك يعتقد أن الاسمين هما لقب للمسيحيين من اليهود بينما يعتقد البعض الآخر أن (الابيونيين) هم جماعة الرجعيين والمذهب الأضيق من المسيحيين اليهود بينما كان (الناصريون) أكثر تسامحا مع من يختلفون معهم فى العقيدة والممارسات [٦٨] .

وفى موضع آخر (يمكننا وصف الابيونيين عموما بأنهم : المسيحيون اليهود الذين عملوا على الاحتفاظ بقدر الامكان بتعاليم وممارسات العهد القديم)[٦٩] .

ولعل التوصيفات التى اطلقتها دائرة المعارف الكتابية على الابيونيين مثل : ذوى الآراء الضيقة . . جماعة الرجعيين . . المحتفظين بتعاليم العهد القديم . . تشى بأنها الفرقة أو (الفرق) التى تمسكت بالتعاليم الأولى أو الأصلية التى بلغها المسيح والذى صرح فى أكثر من مناسبة أنه ما جاء

(٦٧) **عقائد النصاري الموحدين** ، ص ٣٠ ، مرجع سابق ، وان البنوة المذكورة في حق عيسي بنوة حجازية وليست حقيقية إذ لا يجوز أن يكون لله ولد .

(٦٨) دائرة المعارف الكتابية ، الجزء الأول ، ص ٥٥ ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، دار الثقافة- القاهرة . ولسنا في حاجة إلي القول أن كلمة (الناصريين) هي ذاتها كلمة (النصارى) نسبة إلي (الناصرة) كما ذكرنا .

(٦٩) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

لنقض الناموس ، والوهية المسيح والتثليث نقض لاشك فيه للناموس . ولكن الدوائر الدينية المسيحية الرسمية (رئاسات شئون التقديس) تضع انجيل (الابيونيين) من ضمن الاناجيل (الابوكريفا) أى غير المعترف بها أو الخارجة أو المحرفة أو المتحولة أو المزورة .

ان الابيونيين لديهم انجيل يسمى (الانجيل بحسب متى) غير كامل وغير صحيح تماما بل هو مزور ومشوه ويسمونه الانجيل العبرى [٧٠] .

ونذكر أن الحذف يتعلق بنسب المسيح .

ويلقى لنا د . عبدالمنعم حفنى مزيدا من الضوء على هؤلاء (الابيونيين) منهم :

(فرقة من اليهود المستنصرين . . . التسمية تعنى الاغمار لانهم كانوا من نكرات اليهود . . أو انهم من الفقراء إلى الله قبلوا المسيح بمعنى (المهدى المنتظر) ورفضوا الاقرار بالالوهية وولادته العذرية وقالوا إن المسيح . . رسول قد خلت من قبله الرسل [٧١] .

ونضيف انهم يؤكدون أن من يزعم خلاف ذلك فهو مجدف فى حق الله تعالى . . ومستحق للّعنة الأبدية ورفضوا الاقرار برسولية بولس (شاؤول) ودخلوا معه فى عراك .

أما الدكتور جواد على فيرى ان الابيونيين (جماعة من قدماء اليهود المتنصرين عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل التى تعنى الفقراء . . وهم يعتقدون بوجود الله الواحد خالق الكون وينكرون رأى (بولس) الرسول فى المسيح ويحافظون على حرمة السبت وحرمة يوم الرب وقد ذهب

---

(٧٠) دائرة المعارف الكتابية ، الجزء الأول ، ص٥٥ ، مرجع سابق .

(٧١) **الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية** ، ص ٤٣ ، باختصار د . عبدالمنعم حفني ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ -١٩٨٠ ، دار المسيرة ، بيروت .

بعض قدماء من نتحدث عنهم إلى أنهم فرقتان بالقياس إلى مولد الابن المسيح من الأم العذراء ويعتقد أكثرهم أن المسيح بشر مثلنا امتاز على غيره بالنبوة وانه رسول الله . . وهو نبى كبقية من سبقه من الأنبياء المرسلين .

وقد آمن بعض منهم بعقيدة (العذراء) وولادتها المسيح من غير اتصال ببشر ، غير أن بعضا آخر منهم آمن بأن المسيح ابن مريم من (يوسف) فهو بشر تماما ، وانكر الصلب المعروف ، وذهب إلى أن من صُلب كان غير المسيح وقد شبه على من صلبه فظن أنه المسيح حقا ورجعوا إلى انجيل متى بالعبرانية وانكروا رسالة بولس على النحو المعروف عند بقية النصارى)[٧٢] .

ولسنا بصدد تاريخ للفرقة الموده من أتباع يسوع ولا نزعم أن الفرقه البيونيه هى حصراً التى هاجرت إلى الجزيرة العربية واستقرت أو شيعة منها فى مكة حتى ظهور الإسلام ، ولكن الحقيقه المؤكدة أن هناك فرقة أو « فرقاً » من اليهود الذين تنصروا وتمسكوا بتعاليم صحيحه له وأوذوا واضطهدوا من أجل ذلك ففرت إلى الجزيرة (الحجاز) وظلت على عقديتها وتبشر بها وتتعامى عن خصومها وأعدائها ولا تعترف إلا بأنجيل واحد ، ولعزلتها فى وسط وغرب الجزيرة انعزلت وانقطعت صلتها بباقى الفرق والطوائف المسيحية ولم يعد لها علم بما كان يجرى فى مسيرة المسيحية خارج الحجاز أو الجزيرة وظلت على هذه العزلة تجتر تلك التعاليم الأولى التى أحضرتها معها من فلسطين وبقيت على هذا المنوال وعلى هذه الصورة حتى أعلن النبى محمد ديانته . ولكن الذى لا شك فيه أن ذلك كان موافقة تاريخية بكل المقاييس لأن تلك الفرقة كانت موحدة تنادى بالتوحيد وتلح عليه وكانت كل الظروف فى تلك الأونة

---

(٧٢) **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، د . جواد على ، الجزء السادس ، ص ٦٣٥ ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

تطلب التوحيد بل وتنقب عليه بمعنى أنه لو كانت تلك الفرقة مثلثة أى تؤمن بالتثليث وتبشر به وتنبذ التوحيد وترفضة وتعاديه ، لحدث تنافر بينها وبين تلك اللحظة التاريخية التى كانت تمر بها الجزيرة العربية .

ومن هذا المنطلق - منطلق التوافق - بين دعوة تلك الفرقة (أو الفرق) وبين موجبات التوحيد السائدة على كل الأصعدة ، تبرز القيمة الحقيقية لوجودها آنذاك .

٣

قبائل كبيرة فشت فيها النصرانية

انتشرت المسيحية أو النصرانية فى شبه الجزيرة العربية عموما ، وفى منطقة الحجاز خصوصاً ومما يدل على ذلك أن عددا من القبائل الكبيرة اعتنقت غالبية أفرادها تلك الديانة ، نذكر فيها على سبيل المثال ثلاثاً .

أولاً : إياد

يبدو أن ديانة المسيح كانت متمكّنة من هذه القبيلة ، ويظهر ذلك من قيامها بدور بارز فيما سمى فى التاريخ الإسلامى بـ «حروب الردة» ونحن نعتقد أنه جانب من أهم الجوانب التى غفل عنها المؤرخون وهم يعددون الأسباب التى دفعت كثيراً من قبائل شبه الجزيرة العربية إلى الانتفاضة على الحكومة التى قامت فى المدينة برئاسة الصديق أبى بكر رضى الله عنه بعد وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، أو قل إن المؤرخين تغافلوا عنها ونعنى بذلك الجانب الاقتصادى والجانب العقائدى ، ونقصد بالأخير هو أن اعتناق القبائل للديانة المسيحية وتغلغلها فى صفوف أفرادها وأن إسلامها من ثم كان ظاهريا جعلها

تتحين الفرصة للثورة على المدينة ، وقد جاءت لها تلك الفرصة عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقبيلة إياد مثل على ذلك فقد ساهمت فى حروب الردة ووقفت إلى جانب جيوش الروم والفرس أثناء الفتح العربى الإسلامى لبلادها أو للبلاد التى كانت تحت سيطرتها . ولم يحدد المؤرخون الوقت الذى تحولت فيه قبيلة إياد من الشرك وعبادة الأوثان إلى المسيحية ولكنهم يطرحون العديد من الأسباب التى أدخلت النصرانية إليها ، منها اتصالها بالدولة اللخمية وانطواؤها تحت هيمنتها ، كذلك ارتحال بعض بطونها إلى مشارف بلاد الروم واتصالهم بأهلها ، فقام قسس ورهبان من الروم بالتبشير بالنصرانية بينهم ، (والأمر المؤكد أن إياداً كانت على النصرانية وقت ظهور الإسلام)[1] وموطن إياد كان «تهامة» وقد عاونت «مضر» فى إجلاء «جرهم» من مكة وتولت حماية البيت ثم هاجرت إلى البحرين والعراق ، ولوجودها هناك خضعت لسلطان دولة اللخمين فى الحيرة التى كانت المسيحية قد انتشرت فيها منذ أن نبذ النعمان عبادة الأوثان فبنيت الكنائس والأديرة ، وأصبحت فى الحيرة طائفة هامة هى طائفة العباد[2] ومن تلك الأديرة : دير اللج الذى بناه النعمان ودير مارت مريم ودير هند الكبرى ودير هند الصغرى ودير الجماجم وهو ينسب إلى قبيلة إياد ؛ ويفسر البلاذرى فى فتوح البلدان سبب هذه التسمية بأن (مالك بن محرز الإيادى قتل قوماً من الفرس ونصب الجماجم عند الدير فسمى دير الجماجم (ودير عبد المسيح) [3] ومن أسباب انتشار المسيحية فى قبيلة إياد تنصر قس بن ساعدة أحد أبناء

---

(١) د . محمد إحسان النص ، فى «قبيلة إياد منذ العصر الجاهلى حتى نهاية العصر الأموى» ، ص ٣٩ ، **الحولية/ ٨** ، **الرسالة/ ٤٧** ، ١٤٠٧هـ/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٦م/ ١٩٨٦م ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت .

(٢) د . السيد عبد العزيز سالم ، **دراسات فى تاريخ الإسلام** ، ص٢٨٣ ، مرجع سابق .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٨١ .

القبيلة وأحد خطباء العرب المعدودين ، وكانت له فى سوق عكاظ خطب مأثورة يحفظها الناس عن ظهر قلب لبلاغتها ، وعلى الرغم من أن وفداً من إياد جاء إلى الرسول محمد (ص) فى عام الوفود سنة ٩ هـ فإنه من الثابت أن إياداً كانت ضالعة فى حروب الردة بشكل متميز .

كما أنها قاتلت جيوش الفتح العربى فى فارس والشام ، ونحن نرجع علّة ذلك إلى تفشى النصرانية فى صفوفها وأن الإسلام كان غطاء ظاهرياً وأنها كانت تتربص مثل بعض القبائل التى كانت دخلت دين المسيح ، وتتحين الفرص لتعود إلى دينها ، وهذه مسألة تحتاج من المؤرخين ، خاصة لفجر الإسلام ، مزيداً من التمحيص .

وفى سنة ١١هـ انضمت قبيلة إياد إلى «سجاح» التميمية (وكان على رأسها وتاد بن فلان وكان الإياديون يشكلون فرقة من جيش سجاح وهى مقبلة من أرض الجزيرة بالعراق)(٤) ولم تهمد إياد بعد انكسار المرتدين (ففى السنة الثانية عشرة من الهجرة نجد اسمها فى عداد من قاتل خالد بن الوليد فى «عين التمر» التى انتهت بظفر خالد بن الوليد والمسلمين على جموع العجم والنصارى)(٥) (وإلى جانب هؤلاء الأعاجم أقام عشير عظيم من قبائل البادية : بنى تغلب والنمر وإياد يرأسهم عقبة ابن أبى عقة والهذيل ومن كان معهم على قيادة الجيوش التى نفرت مع سجاح لغزو المسلمين بالمدينة)(٦) وكعادته فى المعارك التى تولى قيادتها خالد بن الوليد رضى الله عنه دحرهم ولكن إياداً لم تستسلم وظلت على عدائها للإسلام والمسلمين فشاركت فى قتال خالد وذلك فى وقعة «الفراض» وهى على تخوم الشام والعراق والجزيرة فدارت الدوائر على الروم

---

(٤) د . محمد حسين هيكل ، فى **الصديق أبو بكر** ، ص ١٢٨ ، الطبعة ٧ ، دار المعارف .

(٥) د . محمد إحسان ، النص **قبيلة إياد** ، ص ٢٤ ، مرجع سابق .

(٦) د . محمد حسين هيكل ، **الصديق أبو بكر** ، ص ٢٢١ ، مرجع سابق .

وأحلافهم)[7] بل إن هناك من الباحثين من يرى أن (قبيلة إياد لم تكن من بين المنضمين للروم فحسب ؛ بل كانت من بين من كان يحرضهم على قتال المسلمين)[8] هذه الاستجابة من قبل إياد على محاربة المسلمين مرة بعد مرة مع من سموا بـ (المرتدين) وأخرى مع العجم (الفرس) وثالثة مع الروم دليل لايقبل الشك على تمسكها بعقيدتها «النصرانية» وأن ذلك كان أحد العوامل ، وإن لم يكن العامل الوحيد ، فى إصرار إياد على عداوة الدين الجديد .

وكما ذكرنا فقد كانت هناك عوامل أخرى اجتماعية واقتصادية ولكنها تخرج عن نطاق بحثنا وهو انتشار المسيحية فى شبه الجزيرة ومنطقة الحجاز وقت ظهور الإسلام .

أيا كان الأمر ، فالثابت أن المسيحية لم تكن ديناً عارضا أو عقيدة هامشية فى تلك البقاع بل على العكس فقد كانت هناك من القبائل الكبيرة ذات الثقل ممن دانت بها .

ثانياً : تميم

عرفت المسيحية طريقها إلى قبيلة تميم مثلها فى ذلك مثل قبائل أخرى : تغلب وقضاعة وطيء ومذحج وغسان وربيعة ، وسبق أن ذكرنا أسباب ذلك وهناك سبب خاص بـ «تميم» ساعد على اعتناق كثير من أفرادها الديانة المسيحية وهو وجود علاقة حميمة بينها وبين مملكة الحيرة التى دان ملوكها بالدين نفسه مؤخراً ، إلى جانب ذلك بحث الإخباريون عن روابط وثيقة للغاية قامت بين زعماء قبيلة تميم وقريش (فذكر كسترو أن تميما لعبت دوراً ذا أهمية كبيرة فى العصر الجاهلى ، وكانت تساهم

---

(٧) د . محمد إحسان ، النص **قبيلة إياد** ، ص ٥٥ ، مرجع سابق .

(٨) د . محمد حسين هيكل ، فى **الصديق أبو بكر** ، ص٢٢٨ ، مرجع سابق .

كثيراً فى دعم نفوذ هذه المدينة فى المجتمع القبلى لشبه الجزيرة العربية)(٩) ولم تكن تلك الرابطة تقتصر على المصالح التجارية أو على «الإيلاف» بل تعدتها إلى علاقات اجتماعية تمثلت فى قيام مصاهرات أسرية بين القبيلتين ؛ إذ تزوج قرشيون من تميميات وتزوج تميميون من قرشيات ، وكان ذلك منذ عهد مبكر ، فقد تزوج عبد شمس بن عبد مناف : عبلة بنت عبيد ابن جازل «التميمى» وكان أولاده وأحفاده منها يسمون «العبلات» واستمرت علاقة المصاهرة حتى بعد ظهور الإسلام إذ أصهر عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى عطارد بن حاجب بن زرارة «التميمى» فى ابنته «أسماء» وكذلك فعل على وجعفر - ابنا أبى طالب - ومن الجانب الآخر تزوج حنظلة بن الربيع كاتب النبى محمد (ص) من بنت نوفل بن الحارث بن عبد المطلب (١٠) ونلفت الانتباه أن الإصهار إلى قريش كان لايتم إلا من رؤوس بنى تميم وشيوخهم ، لامن عامتهم كما سبق أن ذكرنا .

علاوة على ذلك كانت هناك تداخلات سياسية بين القبيلتين الكبيرتين ، إذ بخلاف الإيلاف الذى دخلت فيه «تميم» كغيرها ، فإن فريقاً من المتنفذين من قبيلة «تميم» قبلوا كمستشارين يؤخذ رأيهم فى إدارة مكة من الوجهة السياسية ؛ بل إن قريشاً قلدت «تميماً» وظائف على درجة كبيرة من الأهمية من الناحية الدينية ، فقد كانت - وهذا على سبيل المثال - وظيفة «الإفاضة» غداة النحر إلى منى فى يد تميمى هو زيد بن عدوان ، واستمرت فى بنى تميم حتى جاء الإسلام(١١) .

فهذه القبيلة التى كانت المسيحية فيها فاشية توثقت العلاقة بينها وبين

---

(٩) د . عبد الجبار العبيدى ، فى «قبيلة تميم العربية بين الجاهلية والإسلام» ، ص ٣١ ، **الرسالة ٣٧ ، الحولية ٧** ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت .

(١٠) المرجع نفسه ، ص٣٢ .

(١١) المرجع نفسه ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

قريش من نواح عديدة : تجارية واجتماعية ودينية ، وهذا الاتصال الوثيق يجعل المسيحية وتعاليمها قريبة المنال من القرشيين .

وإذ إن تميماً من القبائل التى اتصلت بمصب الفرات وبالخليج الفارسى وكان أبناؤها يتنقلون بين شبه الجزيرة وأرض العراق ، فقد كان ذلك واحداً من أسباب اعتناق كثير منهم النصرانية[١٢] وكان ممن تنصر «سجاح» التى إدعت النبوة فيما بعد ، وهى من بنى يربوع رهط مالك بن نويرة أحد الأسماء التى برزت فيما سمى بـ «حروب الردة» - موقف سجاح تلك وموقف قبيلة تميم من تلك الحروب مع ماقلناه من اعتناق غالبية أبنائها للمسيحية وتنصر سجاح ، كل ذلك يدعونا إلى تكرار مانادينا به من ضرورة تمحيص الباعث الدينى لمثل تلك القبائل فى ضلوعها فى حرب حكومة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى المدينة - وعدم الاكتفاء بالسبب السهل «المجانى» الذى يرجع تلك الحروب إلى سبب وحيد هو امتناع تلك القبائل عن تأدية الزكاة لحكومة المدينة .

ومما يقطع بأن قبيلة «تميم» قد ضربت بسهم وافر فيما سمى بـ «حروب الردة» أن خالد ابن الوليد (لم يدع بنى تميم حتى قضى فى ديارهم على كل نافخ نار للفتنة أو فى رمادها)[١٣] فهذه القسوة البالغة من جانب «سيف الله المسلول» والتى دفعته إلى القضاء على كل «نافخ نار» تقطع بأن مقاومة بنى تميم لجيوش المسلمين كانت شديدة الصلابة ، بالغة العناد ، ونرجح أن سبب ذلك هو انتشار المسيحية فيها ، وهو الذى جعلهم يستميتون فى الدفاع عن عقيدتهم - هذا بالإضافة إلى الأسباب الأخرى التى تند عن مجال بحثنا ويحدد د . محمد حسين هيكل منازل بنى تميم على الوجه الآتى :

---

(١٢) د . محمد حسين هيكل ، فى **الصديق أبو بكر** ، ص ١٢٧ ، مرجع سابق .

(١٣) المرجع نفسه ، ص ١٥٣ .

(تمتد من الشمال الشرقى لبلاد العرب حتى تتاخم خليج فارس فى شرقها وهى تقع كذلك إلى شمال المدينة من الشرق ثم تنحدر حتى الجنوب الشرقى من مكة)(١٤) أى أن القبائل التى انتشرت النصرانية فيها كانت مضاربها قريبة من مكة والمدينة «الحجاز» ثم تمتد حتى التخوم وأن علاقات حميمة وروابط وثيقة انعقدت بينها وبين القرشيين .

ولعل منّ الأدلة التى تقوم على فشوّ النصرانية فى قبيلة بنى تميم (قول طخيم بن الطخماء فى مدحهم :

وإنى وإن كانوا نصارى أحبهم ... ويرتاح قلبى نحوهم ويتوق

ثالثاً : حنيفة

إحدى القبائل التى كانت تدين بالنصرانية وقد اعتنقها وملكها هوذة ابن على «الحنفى» وزاره آركون أسقف دمشق وتباحث معه فى شأن ظهور الدين الجديد «الإسلام» ، وتروى بعض الأخبار أنه بعد أن وعده الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقره على ماتحت يده - فى حالة إسلامه - فإن جماهير بنى حنيفة «النصارى» أبوا عليه ذلك ، وهددوا بخلعه إن فعل .(١٥) ويبالغ «ليال» إذ يقول : «إن بنى حنيفة على بكرة أبيهم كانوا نصارى» ؛ وإذ إن مضاربهم كانت فى اليمامة فى أواسط نجد شمال شرق الجزيرة العربية ، فإن الأمر المؤكد أنه كانت توجد فى تلك الأنحاء أديرة

---

(١٤) د . محمد حسين هيكل ، فى **الصديق أبو بكر** ، ص ١٥٩ ، و د . جواد على ، **المفصل** ، المجلد ٦ ، ص ٥٨٧ ، مرجع سابق .

(١٥) د . إحسان صدقى العمد ، فى «حركة مسيلمة الكذاب» ، ص ٣٢ ، **الحولية العاشرة ، الرسالة الثامنة والخمسون** ، ١٤٠٩/ ١٤١٠هـ - ١٩٨١/ ١٩٨٢م ، حوليات كليات الآداب ، جامعة الكويت .

يسكنها عدد من الرهبان النصارى مما يقطع بوجود مسيحى فى اليمامة ، وما هو جدير بالذكر أن بنى حنيفة كانوا يسكنون منطقة الحجاز وغادروها عقب البسوس فى منتصف القرن السادس الميلادى [١٦] ومعلوم أن مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة كان من بنى حنيفة وكان يقول :(أن له نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً لايعدلون) .[١٧] ودور بنى حنيفة فيما عرف بـ «حروب الردة» مشهور وقد قاتلوا المسلمين قتالاً مريراً حتى إن عكرمة بن أبى جهل رغم جسارته وقرشيته انهزم أمامهم هزيمة منكرة)[١٨] (وجاء النصر على يد خالد بن الوليد رضى الله عنه بعد شدائد وأهوال فى موقعة «حديقة الموت» واستشهاد مئات المسلمين منهم تسعة وثلاثين من كبار الصحابة والقراء «حفظة القرآن») [١٩] .

إن الدفاع المستميت والقتال الشرس من جانب بنى حنيفة للمسلمين فيما عرف بـ «حرب الردة» له أسباب اقتصادية إذ إن «حنيفة» كانت مضاربها فى واحات خصيبة تغل محصولات زراعية متنوعة ، وكان شطر من أبنائها يعملون فى الزراعة وكانت منطقتهم مشهورة بإنتاج القمح «الحنطة» . وأخرى اجتماعية إذ كانت التركيبة الاجتماعية لديهم تختلف عن باقى القبائل لكن بداهة يجيء فى مقدمة تلك الأسباب : السبب العقائدى ونعنى به إيمان غالبية أبناء تلك القبيلة بالمسيحية–وهذا ينطبق بدوره على سائر القبائل التى اعتنقت هذه الديانة ، وخاصة القبائل الثلاث التى ذكرناها فى هذا الفصل .

---

(١٦) المرجع نفسه ، «حركة مسيلمة الكذاب» ، ص ٢٨ .

(١٧) د . محمد حسين هيكل ، فى **الصديق أبو بكر** ، ص ٧٥ ، مرجع سابق .

(١٨) المرجع نفسه ، ص ١٤٤ .

(١٩) المرجع نفسه ، ص ١٩ .

ويرى برهان الدين دلّو أن المسيحية (تسربت إلى اليمامة وهي إحدى الواحات الشهيرة بتقدم زراعتها ورقي صناعتها وتحضر سكانها وكان معظم أهل اليمامة قبيل الإسلام من بني حنيفة الذين اعتنق بعضهم المسيحية)[٢٠] .

(٢٠) برهان الدين دلّو ، في **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الثاني ، ص٢٢٥ ، مرجع سابق .

٤

الصابئـــه

أولا : الصابئون

فرقة دينيه قديمه - سوف نرى فيما بعد لها فرعين - ذات معتقدات يشوبها قدر من الغموض والتعقيد . أما عن قدمها : فيزعم بعض أتباعها أنهم يعتنقون ملة النبى نوح عليه السلام بل وتعاليم النبى أدريس عليه السلام وغيرهم يرى أن اسمهم يرجع إلى اسم صابىء بن لامك أخى نوح .

ولسنا بصدد التأريخ لها أو شرح عقائدها إلا بالقدر الذى يتصل بجوهر كتابنا ونعنى به تبين العوامل الفاعلة فى التوحيد الذى ساهم فى تحول قريش من قبيلة هامشية تسكن جبال مكة وأطرافها إلى دولة مركزية تحكم الجزيرة العربية كلها ثم الإمبراطورية الواسعة التى عرفها التاريخ .

* * *

احتدم الاختلاف للغاية بين اللغويين والباحثين والمؤرخين والمفسرين الدارسين فى حقل الملل والنحل والفرق سواء بين الإسلاميين والإسلاميين أو بين الإسلاميين والغربيين حول الصابئة أو الصابئين حتى

هذين الإسمين لم يفلتا من الختلاف ، فالبعض يرى أنهما يدلآن على مسمى واحد وأنه لا فرق بين الصابئة والصابئين ، والبعض الآخر يذهب إلى أنهما متمايزان وأن الصابئة فرقة والصابئين فرقه أخرى .

والاختلاف بدأ مبكرا بخصوص أصل الاسم أو جذره أو مأخذه فهناك من يرى أن « صبأ » معناه ظهر وطلع كما تطلع النجوم أو تظهر .[1]

ومنهم من يذهب إلى أن « صبأ » يصبو : إذا نزع واشتاق أو فعل فعل الصبيان أو صبا إذا عشق »[2] .

فهنا نرى أن جذر الكلمة « صبأ » قد تراوح ما بين :

- طلع أو ظهر
- نزع أو اشتاق
- فعل فعل الصبيان
- عشق

ولكنها جميعا تدل على : الظهور والبزوغ والتحول من حال إلى حال .

هناك شبه اجماع بين البُحاث العرب المسلمين على أن معنى صبأ الرجل : خرج من دينه الذى هو عليه إلى دين آخر [3] .

ومن هنا كان يقال عن النبى محمد (ص) « الصابىء » هكذا كانت

---

(١) **تاج العروس من جواهر القاموس** ، الزبيدى ، و **القاموس المحيط** ، الفيروز آبادى ، و**المعجم الوسيط** ، مجمع اللغة العربية .

(٢) **معجم القرآن الكريم** ، إعداد مجمع اللغة العربية نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير** ، فخر الدين الرازى عند تفسيره للآية / ٦٢ من سورة البقرة ، و **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** ، نظام الدين النيسابورى عند تفسيره للآيه نفسها ،و **تاج العروس** ، مصدر سابق ، و **مرجع ألفاظ القرآن الكريم** ، مرجع سابق ، و**المعجم الوسيط** ، مرجع سابق .

تسمية العرب وقريش[٤] وهذه المصادر الثلاثة التى أوردناها على سبيل المثال تعلل ذلك بقولها :

إن النبى عليه الصلاة والسلام ترك دين قبيلته قريش إلى دين الإسلام فهو قد صبأ .

وهو تعليل جرى عليه السلف ولكن ليس هناك ما يمنع عقلا أن يكون هناك تعليل أخير .

* * *

أما عن الدارسين الغربيين فهم أيضا طالهم الاختلاف حول جذر الكلمة أو مأخذها وأتى كل واحد منهم بتفسير فمنهم من يرجع كلمة (صبأ) إلى الكلمه العبرية (صبغ) أى غمس أو غطس أو أغمد . . . وبذلك يكونون هم « المعمدون) الذين يباشرون طقس (التعميد) بواسطة الغطس[٥] .

وهنا نورد معلومة قد تلقى مزيداً من الضوء على الرأى الذى يذهب إلى أن معتقدات الصابئة ترجع فى الأصل إلى مصر القديمة ، فالتعميد بالغطس كان طقسا مصريا قديما فى بعض الأقاليم إذ كان المولود فى الأسبوع الأول من ولادته يعمد ب (تغطيسه) فى نهر النيل المقدس أو حابى وما زالت هذه العادة أو هذا الطقس ساريا فى بعض قرى بلاد النوبة فى محافظة أسوان إذ تقوم النسوان فيها بممارسة هذا الطقس مع مواليدهن .



أما الفريق الآخر من الدارسين الغربيين فهو يذهب إلى أن كلمة

(٤) **غرائب القرآن** ، مصدر سابق ، **التفسير الكبير** ، مصدر سابق ، **وتاج العروس** ، مصدر سابق .

(٥) مادة *First Encyclopedia of Islam*, 1913 - 1936, IL Sabia

(صابئة) ربما تكون مشتقة من الكلمة المصرية القديمة (سب) التى تعنى (الحكمة) و (النجوم) وربما تكون هذه الكلمة المصرية هى أصل الكلمة اليونانية (سوفيا) أو (الحكمة) وربما أيضًا ولكن بقدر مشكوك فيه تكون هى أصل كلمة (الصوفية) .[٦]

ولسنا فى حاجة لأن نذّكر أن هذا التفسير يؤيد المذهب الذى يرجع معتقدات الصابئة إلى مصر القديمة وسوف نرى فيما بعد أن النبى ادريس عليه السلام يرجّح البعض أن ولادته كانت فى مصر أو على الأقل إقامته فيها ردحا من عمره ، وسبق أن قلنا إن بعض الصابئين يزعمون أنهم على دين ادريس عليه السلام ولو أن البُحّاث الإسلاميين يكذبونهم فى ذلك .

* * *

وإذا كان هذا هو قدر الاختلاف حول مأخذ كلمة الصابئة سواء فيما بين الإسلاميين أو بين الغربيين (الفرنجه) فإن الاختلاف حول أصل عقائد الصابئين أشد :

(الصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام) [٧] وهم قوم . . . يزعمون أنهم على ملة نوح) [٨] وأيضا (. . . . يزعمون) أنهم على دين نوح عليه السلام بكذبهم وفى التهذيب عن الليث كذلك أما فى الروض فهم منسوبون إلى (صابىء بن لامك أخى نوح عليه السلام)[٩] .

ولقد لفت نظرى بشدة وأنا أبحث وأنقب حول الصابئة ما ذكره

---

(٦) مادة *The Concise of Encyclopedia of Islam*, 1989 Sobiano

(٧) **القاموس المحيط** ، الفيروز آبادى ، مصدر سابق .

(٨) **المعجم الوسيط** ، مرجع سابق .

(٩) **تاج العروس** ، الزبيدى ، مصدر سابق .

الطبرى فى تفسيره [١٠] «جامع البيان عن تأويل آى القرآن أو تفسير الطبرى» حققه وراجعه الإخوان محمود وأحمد محمد شاكر - المجلد الثانى – ص ١٤٧ – الطبعة الثانية ١٩٦٩ م – دار المعارف بمصر . ومن المفسرين من اقتصر على بيان دين الصابئة بقوله :

(هم قوم عدلوا عن دين اليهودية أو النصرانية وعبدوا الملائكة) [١١]

وللإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان رأى جرىء فى خصوصية عبادة الصابئة للكواكب لا يسعنا إلا إيراده : [أما الصابئات فقد قال أبو حنيفة يجوز للمسلم أن يتزوج بهن وقال أبو يوسف ومحمد (الصاحبان) لا يجوز وسبب هذا الخلاف أن أبا حنيفة يرى أنهم قوم يؤمنون بكتاب ويقرون بنبى ولا يعبدون الكواكب بل يعظمونها كتعظيم المسلمين الكعبة فى أنهم يستقبلونها عند صلاتهم وهذا لا يمنع التزاوج من نسائهم] [١٢]

ومعلوم أن أبا حنيفة عاش فى العراق حيث كانت هناك فرقة من الصابئة فرأيه إذن على قدر من الأهمية لأنه نفى عنهم عبادة الكواكب وأكد أنهم يعظمونها وقارن بين تعظيمها للكواكب وتعظيم المسلمين الكعبة وهى لفتة ذكية ولا غرو فقد اشتهر شيخ الأحناف بالذكاء وسرعة البديهة .

---

(١٠) أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله « تعالى » : (والصابئين) قال : الصائبون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون : لا إله إلا الله وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى إلا قول لا إله إلا الله .

(١١) الزمخشرى ، فى **الكشاف** ، الجزء الأول عند تفسير آية البقرة التى ورد بها ذكر الصابئين .

(١٢) **أحكام الزواج والطلاق فى الإسلام** ، للشيخ بدران أبو العنين بدران ، كلية حقوق القاهرة ، ص ٩٩ ، الطبعة الثانية ١٩٦١ ، مطبعة دار التأليف بمصر ، وكذلك كتاب **الأحكام الإسلامية فى الأحوال الشخصية** ، للشيخ محمد ذكريا البرديسى ، أستاذ الشريعه الإسلامية بكلية حقوق القاهره ، ص ١٦٧ – ١٦٨ ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦ / ١٩٦٧ ، الناشر دار النهضة العربية بمصر .

وسوف نتناول فيما بعد حكم الفقه فى الصابئة ولكننا استبقنا ذلك لأن رأى الإمام الأعظم يدخل فى تقييم عقيدة الصابئة .

أما الطبرى فيورد فى تفسيره : [كما نقل : أنهم فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور] (١٣) وعن [مجاهد والحسن : هم طائفة من اليهود والمجوس لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ، وعن قتادة : قوم يعبدون الملائكة ويصلون للشمس كل يوم خمس مرات .

وقيل وهو الأقرب أنهم قوم يعبدون الكواكب . . . وينسب هذا المذهب إلى الكلدانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام] (١٤)

أما قول مجاهد والحسن أنهم طائفة من اليهود والمجوس فيشوبه الغموض فهل هؤلاء (الصابئة) كانوا فى الأصل يهودا ثم صبأوا ومجوسا ثم صبأوا وما أهمية ذكر الدين السابق إذا العبرة أنهم فى نهاية المطاف تحولوا إلى صابئة . أما أنهم كانوا مجوسا ثم تهودوا ثم صبأوا !!!

والمعلومة التى ذكرها قتادة أنهم يصلون كل يوم خمس مرات للشمس فهى على درجة كبيرة من الأهمية ويكاد يكون قتادة قد انفرد بها .

أما تعليله أن هذه الصلوات الخمس هى للشمس فنحن لا نوافق عليه خاصة وإن قبلتهم لم تكن نحو الشمس كما سنذكر فيما بعد .

ونذهب إلى أن علة ذلك ترجع إلى أن الصابئة كانوا يعبدون الكواكب أو يعظمونها وإذ أن الكواكب السيارات هى خمس : المشترى والزهره وزحل وعطارد والمريخ فيغدو المجموع خمس صلوات لأنهم يتوجهون لكل واحد منهم بصلاة .

---

(١٣) تفسير الطبرى عند تفسيره لآية سورة البقرة السابق ذكرها - نقلا عن **معجم ألفاظ القرآن الكريم** ، مرجع سابق .

(١٤) **غرائب القرآن** ، النيسابورى عند تفسيره الآية / ٦٢ من سورة البقرة ، مصدر سابق .

وهناك من يؤكد أنهم ينتهون بعقائدهم إلى غاذيمون وهو شيث بن آدم وهرمس وهو أدريس النبى عليه السلام وقالت فرقة منهم أن أدريس وهو هرمس ولد ب (منف) وسموه هرمس الهرامسة أو مثلث الحكمة وباليونانية آرمسيس أى عطارد وعند العبرانيين أخنوخ وقالت فرقة أخرى أن إدريس أو هرمس أو أخنوخ ولد ببابل وانتقل إلى مصر وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم وأن الله أفهمه سر الفلك وعدد السنين والحساب وأنه أول من نظر فى الطب وتكلم فيه (١٥)

ولا شك أن مصحح كتاب (الملل) قد نقل ذلك من كتب التفاسير (تفاسير القرآن) التى نقلت بدورها بشأن إدريس كثيرا من الأساطير التى وردت فى (التوراة) بشأن (أخنوخ) فى حين أن المسلم يلتزم فى شأنه بما ورد فى القرآن الكريم أما الأساطير التى تعج بها التوراة فهو فى غنى عنها(١٦) .

وبعيدا عن الأساطير فإن تأثر الصابئة بأحد أسلافهم سواء أكان اسمه أدريس أو أخنوخ أو هرمس عاش فى مصر وتعلم من كهنتها الحكمة والطب . وسر الفلك أمر يقوم شاهدا على احتواء عقائد الصابئة على وشائج حميمة بالكواكب بلغت درجة العبادة (أو التعظيم) وعلم القدماء المصريين فى الفلك والطب لا يمارى فيه أحد وقد استطردنا قليلا فى هذه الجزئية للتأكيد على أن من يذهب إلى أن عقائد الصابئة تؤوب فى مصادرها الأولى إلى مصر القديمة لم يخطىء .

***

---

(١٥) هامش صفحة ١٠٩ من الجزء الثانى من كتاب **الملل والنحل** ، للشهرستانى وهو «التعليق» ، بقلم الشيخ أحمد فهمى محمد المحامى الشرعى الذى صحح «الملل» وعلق عليه .

(١٦) أنظر تعليق أ . محمد فريد وجدى على مادة أدريس التى وردت فى دائرة المعارف الإسلامية ، ص ٤٨٤ – ٤٨٥ من المجلد الثانى **دائرة المعارف الإسلامية** ، إعداد وتحرير إبراهيم زكى خورشيد وآخرين ، الطبعة الأولى ١٩٦٩ ، دار الشعب بمصر .

وتوسع الشهرستانى - ربما بعكس غيره - من الإسلاميين الذين تكلموا فى (الملل والنحل) فى شرح عقائد الصابئه فقال أنهم يقفون فى مقابل الحنيفية وأنهم يقرون بأن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن الحدوث ويعجز البشر عن الوصول إليه وإنما يكون التقرب إليه بالوساطات المقربين وهم (الروحانيون) المقدسون ومنهم شيث بن آدم وإدريس .

وأن أحوال هؤلاء الروحانيين من الروح والريحان . . . إلخ ومنهم الساجد والراكع والقائم والساكن والمتحرك ومنهم كروبيون فى عالم القبض وروحانيون فى عالم البسط وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون [١٧] .

ولعل وصف هؤلاء الروحانيين يذكّر بأوصاف الملائكة فى الإسلام (والملائكة الكروبيون أقرب الملائكه إلى حملة العرش ، وقال أبو العاليه : الكروبيون سادة الملائكة منهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وهم المقربون[١٨] .

بل كان العرب قبل الإسلام الجاهلية يعرفون الملائكة الكروبيين يقول أمية بن أبى الصلت : ملائكة لا يفترون عبادة . . كروبية منهم ركوع وسجد [١٩] وسنذكر فيما بعد أن من تأثير الصابئة فى عملية التوحيد تجذير عملية الوساطة ولكن حلّ الملائكة عند عرب ما قبل البعثة المحمدية محل الروحانيين وتهيئة الأذهان لقبول الأوصاف الروحية التقديسية للملائكة . . . . وكيف أن عقيدة الوساطة تحولت فيما بعد إلى الشفاعة

---

(١٧) **الملل والنحل** ، الشهرستانى ، ت ٥٤٨ هـ ، صححه وعلق عليه الأستاذ الشيخ أحمد فهمى محمد المحامى الشرعى ، ص ١٠٨ وما بعدها ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م ، نشرته مكتبة الحسين التجارية بمصر .

(١٨) هامش ص ١١٦ من المصدر نفسه .

(١٩) المرجع السابق نفسه .

(من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) الآية / ٣٥٥ من سورة البقرة .

أما عن طقوسهم العبادية :-

فكما ذكرنا أنهم يصلون خمس صلوات فى رأي قتادة وثلاث فى رأى غيره - وقد رجحنا رأى قتاده وإن لم نأخذ بتعليله وطرحنا التعليل الأصح حسب اجتهادنا .

أما قبلتهم فى صلاتهم (نحو مهب الجنوب) [٢٠] وفى الصحاح : قبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار .

وفى التهذيب : أن قبلتهم نحو مهب الجنوب .

المصدر نفسه : وقبلتهم مهب الشمال عند منتصف النهار .[٢١] ومن مسلكهم :-

التضرع والابتهال بالدعوات وإقامة الصلوات وكذلك الزكوات والصيام عن المطعومات والمشروبات وتقريب القرابين والذبائح يضاف إلى ذلك أنهم عرفوا الوضوء فقد (كانوا يطهرون أنفسهم بالوضوء عند الاتصال الجنسى وأنهم كانوا يحرمون لحوم الخنازير والكلاب والطيور ذات المخالب . . . وأنهم كانوا يبيحون الطلاق أو يجيزونه) [٢٢]

وهذه الفروض العبادية قد تسربت فيما بعد إلى الأديان الأخرى ، ولعل فريضة الصيام هى أشدها لفتاً للانتباه لأنها امتناع عن المطعومات والمشروبات فى حين أنها فى اليهوديه والمسيحيه امتناع عن أنواع مخصوصة من الطعام فى أوقات معينة .

وسبق أن تكلمنا عن شعيرة التعميد « بالغطس أو الغمس فى الماء وفى

---

(٢٠) **تاج العروس** ، الزبيدى ، مصدر سابق .

(٢١) **المعجم الوسيط** ، مصدر سابق .

(٢٢) *First Encyclopedia of Islam*

رأينا أنه طقس من طقوس الانتقال أكثر مما هو طقس عبادى أو شعائرى .(٢٣)

وليس ثمة ما يمنع أن يوحنا المعمدان تلقفه منهم وعنه أخذته المسيحية - مع تغيير فى الأداء - ونذكر بما قلناه أنه فى الأساس مأخوذ من مصر القديمة .

***

ولعل طقس التعميد هذا هو الذى حسم الفرق بين الفرقة التى تدخل فى زمرة أهل الكتاب وتسمى الصباة أو الصابئة وهم المانديون رائيون وهى فرقة يهوديه مسيحية تمارس طقس التعميد وموطنها أو مقرها فيما بين النهرين .

أما الصابئون فهم الحرانيون نسبة إلى حرّان وهم وثنيون وهم الذين عاشوا شطراً من الزمن تحت ظل الإسلام (٢٤) .

وهم متأثرون بالثقافة الهللينية وإليهم ينسب عدد من المدرسيين المشهورين فى الثقافة الإسلامية مثل ثابت بن قره وجابر بن حيان (٢٥) .

ولا يعنينا ما تقوله المصادر الغربية فى شأن معاملة حكام المسلمين للصابئين أو الصباة التى تتراوح بين الرعاية والاضطهاد لأنها تند عن موضوع درسناه

ولقد ذكر ابن النديم هؤلاء الحرانيين باسم (الحرنانية الكلدانيين المعروفين ب الصابئة) وأورد طرفا من عبادتهم وطقوسهم العبادية فقال

---

(٢٣) **معجم العلوم الاجتماعية** ، أشرف على تحريره د . إبراهيم مدكور ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ، الهيئة العامة المصرية للكتاب .

(٢٤) *First Encyclopedia of Islam*

(٢٥) *The con cise of Encyclopedia of Islam*

(المفتـرض عليـهم من صلاة فـى كل يوم ثلاثة . . . لموضع الأوتاد الثـلاثة التى هى : وتد المشرق ووتد السماء ووتد المغرب - فى صلاتهم ركـعات وسـجدات . وفى صلواتهم : فـروض ونوافل . ولا صـلاة لهم إلا على طهور . والمفتـرض عليهم من الصيام ثـلاثون يوما ولهـم أعياد منهـا : عيد يسـمى (فطر السبـعـه) و (فطر الشـهـر) و (عـيـد الميلاد) وهو فـى ثلاثة وعشرين من كانون .

ولهم قربان (=ضـحية) يتقربون به وإنما يذبحون لـلكواكب ويذبحون للقـربان (الأضحـية) : الذكـور منهم المعز والضان وسـائر ذوات الأربع مما ليس له أسنان فى اللحيين جميعا ومن الطير : غير الحـمام ، مما لا مخلب له . والذبـيحـة عـندهم مع قطـع الأوداج والحلقـوم والتـذكـيـه مـتـصلة بالذبيحه لا انفصال بينهـما . ولا ذبيحة إلا لما له رئة ودم . وقد نهـوا عن أكل الجزور وما لم يذك وكل مـا له أسنان فى اللحيين جـميعا : كـالخنزير والكلب والحـمـار . ومن الطير غير الحـمام ومـا له مـخلب . ومن النبات غير الباقلى والثـوم ويتركون الاختتان . ويتزوجـون بشهود ، لا من قريب القرابة - ولا طلاق إلا بحـجة بينة عن فاحـشة ظاهرة ولا يراجع المطلق ولا يجمع بين إمراتين ولا يطأ إلا لطلـب الولد . وفى الميراث : فـريضة الذكـر مثل الأنثى [٢٦] .

ولسنا فى حـاجة إلـى القول بأن كـثيرا من هذه الطقـوس والشـعائر قـد انتقلت إما بحذافيرها أو ببعض التعديل لغيرها من الأديان .

ولكن يظل سؤال وهو :

هذه الطقوس والشـعائر كانت سـائدة لدى الحـرانيين الصـابئة فـى وقت كتابة ابن النديم للفهرست أى فى القرن الرابع الهـجرى ؟ فهل هى نفسها

(٢٦) **الفهرست** ، لابن النديم ، د . ت . ن ، الناشر دار المعرفة ، بيروت .

التى كانت موجودة لدى الصابئة أو الصابئين وقت أن كانت قريش تعمل على السيطرة على مقدرات الجزيرة العربية ؟ ؟

إننى من ناحيتى أرجح ذلك لأن الطقوس والشعائر من سماتها الرئيسية الدوام والاستمرار وترثها الأجيال بعضها عن بعض كما هى .

وقد ذكر القرآن الكريم الصابئين فى ثلاثة مواضع :

الآية ٦٢ / من سورة البقرة

الآية ٦٩ / من سورة المائدة

الآية ١٧ / من سورة الحج .

وفى المرات الثلاث قرنهم باليهود والنصارى ، وهناك ملحظ لا يخفى على المتأمل الذى يقرأ بعين مفتوحة وعقل يقظ وهى أنه فى آيتى المائدة والحج قدم الصابئين على النصارى وهما تاليتان فى المصحف لسورة البقرة فهل هذا مرجعه إلى تقييم أو وزن العقائد فى كلتا الديانتين أم مرده لمدى الانفتاح على كل منهما . وسبق أن ذكرنا أن الصابئين يصلون خمس صلوات فى اليوم وأن صيامهم كف عن تناول المطعومات والمشروبات وأنه لمدة ثلاثين يوماً وأنهم يتوضأون ويتضرعون ويقدمون الأضاحى ويؤدون الزكاة ويحرمون الخنزير ويجيزون الطلاق . . . إلخ فهل كان لذلك كله أثر فى تقديم ذكر الصابئين على النصارى فى السورتين التاليتين (فى ترتيب المصحف) لسورة البقرة . . . ومن نافلة القول أن نذكر أن ما يجيء فى الذكر الحكيم محسوب بدقة بالغة وبعناية شديدة فلا يقال أن تقديم الصابئة على النصارى فى السورتين المتأخرتين قد جاء اعتباطا -

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولكن ما هى الفرقة التى جاء ذكرها فى القرآن العظيم فى السور الثلاث التى أوردناها ؟

الباحثون الإسلاميون لم يقدموا إجابة مباشرة عن هذا السؤل - ولكن يمكن الاهتداء إليها من خلال ما كتبوه أى ما بين السطور :

فعندما يرى أكثر الفقهاء أن الصابئة كـ حكم النصارى فى الذبيحه والنكاح والجزية (٢٧) فإن مفاد ذلك أن القرآن الكريم قد عنى الفرقه التى ترى أن الخالق صانع حكيم منزه عن الحوادث تؤمن بحدوث العالم حتى وإن وقع خلاف معها فى صفات الصانع وإن عظمت الكواكب لأن هذا التعظيم لا يبلغ رتبة العبادة وشأنه شأن تعظيم المسلمين الكعبة فلم يقل أحدهم أنهم يعبدونها ومن غير المعقول أن يكون القرآن قد قصد الفرقة الوثنية التى تعبد الكواكب .

وقد اختلف شيخ الأحناف أبو حنيفه مع تلميذيه الآثيرين أبى سيف ومحمد الصاحبين فى شأن الصابئين فالإمام الأعظم ذهب إلى حلّيّة نكاح نسوانهم أى معاملتهم معاملة أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين فى حين أن الصاحبين يحرمان على المسلمين التزوج من الصابئات . . . . إلخ .

ومرد الخلاف هو تفسير موقف الصابئة من مسألة الألوهيه فإن كانوا يعترفون بالصانع المبدع فيعاملون كـ اليهود والنصارى أما إذا كانوا يعبدون الكواكب فيعاملون معاملة المشركين .

وذهب رأس الحنيفيه إلى أبعد من هذا فقد قال إنهم يؤمنون بكتاب ويقرون بنبى (٢٨) ونحن نميل إلى ترجيح رأى الإمام الأعظم ودليلنا على ذلك أن القرآن المجيد فى الآيات الثلاث قرن الصابئين باليهود والنصارى

---

(٢٧) كتاب **الفرق بين الفرق وبيان الفرقه الناجية منهم** ، أبى منصور عبد الله البغدادى المتوفى ٤٢٩ هـ ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، ص ٢١٥ ، (د . ت . ن .) مؤسسة الحلبى بمصر .

(٢٨) **أحكام الزواج والطلاق فى الأسلام** ، للشيخ بدران ، و **الأحكام الإسلامية فى الأحوال الشخصية** ، للشيخ البرديسى ، مرجعان سبق ذكرهما .

بل إنه فى آيتى المائدة والحج قدم الصابئين على النصارى كما ذكرنا ويستحيل عقلا أن يفعل ذلك لو كانوا وثنيين ولا يؤمنون بالصانع المبدع ومعلوم أن الخلاف أو الاختلاف على صفاته ليس انكارا له . ولسنا فى حاجة إلى التذكير بالخلاف على صفات البارى بين فرق أهل الكلام فى الإسلام .

ومن هنا نرى أن ما يذهب إليه الدارسون الغربيون (الفرنجة) من أن موقف القرآن الكريم من الصابئة غير معروف لا يتسم بالنظرة المتأنية إنما أطلق على وجه العجلة (وعلى كل فمن غير المعروف من هم الصابئة الذين ورد ذكرهم فى القرآن ، والحقيقة المؤكدة أن عدة طوائف انتسبت إلى الاسم ومن ثم فإن من المستحيل تعيين ما عناه القرآن منهم على وجه الدقة) (٢٩) .

ولو أمعن الدارس النظر فى الآيات الثلاث التى جاء بها ذكر (الصابئين) وخاصة فى السياق الذى شمل هؤلاء والنظم الذى سلكهم لاستبان له كنه فريق الصابئة الذى عناه القرآن - هذا بالإضافة إلى منهج القرآن ذاته يحيل عقلا تمجيد المشركين وحشرهم فى زمرة المؤمنين بل وتفضيلهم على بعض أهل الكتاب .

ولكن دارسا عربيا إسلاميا له وزنه توقف عند الصابئة الذين ذكرهن القرآن ولم يقطع فيهم برأى كما فعل الباحثون الغربيون أو الفرنجة (ولكن الذى يفهم من القرآن الكريم أن الصابئة جماعة كانت على دين خاص وأنها طائفة مثل اليهود والنصارى أى أن الكلمة مصطلح ولها مدلول معين) (٣٠) .

---

(٢٩) *The concise of Encyclopedia of Islam*

٣٠) **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، د . جواد على ، الجزء السادس ، ص ٧٠٢ ، الطبعة الثانية ، يناير ١٩٧٨ ، دار العلم للملايين بيروت ، ومكتب النهضة بغداد .

وكنا نود لو أنه أفصح عن رأيه وحدد الفرقة الصابئة التى ذكرها القرآن ويشرح لنا مدلول المصطلح ! ثم يعيب على المفسرين أن تعريفهم للصابئة أو تقييد لهم [إنما تكوّن عندهم فى الإسلام ويعدوقوفهم على أحوال الصابئة واتصالهم بهم] (٣١) .

ولا ندرى كيف كان يتأتى للمفسرين معرفة الصابئة وفرزهم وتصنيفهم دون الاتصال بهم ثم الوقوف على أحوالهم !

* * *

وأهمية تحديد الفرقة الواردة فى القرآن يساعد على معرفة مدى تأثيرها فى دفع عجلة التوحيد إلى الأمام ، ولا يقتصر ذلك على البصمات التى تركتها تعاليم ومناسك الصابئة على غيرها فحسب بل قبل ذلك الدور الذى لعبته الصابئة كبوتقة ساعدت على صهر مختلف العقائد التى تؤمن بالإله فى نهاية المطاف ولو كانت طريقة الوصول إليه تتم عبر بوابة (الروحانيين) أو (الملائكه) أو (الشفعاء) أو « عزير) أو يسوع) . . إلخ فما دمت تؤمن بالصانع فأنت تدخل فى زمرة المؤمنين حتى ولو كنت ترى أنه لا يتوصل إليه إلا بوسيلة الشفعاء . . . . إلخ فهذا التسامح كان عاملا فعالا فى التأليف والتوحيد وهذا ما لاحظه أحد البحاث الفرنجة (الغربيين) [إن تصورات (مفاهيم) الصابئة أو أفكارهم مفتوحة الباب للتسامح مع أى دين يتبين بطريقة صحيحة أنه يؤدى إلى عبادة الله](٣٢) .

وإذا كان دور اليهودية والمسيحية تمثل فى إثراء الخطاب الدينى لدى عرب ما قبل الإسلام والتعريف بمفردات ومصطلحات كانت مجهولة لديهم وفى غرس فكرة النبى المنتظر فى وجدانهم قبل عقولهم - فإن دور الصابئة تمثل فى تصوير التوحيد كمعنى شامل لا يتقيد بألفاظ أو تراكيب

---

(٣١) **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، المرجع السابق ص ٧٠٢ .

(٣٢) *The concise Book of Encyclopedia of Islam*

أو صيغ ضيقة فما دام القصد هو الإيمان بالصانع المبدع فإن الوسائط تغدو ثانوية وهو ما يساعد على لم الشمل الذى كان خطوة واسعة فى طريق التوحيد .

***

وفكرة الشفاعة عن طريق الملائكة أو غيرها كانت شائعة لدى عرب ما قبل ظهور الإسلام ، فقبولها منهم - كما ترى ذلك الصابئة توَّلف قلوبهم ولا تنفرهم فالصابئة لم تنظر إليها على أنها شرك بالله أو أن هؤلاء الشافعين أو الشفعاء شركاء له فى ملكه - بل كانت تركز نظرتها على الهدف وهو عبادة الصانع المبدع .

وإذا كان الإسلام قد رفض تلك الفكرة وعدها شركاً ونسبة بنات إلى الله . . . إلخ فلا يعنى ذلك أن تلك النظرة التسامحية لم تؤد دورها فى التماسك والتقارب والامتزاج .

وكان منطلق الإسلام فى الرفض هو التوحيد الخالص أى من منظور دينى - فى حين أن قريشاً كانت بارعة فى استخدام جميع العوامل الموصلة للتوحيد الذى كانت قناعتها به كاملة لتحقيق حلمها وهو السيطرة على الجزيرة العربية تحت سلطانها هى دون غيرها من القبائل .

***

وأخيراً يبقى سؤال أخرناه عمداً وهو : ما الدليل على وجود الصابئين فى مكة أو منطقة الحجاز وقت أن كانت قريش تخطو خطواتها الواثقة نحو حكم شبه الجزيرة العربية ؟

ويأتى على رأس الإجابة عنه : ذكر الصابئين فى القرآن ثلاث مرات فلولا أنهم كان لهم حضور فى تلك المنطقة لما ذكرهم .

وإلا فلماذا لم يذكر القرآن العظيم : الديانه الفيدية أو الديانه البرهمية أو الديانهة الجينية أو الديانة البوذية وهى لا تقل عراقة عن ديانات الصابئة

وتتفوق عليها فى كثير من النواحى وخاصة الروحية والخلقية .

إنه لم يذكرها لأنها لم تكن معروفة فى بلاد العرب وقت ظهور الإسلام .

إذن باختصار ذكر الصابئة فى القرآن المجيد دليل لا يقبل النقض على وجودها فى بلاد العرب عامة والحجاز خاصة .

ولقد رجح بل أكد كثير من الباحثين وجود « الصابئة » هناك .

وإنهم كانوا يمثلون حضوراً ملموساً وقت أن أعلن محمد (صلى الله عليه وسلم » دعوته :

١ - (ولا استبعد أن يكون من سكان مكه أناس كانوا من الصابئة ، جاءوا إليها تجارا من العراق أو جاء بهم الحظ إليها حيث أوقعهم فى سوق النخاسه فاشتراهم تجار مكه وجاءوا بهم إلى مدينتهم وعرفوا منهم أنهم صابئة) [٣٣] .

٢ - (والوثنيون على اختلاف أربابهم واليهود والنصارى والصابئون كان يمكنهم زيارتها (أى الكعبة أو بيت الله) والتعبد فيها . . . . .[٣٤]

وعندما يتناول شعيرة الحج يقول :

[إن الذين كانوا يشهدون موسم الحج لم يكونوا قاصرين على أهل منطقة مكة أو القطر الحجازى بل منهم من يأتى من اليمن ونجد ومشارف الشام ومشارف العراق كما كان منهم إلى جانب المشركين الحنفاء والصابئة والنصارى واليهود] [٣٥] .

٣ - [. . . والذى يفهم من القرآن الكريم أن الصابئة جماعة لهم

---

(٣٣) د . جواد على ، مرجع سابق ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** .

(٣٤) أحمد إبراهيم الشريف ، ص ١٨١ (ت . ن .) ، دار الفكر العربى ، مصر ، مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

دين خاص كاليهود والنصارى ومن والأرجح وجودهم في أرض العرب وفى أرض الحجاز خاصة . . .] (٣٦) .

٤ - [وكان فى بلاد العرب وفى البلاد التى تجاورها صابئة ومجوس يعبدون النار] (٣٧) .

٥ - وهناك باحث آخر يرجع بوجودهم إلى زمن سحيق نسجت حوله بعض المسطورات ألتى لا زالت تؤمن بها وتتعبدها بعض الأمم وهو زمن إبراهيم وإسماعيل وأمه هاجر [ويطرح افتراضا هو أن المذهب الصابىء قد استقل بمضمونه الفكرى منذ رحلة إبراهيم] (٣٨) .

وسواء صح هذا الافتراض أو لم يصح فإن الذى لا مرية فيه أن الصابئة كانت هناك عندما طفقت قريش تشد الرحال فى طريقها إلى السيطرة على مقدرات جزيرة العرب وأنهم لعبوا دوراً له وزنه فى دفع عجلة التوحيد الذى كان المطية التى ركبتها قريش وهى تيمم شطر هدفها المنشود أو بتعبير آخر نحو مشروعها الذى وضع أساسه قُصّى والذى أتم تشييده حفيده محمد بن عبد الله عليه السلام .

* * *

(٣٦) **أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضارى والاجتماعى** ، ص ٣٣٣ ، الأب جرجس داوود ، الطبعه الثانية ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

(٣٧) محمد حسين هيكل ، ص ١٦٦ ، الطبعة الحادية عشره ، دار المعارف بمصر ، حياة محمد .

(٣٨) **فى الفكر الدينى الجاهلى** ، ص ١٣١ ، د . محمد إبراهيم الفيومى ، طبعه ١٩٨٣ م ، دار المعارف بمصر .

٥

الحنيفـــية

ظهر فى الجزيرة العربية تيار دينى متميز هو «الحنيفية» وقد أطلق على معتنقيه الحنفاء و(الحنف هو الميل عن الضلال إلى الاستقامة وتحنف فلان أى تحرى طريق الاستقامة وسمّت العرب كل من حج أو اختتن حنيفاً تنبيهاً أنه على دين إبراهيم عليه السلام)(١) .

لفظة «حنف» عرفتها اللغات التى كانت سائدة فى تلك المنطقة آنذاك (وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن اللفظة من أصل عبرانى هو «تحنيوث» أو من «حنف» ومعناها «التحنث» فى العربية والسريان يطلقون لفظة «حنفية» على «الصابئة» وقد وردت لفظة «حنف» فى النصوص العربية الجنوبية بمعنى «صبأ» أى مال وتأثر بشيئ ما . . فاللفظة إذن من الألفاظ المعروفة أيضاً عند العرب الجنوبيين)(٢) ، كما تحدث

---

(١) أبو القاسم حسين بن محمد المعروف بـ الراغب الأصفهانى ، **المفردات فى غريب القرآن** ، تحقيق محمد سيد كيلانى « مادة حنف » ، طبعة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١م ، شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

(٢) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء السادس ، ص ٥٤٣ ، مرجع سابق .

القرآن الكريم عن «الحنفاء» (وقد وردت لفظة «حنيفاً» فى عشرة مواضع من القرآن الكريم ولفظة «حنفاء» فى موضعين منه وبعض الآيات التى وردت فيها أيات مكية وبعضها أيات مدنية)[٣] .

رغم أهمية حركة «الحنيفية» وخطورتها فإنها فى رأينا لم تنل حظها من الدراسة والتمحيص الجادين المستقصيين من قبل الباحثين المحدثين ، وترجع أهميتها إلى أنها (كانت حلقة فى مرحلة الانتقال من مرحلة ماقبل الإسلام إلى الإسلام)[٤] .

لم يكن تنامى حركة «الحنيفية» وانتشارها واعتناق العديد من الحكماء والعقلاء والمتنورين والشعراء لها قبيل البعثة المحمدية أمراً اعتباطياً أو مستغرباً بل كانت تحتمه موجبات ذلك المجتمع فـ (منطق التاريخ نفسه يدعونا إلى رؤية ظاهرة الحنفاء كواقع حتمى تقتضيه طبيعة التغيرات التى كانت تحدث فى مجتمع الجاهلية خلال القرن السادس الميلادى على طبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية)[٥] . ويشرح لنا برهان الدين دلّو المتغيرات التى طالت مجتمع ماقبل ظهور الإسلام ، والتى أدت إلى ذيوع الحنيفية بقوله (تطورت القوى المنتجة وتوسعت أعمال الرى الاصطناعى وازداد الإنتاج الزراعى وارتبط الإنتاج الصناعى بسوق التبادل ونمت المدن وتحول العديد من القرى إلى حواضر مدنية . . . ونظمت الأسواق الموسمية العامة . . ونشطت التجارة الداخلية والخارجية فازداد العرب تقاربا . وأدى نشاط التجارة واتساع عمليات التبادل فى نشر التعامل النقدى داخل المجتمع القبلى مما سارع فى تفككه . . . وتفكك

---

(٣) **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، مرجع سابق ، ص ٤٥١

(٤) عز الدين كشار ، **اليمن دنيا ودين** ، ص ١٢٤ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م ، دار الهمدانى ، عدن .

(٥) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، الجزء الأول ، ص ٣١٢ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨١م ، دار الفارابى ، بيروت -لبنان ، مرجع سابق .

رابطة الدم والنسب بين أبناء القبيلة . . . ونما التيقظ القومى متمثلاً فى ظهور الأحباش فى اليمن عام ٥٧٥م وبانتصار العرب على الفرس فى موقعة «ذى قار» عام ٦٠٩م . . . وعلى الصعيد الثقافى إنصهرت اللهجات وتوحدت فى لهجة مشتركة «لهجة قريش» التى أصبحت لغة التعبير الفنى ولغة التعامل المشترك بين مختلف القبائل أثناء انعقاد المواسم العامة التجارية والدينية والأدبية . . . وقد ساعد إلى جانب المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية وجود اليهودية والنصرانية فى تغيير الوعى الدينى باتجاه النظر التجريدى نحو مشكلة الوجود متجاوزاً النظرة الحسية في خلق «ظاهرة الحنفاء»)[٦] ويرى الباحث أن «ظاهرة الأحناف» كانت (بداية الإرهاص الفعلى لظهور دعوة الإسلام)[٧] .

أما الباحثون المثاليون فيذهبون وجهة أخرى هى أن هؤلاء الحنيفية بما امتازوا به من رجاحة عقل وسعة أفق وسمو فى الخلق وثقافة أعلى نسبياً من نظرائهم فى ذلك المجتمع (أنفوا من عبادة الأصنام ودعوا إلى التوحيد)[٨] .

ويصف جواد على الحنفاء بأنهم (جماعة سخرت من عبادة الأصنام وثارت عليها وعلى المثل الأخلاقية التى كانت سائدة فى ذلك الزمن)[٩] ، ويرى البعض من أصحاب النظرة المثالية فى تفسير التاريخ أن عرب ماقبل ظهور الإسلام أخذوا يفكرون فى عدم جدوى الأصنام وعبث التعبد لها ، وأنها غير ذات نفع لهم ، ويضربون على ذلك أمثلة

---

(٦) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الثانى ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، الطبعة الأولى ١٩٨٩م ، دار الفارابى ، بيروت- لبنان .

(٧) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٨) د/ السيد عبد العزيز سالم ، **دراسات فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص ٤٣٦ ، د .ت . ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، مرجع سابق .

(٩) د . جواد على ، المرجع السابق ، ص ٤٦٢ .

منها : موقف امرئ القيس الشاعر المشهور من «ذى الخلصة» ، وهو صنم كانت تعظمه العرب ، عندما أراد الغارة على بنى أسد آخذاً بثأر أبيه فخرج له قدح الناهى فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال فى ذلك شعراً ، وموقف أعرابى من صنم آخر يقال له «سعد» ذهب إليه ومعه إبله لنوال البركة ، فنفرت الإبل وتفرقت فى كل وجه ، فتناول حجراً ورمى به الصنم وأنشد بعض أبيات من الشعر يسخر فيها من الصنم «سعد»[١٠] وأن هذا كله كان مدعاة إلى ظهور وانتشار «الحنيفية» بحثاً عن دين جديد يكون أكثر عقلانية .

وفى رأينا أن أصحاب النظرتين المادية والمثالية قد غالوا فى مذهبهم ، إذا أننا بإزاء حركة عقائدية ، فليس من الصواب الاقتصار على التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية التى ضربت مجتمع ماقبل البعثة المحمدية ، كما أن الأسباب الأخلاقية مثل مدارك المتحنفين ، وعلو كعبهم فى السلوك والأخلاق أو التعلات التعبدية أو الطقوسية مثل القناعة بعبثية عبادة الأصنام وافتقاد أى نفع من وراء ذلك ، جميعها أمور لاتكفى بذاتها لاشتداد عود الحنيفية ، ولكن الأصح أن يقال إن هذه العوامل بكاملها قد تفاعلت حتى نمت ، فأدت إلى تفشى الظاهرة وذيوعها وشيوعها فى أنحاء متفرقة ، خاصة فى المدن أو المراكز المتحضرة ، وليس انبثاقها أو ظهورها كما انتهى إليه عديد من الباحثين ، إنما عندما تكاملت تلك الظروف وتعاضدت معاً بدأت «الحنيفية» تقوى وتتحول من «ظاهرة» خافتة الصوت إلى «حركة» لها وجود متميز تمثل فى الشخصيات العديدة البارزة التى آمنت بها والمبادئ التى كانوا يدعون إليها والتى تركت بصمات واضحة على الفكر الدينى الذى ساد جزيرة العرب .

---

(١٠) د . محمد إبراهيم الفيومى ، **الفكر الدينى الجاهلى** ، ص ٤٥١ ، طبعة ١٩٨٣م ، دار المعارف ، مصر ، مرجع سابق .

من هم هؤلاء الأحناف ؟

إنهم مجموعة من الحكماء (سمت نفوسهم عن عبادة الأوثان ولم يجنحوا إلى اليهودية أو النصرانية وإنما قالوا بوحدانية الله)[١١] ؛ كذلك تميزوا بجانب سلوكى أخلاقى راق فرفضوا الرذائل التى تفشت فى مجتمعهم مثل الزنا والمخادنة وشرب الخمر والتعامل بالربا ووأد البنات (كان ذلك من قبائل محدودة) ، ولم يكتفوا بنبذ عبادة الأوثان فحسب بل امتنعوا عن الذبح لها وعن أكل مايذبح لها ، وعن أكل الميتة والدم ، وكانوا على ثقافة عالية نسبياً ذلك أن كثيراً منهم كان يقرأ كتب الديانتين الساميتين : اليهودية والمسيحية وبعضهم كان يعرف لغة أخرى غير العربية مثل العبرية والسريانية وكانوا فى الغالب على درجة من اليسر المالى الذى مكنهم من السياحة فى البلاد وخاصة فلسطين والشام بحثا عن دين النبى إبراهيم عليه السلام الذى يصفه القرآن الكريم أنه كانَ «حنيفاً» ؛ ولم يكتفوا بالالتزام الذاتى بل كانوا يدعون قومهم اليها مما عرَّض بعضهم إلى الأذى والعنت منهم «زيد بن عمرو بن نفيل العدوى» عم «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه (وقد كان الخطاب «أبو عمر» آذى زيداً حتى أخرجه إلى أعلى مكة فنزل «حراء» مقابل مكة . . . وأغرى به شباب قريش وسفهاءها فأخرجوه وآذوه ، كراهة أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراق ماهم عليه) [١٢] .

والأحناف لم يكونوا على مشرب واحد بل كانت لهم توجهات متباينة (لذلك فنحن لانستطيع أن نقول إن الحنيفية فرقة تتبع ديناً بالمعنى

(١١) د . السيد عبد العزيز سالم ، **دراسات فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص ٤٣٤ ، مرجع سابق .

(١٢) الشيخ أحمد فهمى ، هامش الصفحة ٢٩٧ ، من كتاب **الملل والنحل** ، للإمام أبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى عام ٥٤٨هـ ، صححه وعلق عليه الشيخ أحمد فهمى ، الجزء الثالث ، الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م ، مكتبة الحسين التجارية بمصر .

المفهوم من الدين كدين اليهودية أو النصرانية ، لها أحكام وشرعية تستمد أحكامها من كتب منزلة مقدسة ومن وحى نزل من السماء على نحو مايفهم من الأديان السماوية)[١٣] ، والقاسم المشترك الذى كان يجمعهم هو رفض عبادة الأصنام ، والبحث عن دين إبراهيم الحنيف عليه السلام ، وفى سبيل البحث عن حنيفية ابراهيم عليه السلام ، ساحوا فى البلاد وقابلوا كثيراً من رجال الدين : الأحبار والرهبان والقساوسة وسألوهم عن دينهم ، وعن دين الخليل إبراهيم عليه السلام ، ونظروا فى أسفارهم المقدسة . وإنتماء المتحنفين إلى طبقة متميزة وعشائر موسرة هو الذى أتاح لهم فرصة التجوال فى الأرض واقتناء الكتب الدينية ؛ وقد نسب إلى بعضهم اعتناق ديانة المسيح عليه السلام مثل قس بن ساعدة الإيادى ، وعثمان بن الحارث (أو الحويرث) القرشى ، ولكن غالبية الباحثين تؤكد أن المتحنفين رغم عدم تماثلهم فى الرأى أو المعتقد رفضوا كلاً من اليهودية والمسيحية . أما نبذهم للأولى فهو واضح لايحتاج إلى شرح إذا أنها ديانة منغلقة وليست تبشيرية نشطة وكان هم أتباعها منحصراً فى الأنشطة المالية والتجارية ، أما عدم إقبالهم على الأخرى وإعراضهم عنها فله دواع كثيرة ؛ منها أن المسيحية ملّة معقدة مليئة بالأسرار ولا تتناسب مع العقلية العربية الساذجة البسيطة ، ومنها أنها ديانة الإمبراطورية الرومانية البيزنطية التى حاولت فرض سيطرتها على الجزيرة العربية ، بل إن القيصر عندما تنصر عثمان بن الحويرث أرسله إلى مكة ليصير ملكاً عليها - ومن ثم تكون تابعة له شأنها فى ذلك شأن دويلة الغساسنة ولكن القرشيين رفضوه بل يقال فى إحدى الروايات أنهم قتلوه وقالوا كلمتهم المشهورة : إن قريشاً لقاح لاتملَك ولا تُملّك ؛ هذا بالإضافة إلى زيادة الشعور القومى

(١٣) د .جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص ٤٥٨ ، المرجع السابق .

لديهم وهذا لايتحقق باتباع ديانة غيرهم ، بل حتم عليهم أن يختصوا هم أنفسهم بدين مستقل ، ومن هنا جاء بحثهم الدؤوب عن «الحنيفية» دين الخليل إبراهيم عليه السلام ، الذى كانوا يعتقدون فى قرارة نفوسهم أنه جدهم الأعلى . ويضيف أحد الباحثين فى نطاق مجانبتهم لدين المسيح عليه السلام أن النصرانية كانت (غير متأهبة لتلبية حاجات التطور الاقتصادى والاجتماعى فى جزيرة العرب فى فترة الجاهلية لما تتسم به من السكينة والخنوع والمطالبة بالخضوع)[١٤] ؛ وفى رأينا أن هذا سبب غير مقنع ؛ لأن المسيحية لو كانت كذلك لما قدر لها الانتشار بين ربوع شطرى الإمبراطورية الرومانية ، كما أن مجتمعها لم يكن خامداً ، بل كان أكثر ديناميكية من مجتمع الجزيرة قبل الإسلام ، ومشهور عن الرومان إقبالهم على الحياة والعبّ من لذائذها .

* * *

ضمت حركة «الحنيفية» شخصيات تميزت بالسمو العقلى والأخلاقى أو بالحنكة السياسية أو الثقافية العالية نسبياً ، ولما كان الشعراء يمثلون فى مجتمع ماقبل البعثة المحمدية «الفئة المثقفة» لذا كان عدد من كبار الشعراء آنذاك من الأحناف منهم : «أمية بن أبى الصلت» و«زهير بن أبى سلمى» و«النابغة الذبيانى» و«عامر بن الظرب» ، ولهم قصائد فى الإيمان بوحدانية الله والبعث والنشور والحساب ، وفى الناحية السلوكية الأخلاقية : الترفع عن الدنايا وتحريم شرب الخمر ، ويخرج عن نطاق بحثنا إيراد أمثلة منها . ويرى د . جواد على أن فى أكثرما نسب إلى أمية ابن أبى الصلت (من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار تشابه كبير وتطابق فى الرأى جملة وتفصيلاً لما ورد عنها فى القرآن الكريم ، بل ونجد فى شعر أمية استخداماً لألفاظ وتراكيب واردة فى

---

(١٤) برهان الدين دلّو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

كتاب الله وفى الحديث النبوى)[١٥] .

ومما يلفت النظر أن قبيلة قريش ضمت عدداً من «الأحناف» ؛ ويؤكد بعض الإخباريين أن «الحنيفية» بدأت فيها مبكرة مع «قصىّ» الجد الأعلى لمحمد صلى الله عليه وسلم مؤسس دولة قريش فى يثرب . يقول «الشهرستانى» عنه (وكان قصىّ بن كلاب ينهى عن عبادة غير الله تعالى من الأصنام وهو القائل :

أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسّمت الأمورُ
تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصيرُ

وقيل هى لزيد بن عمرو بن نفيل)[١٦] ، وفى رأينا أنه لامانع أن يكون قصيّ هو الذى أنشأ هذا الشعر ثم ردده من بعده زيد بن عمرو بن نفيل خاصة وأنهما من قبيلة واحدة ، والتمثل بمقولات الأجداد أمر طبيعى خاصة فى مثل ذلك المجتمع الأمى «غير الكتابى» الذى كان يعتمد على الذاكرة فى حفظ تراث السلف ؛ ويصف الشيخ أحمد فهمى وهو محقق كتاب «الملل والنحل» ، قصيا بأنه (عالم قريش وأقومها للحق وكان يجمع قومه يوم العروبة ، ويذكرهم بتعظيم الحرم ويخبرهم بأنه سيبعث فيه نبى ، وكان ينهى عن عبادة الأصنام)[١٧] ثم جاء عبد المطلب الجد المباشر للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ويكاد يجمع الإخباريون على أنه من المتحنفين وقد فصلنا القول فيه فى المبحث الخاص به والذى يحمل عنوان «عبد المطلب (الدين يظاهر الدولة)» ، ويطلق عليه الدكتور سيد محمود القمنى لقب «أستاذ الحنيفية وزعيمها» [١٨] .

---

(١٥) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ الإسلام** ، الجزء السادس ، ص ٤٩٠ ، مرجع سابق .
(١٦) الشهرستانى ، **الملل والنحل** ، الجزء الثالث ، ٣٣٢/ ٣٣٣ ، مرجع سابق .
(١٧) الشيخ أحمد فهمى على ، هامش **الملل والنحل** ، ص ٣٣١ ، ٣٣٢ ، مرجع سابق .
(١٨) د . سيد القمنى ، **الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية** ، مرجع سابق .

وهناك رأى أن محمداً عليه الصلاة والسلام مؤسس دولة القرشيين فى يثرب كان قبل تبليغه رسالة الإسلام من «الأحناف» (. . . يمكن الإستنتاج من رواية السهيلى إذا صحت أن الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته الأولى ونشاطه الدينى كان حنيفياً وعلى صلة بـ «بمسيلمة الكذاب» وغيره من الأحناف)[19] ولعل مما يؤيده ماجاء فى دواوين السنة النبوية :أنه عندما عرض عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه يقرأ أشياء فى التوراة تتفق مع ماجاء به الرسول غضب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : أمتهوكون ياابن الخطاب والله لقد جئتكم بـ «الحنيفية» السمحة ، ولو كان موسى بن عمران حياً ماوسعه إلا اتباعى ، ولما ورد فى مصحف عبد الله بن مسعود رضى الله عنه «إن الدين عند الله الحنيفية» بدلاً من «إن الدين عند الله الإسلام» الآية رقم١٩ من سورة آل عمران [20] وكذلك أيضاً لما ورد فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم من ترفع عن الدنايا والاتصاف بالأخلاق الحميدة والنفور من عبادة الأصنام ، والاعتكاف فى غار «حراء» لـ «التحنث» فى شهر رمضان ، و«حراء» هو الغار نفسه الذى كان يلجأ إليه «المتحنف» المجمع على تحنفه : زيد بن عمرو بن نفيل العدوى كما ذكرنا فيما سلف ، و«التحنث» فى شهر رمضان فى غار «حراء» هو ماكان يفعله الجد المباشر عبد المطلب وزعيم الحنيفية . ولو أننا لا نرى مانعاً من أنه اختلط ب « الصابئة » الذين كانوا موجودين فى مكه خاصه ومنطقة الحجاز على العموم واطلع على عقائدهم وطقوسهم العباديه التى ظهرت بصماتها جلية واضحه بعد ذلك (الفصل السابق مباشرة بعنوان الصابئه) كما أن إجماع قريش

(١٩) برهان الدين دلّو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، ص ٢٢٤ ، مرجع سابق .

(٢٠) أبو بكر عبد الله بن داود بن الأشعث السجستانى ، **كتاب المصاحف** ، هامش الصفحة ٧٠ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان .

والعرب على تلقيبه بـ (الصابىء) أمر له دراسته . أما التعليل الذى أورده الاخباريون والمفسرون واللغويون من أن ذلك مرجعه هو خروجه عن دين قومه فهو غير كاف ذلك أنهم لم يلقبوا زيد بن عمر بن نفيل أو ورقه ابن نوفل أو غيرهما ب س الصابىء » !!!

ولم يقتصر أمر الحنيفية فى قبيلة قريش على هؤلاء بل كان منها :

«ورقة بن نوفل» أحد بنى عمومة السيدة خديجة رضى الله عنها أولى زوجات محمد عليه الصلاة والسلام ، و «عثمان بن الحويرث» الذى سبق أن ذكرنا محاولة قيصر الروم تنصيبه ملكاً على مكة ورفض ذلك ، و «زيد بن عمرو بن نفيل» وهو من أشهر المتحنفين وقد أوردنا خبر معاملة الخطاب أبى عمر له بعد إعلان تحنفه .

وبذلك يجيىء محصول قريش من الحنيفية والأحناف وفيراً بالنسبة لغيرها من القبائل ، ولعل سكناها فى مكة العاصمة الدينية الهامة وملتقى القوافل المحلية والعالمية بما يحمله تجارها من أفكار ومبادئ وعقائد بجانب ما يحملونه من عروض التجارة وثراء كبرائها مما أتاح لبعضهم السفر إلى الخارج والاختلاط بالشعوب الأخرى ولقاء عدد من رجال الدين ، بالإضافة إلى رياح التغيير اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً التى أدت إلى ذلك ، تكون حظوة قريش بهذا العدد من «المتحنفين» دون غيرها من قبائل الجزيرة أمراً كانت تحتمه طبائع الأمور فى تلك الحقبة ؛ ونحن فى وجهة نظرنا هذه والتى سقنا الأدلة والقرائن التى تؤكدها نختلف مع برهان الدين دلّو فى قوله (. . . أما فى مكة التى كانت حصناً للشرك وغالبية أهلها من المشركين ، فإن «الحنيفية» لم تنتشر انتشاراً واسعاً ، لأن الشعائر الدينية كانت هناك منظمة تنظيماً حسناً)[٢١] ، فالأسباب التى ساقها لاتؤدى إلى تدعيم رأيه بل تنقضه : فكون مكة حصناً للشرك وموئلاً

(٢١) برهان الدين دلّو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الثانى ، ص ٢٤٣ ، مرجع سابق .

للمشركين ، وأن غالبية أهلها منهم ، وأن العبادة الأصنامية الأوثانية نظمت فيها تنظيماً جيداً ، كل هذا أدعى لتنامى حركة مضادة لدى أقلية تنادى بعبثية التعبد لغير الله تعالى ، خاصة وأن المجتمع المكى كان يضم صفوة من العقلاء والحكماء والمتنورين لأن قريشاً امتازت عن غيرها من القبائل الأخرى بالذكاء والفطانة والفصاحة واللسن ، يضاف إليه أن مكة بحكم مركزها الدينى المرموق وموقعها التجارى الهام كانت نقطة لقاء بين أصحاب العقائد والملل كافة مما جعل نخبة المجتمع القرشى تطلع عليها وتنفعل بها ، وسبق أن قلنا إن «الأحناف» كانوا على بينة من مبادىء الأديان والنحل الأخرى وكتبها المقدسة ، والأخطر من ذلك أو مالا يقل عنه خطورة أن المجتمع المكى كان وقتذاك - شأنه شأن سائر مجتمعات الجزيرة العربية خاصة فى المراكز المدينية - فى حالة تطور ويمور بالحركة والنمو ، وكانت العلاقات القبلية التقليدية وروابط النسب قد أخذت تميل إلى التفكك من أثر المستجدات الاقتصادية ، كما كان البحث يؤرق نفوس الصفوة للعثور على عقيدة توحد وتجمع وتؤلف القبائل المتفرقة المتنافرة . تلك كانت الدوافع التى دفعت «الحنيفية» إلى النمو والتحول من «ظاهرة» إلى «حركة» تستجيب إلى مقتضيات الواقع ومسيرة التاريخ ، فكيف يقال بعد ذلك كله أن «الحنيفية» لم تكن منتشرة فى مكة ؟؟؟ .

لقد خلط الباحث بين أمرين على تباين ظاهر بينهما : أولهما : انتشار «الحنيفية» وثانيهما :محاربتها من قبل التجار والمرابين الذين كانوا يجنون الأرباح الطائلة من عبادة الأوثان ، حقيقة أن كبار القرشيين وطواغيتها حاربوا «الأحناف» واشتدوا عليهم فى الإيذاء لدرجة النفى كما فعلوا مع زيد بن عمرو بن نفيل العدوى ، حفاظاً على الوثنية ؛ لاحباً لها فى ذاتها ، وإنما لما توفره لهم من أرباح جمة - ولكن العداء لـ «الحنيفية» لايدل بذاته على ندرة معتنقيها أو حتى قلتهم بل على العكس ، فإن الإمعان فى

تعذيبـهم قرينـة واضـحة على تمكن «الحنيفية» بين عدد من متنورى قريش .

* * *

يخرج عن نطاق بحثنا فى «الحنيفية» الكشف عن مكان نشأتها ونقطة انطلاقها ، فسواء انبثقت فى «اليمن» باعتبارها ديانة توحيد (ثم امتد دين الوحدانية المجردة ، كما امتد التوحيد المتجسد إلى قلب الجزيرة العربية لتواصل المسيرة ، مسيرة خلق الدولة المركزية الموحدة لعموم المنطقة العربية)[٢٢] ويميل إلى هذا الرأى عز الدين كشَّار مستدلا على ذلك بكثرة «الحنفاء اليمانيين» من أمثال (قس بن ساعدة - الإيادى وأرباب بن رئاب وأسعد أبو يكرب الحميرى ، ووكيع بن سلمة بن زهرة الإيادى . . وسيف بن ذى يزن ، وخالد بن سنان بن غيث العبسى وعبد الله القضاعى وعلاف بن شهاب التميمى . . وقيس بن عاصم بن تميم . . . وعفيف بن معدى كرب من كندة . . وغيرهم من الأسماء التى يبدو أنها يمنية الأصل)[٢٣] كذلك ماهو معروف من أن أهل الجنوب قد عرفوا التوحيد ولو بصورة أولية قبل عرب الشمال ، ومن آلهتهم التى تذكر فى هذا الشأن ذو سموى والمقة التى يرجح بعض الباحثين أن اسم «مكة» هو تحوير لها .

أو أن «الحنيفية» (نشأت فى اليمامة وهى إحدى المناطق المتحضرة والمتقدمة نسبياً فى الميادين الإقتصادية والإجتماعية والثقافية وانتشرت فى غربى الجزيرة العربية) [٢٤] نقول سواء كان هذا أم ذلك فإن الثابت تاريخيا

---

(٢٢) ثريا منقوش ، **التوحيد فى تطوره التاريخى - التوحيد يمان** ، ص ١٦٠ ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م ، دار ازال ، بيروت .

(٢٣) عز الدين كشار ، **اليمن دين ودنيا** ، فى الفصل المعنون بـ « ظاهرة الحنفاء فى اليمن » ، ص ١٢٥ ، مرجع سابق .

(٢٤) برهان الدين دلّو ، المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

أنهـا كـانت منتشـرة فى أنحـاء عـديدة من جـزيرة العـرب ولو أننا نؤيد الباحثين اليمانيين فى أن بدايتها كانت فى اليمن . إنما الذى يهمنا أن نفرق بين أمرين ذكرناهما عرضاً فى ثنايا الفقرات السابقة هما : نشوء «الحنيفية» كظاهرة دينية أو عقائدية وبين إشتداد عودها بعد ذلك وتحولها إلى حركة لها حضورها المتميز الذى ترك آثاره العميقة فى الفكر الدينى الذى تلاها فى الجزيرة العربية .

ليس صحيحاً على الإطلاق مايذهب إليه د . السيد عبد العزيز سالم عندما يذكر (ظهرت قبيل الإسلام حركة جديدة أصحابها جماعة من العرب ، سمت نفوسهم عن عبادة الأصنام . . الخ)[(٢٥)] وليس د . سالم هو الوحيد الذى قرر ذلك بل سبقه ولحقه كثير .

إن «الحنيفية» لم تظهر قبيل الإسلام بل كانت أقدم من ذلك بكثير ، بدليل أن كعب بن لؤى بن غالب «وهو أحد أجداد محمد عليه السلام البعيدين عده كثير من الباحثين فى زمرة «الأحناف» منهم د / السيد عبد العزيز سالم نفسه (كعب بن لؤى أحد أجداد الرسول كان متحنفاً)[(٢٦)] وهذا الخبر فى ذاته يؤيد وجهة نظرنا عن إنتشار «الحنيفية» فى قبيلة قريش - ثم ماثبت من أن « قصياً » كان من الأحناف ، و«قصىّ» بينه وبين ظهور الإسلام مايقرب من مائتى عام ، وهذه مدة لايمكن أن يقال بصددها «قبيل الإسلام» ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه بين «كعب» و«قصى» جدان هما «مرّة» و«كلاب» ومع الإفتراض بأن بين كل جيل والذى يليه أربعين عاماً حسب تقدير «ابن خلدون» فى المقدمة أضفنا لذلك ثمانين عاماً كان معنى ذلك ببساطة أن بين «حنيفية كعب» والبعثة المحمدية مايقرب من

---

(٢٥) د . السيد عبد العزيز سالم ، **دراسات فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص ٤٣٥ ، مرجع سابق .

(٢٦) د . السيد عبد العزيز سالم ، **دراسات فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص ٤٣٨ ، مرجع سابق .

ثلاثة قرون وهذه مسافة زمانية متطاولة فكيف يجوز للدكتور سالم ومن لف لفه أن يصفها بأنها «قبيل الإسلام» ! ! ! .

«الحنيفية» إذن كانت قديمة نسبياً ، وكان وجودها الغالب في المراكز الحضرية أو المدينية مثل اليمن واليمامة ومنها ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي المشهور بـ «رحمان اليمامة» ثم أطلق عليه محمد صلى الله عليه وسلم لقب «مسيلمة الكذاب» والطائف (ومنها أمية بن أبي الصلت) ويثرب (ومنها أبو قيس صرمة بن أبي أنس من بني النجار ، وأبو عامر بن عبد عمر بن صيفي وكان قومه يسمونه «الراهب» ولما عادى محمداً صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين أن يسموه بـ «الفاسق» ثم تحولت من «ظاهرة» إلى «حركة» إذ تضافرت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والعقائدية على نمو عودها فاستوائه فاشتداده ، وكان من الطبيعي أن يتم ذلك بصورة واضحة في المدن ، وأن يعتنقها عدد من المستنيرين من أبنائها ، ولكن لماذا المدن بالذات ؟

لأن المتغيرات التي لحقت بمجتمعاتها كانت أكثر سرعة من مجتمعات البدو والريف معاً وسبق أن ذكرنا تلك المتغيرات ؛ لم يكن هدف «الحنيفية» شن الحرب على الرذائل الاجتماعية والأدواء أو المنكرات السلوكية الخلقية فحسب ، بل نبذ عبادة الأصنام والدعوة إلى عبادة إله واحد ، تأثراً بالديانتين التوحيديتين اللتين عرفهما عرب الجزيرة آنذاك وهما : اليهودية والمسيحية ، ولأن عبادة الأصنام كانت من عوامل الفرقة بين القبائل إذ كان لكل قبيلة أو مجموعة قبائل صنم تعبده وتذبح له وتنتظر منه النفع وكشف الضر وتستشيره عن طريق القداح في حالة السفر والحروب . . . إلخ والدعوة إلى عبادة إله واحد مدعاة إلى التوحيد المادي ، هذا بالإضافة إلى العوامل الأخرى التي ساهمت في عملية التوحيد ، ومن ثم يصح القول بأن «الحنيفية» قد (واكبت تطور المجتمع

المكى وحاجاته وتطورت معه إلى أن دخلت معه مرحلة جديدة هى التى مهدت لظهور الإسلام) [٢٧] .

لم يكن تحول «الحنيفية» إلى «حركة» قاصراً على اعتناق عدد كبير من المتنورين العرب إياها ، بل فى البصمات العميقة الغور التى تركتها على الفكر الدينى الخالف لها فى جزيرة العرب .

فبادئ ذى بدء كان «للحنيفية» الفضل فى نشر عقيدة التوحيد وتجذرها واستهجان عبادة الأوثان والسخرية منها ومن عُبّادها والكشف عن زيف ماكانوا ينسبونه إليها من قدرات وتهيئة الأذهان إلى الإيمان بالبعث والنشور والحساب والجنة والنار . . . إلخ .

أما فى نطاق التعبديات والسلوكيات والأخلاقيات فقد تركت من ورائها سنناً ترسخت ؛ منها (تحريم الربا ، تحريم شرب الخمر وحد شاربها ، تحريم الزنا وحد مرتكبيه ، الاعتكاف فى غار «حراء» فى شهر رمضان والإكثار من عمل البر وإطعام المساكين والفقراء . . . وقطع يد السارق . . . تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير . . . والنهى عن وأد البنات وتحمل تكاليف تربيتهن . . . والصوم والاختتان والغسل من الجنابة)[٢٨] .

وإذ كانت الحنيفية كما قلنا فى مفتتح هذا المبحث هى إرهاص لـ «الإسلام» ، وإذ أن الدين منذ عهد الجد عبد المطلب قد ظاهر الدولة القرشية وساندها ودعمها فإنها بذلك قد شكلت بلا ريب إحدى المقدمات الهامة لتلك الدولة التى أقامها الحفيد محمد عليه السلام فى يثرب .

---

(٢٧) بليايف ، **العرب والإسلام والخلافة** ، ص ١٤٣ ، نقلاً عن برهان الدين دلّو ، مرجع سابق .

(٢٨) خليل عبد الكريم ، **الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية** ،ص ٢٥ و ٢٦ ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، دار سينا للنشر .



الباب الثالث

المقدمات السياسية

كانت الأحوال السياسية للدولتين العظميين : الرومانية الشرقية أو البيزنطية والفارسية بالغة السوء عندما قدر لدولة قريش أن تنشأ وتتبلور ملامحها ، ثم تستوى على عودها فى يثرب . ولسنا هنا فى مقام التأريخ لتينك الدولتين ، إنما يكفينا أن نبرز القسمات العريضة لكل منهما بالقدر الذى يؤيد مانذهب إليه ، وهو أن ضعفهما ودخولهما فى دور الإنحدار كان أحد العوامل التى ساعدت على نجاح القرشيين فى تأسيس دولتهم ، بالإضافة إلى العوامل الأخرى التى ذكرنا بعضاً منها وسوف يجيئ البعض الآخر فى حينه .

١

الدولة الفارسية

كانت الدولة الفارسية فى الوقت المعاصر لنشوء دولة قريش ونموها وتدرجها فى الظهور حتى قيامها فى يثرب على يد محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - تعانى الكثير من المعضلات ، سواء فى الداخل أو فى الخارج ، من جيرانها وأخصها الإمبراطورية البيزنطية . والمراقب لأحوالها آنذاك يقطع بأن شمسها أخذت فى الأفول ، وأول مايشد الانتباه فى هذا الصدد هو سرعة تعاقب الملوك على عرشها ، حتى إن بعضهم لم يهنأ به سوى شهور لاتتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، وبعضهم أسابيع محدودة بل أيام قليلة وأحدهم - أو اثنان منهم - اغتيل ساعة جلوسه على سرير الملك ، وكان القتل وسمل العينين مصير بعضهم ، وبلغ بهم الأمر أن أحدهم قتل أباه وبضعة عشر أخا له ، حتى يأمن تآمرهم عليه ، ولما فنى رجالهم مَلَّكوا عليهم اثنتين من نسائهم ، وطمع أحد قوادهم فى الملك واستشرفت نفسه إليه رغم أن ذلك كان محرماً فى تقاليدهم المتوارثة وهو ألا يخرج الملك عن آل ساسان ، ويبدو أن ذلك كان عرفاً

مستقراً لدى الأسر الحاكمة فى العصور الوسطى على الأقل فى الشرق ، وهنا يرد على ذاكرتنا الأثر المعروف «الأئمة من قريش» والذى عقب نتائج شديدة على التاريخ الإسلامى حتى الآن .

يرسم لنا الطبرى صورة مروعة لملوك فارس «كسرى أبرويز طغى وشره شرهاً فاسداً . . . بلغت خيله القسطنطينية وأفريقيا وكان يشتو بالمدائن ويصيف مابينها وبين همذان . . . كانت له ١٢٠٠٠ جارية وقيل ٣٠٠٠ للوطء ، والباقيات للخدمة والغناء وغير ذلك . . . احتقر الناس واستخف بما لايستخف به الملك الرشيد الحازم . . . وظلم أبناءه . . كان ملكه اثنتين وثلاثين سنة وشهور قتله الشعب بمساعدة ابنه شيرويه الذى قتل سبعة عشر أخاً له . . . وفشا الطاعون فى أيامه . . . كان ملكه ثمانية أشهر . . ثم ملك أردشير ابنه . . . قتل بأمر شهر أبرويز . . . كان ملكه سنة وستة أشهر . . ثم ملك شهر أبرويز . . . ولم يكن من أهل بيت المملكة . . . قتلوه وكانت فترة جميع ملكه أربعين يوما . . . ثم ملكت بوران بنت كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى أنو شروان وكان ملكها سنة وأربعة أشهر . . . ثم ملك بعدها رجل يقال له جسندة من بنى أبرويز الأبعدين وكان ملكه أقل من شهر . . . ثم ملكت آزر ميدخت بنت كسرى أبرويز . . . قتلها القائد رستم وسمل عينيها وقيل سمها وكان ملكها ستة أشهر . . . ثم ملك كسرى بن مهر جشنس قتل بعد أيام . . . ثم ملك خرذاد خسروان من ولد أبرويز استعصوا عليه وخالفوه . . . ثم ملك فيروز بن مهرجشنس ويقال أنه هو الذى تولى الملك مباشرة بعد آزر ميدخت بنت كسرى أبرويز . . . قتل ساعة جلوسه على سرير الملك . . . ثم ملك فرخزاد خسروا . . . قتلوه بعد ستة أشهر . . . ثم ملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى . . . وفى عهده ضعف أمر مملكة فارس واجترأ عليه أعداؤه من كل وجه وخربوا بلاده

وتصرفوها . . . وغزت العرب بلاده بعد أن مضت سنتان من ملكه وقيل بعد أن أمضى أربع سنين من ملكه)[1] .

المصادر العربية (التأريخية) تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً فى ترتيب سلسلة ملوك فارس ومدد حكمهم ، إنما ننبه إلى ماسبق أن سطرناه أن القصد ليس التأريخ الدقيق ، إنما رسم الملامح البارزة لكل من فارس وبيزنطة فى تلك الحقبة خاصة تلك التى اتفقت عليها المصادر العربية بشأن الإمبراطورية الساسانية ، بغض النظر عن التفاصيل . والذى خرجنا به من قراءتها أن تلك الدولة فى تلك الفترة من الزمن طفقت فى الذبول ، وكان تعاقب الأكاسرة على عرشها بتلك الطريقة الفاجعة المفجعة هو أحد المؤشرات البالغة الدلالة على ذلك .

يمتاز أبو حنيفة الدينورى - عن الطبرى - بأنه حاول أن يقرن تاريخ بعض ملوك دولة العجم بتاريخ النبى محمد (ص) مؤسس الدولة فى يثرب (وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر ملك أنو شروان فأقام بمكة إلى أن بعث بعد أربعين سنة ، فيها سبع سنين بقيت من ملك أنو شروان ، وتسع عشرة سنة ملكها هرمز بن كسرى أنو شروان ، وبعث وقد مضى من ملك كسرى أبرويز ست عشرة سنة وهاجر إلى المدينة وقد مضى من ملك أبرويز تسع وعشرون سنة ، فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفى (ص) وآله تسليماً بعد موت كسرى أبرويز فكان عمره (ص) ثلاثًا وستين سنة)[2] .

---

(1) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، **تاريخ الرسل والملوك** ، المعروف بـ «تاريخ الطبرى» ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ، الجزء الثانى ، ص ٢١٦ - ٢٣٤ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٧ م ، دار المعارف بمصر .

(2) أبو حنيفة الدينورى ، **الأخبار الطوال** ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مراجعة جمال الدين الشيال ، من سلسلة «تراثنا» ، الطبعة الأولى ١٩٦٠ ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة .

وعلى ذلك وحسب رواية الدينورى يكون الرسول محمد (ص) قد عاصر كلا من : أنو شروان هرمز وأبرويز ، والذى يطبق عليه المؤرخون أن أنو شروان كان محمود السيرة بالمقاييس التى كانت سائدة فى عصره ، والتى أقرها أولئك المؤرخون - وكان ضابطاً لأمور مملكته ، ولكن الوهن بدأ يصيبها فى زمن ابنه هرمزد (فلما كانت سنه إحدى عشرة من ملكه حدق به الأعداء من كل وجه ، فاكتنفوه اكتناف الوتر سبتى القوس ، أما من ناحية الشرق فإن شاهنشاه الترك أقبل حتى صار إلى هراة وطرد عمال هرمز ، وأما من قبل المغرب فإن ملك الروم أقبل حتى شارف نصيبين ليسترد آمد وميا فارقين ودارا ونصيبين ، وأما من قبل أرمينية فإن ملك الخزر أوغل حتى أذربيجان فبعث الغارات فيها[٣] .

وظلت الأحوال تسوء فى عهده حتى تآمر عليه العظماء والأشراف والمرازبة ثم (أقبلوا على الملك هرمز فنكسوه عن سريره ، وأخذوا تاجه ومنطقته وسيفه وقباءه ، فأرسلوا بها إلى كسرى «ابرويز» وهو بأذربيجان)[٤] ، وانتهى به الأمر إلى القتل الذى يرجع إلى طغيانه إذ أنه قتل خيار الأعاجم وسراتهم كما أنه كان «مُوّلداً» إذ أن أمه كانت تركية أى لم يكن فارسياً خالصاً ، ثم تولى بعده أبرويز الذى وصفه الطبرى كما أسلفنا بأنه طغى وشره شرهاً فاسداً وكانت لديه اثنا عشر ألف جارية منها ثلاثة آلاف للوطء ، أى للمتعة ، ويضيف البريجاديرسير برسى ساكس أنه تزوج بمسيحية ذات جمال تسمى شيرين وأنه كان ميالاً للنصرانية[٥] وروى المسعودى أن اسم هذه الزوجة مارية ، وأنها ابنة ملك الروم

---

(٣) الدينورى ، **الأخبار الطوال** ، مرجع سابق ، ص ٧٨ ، ص ٧٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٥) البريجادير سير برسى ساكس ، الفصل السادس والثمانون ،« نهضة الفرس الحربية والثقافية» ، من كتاب **تاريخ العالم** ، بإشراف السيرجون أ . هامرتن ، المجلد الرابع ، أشرف على ترجمته قسم الترجمة بوزارة التربية والتعليم نشر مكتبة النهضة المصرية .

موريقوس[٦] ويبدو أن اسمها الأصلى كان مارية وبعد أن تزوجها كسرى أطلق عليها اسم شيرين ، واستمر فى جبروته وطغيانه حتى قتله ، الشعب بمساعدة ابنه شيرويه كما أورده الطبرى فيما سبق . ومن المحتمل أن يكون من بين دوافع الثورة عليه ثم قتله زواجه بنصرانية وميله إلى دين المسيح عليه السلام - وهو دين الإمبراطورية البيزنطية العدو اللدود للفرس . وباغتياله بدأ العد التنازلى لملك دولة الأعاجم الساسانية ، إذتعاقب على عرشها ملوك متعددون لم يدم ملك بعضهم شهوراً أو أسابيع أو أياماً ، بل إن أحدهم قتل قبل أن يجلس على سرير الملك .

حتى انتهى الأمر إلى يزد جرد بن شهريار بن كسرى ، وفى عهده قوض العرب الإمبراطورية الفارسية وورثوا ملكها . وكانت للعرب صولة سابقة على الفرس ، وذلك فى الموقعة أو الحروب المعروفة بـ «ذقار» أو يوم «ذى قار» التى حدثت فى عهد الملك أبرويز وكان النبى محمد عليه السلام قد أدرك أهمية هذه المعركة ، والنتيجة التى انتهت اليها فى صالح العرب وما دلت عليه من ظهور علامات الشيخوخة على الدولة الساسانية وقد قال عليه السلام فى حقه (هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بى) ويقدر المسعودى عدد ملوك الدولة الساسانية باثنين وثلاثين منهم إمرأتان .

* * *

ولعل كثرة حكام الإمبراطورية الفارسية فى تلك الفترة وتداولهم سرير الملك لفترات قصيرة يرجع إلى ظلمهم للرعية - وخاصة المتأخرين منهم - وقتلهم الأشراف والمرازبة لأتفه الأسباب ، وإلى إسرافهم الذى

---

(٦) أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى المتوفى فى عام ٣٤٦هـ ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، تحقيق محمد محى الدين عطية ، ص ٢٠٧ من المجلد الأول ، الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م ، كتاب التحرير بمصر .

لايرقى إلى تصوره خيال . والأوصاف التى حملتها كتب الأدب العربى وقصائد الشعر لـ (إيوان كسرى) وماجاء فى كتب التاريخ الإسلامى عن الغنائم التى حصل عليها الفاتحون العرب مايقطع بذلك ، وسبق أن أوردنا عدد الجوارى اللائى كان يمتلكهن كسرى أبرويز ؛ ويضيف المسعودى أنه (كان على مربطه خمسون ألف دابة وسرج ذهب مكللة بالدر والجوهر على عدد ما لركابه من الخيل وكان على مربطه ألف فيل منها أشهب أشد بياضاً من الثلج ومنها ما ارتفاعه اثنا عشر ذراعاً)[٧] ، وكان ذلك كله على حساب الرعية المحكومة بالسيف ، ومن ثم كانت تعيش فى أحوال بلغت المنتهى فى التدنى والانحطاط ولم يكن مستغرباً أن تتفشى فيها الأوبئه . . الفتاكة ، يحدثنا المسعودى عن شيرويه المشئوم فيقول (وفى أيامه كان الطاعون بالعراق وغيرها من الأقاليم ، فهلك فيه مائتا ألف من الناس ، فالمكثر يقول : هلك نصف الناس والمقل يقول الثلث)[٨] ، ومما أحدث اضطراباً فى بنية المجتمع الفارسى وأثار النقمة العارمة بين أفراده هو مايمكن أن نطلق عليه : التجميد الطبقى ، ومعناه أن أبناء كل طبقة يظلون تابعين لطبقتهم لا يغادرونها ولو تمتع أحد أفرادها بمواهب أو ملكات تؤهله للترقى إلى طبقة أعلى فيستحيل عليه ذلك ، كما أن الواحد من أفراد طبقة عالية يستمر فيها حتى ولو كان عاطلاً من أى ميزة . ولقد انتقد المفكرون الإسلاميون ذلك بشدة فيا بعد عندما اطلعوا على أحوال المجتمع الفارسى(. . . كانوا يحرمون على رعاياهم الترقى من مرتبة إلى مرتبة ومن ذلك مايعوق التراكيب السوية عن كثير من الشيم الرضية . . . وليس بشك أن تسخير العاقل الحر بالقهر والغلبة

---

(٧) المسعودى ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، ص ٢١٠ .

(٨) المسعودى ، المرجع السابق ، ص ٢١١ .

على المنزلة الواحدة ، وزجره عن اكتساب المحامد بالهمة العلية . . . في الغاية من الاتضاع والخسَّة)[٩] وقد يكون من الصائب أن نذكر أن ذلك كان أحد الدوافع التي حفزت الأعاجم إلى الترحيب بالفتح العربي الإسلامي لما سمعوه من أن دينهم يحض على المساواة بين الناس .

والشعوب مهما طال صبرها فإنها تثور ضد الطواغيت وحكام البغي ، وهذا أحد وجوه تفسير كثرة ملوك الفرس في تلك الفترة .

* * *

ومما ضاعف من سوء الأحوال الاقتصادية في دولة الفرس ، وزاد من معاناة الشعب وتفاقم بؤسه ، الحروب العديدة التي خاضها الأكاسرة سواء ضد الدولة الرومانية البيزنطية أو غيرها كما سنوضح فيما بعد ، فهذه المعارك تتطلب نفقات باهظة وتسحب من سوق الإنتاج الفلاحين والعمال الذين يقع على أكتافهم عبء الإنتاج ، ونتيجة لذلك تشح المنتجات فترتفع أثمانها وتغدو بعيدة عن متناول يد الفقراء بل والمتوسطين ، كما أن الجنود الذين يقتلون في ساحة الوغى أو يصابون بجراحات معجزة هم أرباب أسر تصبح بعدهم بغير عائل أو معين وهكذا تقع أعباء هذه الحروب على كواهل القاعدة الشعبية العريضة مما يسارع من نقمتها على ملوكها فتساهم في الانتفاض عليهم .

ليس مطلوباً منا استقصاء المعارك التي خاضها أكاسرة فارس ، إنما يكفينا أن نورد لمحات خواطف منها توضح أو تدلل على أنها كانت من أسباب الخور الذي ضرب مملكتهم وأدى في مختتم الشوط إلى امحائها من الوجود ، وكان ذلك بلا أدنى ريب في صالح دولة القرشيين في

---

(٩) أبو الحسن العامري ، «الإعلام بمناقب الإسلام» ، ص ١٦٠ ، نقلاً عن كتاب **الأمة والجماعة والسلطة** ، دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي ، تأليف رضوان السيد ، ص ٢١٢ - ٢١٣ ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، دار اقرأ ، بيروت .

يثرب (ومن الطريف أن نذكر أن أنو شروان الذى ترجع شهرته من جهة إلى مآثره العسكرية ، قد بدأ حكمه بمهادنة جستنيان ، ولكن هذا تؤازره قوة قائده بتنزاريوس الذى عاد إلى شمال أفريقيا ، مما أدى إلي أن يجتاح أنو شروان الشام فجأة خشية أن تدهمه قوات عدوه ، ولم يكن جستنيان مستعداً قط ، وراحت انطاكية بثروتها كلها غنيمة لكسرى ، وعقد صلح مؤقت نقضه جستنيان حين استكمل استعداداته العسكرية . . . واشتبكت الإمبراطوريتان فى حروب عدة سنوات . . . وترجع شهرة أنو شروان العسكرية إلى هذه المعارك خاصة ، وهى المعارك التى لانملك للأسف معلومات مفصلة عنها ، ولكنا نعرف أنها أضافت كثيراً إلى قوة كسرى وشهرته ، ذلك إلى أن جوستين الذى ارتقى عرش الإمبراطورية نقض السلام عام ٥٧٢م للأسباب التى حفزت أنو شروان على ذلك من قبل ثلاثين عاماً ، وكانت النتيجة استمرار الحرب بين الإمبراطوريتين بقية حكم أنو شروان ، فهى حرب أو قعت خسائر فادحة بالجانبين بينما لم يجن أحدهما منها أية فائدة [١٠] ، هذا فضلاً عن تحريض عرب الغساسنة الموالين للرومان على إثارة القلاقل ، والإغارة على أطراف دولة الفرس ودويلة عرب الحيرة المناذرة الموالين للفرس (وظهر تعاون الغساسنة الذين انتقلت إليهم مشيخة العرب الموالين للرومان فى عهد انستا سيوس إبّان الحرب مع الفرس ٥٠٢/٥٠٣م) [١١] .

وفى عهد هرمز بن أنو شروان (ولاثنتى عشرة سنة من ملكه تخرم عليه الملك وتداعت أركانه وزحفت عليه الأعداء وكثرت عليه

(١٠) البرجا دير سير برسى ساكس ، مرجع سابق ، ص ٣٤١ .

(١١) د . محمد فتحى الشاعر ، **السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى القرن السادس الميلادى - عصر جوستنيان** ، ص ١٦٦ ، الطبعة الأولى ١٩٨٩م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الخوارج)[١٢] ويوضح المسعودى ذلك (وكان من سار إليه شابة بن شب عظيم من ملوك الترك فى أربعمائة ألف . . . وسار إليه من أطراف أرضة طراخنة من الخزر فى جيش عظيم . . . وسار إليه بطريق لقيصر فى ثمانين ألف . . . وسار فيما يلى اليمن جيش عظيم للعرب من قحطان ومعَدّ . . . فاضطرب على هرمز أمره) [١٣] ويؤيد الدينورى ذلك ويذكر أن هرمزد إزاء ذلك اضطر إلى مصالحة قيصر الروم (فرد عليه المدن التى كان أبوه اغتصبه إياها وسأله الصلح والموادعة فأجابه قيصر كذلك) [١٤] ثم يسرد لنا الدينورى أطرافاً من حروب أبرويز مع الروم نعلم منها أنها انضوت على معارك طاحنة كانت سجالاً بين طرفيها خسر فيها كل منهما خسائر فادحة ، وأن أبرويز لما سمع عن هزيمة جيشه فى الجزيرة حتى بلغت فلوله الموصل (. . . . خرج فى جنوده حتى الموصل وانضم إليه قواده الثلاثة وسار نحو هرقل فاقتتلوا فانهزم الفرس ، فلما رأى ذلك كسرى غضب على عظماء جنوده ومرازبته فأمر بحبسهم ليقتلهم)[١٥] .

* * *

حارب العرب كسرى أبرويز فى «يوم ذى قار» (وذى قار ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط . . . ويرجع الإخباريون سبب وقوع ذى قار إلى مطالبة كسرى أبرويز هانىء ابن قبيصة بن مسعود بتسليم الودائع التى أودعها النعمان لديه فلما أبى هانىء تسليم ما أؤتمن عليه لغير أهله غضب كسرى . . . وانهزمت الفرس وكسرت كسرة هائلة وقتل أكثرهم وفيهم الهامرز وجلابزين - وهما من قواد كسرى - وانتصر العرب على الفرس انتصاراً عظيماً وانتصفت فيه العرب من

(١٢) المسعودى ، **مروج الذهب** ، المجلد الأول ، ص ٢٠٤ ، مرجع سابق .

(١٣) المسعودى ، مروج الذهب ، المجلد الأول ، ص ٢٠٥ ، مرجع سابق .

(١٤) الدينورى ، **الأخبار الطوال** ، ص ٧٩ ، مرجع سابق .

(١٥) الدينورى ، **الأخبار الطوال** ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، مرجع سابق .

العجم)[١٦] . وكانت هزيمة الفرس ومن تابعهم من القبائل نكراء (ثم أتبعت بكر الفرس وأحلافهم من العرب يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم حتى أصبحوا من الغد وقد شارفوا السواد ودخلوه فى طلب القوم)[١٧] ولقد أحنق كسرى أبرويز هذا الإنتصار الساحق الذى حققه العرب على جيشه وأنصاره من القبائل العربية وأوجعه وأغاظه لأنه رأى من خلاله بوادر أفول مملكته ومملكة آبائه ، وكذلك لما وصله خبر الهزيمة المريرة أمر بالرسول الذى حمله إليه •فنزعت كتفاه)[١٨] أما محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، مؤسس دولة القرشيين فى يثرب ، فقد رأى فيه بعبقريته الفذة وحنكته السياسية بشائر ارتفاع الراية العربية على الجزيرة العربية ودلائل غروب شمس دولة الأكاسرة الساسانيين ومن ثم قال الحديث الذى سبق أن أوردناه آنفاً .

تلك كانت ملامح سريعة عن دولة الفرس حاولنا قدر الاستطاعة أن تكون وافية بالغرض وهو التدليل على أنها كانت فى طور الانهيار والاندثار فى الوقت الذى كانت فيه دولة قريش تتقوى وتتوطد أركانها ويعلو بنيانها ، والذى لاشك فيه أنه بكافة المقاييس جاء ذلك فى صالح الدولة الفتية التى كانت تتخلق فى الحجاز ، إذ لو كانت مملكة الساسانيين - آنذاك - فى أوج مجدها وعز عنفوانها لما استطاعت دولة قريش أن تأخذ فرصتها التى واتتها ولتغير مسار الأحداث فى شبه جزيرة العرب ولكنها عجلة التاريخ التى لاتكف عن الدوران .

---

(١٦) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء الثالث ، ص ٢٩٣-٢٩٤ ، نشر دار العلم للملايين ، بيروت ومكتبة النهضة ، الطبعة الأولى ، تموز/ يوليو ١٩٦٩م .

(١٧) محمد أحمد جاد المولى بك وآخران ، **أيام العرب فى الجاهلية** ، ص ٣٣ ، نشرته دار إحياء الكتب العربية ، بدون تاريخ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

٢

الدولة البيزنطية

كانت الدولة الرومانية البيزنطية هى الأخرى وقت أن بدأ ساعد دولة القريشيين فى يثرب يقوى ويشتد تعانى من معضلات متفاقمة تختلف فى بعضها عن مشاكل الدولة الفارسية وتتماثل فى البعض الآخر .

أولى المشاكل التى تباينت فيها عن نظيرتها الفارسية هو مايمكن أن نسميه المشكلة الدينية أو المشكلة العقيدية .

واختلاف أبناء الدين الواحد وتفرقهم شيعاً وطوائف اختلافاً يصل إلى درجة العراك الدموى أمر ثابت ومعروف فى تاريخ الأديان الإبراهيمية الثلاثة بدأ باليهودية ثم انتقل إلى المسيحية ومنها إلى الإسلام ، وهو ما أكد وقوعه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من استقرائه لأحوال الديانتين السابقتين - اليهودية والنصرانية - ولنقاط التشابه بين العقائد الثلاث - بأن أتباعه المسلمين سوف يفترقون على ثلاث وسبعين فرقة كما افترقت من قبل النصارى على اثنتين وسبعين فرقة واليهود على إحدى وسبعين فرقة وذلك فى حديث مشهور له ؛ وأسباب تنازع المؤمنين بالدين الواحد إلى حد التقاتل متنوعة ولا مجال لذكرها هنا ، وإن كنا تناولنا بعضاً منها فى كتابات لنا سابقة .

انتشرت المسيحية من مهدها فى فلسطين حتى وصلت إلى روما عاصمة الإمبراطورية ، بدأت بالجماهير - كما هى العادة فى كل دين - ثم انتقلت إلى الحكام ، ونظراً إلى أن بيئة شعوب الإمبراطورية كانت مختلفة عن البيئة التى شهدت ميلاد المسيحية ، وبعضها كان متشبعاً بالثقافتين اليونانية واللاتينية فقد كان من البديهى أن تصبح لمعتنقى المسيحية وخاصة الطبقة المثقفة نظرات فلسفية ، ومن هنا بدأ البحث فى أمور لاهوتية معقدة أشد التعقيد مثل :

هل للمسيح عليه السلام طبيعة واحدة إلهية أم له طبيعتان إحداهما إلهية والأخرى إنسانية؟ وهل له مشيئتان أم مشيئة واحدة ؟ وهل له طاقتان أم طاقة واحدة ؟

وهل هو مساوٍ له فى الجوهر أم لا ؟

وهل السيدة مريم - عليها السلام - يصح أن نطلق عليها «أم الإله» ، وإذا جاز ذلك فهل أمومتها له تشمل الطبيعة الإنسانية أم الطبيعتين الإلهية والإنسانية ؟

وهى كما يرى القارئ مسائل فلسفية ونحن نعلم أن الشق الشرقى من الإمبراطورية الرومانية كانت ثقافته اغريقية وأهم ماامتاز به اليونان فلسفتهم فضلاً عن أن (أهل بيزنطة كانوا شديدى الإيمان بالخرافات والأساطير وكانوا بجميع طبقاتهم مولعين بالجدل والنقاش فى المسائل الدينية وأصبح ذلك فيهم غريزة وسليقة لاتكاد تفارقهم)[1] .

كان الخلاف على المسيح عليه السلام هل له طبيعة واحدة أم طبيعتان؟ هو الأشد ضراوة حتى أدى إلى شطر الكنيسة المسيحية إلى

---

(١) د . عبد السلام عبد العزيز فهمي ، **فتح القسطنطينية** ، ص ٤٢ ، الطبعة الاولى ، المكتبة الثقافية ، الكتاب رقم ٢٢٧ ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، القاهرة .

كنيستين سنة ٤٥ م وانقسم أتباع عيسى عليه السلام إلى كاثوليك (المؤمنين بالطبيعتين) وأرثوذكس (المؤمنين بالطبيعة الواحدة) (ويتبعهم أيضاً السريان الذين أطلق عليهم فيما بعد اليعاقبة)[٢] .

تعددت أثناء ذلك المذاهب نذكر منها على سبيل المثال :

الإثناسية ، الأريوسية ، البلاجيوسية ، النسطورية ، الدوناتية . . . . إلخ .

وكان أباطرة بيزنطة من المؤمنين بالطبيعتين وخالفتهم فى ذلك كنيستا الإسكندرية وإنطاكية على وجه الخصوص ويمكن القول إن الشعوب الشرقية (الشام ومصر) تمذهبت برأى أو عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح عليه السلام .

وأبدى أباطرة الدولة الرومانية الشرقية تعصباً مقيتاً شايعهم فيه البطارقة الذين كانوا يدورون فى فلكهم ، وأخذوا يضطهدون مخالفيهم القائلين بالطبيعة الواحدة حتى إنهم أطلقوا عليهم لقب «الهراطقة» والواقع (أنه لم يكن فى القرن الخامس الميلادى مسألة اشتد حولها الخلاف مثل ما اشتد حول مسألة الطبيعة الواحدة والطبيعة المزدوجة فى المسيح أو حول الطبيعة التى يمكن التعبير عنها باتحاد الطبيعتين تعبيراً دقيقاً)[٣] .

* * *

(٢) د . ابراهيم صبحي ، «مصر في عهد الرومان» ، ص ٢١٩ من **موسوعة الحضارة المصرية** ، المجلد الثاني ، العصر اليوناني ، الروماني ، العصر الاسلامي ، ألفه نخبة من العلماء ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، الموزع : مكتبة مصر بالفجالة .

(٣) هـ . أ . ل . فيشر ، **تاريخ أوروبا– العصور الوسطى** ، نقله الى العربية محمد مصطفى زيادة ، السيد العريني ، ص٥٦ ، الجزء الأول ، الطبعة السادسة ١٩٧٦ م ، جمعية التاريخ الحديث بالاشتراك مع دار المعارف بمصر .

فى عهد إنسطانيوس (٤٩٢/ ٥١٨م) سادت فترة هدوء نسبى ولكن لما تولى الحكم الإمبراطور يوستنيوس الأول (جوستين الأول ٥١٨/ ٥٢٧م) اشتد الاضطهاد إذ أمر بغلق الكنائس فى مصر ، ولم يجد الشعب المصرى مكاناً للصلاة ، فبنوا كنيستين سراً فى المكان المعروف باسم السوارى غربى الإسكندرية . . وقد خطا يوستانيوس خطوة أوسع فى اضطهاد المصريين وإرغامهم على قبول مذهب الطبيعتين . . . وشهد عهده مذبحة كبرى قتل فيها عدد من أفراد الشعب الذين رفضوا اتباع عقيدته . . . .)[٤] .

وكان جوستنيان من الأباطرة الذين أمعنوا فى اضطهاد أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة وهم «المونوفيزتيون» ، ولو أنه حاول التوفيق بين المذهبين وهادن خصومه بعض الوقت ولكن جهوده تلك ذهبت أدراج الرياح فعاد إلى التنكيل بهم بشتى السبل منها : منع نسخ كتبهم وقطع أيدى نُسَّاخها وتشريد أحبارهم ورهبانهم وبطاركتهم وقسوسهم (ولم يخف جوستنيان بغضه الشديد تجاه الطوائف المسيحية التى لاتدين بمذهب الدولة لأنهم«لايستحقون إلا كل إزدراء» على حد قوله ، هذا فضلا عن أنه جعل اعتناق المذهب الخلقيدونى شرطاً أساسياً فى شغل وظائف الدولة ، وبذلك أعطى امتيازاً لأتباع مذهب الدولة على باقى الطوائف وعمل على تطبيق هذا القانون بكل حزم)[٥] .

وبعد جوستنيان (زاد اضطهاد الرومان للأقباط حتى إن الرومان حرموا الأقباط من الكنيستين اللتين بنوهما سراً فى غرب الإسكندرية . . . وفى ٦٣١م عين هرقل بطريكا ملكانيا أو ملكياً اسمه «كيرس» وهو الذى اشتهر باسم «المقوقس» وهو الذى عاصر فتح العرب لمصر ، زاد

---

(٤) د . إبراهيم صبحى ، «مصر في عهد الرومان» ، ص ٢٢٤ ، المرجع السابق .
(٥) د . محمد فتحى الشاعر ، **السياسة الشرقية** . . . ، ص ١٤٢ ، المرجع السابق .

اضطهاد المصريين اضطهاداً رهيباً مما نفرهم منها فى وقت كانت فيه محتاجة أشد الاحتياج إلى استرضاء الأقباط بسبب حرج موقفها فى حربها مع الفرس) (٦) . وكانت النتيجة المحتومة أن رحبت الشعوب المضطهدة ومنهم المصريون (أيما ترحيب بالفاتحين «العرب» لينقذوهم مما يشكون من اضطهاد) (٧) .

وهذا ما أجمع عليه المؤرخون كافة (أن تلك الشقوق - أى الناجمة عن الاضطهاد ظلت تتسع اتساعاً مضطرداً فأضعفت روح الولاء نحو القسطنطينية لاسيما فى مصر والشام ومهدت الطريق - فيما يظهر - للفتوح الإسلامية)(٨) .

ومما يذكر بالحمد والثناء لأقباط مصر صلابتهم وتمسكهم بمذهبهم رغم المحن الشديدة التى تعرضوا لها على أيدى الرومان الطغاة (إن الكنيسة القبطية ثبتت على مر الأيام ولا تزال تقوم على صخرة المونوفيزتية القديمة)(٩) ، ولقد (فعل الأقباط هذا بينما خارت قوى غالبية أسقفيات العالم المسيحى واضطرت إلى الخضوع لسيطرة الرومان وبابوات روما - ولم يقف إلى جوار الإسكندرية غير أسقفية أنطاكية التى لاقت صورة مشابهة من الاضطهاد وتحمل أساقفتها العزل والنفى وتحمل شعبها الاضطهاد)(١٠) .

كانت هناك مشكلة أخرى تتعلق بالدين إذ مورس تعصب وتعنت

---

(٦) د . إبراهيم صبحى ، «مصر في عهد الرومان» ، ص٢٢٥ ، المرجع السابق .

(٧) والتر السون فيلبس ، ص ٣٧٦ فى الفصل الذى عنوانه « حرب المذاهب» من كتاب **تاريخ العالم** ، مرجع سابق .

(٨) هـ . أ . ل . فيشر ، **تاريخ أوروبا- العصور الوسطى** ، ص٥٨ ، مرجع سابق .

(٩) المرجع السابق .

(١٠) د . إبراهيم صبحى ، ص ٢٢٠ ، المرجع السابق .

بالغان ضد فرقاء من مواطنى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، مما جعلهم يضيقون ذرعاً بحكامها حتى تمنوا زوالها بل عمل بعضهم على ذلك .

لم يتسع صدر الأباطرة لمخالفيهم فى المذاهب وإن اتحدوا معهم فى الملة ، فما بالكم بمن لايتبعون دينهم وهم : الوثنيون ، السامريون ، اليهود .

أما عن الوثنيين (فمنذ منتصف القرن الرابع الميلادى أصدر الإمبراطور قنسطانز والإمبراطور قنسطنيوس سنة ٣٤٢م قانوناً نص على إغلاق معابد الوثنيين فى كل مكان ، ومصادرة أملاكهم و تحويلها إلى خزانة الدولة) [١١] . واهتدى جوستنيان بسنة أسلافه فى ذلك حتى قضى على الوثنية والوثنيين بشكل نهائى .

* * *

يتمركز السامريون فى فلسطين ، وبينهم وبين المسيحيين خلاف عقائدى ، وهم بعكس الوثنيين لهم كتاب مقدس ويؤمنون برسالات السماء ولهم شعائرهم وطقوسهم ، ولكن هذا جميعه لم يشفع لهم عند حكام بيزنطة الذين حاولوا تنصيرهم ، ولما خاب مسعاهم نالهم الإضطهاد ومصادرة الأموال والأملاك وهدم المعابد وشرع شطر منهم فى الإنتفاض ضد السلطة وتظاهر الآخرون بالدخول فى دين المسيح عليه السلام - حتى تتاح لهم فرصة الثورة ، وهى نظرية معروفة فى كل الملل باسم (التمكن) . وأرادوا أن يثأروا لأنفسهم مما وقع عليهم من اضطهاد فأغروا (قباذ) ملك الفرس باحتلال فلسطين (وهكذا نجح السامريون فى عرقلة جهود السلام بين القوتين العظميين ومن الانتقام لأنفسهم من الرومان الذين اضطهدوهم فى فلسطين سنة ٥٢٩م) [١٢] ، وظل

(١١) د . محمد فتحى الشاعر ، **السياسة الشرقية . . .** ، مرجع سابق ، ص ١٤٢ .
(١٢) المرجع السابق ، ص١٩٣ .

السامريون يواصلون الانتفاضة والثورة بعنف مرة بعد أخرى مما اضطر جو ستنيان في آخر الأمر إلى إلحاق أقسى صنوف العذاب بهم .

* * *

بدأت مضايقات الرومان لليهود مع فجر القرن الخامس الميلادى ، منذ عهد تيودوسيوس الثانى ٤٠٨/ ٤٥٠م مثل فرض الضرائب على المعابد ورفض التصريح ببناء معابد جديدة ، وإذا بنى منها شىء دون ترخيص صودر ، وتحريم الختان ونفى من يباشره ، ومنعهم من تولى الوظائف المتقدمة . . . . إلخ ودرج الأباطرة على نهج هذه السياسة المتعصبة حتى أمسك جوستنيان بيديه صولجان الملك وكان مسيحياً تقياً يتوقد حماسة لدينه ، ويعمل على نشره ، ويمقت أتباع الديانات الأخرى ، ويود فى قرارة نفسه لو ألقى بهم خارج حدود إمبراطوريته ومن ثم فلم يكتف بتلك الأعمال التعسفية التى كان ينزلها من سبقوه من الأباطرة على اليهود بل (مس جوهر عقيدتهم ذاتها مستهدفاً تعديل مفاهيمهم عن المسيح بما يتطابق مع العقيدة المسيحية)(١٣) ومن نافلة القول أن نضيف أن اليهود لم يذعنوا له لأنهم يعتبرون أنفسهم أصحاب الديانة الإبراهيمية الأولى التى تفرعت عنها باقى الديانات ، وأنهم الأساس والأصل وكيف يتبع الأصل الفرع الذى نبت منه ؟

* * *

تلك الممارسات القمعية من قبل أباطرة بيزنطة ضد الطوائف اللامسيحية وما نجم عنها من تداعيات كانت من أسباب تضعضع بنيان إمبراطورية الشرق الرومانية .

* * *

(١٣) د . محمد فتحى الشاعر ، **السياسة الشرقية** . . . ، مرجع سابق ، ص ١٥١ .

عندما تناولنا الدولة الفارسية بالدراسة ، ذكرنا أن من بين أسباب انهيارها : الحروب الطاحنة التى دارت بينها وبين الدولة البيزنطية ، وإذ أنها قاسم مشترك بينهما فلا موجب لسرد وقائعها مرة أخرى هنا ونحن بصدد بحث أحوال دولة الرومان فى الشرق . بيد أننا سوف نوضح جانباً حربياً آخر ونعنى به المعارك التى استخدمت كل واحدة منهما الدويلة العربية التى كانت تتبعها وتدين لها بالولاء .

كانت دولة الغساسنة تقع على مشارف الشام وسبقهم إليها الضجاعم ولكنهم غلبوهم وأنشأوا لأنفسهم دولة دخلت فى تبعية مع الروم الذين درجوا على النظر إليها باستعلاء واستكبار ولكن بعد احتدام حروبهم مع الفرس خاصة فى القرن الخامس الميلادى (اضطروا إلى استنصار عرب الشام وهم الغساسنة)(١٤) . قدر الإخباريون العرب عدد ملوك غسّان باثنين وثلاثين ملكاً ، ولكن نولدكة نزل بهم به إلى عشرة ملوك فحسب ، إنما يهمنا منهم الحارث بن جبلة ؛ إذ أنه كان (من أكبر أعوان بلزاريوس القائد الروماني ، فى محاربة الفرس سنة ٥٣١)(١٥) .

لما أفلح كسرى أنوشروان فى اجتياح الشام وآسيا الصغرى وكاد يفتح القسطنطينية العاصمة واهتزت مملكة الروم المشارقة (وارتعدت فرائص القيصر فاستنهض قائده بليزاريوس واستنصر عرب غسّان ، وخلع على زعيمهم الحارث بن جبلة ، فمشى جند الروم بقيادة هذين الرجلين وتقدم بليزاريوس فى معظم هذا الجيش ، حتى خالف جند كسرى فى الطريق فنزل مابين النهرين وتجاوز نصيبين إلى بلاد فارس وخلف الحارث

(١٤) جرجي زيدان ، **العرب قبل الإسلام** ، طبعة جديدة ، راجعها د . حسين مؤنس ، ص ٢١٤ ، دار الهلال .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

وراءه ليستأثر بثمار الفتح والنهب)(١٦) ، ويبلغ الحارث لدى الروم مكانة رفيعة حتى إن قيصرهم خلع عليه عدة ألقاب مثل : الصفى والمحترم والملك والمختار والأمجد والشريف ، كذلك استعمل الرومان الحارث فى إنزال ضربات موجعة بدويلة المناذرة التابعة للفرس إذ (نجح جوستنيان فى زيادة التوتر القائم بين عرب إمارة الحيرة - أى المناذرة - وبين الحارث بن جبلة وحرضه على القيام بغزوة انتقامية على أراضى الحيرة والقلاع الفارسية المجاورة) (١٧) وكان ذلك هو الرد البليغ على ما قام به المنذر سنة ٥٢٧م من الإغارة على ثلاثة أقاليم رومانية قريبة من الحدود الفارسية ، وأنزل بها خراباً شديداً .

وبهذا يبين أن الرومان والفرس لم يكتفيا بالمواجهة المباشرة بينهما بل عمل كل فريق على تحريض الدويلة التابعة له ، وكانت هذه الحروب غير المباشرة تكلف كلاً منهما الكثير من أسباب الوهن الذى أصاب كليهما .

هذا بالإضافة إلى وجود قبائل عربية كانت تعمل لحسابها الخاص وتغير على تخوم كل منهما ، وتنهب ماتسطيع نهبه مما كان ينال من هيبتهما ويكبدهما الكثير من الخسائر (وهكذا نجد أن البدو يقومون فى تاريخ الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية بدورى المغير والتاجر . وحاولت الإمبراطوريتان بشتى الطرق الدفاع عن نفسيهما من الغارات المعادية التى يشنها البدو للسلب والنهب)(١٨) .

* * *

ومن المشكلات التى عانت منها بيزنطة أن الدولة الفارسية قد ضيقت

---

(١٦) جرجي زيدان ، **العرب قبل الإسلام** ، مرجع سابق ، ص ٢١٤ .

(١٧) د . محمد فتحى الشاعر ، **السياسة الشرقية . . .** ، مرجع سابق ، ص ١٧٦ .

(١٨) مادة « بدوى » ، **دائرة المعارف الإسلامية** ، المجلد السادس ، ص١٩٤ ، إعداد وتحرير إبراهيم زكى خورشيد وآخرين ، طبعة دار الشعب بمصر .

عليها الخناق فى التجارة العالمية مما أصاب ماليتها بالعسر (. . . . هكذا أصبح من الواضح أن السياسة الرومانية فشلت أثناء عهد جوستنيان فى مقاومة الاحتكار الفارسى للتجارة العالمية سواء فى جزيرة سيلان أو فى الموانى الفارسية ذاتها ، وكان على رأس هذه السلع التجارية الحرير الصينى)[١٩] .

كذلك قام ذو نواس الحميرى اليمنى ببتر شريان التجارة بين الأحباش والرومان ؛ بأن قتل التجار الرومان وقطع طريق القوافل بين الحبشة وبيزنطة فأوعز قيصرها إلى ملك الحبشة لتأديب ذى نواس فاستجاب لندائه وأرسل قائدية أرياط وأبرهة فقاما بذلك ، ولكن الأخير خيّب آمال قيصر بيزنطة ؛ إذ سلك سياسة شبه مستقلة ثم امتدت أطماعه إلى مكة لأنها كانت مركزاً تجارياً هاماً وطريقاً حيوياً للقوافل ، ولكنه فشل فى ذلك لأن جيشه لم يتحمل حرارة جو الصحراء ، وهكذا يبين أن الدوافع وراء قتل ذى نواس لأصحاب الأخدود - تجار الرومان النصارى - وغزو أبرهة لمكة المعروفة بـ (واقعة الفيل) لم تكن دينية غيبية بل كانت بواعث اقتصادية وتجارية [٢٠] . إذن لم يكن الفرس وغيرهم هم الذين حرموا بيزنطة من هذا الشريان التجارى الحيوى بل انضم إليهم اليمنيون وإلى حد ما الأحباش .

وافتقاد دولة الرومان المشارقة لهذا المورد المالى ضاعف من مصاعبها وسارع فى خطوات انهيارها .

* * *

انقسم المجتمع الرومانى المشرقى إلى طبقة الأشراف وطبقة العامة ،

---

(١٩) د . محمد فتحى الشاعر ، **السياسة الشرقية . . . ،** مرجع سابق ، ص١٧٩ .

(٢٠) سيف على مقبل ، **دراسات فى التاريخ اليمنى** ، ص ٤٤ ، الطبعة الأولى ١٩٨٨ م ، نشرته دار الهمدانى ، عدن - اليمن .

وهذه الأخيرة كانت محرومة من معظم حقوقها ولو أن أحوالها خاصة في العاصمة والمدن كانت أحسن بعض الشئ من نظيرتها في الدولة الفارسية إذ وجد بعض الأباطرة الذين حاولو أن يقوموا ببعض الإصلاحات التشريعية والإدارية التي تنصف الشعب وعلى رأسهم جو ستنيان ؛ وفي المدن (مما حال دون التقدم الاقتصادي ظهور نظام طوائف الصناع والتجار وقد كان هذا النظام يحول دون حرية التجارة والصناعة بعد أن أصبحت المهن وراثية) [٢١] .

كما أن الضرائب كانت شديدة الوطأة على العامة (وقد بلغ من قسوة الضرائب حتى وقت السلم أن الأغلبية العظمى من الإمبراطورية كانت فيما يبدو تعيش على الدوام فوق حد الكفاف بقليل وكان يزيد من شر هذه الضرائب الفادحة ماكان يتبع في جبايتها من أساليب ممقوته ، وكان المألوف أن تجمع الضرائب بطريقة الالتزام أى أن تباع ضرائب الإقليم مقابل مبلغ من المال يدفع فوراً على حساب دافعي الضرائب المنكودين ،وكثيراً ماكان يلجأ إلى العنف والتعذيب لاغتصاب آخر درهم لديهم ، وقد ألغى جستنيان هذا النظام في يوم من الأيام إلا أنه سرعان ماعاد إليه لشدة الحاجة إلى النقد ، فإذا ماذكرنا ازدهار العمارة والمجد الحربي أيام جستنيان فإن علينا أن نذكر الوجه الآخر في صورة الدولة في عهده)[٢٢] .

كذلك كانت الألقاب والوظائف كبيرها وصغيرها تشترى بالمال ذلك أن الوظائف كانت موارد دخل تدور حولها المساومات) [٢٣] .

---

(٢١) د . محمد عبد المنعم بدر و د . عبد المنعم بدراوى ، **مبادىء القانون الرومانى** ، ص ١٢٩ - ١٣٠ ، طبعة ١٩٥٦م بنشرته دار الكتاب العربى بمصر .

(٢٢) ف . ن . بريس ، « القسطنطينية فى عصر جستنيان » ، ص ٣٣١ من الفصل الخامس والثمانين من **تاريخ العالم** ، مرجع سابق .

(٢٣) ف . هـ . مارشال ، « الحركة البيزنطية فى مظاهرها المختلفة » ، ص ٧٠٢ من الفصل الواحد بعد المائة من **تاريخ العالم** ، مرجع سابق .

وساءت حال الفلاحين الذين كانوا (يعيشون فى حماية كبار الزراع فى حالة بين الحرية والرق) [٢٤] ، ويؤكد ف . ن . بريس هذه الحقيقة بقولة (غير أنه لم يكن لأهل العاصمة مايشكون منه إلا القليل ، فإنه علينا أن نذكر أن حظ أهل الريف كان تعساً إلى أقصى حدود التعاسة فكثيراً ماكان الغزاة يغيرون على أحسن أقاليم إمبراطورية جوستنيان ويخربونها فيحرقون منازلها ويتلفون زرعها ومحصولها ويتخذون أهلها التعساء عبيداً لهم أو يقتلونهم تقتيلاً) [٢٥] ويمكن إجمالاً أن يقال إنه (من الناحية الاقتصادية كان العصر عصر تدهور أيضاً فقد قل الرخاء بسبب القلاقل والاضطرابات التى سادت فى هذا العصر ونتيجة للغزوات التى تعرضت لها الإمبراطورية فزال الأمن اللازم لازدهار المعاملات الاقتصادية ولذلك ارتفعت الأسعار) [٢٦] .

هذا البؤس الذى رزح تحت نيره الشعب هو الوجه الآخر من العملة ، أما وجهها الأول فهو الإسراف الذى كان سمة مميزة للأباطرة البيزنطيين ، بدءاً بالإمبراطور قسطنطين الذى أسس مدينة القسطنطينية وبذل فى إنشائها الأموال الطائلة واستقدم العمال ومواد البناء من جميع الأرجاء حتى تكون جديرة بحاضرة الملك وتقف على قدم المساواة وتنافس روما عاصمة إمبراطورية الغرب ، وسار خلفاؤه على منواله إلى أن جلس على سرير الملك الإمبراطور جستنيان الذى كان (دون ريب من كبار البناة فى العالم ، إلا أن هذا الجهد الكبير استنزف موارد الإمبراطورية) [٢٧] .

فما هو هذا الجهد الكبير الذى استنزف المواد؟

---

(٢٤) د . محمد عبد المنعم بدر وآخر ، **مبادىء القانون الرومانى** ، ص ١٣٠ ، مرجع سابق .
(٢٥) ف . ن . بريس ، ص ٣٣١ ، المرجع السابق .
(٢٦) د . محمد عبد النعم بدر وآخر ، ص ١٢٩ ، المرجع السابق .
(٢٧) ف . ن . بريس ، ص ٣٢٦ ، المرجع السابق .

بنى العشرات من القصور والكنائس والتماثيل . . . إلخ وأعاد بناء القصر الإمبراطورى ومبنى مجلس الشيوخ وكنيسة الحكمة المقدسة - أيا صوفيا - التى احترقت من بين ماالحترق فى (ثورة انيقا) التى سوف نذكرها بعد قليل ، وأنفق على تجديدها مبالغ أسطورية والأوصاف التى يوردها المؤرخون عن هذه الكنيسة تفوق مايتصوره الخيال ، كذلك وحتى يخلد خاله الإمبراطور جوستين وزوجته تيودورا بنى باسم كل منهما مدينة ، أما (المدن التى حملت اسم جستنيان بالشرق فهى عديدة)[٢٨] ولكن هذه المدن لم تخلد ذكره بقدر ماخلدته مجموعته القانونية ، لأن الأعمال الفكرية أبقى على الزمن من المنشآت المادية .

هذا الإسراف الجنونى فى البناء والتشييد لمؤسسات لايفيد منها الشعب فائدة مباشرة مع المبالغة المفرطة فى الإنفاق عليها فى حين أن الشعب كان يتكدس فى مساكن متواضعة أشد مايكون التواضع وتفتقر فى معظمها إلى المرافق الضرورية مع إحاطته بالمصاعب الحياتية من كل مكان - كل هذا شكَّل البواعث الدافعة لانتفاضة الشعب أو ثورته على جستنيان ثورة مسلحة حاول جهده فيها خلعه عن العرش وتنصيب آخر بدلاً منه وكاد النجاح يحالف الثائرين لولا رباطة جأش تيودورا زوجة الإمبراطور ودموية قائده بلزاريوس الذى أجهز على ثلاثين ألف رجل من الثوار فى ساعات قلائل وتلك الثورة عرفت فى كتب التاريخ بـ «ثورة نيقا» أو «انتفاضة نيقا» .

وإذا عد جستنيان من أعاظم البنائين من بين الأباطرة أو حتى من بين حكام العالم على مدار التاريخ فإن ذلك قد تم على حساب القاعدة الجماهيرية العريضة التى عاشت فى أحوال متردية مزرية - نذكّر هنا بما سبق أن قلناه أنها كانت أحسن من نظيرتها الفارسية -ولكن (كان النبلاء

(٢٨) د . محمد فتحى الشاعر ، **السياسة الشرقية** . . . ، ص ١٠٧ ، المرجع السابق .

على ثراء حسن ، يعيشون فى ترف . . وإن كان دون ترف أيام روما المجيدة- وكان الذهب والعاج اللذان يطعم بهما أثاث قصورهم الفخمة يتلألآن فى تلك القصور ، ولم يكن من غير المألوف على الإطلاق أن يقوم على خدمة صاحب القصر ألفان من العبيد أو ثلاثة آلاف)[٢٩] .

* * *

هذا السفه الإمبراطورى والتفاوت الطبقى الرهيب بين رجل يخدمه ثلاثة آلاف عبد وأمة وآخر يكاد لايحصل على قوته وقوت أطفاله إلا بشق النفس هما إفراز طبيعى لمجتمع منحل متهرئ ، ولهذا لم نستغرب عندما نقرأ أن الدعارة كانت متفشية فيه لدرجة كبيرة حتى نساء الطبقة الراقية لم يفلتن من شباكها ، أما الفقراء والمعوزون فكانت ظروفهم البائسة تضطرهم اضطراراً وتدفعهم دفعاً إلى بيع بناتهم فى سوق البغاء بأبخس الأثمان ومن ثم انتشرت تجارة الرقيق الأبيض ، وغدت شوارع المدن وخاصة العاصمة تكتظ بالبغايا .

حارب جستنيان هذا الداء الاجتماعى الوبيل بطريقة عملية بمعونة زوجته تيودورا التى قيل إنها كانت تمارس تلك المهنة البغيضة قبل زواجها منه - بأن أقاما للبغايا اللائى كففن عن مزاولة البغاء داراً أطلقا عليها (قصر التوبة) وذلك بعد إصدار قانون يحرم البغاء ويقضى بمطاردة المتكسبين من تجارته ونفيهم إلى الخارج .

كذلك كان اللواط متفشيا بين الطبقات كافة حتى القسس ، الأمر الذى حدا الإمبراطور جستنيان الى محاربة اللوطية وعقابهم والتشهير بهم وكان من بين الشواذ الذين شهَّر بهم بعض القساوسة . ولم يكن هذا هو مظهر الفساد الوحيد فى الكنيسة بل إنه سرى إلى شرايينها (. . كان منصب الأسقف قد تطرق إليه الفساد والتدهور ، إذ كان فى استطاعة أى

(٢٩) ف . ن . بريس ،« القسطنطينية فى عصر جستنيان» ، ص ٣٣١ ، مرجع سابق .

أمى لايعرف القليل عن مبادىء الإيمان المسيحى الوصول إلى هذا المنصب طالما فى مقدوره دفع الثمن المطلوب حتى ولو كانت حياته ملطخة بالوحل) [٣٠] . ولعل مايؤكد وصول مجتمع الإمبراطورية الرومانية الشرقية قمة الانحلال والتفسخ هو استشراء الفساد فى مؤسسة دينية أخرى قامت أساسا على العفة والطهارة وقمع الشهوات والإعراض عن اللذات . . . إلخ ونعنى بها (المؤسسة الديرية) فقد تغلغلت الجنسية المثلية فى الأديرة التى تضم نوعا واحدا (السحاق فى أديرة الراهبات واللواط فى أديرة الرهبان) - أما فى الأديرة المشتركة أى التى تضم الرجال والنساء فقد تفشى الزنا والمخادنة بل بلغ إلى حد قيام بعض الرهبان باغتصاب عدد من الراهبات (بالرغم من أن عقوبة الاعتداء على الراهبة كانت الإعدام منذ عهد الإمبراطور يوفيان أوجوفيان ٣٦٣/ ٩٤٣م)[٣١] ، ومن المضحك المبكى أن الاتصال الجنسى مع الراهبات فى أديرتهن كان يتم تحت ستار استقدام الرهبان لأداء بعض الطقوس العبادية بل والجنائزية ، ولم يكتف الرهبان بنزواتهم داخل الأديرة بل امتدت نزواتهم إلى خارجها مثل : التردد على أماكن اللهو وتعاطى الخمور وغشيان بيوت الفواحش مما كان مثار سخرية جميع فئات الشعب وهبط بسمعة رجال الدين بعمومهم إلى الحضيض وهذا حفز الإمبراطور جوستنيان إلى إصدار تشريع من تسعة فصول لإصلاح أحوال المؤسسة الديرية وهو الـ (نوفلا رقم ٥ لسنة ٥٣٥م عن الرهبان)[٣٢] .

* * *

(٣٠) د . محمد فتحى الشاعر ، **السياسة الشرقية** . . . ،ص ١٢٩ - ١٣٠ ، مرجع سابق .

(٣١) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

تلك صورة إجمالية أو موجزة للإمبراطورية الشرقية (البيزنطية) ، أيام تخلق دولة قريش فى يثرب ثم نموها فاستوائها على عودها ، يبين منها أن الإمبراطورية المذكورة كانت تترنح وتوشك على السقوط ولهذا كان طبيعيا أن تجتاح الجيوش العربية الإسلامية شطراً كبيراً من البلاد التى بسطت يدها عليها فى فترة وجيزة ولا زال هذا الأمر يثير دهشة المؤرخين ، ولكن فى الحقيقة لو أمعنا النظر فى ظروف الإمبراطورية الرومانية المشرقية لارتفع العجب وتأكد لدينا أنه كان متوقعا بل ومحتوما ، وأيا كان الرأى فى هذه النقطة التى ربما يرى البعض أنها تخرج عن نطاق بحثنا وأننا أوردناها من باب الاستطراد ، فإن الأمر المتيقن أنه فى الوقت الذى طفقت فيه أركان دولة قريش تتوطد حتى تأسست فى يثرب وأعلنت عن نفسها كانت تلك الإمبراطورية قد حكمت عليها أحوالها بالذبول والانكماش ، وهذا جميعه بلا ريب جاء متوافقاً مع مصالح القرشيين .

٣

الأنصار : المزاج النفسى والظروف الموضوعية

كان عقد بيعة العقبة علامة مميزة بل فارقة فى تاريخ دولة قريش فى يثرب ، فالأوس والخزرج (الأنصار فيما بعد) الذين عاقدوا محمداً - عليه الصلاة والسلام - أصبحوا من أشد أتباعه إخلاصاً وأكثرهم تضحية ، رحبوا بالقرشيين الذين هاجروا إلى بلدهم وشاركوهم فى أموالهم ومعايشهم (كانت الأنصار إذا جزّواْ نَخْلهم قسّم الرجل ثمره قسمين أحدهما أقل من الآخر ، ثم يجعلون السعف مع أقلهما ، ثم يخيّرون المسلمين فيأخذون أكثرهما ويأخذ الأنصار أقلهما مع السعف حتى فتحت خيبر) (١) . وفى حديث آخر (أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه - قدم المدينة فآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى رضى الله عنه فقال له سعد : أى أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالى فخذه وتحتى إمرأتان أيتهما أعجب) (٢) أى أيتهما أعجبتك أطلقها وتتزوجها ولكن عبد الرحمن بن عوف رضى الله

(١) أخرجه البزار عن جابر رضى الله عنه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه .

عنه رفض هذا العرض السخي وقال (دلّوني على السوق ، فدلّوه فذهب فاشترى وباع وربح . . الخ) [٣] والأحاديث في هذا الباب عديدة وقدموا (الأنصار) للرسول عليه الصلاة والسلام الأموال والمهج وحاربوا معه ببسالة نادرة كل من عاداه وقد أشاد بهم القرآن الكريم في كثير من الآيات ، كما اعترف محمد عليه السلام لهم بالفضل وبكل مابذلوه وأنهم آووه ونصروه في الوقت الذى خذله فيه طواغيت قريش (اللهم أعز الأنصار الذين أقام الله الدين بهم ، الذين آووني ونصروني وحموني ، وهم أصحابي في الدنيا وشيعتي في الآخرة وأول من يدخل الجنة من أمتي) . [٤] وفي حديث آخر (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولموالي الأنصار) [٥] والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ، وكانت مؤازرة الأوس والخزرج لمحمد صلى الله عليه وسلم دون أى قيد أو شرط سوى ماوعدهم به من النعيم المقيم في الجنة (. . . قالوا أى الأنصار : إنه قد كان لك علينا شروط ولنا عليك شرط بأن لنا الجنة ، فقد فعلنا الذى سألتنا بأن لنا شرطنا قال فذاكم لكم) [٦] ، بخلاف غيرهم من القبائل التى علقت مؤازرتها لمحمد عليه السلام على شرط هو أن يكون لها الأمر من بعده (عن العباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى منازل بكر بن وائل ومنازل بنى عامر بن صعصعة . . . فبدأ ب «كندة» وعرض عليهم الإسلام ، فقالت كندة إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الملك لله يجعله حيث يشاء ، فقالوا

---

(٣) الحديث نفسه .

(٤) أخرجه البخارى عن عثمان رضى الله عنه وقال الهيثمى إسناده حسن .

(٥) رواه الطبرانى عن عوف الأنصارى رضى الله عنه .

(٦) رواه البزار من طريقين وفيهما مجالدوفيه خلاف ، وبقية رجال إحداهما رجال الصحيح .

لاحاجة لنا فيما جئتنا به . . .)[٧] وكان هذا يضاهي ماردَّ به عليه بنو عامر بن صعصعة (قال بحيرة بن فراس : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك يكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر لله يضعه حيث يشاء ؛ فقال له : أنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لاحاجة لنا بأمرك فأبوا عليه)[٨] ، والأمر فى لغة العرب آنذاك يعنى الحكم وهذا مايتضح من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة .

ولم يكن الأنصار (الأوس والخزرج) بغافلين عن المخاطر التى سوف تواجههم من جراء إتباعهم لمحمد (ص) ومؤازرتهم إياه (قال العباس بن عبادة بن فضلة الأنصارى أحد بنى سالم بن عوف : هل تدرون على ماتبايعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم ، قال إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود فإن كنتم ترون أنكم إذا وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة المال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله عز الدنيا والآخرة قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف)[٩] ولكنهم كانوا يرون أن ذلك قليل فى مقابل ما ينتظرهم فى جنات الفردوس التى فيها مالاعين رأت ولا خطر على قلب بشر ، إذن العاطفة الدينية المتأججة فى صدورهم كانت هى الباعث الدافع لهم على مسارعتهم لمناصرة محمد صلى الله عليه وسلم بل (قد كانت حماسة الأنصار لهذه البيعة (أى بيعة العقبة) شديدة وبعضهم أراد تنفيذها ومحاربة قريش فى عقر دارهم ، لقد قال العباس بن فضلة الذى نقلنا كلامه آنفاً : يارسول الله والذى بعثك

(٧) أخرجه الحافظ أبو نعيم عن العباس رضى الله عنه .

(٨) أخرجه الحافظ أبو نعيم عن إبن إسحق عن الزهرى .

(٩) أورده الشيخ محمد أبو زهرة (كان أستاذى فى كلية الحقوق) فى كتاب **خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم** ، ص ٥٠١ من المجلد الأول ، د . ت . ،نشرته دار الفكر العربى بالقاهرة .

بالحق : إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بسيوفنا ، فقال رسول الله (ص) ، لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم)[١٠] .

ولا شك أن سكناهم مع اليهود فى منطقة واحدة أعطتهم فكرة واضحة عن نظرية النبوة والحياة الأخرى والبعث والنشور والحساب والجزاء من الله تعالى لمن يعمل صالحاً ويجاهد فى سبيله وذلك كله دون غيرهم من القبائل . إذاً الأوس والخزرج (الأنصار) نظروا فى مسألة نصرهم للرسول محمد عليه الصلاة والسلام نظرة دينية أساسها العاطفة أما منظور الحكم والسياسة والإمارة والإدارة وماإليها فلم يخطر لهم على بال ، على الأقل فى بداية الأمر . إن مسارعتهم لمعاضدة محمد صلى الله عليه وسلم دون قيد أو شرط - خلا شرط الجنة - يقطع بأنهم كانوا يتمتعون بـ « شخصية عاطفية » و (صاحب هذه الشخصية يتعامل مع الغير ومع الحياة بشكل عام بعاطفته أكثر مما يتعامل بعقله ؛ وفى حالة التضارب بينهما فإنه يغلب العاطفة على العقل ولذلك فإن أقواله تتسم بالمزاجية والإندفاع) [١١] ؛ ولعل مايؤكد ذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم ظل فى مكة ثلاثة عشر عاماً ولم يتبعه سوى بضع عشرات لأن المكيين والقرشيين خاصة كانوا أصحاب «شخصية موضوعية» أو «شخصية طبيعية» وهى التى يتملك صاحبها خصائص (يستطيع توجيهها بشكل متوازن نحو تحقيق هدف حياتى معين)[١٢] والهدف عند صناديد قريش الذين عادوا محمداً صلى الله عليه وسلم كان هو كسب الأموال واكتنازها والعيش فى بلهنية ، وفى الصورة المقابلة نرى أن

---

(١٠) الشيخ محمد أبو زهرة ، **خاتم النبيين (ص)** ، ص ٥٠٢ ، مرجع سابق .

(١١) د . على كمال ، **النفس وانفعالاتها وأمراضها وعلاجها** ، الجزء الأول ، ص ٩١ ، الطبعة الرابعة ،١٩٨٩م ، دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع .

(١٢) المرجع السابق ، ص ٨٢ .

استجابة الأوس والخزرج لمحمد عليه السلام لم تستغرق سوى أسابيع معدودة ، فبعد بيعة العقبة أرسل محمد صلى الله عليه وسلم مصعب ابن عمير وكان يسمى القارىء والمقرئ لينشر دعوته بين جموع الأوس والخزرج فآمن بها سريعاً كل من أسعد بن زرارة وسعد بن عبادة رضى الله عنهما وكانا من وجوههم (ورجع سعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقاما عنده يدعون الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا فيها رجال ونساء مسلمون)(١٣) ، وإذ أن الفرد إبن مجتمعه (فإن المجتمع ككل وخاصة البيئة الإجتماعية المحيطة بالإنسان تمارس تأثيراً حاسماً على تكوين شخصيته) (١٤) إذ أنه كما يقول علماء الإجتماع (يرتبط الفرد بالمجتمع عبر خيوط كثيرة ، فظروف حياته المادية تتوقف كلية على مستوى التطور الذى بلغه فى العصر المعين تطور القوى المنتجة فى المجتمع ؛ ثم إن اهتماماته الروحية ، ونمط تفكيره ومبادئه الأخلاقية ، إن هذا كله نتيجة للتأثير الإجتماعى ويصبغ بصبغة الأنظمة الإجتماعية القائمة والتقاليد « القومية أو الإنسانية » التى صاغتها سلسلة عديدة من الأجيال)(١٥) .

أما عن الظروف المادية لمجتمع الأنصار (الأوس والخزرج) فسوف نتحدث عنها فيما بعد ، أما عن الإهتمامات فالثابت أنهم تأثروا بمواطنيهم من اليهود وهم أهل كتاب وسمعوا منهم عن الحياة الأخرى وما فيها من بعث ونشور وحساب وجزاء أو نار . . . الخ وفى المبحث الخاص عن «اليهودية» ذكرنا أن لهم «مدراس» فى يثرب فتجذر لدى الأوس والخزرج مزاج نفسى معين دون غيرهم من أبناء القبائل (والتكوين

(١٣) أخرجه ابن إسحق عن عبد الله بن بكر عن محمد بن عمرو بن حزم وغيره .
(١٤) **علوم الإجتماع** ، ص ٢٦٣ ، الترجمة العربية ، طبعة ١٩٨٨م ، دار التقدم ، موسكو .
(١٥) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

النفسى يتعرض لتأثير عناصر ثابتة نسبياً مثل التقاليد والسمات الطبقية أو السمات الخاصة لفئة معينة والمهنة والشعب والأمة أو أى مجموعة أخرى ، كما تمتزج السمات الثابتة للتكوين النفسى بالعادات أو نمط الحياة الموروث من الأجيال القديمة ومن البيئة ، وغالباً مايتم اكتساب هذه السمات دون إعتراض أو تفكير(١٦) ، ولما كان اليهود وهم أهل كتاب سماوى فقد تمتعوا بتقدم معرفى وثقافى وتراثى وعقائدى عن الأوس والخزرج ، فحدث من جراء ذلك إيحاء بسمو أفكارهم وديانتهم والثقة فيها (وقد ثبت بعض القوانين التى تحدد فى أية حال وفى أية ظروف يزداد مفعول الإيحاء ، ففى حالة الإيحاء الإجتماعى أقيم البرهان على تبعية مفعول الإيحاء للعمر والحالة البدنية . . الخ ولكن الأهم هو أن عوامل سيكولوجية إجتماعية خاصة تفعل فعلها فى حالة الإيحاء ، وقد أثبتت بحوث إختبارية كثيرة أن الشرط الحاسم لفعالية الإيحاء هو مكانة الموحى الذى خلق عاملاً خاصاً إضافياً للتأثير هو «الثقة» بمصدر الإعلام ؛ إن «مفعول الثقة» هذا يتوقف سواء على شخصية الموحى أم على الفئة الإجتماعية التى تُمثلها الشخصية . . .)(١٧) وبذلك تضافرت «الشخصية العاطفية» التى كان يتمتع بها الفرد فى الأوس والخزرج (الأنصار) والمزاج النفسى الجماعى «أو المجتمعى» الذى تخلق نتيجة البيئة التى عاشوها والإيحاء الذى وصل إليهم من اليهود أصحاب الكتاب المقدس « التوراة» - تضافرت كل تلك العوامل على سرعة الإستجابة لمحمد صلى الله عليه وسلم وتأييده ونصرته .

---

(١٦) ب . بروشنيف ، **علم النفس الإجتماعى والتاريخ** ، ترجمة سعد رحمى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ ، دار الثقافة الجديدة بالقاهرة .

(١٧) غالينا اندرييفيا ، **البسيكولوجيا الإجتماعية** ، ترجمة إلياس شاهين ، ص ١٧٠ ، طبعة ١٩٨٨ م ، دار التقدم ، موسكو .

وسبق أن ذكرنا تأثر الأنـصار باليهود فى نظرية النبوة وقرب ظهور نبي ولا حاجة بنا إلى تكراره .

* * *

لم تكن تلك هذه هى العوامل المنفردة بل إنضاف إليها ماتولد عن الظروف المادية التى عاشها ذلك المجتمع من إنعاكسات ذلك أن الأوس والخزرج كانوا يشعرون بقدر ملحوظ من الإحباط نتيجة لسيطرة « اليهود » على مقدرات « يثرب » الإقتصادية إذ كانت الزراعة والصناعة والأموال فى أيديهم (١٨) .

أما بخصوص مجتمعهم فقد كان ينقسم إلى أغنياء أصحاب مزارع وحيطان (بساتين) نخل وإلى عمال يعملون فيها بالأجر وحملت لنا كتب السيرة نتفاً من أخبار بعض أغنياء الأنصار نذكر منهم على سبيل المثال :

أ - سعد بن الربيع رضى الله عنه وسبق أن أوردنا الحديث الذى يقول فيه «أنا أكثر أهل المدينة مالاً» .

ب - سعد بن عبادة رضى الله عنه - وسوف نذكره بعد قليل (سيد جواد فهو صاحب راية الأنصار فى المشاهد كلها ، وكان وجيهاً من الأنصار - ذا سيادة ورئاسة يعترف قومه له بها وكان يحمل إلى النبى صلى الله عليه وسلم كل يوم جفنة مملوءة ثريداً وكانت تدور معه حيث دار) (١٩) .

ج - أسعد بن حضير رضى الله عنه فقد (كان أبوه فارس الأوس فى

(١٨) فضلاً أنظر المبحث الخاص عن « اليهودية» فى كتابنا هذا .

(١٩) عز الدين بن الأثير ، **أسد الغابة فى معرفة الصحابة** ، تحقيق محمد إبرهيم البنا وآخرين ، «حرف السين» ، المجلد الثانى ، ص ٣٥٦ ، كتاب الشعب ، د . ت . ، دار الشعب بمصر .

حـروبهم مع الخـزرج وكـان له حـصن « واقم » وكـان رئيس يوم بعـاث وأسلم أسيد قبل سعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير بالمدينة [٢٠] وامتلاك آل «حضير» لحصن «واقم» دليل على الثراء الواسع فضلاً عن تقليد اليهود الذين عرف عنهم تلك الحصون في منطقة «يثرب» ، ولقد أيد «أبو هريرة قال : إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله الموعد ، كنت رجلاً مسكيناً أخدم رسول اله ص على ملء بطنى ، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم . . .)[٢١] ويعنى أبو هريرة رضى الله عنه بالأموال التى وردت فى حديثه : المزارع والبساتين (الحيطان) لأنه ميز بينها وبين التجارة (الصفق فى الأسواق) شغل المهاجرين . لقد توافرت فى منطقة «يثرب» عدة عوامل جعلتها صالحة للزراعة ومثابة للبساتين والمزارع (فقد كانت الزراعة فى «يثرب» ومنطقتها تقوم على الرى الإصطناعى بصورة رئيسية . . وكانت فيها شبكة رى واسعة تقوم على استثمار المياه السطحية والجوفية . . . وكانت أوديتها تفيض بمياه السيول فتروى أراضى «يثرب» وأخصبها وأكثرها غلة بأيدى اليهود وأحبارهم ووجهاء الأوس والخزرج . . وكان كبار الملاك يستثمرون أراضيهم بطريقة «المؤاجرة» أو «المغارسة» أو «المزارعة» بالربع الثلث أو نصف الناتج أو أقل من ذلك أو أكثر)[٢٢] .

ذاك إذن كان مجتمع « يثرب » قبيل « بيعة العقبة» أو وقتها : ملاك أثرياء يمتلكون الأراضى الزراعية والمزارع والبساتين والحصون - الخ

---

(٢٠) عز الدين بن الأثير ، **أسد الغابة فى معرفة الصحابة** ، المجلد الأول ، ص ١١٢ ، «حرف الألف» ، مرجع سابق .

(٢١) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما وأحمد فى مسنده .

(٢٢) برهان الدين دلّو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، المجلد الأول ، ص ٧٤ - ٧٥ ، مرجع سابق .

أحاطوا أو أحيطوا علماً بمعتقدات اليهود واطلعوا أو طلع البعض عليها ووقف على خبرها ، ومزارعون فقراء يعملون فى الرى والزراعة إما بالأجر أو بالحصص وسمعوا عن تلك المعتقدات بالإضافة إلى أن الشوق إلى العدالة الإجتماعية كان يؤرقهم ويقض مضاجعهم ، فوجد هؤلاء وأولئك ماكانوا ينشدونه لدى محمد صلى الله عليه وسلم ومن هنا جاءت الإستجابة السريعة إليه وإلى نصرته .

* * *

كان الأوس والخزرج يتميزون بخلال حميدة منها : الشهامة والمروءة والنجدة وقد تمثل ذلك فى إقدامهم على نصرة عبد المطلب عندما جحده عمه « نوفل » حقه واستولى على أملاكه بـ «مكة» واستجابتهم السريعة لمحمدصلى الله عليه وسلم- ولكن من إستقراء أخبارهم نجد أن «الحنكة السياسية» كانت تنقصهم فهم لم يشترطوا على محمد عليه السلام أن يكون لهم الأمر «الحكم» من بعده كما فعل بعض القبائل ، وقدمنا فيما سلف تعليل ذلك كما لم يطالبوا أبا بكر رضى الله عنه بأن يوفى لهم بالعهد الذى قطعه على نفسه «سقيفة بنى ساعدة» بأن يتخذ منهم وزراء-

والبراهين على إفتقار الأوس والخزرج للدربة فى شئون السياسة كثيرة ومتعددة تعج بها دواوين السنة الصحيحة وموسوعات التاريخ العربى الإسلامى ، ولكن هناك ملمح بارز لايخفى بل إنه شديد الوضوح وهو عدم تنبههم إلى أن الدولة التى كانت تتخلق فى يثرب بلدهم كانت هى دولة القرشيين وحدهم بغير منازع أو شريك وهى نقطة بالغة الأهمية إذا أنها خدمت تلك الدولة خدمة لاتقدر ، إذ لوفطن الأنصار لذلك لكان الوضع سيختلف عما سار إليه أو صار إليه - وكان ذلك من حسن الطالع للدولة الناشئة خاصة فى سنواتها الأولى وهى تخطو خطواتها الوانية- .

أما عن الأدلة والقرائن التى تقطع بذلك فهى عديدة وسيطول هذا

البحث إذا أوردناها أو بعضها ومن ثم فنحن نكتفي بواقعتين ربما يكون فيهما المقنع :-

الأولى :- فى الطريق إلى « فتح مكة » نادى زعيم الأنصار «سعد بن عبادة» رضى الله تعالى عنه ، نادى أبا سفيان قائلاً « ياأبا سفيان ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً » وفزع أبو سفيان من قالته فزعاً شديداً وأسرع إلى محمد عليه السلام ونقل إليه وعيد سعد بن عبادة إلى قريش ثم أضاف : «يارسول الله أمرت بقتل قومك؟ . . . . إنى أنشدك فيهم فأنت أبرّ الناس وأوصل الناس» ولم يكن أبو سفيان هو الوحيد فى ذلك بل إضطرب لتهديد إبن معاذ قرشيان آخران هما عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان - رضى الله عنهما - فقالا للرسول صلى الله عليه وسلم « مانأمن سعداً أن يكون منه فى قريش صولة » فقال محمد صلى الله عليه وسلم « ياأبا سفيان اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريشاً» وأرسل إلى سعد فعزله ودفع الراية إلى إبنه قيس (٢٣) ، ولقد صدق الرسول فقد كان « فتح مكة » فعلاً عزاً لقريش أبد الدهر ، إذ بعده دانت الجزيرة العربية كلها لدولتها فى يثرب بالسيادة .

وظل سعد بن عبادة - رضى الله عنه - على وهمه أن الدولة التى قامت فى موطنه ليست لقريش وحدها ، لذا لم يبايع أبا بكر - رضى الله عنه - بالخلافة ولا عمر رضى الله عنه من بعده ولم يُصلِّ بصلاتهما ولم يحج بحجهما وبعد أن تولى عمر رضى الله عنه الخلافة ولم يستوزر كلاهما أحداً من الأنصار ، أدرك سعد بن عبادة الحقيقة التى لم يتنبه لها عن دولة يثرب ، فلم يطق البقاء فيها وشد رحاله وسافر إلى الشام ؛ وهناك إغتيل بطريقة غامضة - والتصفية الجسدية للخصوم والمعارضين

---

(٢٣) أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن رباح رضى عنه .

خاصة إذا كانوا من ذوى المكانة والخطر أمر عرفته البشرية منذ قديم وفى كل العهود والبقاع - وحتى لايثير قتل سعد بن عبادة رحمه الله تعالى أى شكوك لدى قومه من الأنصار أو يسبب أى متاعب ، أشيعت عنه اسطورة - واستخدام الأسطورة كان عرفاً مستقراً آنذاك - مفادها أن الجن هى التى اغتالته وأن البعض سمع هاتفاً من الجن يصيح :

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
إذا رميناه بسهم نافذ أدمى فؤاده

رحم الله سعد بن عبادة فقد كان كما وصفته كتب السير والتواريخ سخياً جواداً شجاعاً ومن خيرة صحابة رسول الله ص ولكنه لم يكن سياسياً حصيفاً .

الأخرى : لم يدرك الأوس والخزرج أيضاً أن أنصار الدولة - أى دولة الذين أذروهم فى البداية سوف ينتهى دورهم - مهما كانت أهميته وخطورته - وستكون أمام الدولة مهام أخطر لابد من مواجهتها والعثور على حلول لها ، ومن بينها معالجة أعداء الأمس إما بالترغيب أو بالترهيب والنظر إلى الحلفاء الجدد .

فى غزوة « حنين » أفاء الله تعالى على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم مغانم وفيرة (كان السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة) [٢٤] وإذ كانت غزوة «حنين» بعد فتح مكة بدأت الأفاق تتفتح أمام دولة قريش فى يثرب للسيطرة على الجزيرة العربية ، وكانت البراعة السياسية وسعة الأفق تحتمان تأليف قلوب الخصوم السابقين واسترضاءهم ، ومد البصر إلى الأمام باستمالة شيوخ القبائل الأخرى

(٢٤) إبن سيد الناس ، **عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير** ، المجلد الثانى ، ص ١٩٣ ، د . ت . ، الناشر : دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت-لبنان .

وهم أنصار المستقبل حتى يتوافقوا مع طموحات دولة قريش الفتية في يثرب (وبدأ الرسول (ص) بالأموال فقسمها وأعطى «المؤلفة قلوبهم» أول الناس : فأعطى أبا سفيان أربعين أوقية ومائة من الإبل ، وقال : إبني يزيد ، قال : إعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل ، قال إبني معاوية قال : إعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل)(٢٥) وأعطى غيرهم من القريشيين منهم صفوان بن أمية وآخرين عطايا أقل ، ثم ثنى برؤوس القبائل الأخرى مثل أسيد بن حارثة الثقفي ، والأقرع بن حابس التميمي ، عيينة بن حصن الفزاري ، ومالك بن عوف وغيرهم مابين مائة وأربعين من الإبل ، وكل هؤلاء سيد مطاع من قومه ؛ ولم يعط الرسول صلى الله عليه وسلم «الأنصار» شيئاً ولكنهم لم يفطنوا إلى أنه في أمور السياسة وشئون الحكم ، لكل فريق دوره المحدد الذي يجب أن يقف عنده ولايتعداه ، وأن الدور آنذاك كان لـ «المؤلفة قولبهم» سواء من أعداء الأمس أو من مؤيدي الغد ، أو من يرجح أن يصبحوا كذلك فأنشد أحد الشعراء معبراً عن عدم الرضى بما حدث مقروناً بضيق الأفق :

وأصبح نهبي ونهب الحصين : . بين عيينة والأقرع

والحصين تصغير لـ حصان الشاعر الذي شارك معه في الغزوة وعيينة والأقرع كانا من بين الذين / تألفهم الرسول محمد (ص) .

(وقال أناس من الأنصار ، حين أفاء الله على رسوله ما أفاء من أموال « هوازن » وهي القبيلة التي هزمت في غزوة حنين - فطفق النبي (ص) يعطي رجالاً المائة من الإبل فقالوا أي الأنصار : يغفر الله لرسول الله (ص) يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم)(٢٦) . هكذا أثبت

---

(٢٥) إبن سيد الناس ، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** ، مرجع سابق .

(٢٦) أخرجه البخاري من حيث أنس بن مالك رضي الله عنه .

«الأنصار» بهذه المقولة إفتقارهم للنظرة السياسية الصائبة ولم يتبينوا الغرض من وراء تأليف قلوب أبى سفيان وصفوان بن أمية والأقرع وعيينة وابن مرادس وأضرابهم وأهميته القصوى للدولة القرشية ؛ ووصلت إلى أسماع محمد (ص) إحتجاجاتهم ، فجمعهم وخاطبهم بما يتفق ومزاجهم النفسى الذى كان هو أدرى الناس به ، ولاغرو فهو - عليه السلام - القائل (خاطبوا الناس على قدر عقولهم) (فلما اجتمعوا قام النبى صلى الله عليه وسلم فجمعهم فى قبة من أدم - جلد - ولم يدع معهم غيرهم وقال : ماحديث بلغنى عنكم . . . إنى لأعطى رجالاً حديثى عهد بكفر أتألفهم أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وتذهبون بالنبى إلى رحالكم فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا : يارسول الله لقد رضينا) (٢٧) وفى رواية أخرى (. . .أنتم الشعار والناس الدثار أما ترضون أن يذهب الناس بالشاه والبعير وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دياركم ؟ قالوا : بلى ، قال : الأنصار كرشى وعيبتى (أى بطانتى وموضع سرى وأمانتى) ، لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعبهم ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار)(٢٨) ، وأثمر خطاب الرسول (ص) ثمرته الطيبة المرجوة فجاشت منهم العواطف ورضوا بعد سخط (. . . ثم بكوا فكثر بكاؤهم وبكى النبى (ص) معهم)(٢٩) .

وهكذا فى لحظة تاريخية نادرة إلتقى محمد (ص) الأوس والخزرج (الأنصار) بما لديهم من مزاج نفسى وظروف موضوعية ، لتتكامل شروط النماء والإزدهار لدولة قريش فى يثرب .

---

(٢٧) أخرجه البخارى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه وهو تكملة الحديث السابق .

(٢٨) أخرجه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢٩) أخرجه الطبرانى من حديث السائب بن يزيد رضى الله عنه ، وقال الهيثمى فيه رشدى ابن سعد وحديثه فى الرقاق حسن وبقية رجاله ثقات .

الباب الرابع

المقدمات الاجتماعية



المجتمع القبلي

كان مجتمع شبه الجزيرة العربية - قبل الإسلام - ينقسم إلى :

«عرب» وهم سكان المدن والمراكز الحضرية وكانوا يسمون بـ «أهل المدر» أى أصحاب البيوت المبنية و «أعراب» وهم الذين يقطنون البادية وكان يطلق عليهم «أهل الوبر» أى الذين يعيشون فى الخيام . وكان العربى يغضب إذا قيل له ياأعرابى - والأعرابى يرضى ويسر إذا قيل له : يا عربى .

ولقد أقر القرآن الكريم هذه التفرقة فى عدد من آياته .

كان أهل البوادى أو الأعراب أو أهل الوبر قبائل (يسكنون الخيام ولايقرون فى مكان ، ينتجعون الكلأ ويتبعون مساقط المياه ومنابت العشب يرحلون إليها بأنعامهم التى ينتفعون بلحومها وألبانها ويكتسون بأصوافها وأوبارها ، وهم - لجدب بلادهم وإنصرافهم عن أوجه الكسب الأخرى - كانوا يقنعون من العيش بالكفاف ولايتفننون فى المطاعم والملابس بل كانوا يعيشون على اللبن والتمر واللحم لقلة مواطن الكلأ لديهم ، ولميلهم إلى الإنتقال كانوا يأنفون من الإشتغال بالزراعة ويرون أنهم لم يخلقوا إلا للقتال ولم يعدهم الدهر الا للصراع والنزال وأنهم لاينبغى أن يتناولوا رزقهم إلا من سيوفهم ورماحهم) [١] .

---

(١)سمير عبد الرزاق القطب ، **أنساب العرب** ، ص ٢٧٠ ، د . ت . ، دار الحياة ، بيروت .

إن ما كان يميِّز البدوى أو الأعرابى - وربما لازال - هو إيمانه الراسخ بأن رزقه يأتى من رمحه وسيفه فحسب وأنفته الشديدة من الزراعة والصناعة ويعتقد فى قرارة نفسه أنهما لاتصلحان إلا للعبيد ومن على شاكلتهم ، ولم تكن الغزوات - ، والحال كذلك - أمراً عارضاً فى حياة القبائل بل يصح القول أنها كانت فى حالة غزو مستمر وأن أوقات «اللاغزو» أو «اللا إغارة» أو «اللاحرب» هى الإستثناء أو هى هدنة لالتقاط الأنفاس لشن غارة أو غزوة قادمة وشيكاً ، ومن هنا كانت القبيلة (بحاجة لأن ترهب وتخاف وبحاجة لأن تعلم القبائل الأخرى مدى قوتها ، بل إنها بحاجة لأن يعلم أبناؤها هذا ويعتقدونه ، أوليست حياتها حرباً دائمة)[٢] .

كانت القبيلة هى الوحدة الاجتماعية ولو أن بعض المستشرقين يرى أن الأسرة هى الخلية الاجتماعية ونحن نرجح الرأى الأول باعتبار أن القبيلة هى منبع القيم الاجتماعية التى كانت سائدة فى ذلك المجتمع لا الأسرة ، فالفرد كان يشعر بولاء مطلق لا لأسرته فحسب بل لقبيلته فى المقام الأول ، فهو الذى يذود عنها فى وقت الإغارة عليها بل ويستميت فى الدفاع عنها ويرى الموت فى سبيل ذلك شرفاً رفيعاً والفرار عاراً فهو أيضاً يشارك فى غزواتها التى تشنها ضد القبائل الأخرى ، وفى مقابل ذلك فإن القبيلة تضفى عليه حمايتها حال حياته وتطالب بديته عند قتله ، وإذا تبرأت منه عُدَّ «خليعاً» وفى هذا الضياع المطلق ، فالارتباط بالقبيلة مثل «الجنسية» بالنسبة لـ «المواطن» فى العصر الحديث .

وإذا خلعت القبيلة واحداً من أبنائها اعتبرت غير مسئولة عما يرتكبه من أفعال ، أما إذا قتل فلا يحق لها أن تطالب بديته ، أى أنه فقد اعتباره أو كيانه المعنوى .

---

(٢) د . عبد المجيد زراقط ، «الفرد والجماعة فى الشعر الجاهلى» ، بحث بـ **الفكر العربى** ، **مجلة الإنماء العربى للعلوم الإنسانية** ، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٨ ، العدد الرابع ، السنة التاسعة ، ص ٤ .

كانت القبيلة تتكون من طبقتين :

الفقراء وهم أغلب أفرادها (كانوا يعيشون عيشة الكفاف ، قانعين به أحياناً وساخطين عليه أحياناً)[٣] يسكنون فى خيام حقيرة ويلبسون الأسمال البالية ويأكلون الطعام الخشن التافه ويقومون بالأعمال الشاقة ويقع على كواهلهم المكدودة العبء الأكبر فى القتال- فى الحرب- .

الأغنياء وهم الذين كانوا يمتلكون قطعان الإبل والشاه وعلى درجة ملحوظة من الغنى واليسار ويسكنون خياماً جيدة تحتوى على فرش وثير ويلبسون ملابس فاخرة ويأكلون طعاماً طيباً ، وبالجملة يتمتعون بقدر من الراحة والدعة والنعيم لايتوافر لطبقة الفقراء ، وكان من بين هذه الطبقة فئة تسمى «السادة» يمتازون بأنهم يتحملون الكثير لإصلاح ذات البين إما بين عشائر وبطون وأفخاذ القبيلة ذاتها أوبين قبيلة وأخرى وكثيراً ماكانت مساعى الصلح هذه تؤدى إلى أن يتحملوا التزامات مالية قد تكون باهظة أو ضئيلة مثل دفع ديات القتلى من الطرفين المتنازعين .

وبجانب هاتين الطبقتين كانت توجد فئة تسمى «الموالى» وتسميهم قواميس اللغة العربية بـ «الزعانف» ويطلق على أحدهم «الزنيم» و«التنواط» وهو الذى يناط بالقوم أو يلتصق بهم وليس منهم ،[٤] والموالى فى الغالب عرب من أبناء قبيلة أخرى تركوها والتجأوا إلى أخرى تسبغ عليهم حمايتها أو من الأسرى الذين وقعوا فى أسر القبيلة إثر غارة شنتها على قبيلتهم ثم منَّ عليهم «أسيادهم» بفك أسرهم فتحولوا إلى

---

(٣) د . عبد الجواد الطيب ، **هذيل فى جاهليتها وإسلامها** ، ص ١١٩ ، طبعة ١٩٨٢ م ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس .

(٤) اللغوى : عيسى بن إبراهيم الحميرى ، **نظام الغريب فى اللغة** ، تحقيق محمد بن على الأكوح ، ص ٨٣ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م ، دار المأمون للتراث ، دمشق .

«موالى» وقد يكونون من «الأعاجم» الذين كانوا «أرقاء» وافتدوا أنفسهم من ناتج أعمالهم من الحرف التى كانوا يجيدونها أو منَّ عليهم سادتهم بـ «العتق» نظير خدمات أدوها لمن يملكهم أو للقبيلة كلها كإظهار شجاعة فى إحدى الغزوات أو مهارة فى أحد الأعمال وبعد عتقهم يظلون «ملتصقين» بالقبيلة ، والموالى فئة «بين بين» أقل مكانة من أبناء القبيلة «الخلص» أو «الصرحاء» أو «المحض» وأرفع رتبة أو درجة من «العبيد» أو «الرقيق» ، وكان يوجد نوع من التوارث بين الموالى وسادتهم .

و «الولاء» من الأنظمة الاجتماعية التى أخذها الإسلام من عرب ماقبله [٥]وأحكامه مبسوطة فى موسوعات الفقه الإسلامى .

وفى مقابل «الموالى» يجيئ «الخلعاء» وقد أشرنا لهم فيما سلف إشارة عابرة – وهم الأشخاص الذين تلفظهم قبائلهم وتتبرأ منهم ومن فعالهم وقد يتم ذلك كتابة أو بموجب إعلان يذاع عادة فى «الأسواق العامة» وسوف نرى فى مبحث «المقدمات الاقتصادية» التالى لهذا المبحث أن لـ «الأسواق» وظائف أخرى متنوعة بجانب الأنشطة التجارية ، إذ رغم ارتباط الفرد بقبيلته وقناعته بأن حياته بدونها لاقيمة لها بل وموته كذلك ، كان يوجد أشخاص يتميزون بروح التمرد ولاتعجبهم الأوضاع التى كانت تسود «مجتمع القبيلة» ، خاصة التمايز المالى الذى يؤدى بدوره إلى «التمايز الإجتماعى» الذى يشطره إلى «أغنياء» وهم قلة مترفة أو منعمة نسبياً و «فقراء» وهم الأغلبية التى تعانى شظف العيش ، فيثورون ويتركون القبيلة ، أو أولئك الذين تطردهم القبيلة وجميعهم يسمون «الخلعاء» (وقد تصل الأمور بالفرد طالما أنه امتلك مفهوماً جديداً للانتماء إلى جماعة إلى مغادرة القبيلة والبحث عن مصيره فى إطار جماعة أخرى

---

(٥) انظر كتابنا **الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية** ، مرجع سابق .

يختارها بنفسه ، وقد تفعل القبيلة ذلك فتطرد الخارجين على قراراتها وكان هؤلاء يسمون «الخلعاء» أو «الصعاليك»)[٦] .

* * *

الصعاليك أو الخلعاء هم (شبان فقراء أمثال «عروة بن الورد» و «تأبط شراً» و «السليك بن السلكة و «الشنفرى» ويسمون أيضاً «ذؤبان العرب» جمع ذئب لأنهم كانوا مشهورين بسرعة العدو ، ولكن مع فقرهم كانوا نبلاء ومن نبلهم أنهم كانوا لايهجمون إلا على الأشحاء البخلاء من الأغنياء وكانوا يسمون أيضاً «العدائين» لأنهم كانوا مشهورين بسرعة العدو فى السلب والنهب[٧] ، وكانت ظاهرة الصعلكة إفرازاً طبيعياً للأوضاع المختلة فى مجتمع شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وتركز الثروة فى أيدى طبقة محدودة من أبناء القبيلة وهم الأغنياء بينما أغلبية أفرادها يئنون تحت وطأة الفقر والحرمان . ويؤيد أحمد أمين وجهة النظر هذه إذ يذكر (وقد انتجت الحالة الاجتماعية فى جزيرة العرب هذه «الصعلكة» لأن أكثرهم كان من الفقراء ولا يجدون ما يأكلون وإذا حصلوا على شئ من غارة أو نحوها فشيخ القبيلة هو الذى يأخذ من الغنيمة حصة الأسد وهم لا يأكلون إلا الفتات)[٨] ؛ وكانت النتيجة الطبيعية لهذا كله أن فر الصعاليك من مجتمعهم النظامى ليقيموا لأنفسهم بأنفسهم مجتمعاً فوضوياً شريعته القوة ووسيلته الغزو والإغارة وهدفه النهب والسلب [٨ب] فعلى سبيل المثال فى قبيلة «هذيل» (أغلب

---

(٦) د . عبد المجيد زراقط ، **الفرد والجماعة فى الشعر الجاهلى** ، ص ٧٧ ، مرجع سابق .

(٧) أحمد أمين ، **الصعلكة والفتوة فى الإسلام** ، ص ٤٧ ، سلسلة « اقرأ» ، العدد الحادى عشر بعد المائة ، الطبعة الثانية ١٩٨١م ، دار المعارف بمصر .

(٨) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٨ب) د . يوسف خليف ، **الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى** ، ص ٥٥ ، الطبعة الرابعة ١٩٨٦م ، مكتبة الدراسات الأدبية - ٨ -

أفراد هذه القبيلة كانوا من الدهماء يعيشون عيشة الكفاف قانعين أحياناً سخاطين عليه أحياناً أخرى وبعضهم أو كثير منهم كان يعد من «الصعاليك» و«الذؤبان مثل «الأعلم» و «صخر الغى» و «أبى جندب» وغيرهم ومع هذا كان «الخلعاء» من «هذيل» أقل من غيرهم) [٩] .

يأتى الصعاليك أو الخلعاء فى مرتبة تالية لفئة «الموالى» التى ذكرناها ؛ وهم أعلى درجة من طبقة «الرقيق» أو «العبيد» التى تتكون من أسرى الغارات والحروب أو بالجلب من الخارج كالحبشة أو بالشراء من سوق «النخاسة» وكانوا يقومون بأشق الأعمال وأحقرها تلك التى كان يأنف العربى أو الأعرابى من مزاولتها حتى ولو كان من طبقة الفقراء فى القبيلة ، والعبيد على ذلك (كانوا فى هذه الفترة قوة منتجة لا استهلاكية فقط . . . إلى جانب كونهم كانوا يشكلون حينئذ إحدى السلع الشائعة والرابحة) [١٠] وكانت المتاجرة بهم نافعة وتمثل دخلاً كبيراً لمن يزاولها ويذكر الإخباريون أن عبد الله بن جدعان كان من كبار «النخاسين» وكون ثروته الفاحشة من «النخاسة» ومن فائض كسب العبيد والإماء بل إنه كان لايتورع عن تشغيل «الإماء» فى الزنا ويحصل على أجورهن من ذلك كما أنه كان يبيع أولادهن من«الزنا» و(كان «الرقيق» فى الجاهلية من السبى والنخاسة ، وعبودية الدين ، أما الأرقاء من مصدر الأسر فهم أولئك من العرب من الرجال والنساء الذين كانوا يقعون فى أيدى القبيلة فى حروبها) [١١] . ومع تنامى التجارة واتساع حركتها مع استشراء الربا تزايد عدد «الأرقاء» واستخدمهم رؤساء القبائل وكبار التجار مثل صناديد

---

(٩) د . عبد الجواد الطيب ، **هذيل فى جاهليتها وإسلامها** ، ص ١١٩ ، مرجع سابق .

(١٠) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، الجزء الأول ، ص ٢٠٠ ، مرجع سابق .

(١١) برهان الدين دلّو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الأول ، ص ١٦٨ ، مرجع سابق .

قريش في مكة ، فى الأنشطة كافة بداية بالخدمة المنزلية والعمل الشاق فى المزارع والبساتين والمهن المرهقة وفى حراسة القوافل . . . إلخ وفى السيرة نجد أكثر من صحابى كان يعمل ذلك مثل عداس فى الطائف وسلمان الفارسى فى يثرب ، وكذلك الإشتراك فى الغارات التى كانت تشنها القبائل ضد بعضها البعض ولعلنا نذكر الحلف الذى عقدته قريش مع «الأحابيش» والجدل الذى ثار حول حقيقة الأخيرين ؛ ورغم ما كان يؤديه «الرقيق» من أعمال شاقة وخدمات متنوعة ويقدمونه من تضحيات فى سبيل سادتهم فإنهم كانوا فى غاية البؤس والمسغبة .

ولكن «الصعاليك» أو «الخلعاء» أو «الذؤبان» إمتازوا على فئة «الموالى» وطبقة «العبيد» بالشهامة والمروءة إذ أنهم ماكانوا يستأثرون لأنفسهم بما كان ينهبونه من الأغنياء البخلاء بل كانوا يعطونه طواعية واختياراً للفقراء والمعدمين الذين حكم عليهم «المجتمع القبلى» آنذاك بالعوز والفاقة والحرمان فى حين كانت طبقة محدودة قليلة العدد تتمتع وحدها بالخيرات وتعيش منعمة نسبياً فـ «الصعاليك» امتازوا بـ (نظرات إنسانية متقدمة إذ كانوا يعمدون إلى تلك المآتى لإغاثة المعوزين)[١٢] ، وكان من بين «الصعاليك» شعراء معروفون جسّدوا كل تلك المعانى فى قصائدهم (والذى يعنينا هو أن شعر هؤلاء الصعاليك كان مثالاً لشعر سياسى طريف هو شعر الثورة والكفر بأوضاع فرضت عليهم الحرمان والفقر المدقع)[١٣] . ونحن نخالف الباحث فى مذهبه أن شعر «الصعاليك» هو شعر سياسى يمثل ثورة على الأوضاع ذلك أن «الصعاليك» أو «الذؤبان» أو «الخلعاء» لم يكن لديهم الوعى الكافى

(١٢) منذر الجبورى ، **أيام العرب وأثرها فى الشعر الجاهلى** ، ص ٦٦ ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م ، دار الشؤون الثقافية « آفاق » ، بغداد - العراق .

(١٣) سمير عبد الرازق قطب ، **أنساب العرب** ، ص ٢٨٤ ، مرجع سابق .

لتكوين تنظيم سياسي يقود ثورة تكتسح تلك الأوضاع الجائرة التي سادت آنذاك ، ولاتعدو أن تكون قصائدهم أو أشعارهم نفثات يعبرون بها عن تمردهم وسخطهم وشتان بين التمرد والثورة وفرق بين أبيات السخط والشعر السياسي ، وفي الحق أنه من الشطط أن نطالب «الصعاليك» بوعي يرقى إلى مستوى «ثورة» ، ويؤكد باحث آخر ماذهب إليه إذ يقول (وينعكس في أخبار «الصعاليك» وشعر شعرائهم إحساس مرير بوقع الفقر في نفوسهم وشكوى صارخة من الظلم الاجتماعي وهوان منزلتهم واستنكار للعبودية والتمييز العنصري)[١٤] . ويرى د . يوسف خليف أن الصعلكة (كانت عند عروة أحد شعراء الصعاليك نزعة إنسانية نبيلة وضريبة يدفعها القوى للضعيف والغني للفقير وفكرة اشتراكية تشرك الفقراء في مال الأغنياء وتجعل لهم نصيباً فيه بل حقاً يغتصبونه إن لم يؤد إليهم وتهدف إلى تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية)[١٤ب] ولو أننا نرى في استعمال كلمة «اشتراكية» من قبل د . خليف نوعاً من الشطط وعدم توخي الدقة العلمية المضبوطة في استعمال الألفاظ .

وأياً كان الأمر فإن ظاهرة «الصعلكة» كانت نتاجاً طبيعياً للأحوال المختلة التي اعترت «مجتمع القبيلة» والمجتمع العربي عامة في شبه الجزيرة قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ذلك المجتمع قد بلغ درجة الأزمة الحادة وكان من البادي للعين الفاحصة أن استمراره على ذلك النمط كان ضرباً من المستحيل وأنه كان يسير نحو الحل الذي يتمثل في «التوحيد» بكافة صوره وفي مقدمتها التوحيد الاجتماعي والسياسي وهو ما لعبته بمهارة وبراعة فائقتين دولة القرشيين في «يثرب» .

* * *

---

(١٤) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الأول ، ص ١٦٣ ، مرجع سابق .

(١٤ب) د . يوسف خليف ، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي** ، ص ٤٩ ، مرجع سابق .

وكما كانت القبيلة هى الوحدة الاجتماعية فقد كانت كذلك «الوحدة السياسية» ، إذ أنها بمثابة دولة صغيرة ، لها مقومات الدولة خلا عنصر الأرض الثابتة ، وذلك بسبب تنقلها وراء مصادر المياه والكلأ ، والمقصود بالأرض الثابتة الحدود المرسومة التى لاتتعداها ، فالواقع أنه كان لكل قبيلة مستقر تتحرك فى أرجائة تتبع فيه موسم المطر ومنابت العشب حتى إذا انتهى الموسم عادت أدراجها إلى موطنها الأول ، ولذلك حفظ لنا الإخباريون مواطن بعض القبائل مثل :

تميم وكانت تسكن بادية البصرة ، وهذيل كانت تسكن جبالاً قرب مكة ، وكنانة كانت تسكن جنوبى الحجاز . . . إلخ [١٥] ؛ إذن المقصود أن عنصر الوطن كما هو متعارف عليه فى الدولة الحديثة كانت القبيلة تفتقر إليه .

أما حكم القبيلة فهو موكول إلى شيخها أو رئيسها أو سيدها ، ويشترط فيه أن يتميز بصفات معينة منها : الكرم والشجاعة والحلم والدهاء وسعة الصدر والحكمة والفصاحة . . . إلخ وبداهة يتعين أن يكون على قدر وفير من سعة الرزق وكثرة المال حتى يستطيع أن يفى بالتزامات الرئاسة (فقد كان على شيخ القبيلة أن يعين الضعفاء ويفتح بيته للنزلاء والأضياف ويدفع الديات عن فقراء القبيلة)[١٦] وكان يعاون شيخ القبيلة فى إدارة شئونها «مجلس القبيلة» وهو يتكون من أفرادها - الأحرار الأصلاء - الذين بلغوا سن الأربعين ويتمتعون بعقل راجح وعادة مايكونون على درجة من اليسر المالى ، ويجتمع المجلس غالباً فى خيمة الشيخ ويتحاور أعضاؤه بحرية تامة فى الأمور التى تهم القبيلة جميعها ،

---

(١٥) أحمد أمين ، **فجر الإسلام** ، ص ٨ ، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٢ م ، مكتبة النهضة المصرية .

(١٦) د . السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ العرب قبل الإسلام** - ١ - ص ٣٦٣ ، مرجع سابق .

ولكن سيد القبيلة ليس ملزماً بأن يأخذ برأى «مجلس القبيلة» أو ماتستقر عليه أغلبيته وهو مطلق الحرية فى القرار الذى ينتهى إليه فأحياناً يتبنى رأى المجلس وأخرى يضرب به عرض الحائط وثالثة يوافق على فكرة فرد واحد منهم . . . ولعل هذا منشأ الفرق الجوهرى بين نظامى «الشورى» و«الديموقراطية» التى يلزم فيها الأخذ برأى الأغلبية حتى لو خالف رأى الحاكم وهناك كثير من الباحثين لايتلفت لهذا الفرق الجوهرى ويخلط بين النظامين خلطاً معيباً ويعتبرهما شيئاً واحداً .

وفى مقابل حرية شيخ القبيلة المطلقة فى إصدار القرار فإن عليه تقع المسئولية كاملة فإذا اتخذ قراراً أوقع القبيلة فى مأزق أو نالها من ورائه خطر فإنه يكون عرضة للإطاحة به لأنه بذلك يكون قد أثبت عدم جدارته بادارة دفة شئون القبيلة . وهو الذى يتولى قيادة مقاتلى القبيلة فى الغارات أو الغزوات ، وربما يشاركه فى ذلك فرد منها يتميز بالمهارة القتالية أو الحنكة الحربية ، يطلق عليه لدى بعض القبائل «العقيد» .

وحكم سيد القبيلة نافذ على جميع أفرادها ولا يملك أحد عصيانه ، ولزعيم القبيلة بعض الامتيازات فى الغنائم التى تنتج عن الغارة أو الغزو مثل :

المرباع (= ربع الغنيمة) ، الصفايا (= مايصطفيه لنفسه قبل قسمة الغنائم أو الفىء) ، النشيطة (= ما أصيب من مال قبل نشوب القتال) ، الفضول (= مالايقبل القسمة من مال الغنيمة) وهو كما ترى مقدار ليس بالهين أو البسيط ، وبعض هذه الامتيازات أقره الإسلام وكان النبى محمد صلى الله عليه وسلم يختص به .

وبداهة أن القبائل فى جزيرة العرب - رغم كثرتها ، كانت متناثرة ولاارباط بينها سوى الغزو والغارات ، بيد أن عدداً محدوداً منها قد عقد حلفاً بينها أو نشأت بينها «مصاهرة» ولكنه الاستثناء الذى لاينال من

القاعدة الراسخة وهي أنها كانت مشتتة ومتنافرة بل ومتعادية وقد أوجد ذلك «فراغاً سياسياً» استفادت منه على أكمل وجه دولة القرشيين في يثرب إذ (في ظل هذه الظروف كان الإسلام قد نجح في إقامة نواة دولة قوية في المدينة المنورة امتد نفوذها على جميع الحجاز ومناطق أخرى من جزيرة العرب مستفيداً من الفراغ السياسي الذي كان يسود الجزيرة في ذلك الوقت) (١٧) ، ولعله من نافلة القول أن نذكر أن تفرق قبائل الجزيرة العربية لم يكن هو العامل الوحيد لـ «الفراغ السياسي» بل كانت هناك عوامل أخرى أشرنا إليها فيما سلف ولقد أحسّ كثير من زعماء القبائل آنذاك بذلك «الفراغ السياسي» وحاولوا ملأه ولكن الظروف الموضوعية والقدرات الذاتية لديهم لم تؤهلهم لذلك (قال ابن إسحق : وقدم على رسول الله ص وفد بني عامر وفيهم عامر بن الطفيل . . . . وقال له قومه : يا أبا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم ، قال : والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي ، وأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش)(١٨) ، فهنا نجد عامر بن الطفيل سيد بني عامر كان يُؤمّل في زعامة الجزيرة العربية حتى «تتبع العرب عقبه» - ولم يكن هو الوحيد الذي راودته تلك الفكرة بل شاركه آخرون ، ولكن لم يتحقق له أولهم النجاح في ملء «الفراغ السياسي» وبعد «فتح مكة» غدا واضحاً لكل ذي عينين من رؤساء وشيوخ القبائل أن قريشاً أصبحت سيدة الجزيرة العربية دون منازع ، فتوافدت على يثرب «المدينة» عشرات الوفود من مختلف

---

(١٧) د . إحسان صدقي العمد ، « حركة الأسود العنسي » بحث في **المجلة العربية للعلوم الإنسانية** ، العدد الرابع والثلاثون ، المجلد السابق ، ربيع ١٩٨٩ م ، تصدر عن مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت .

(١٨) أورده الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير ٧٠١ / ٧٧٤هـ ، في **السيرة النبوية** ، تحقيق د . مصطفى عبد الواحد ، الجزء الرابع ، ص ١٠٩ ، طبعة ١٩٦٦م ، دار إحياء الكتب العربية بمصر .

أرجاء الجزيرة ، تبايع محمداً صلى الله عليه وسلم ، حتى سمى ذلك العام بـ «عام الوفود» وتعلن ولاءها المطلق لسيد قريش وقائد دولتها ، وعن بعض وفد «بنى عبد القيس» يخبرنا ابن كثير (فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبوا من رواحلهم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلوا يده) (١٩) وتقبيل اليد قديماً وحديثاً وفى أركان الدنيا الأربعة دليل حاسم على الاعتراف بالسيادة والرئاسة . كذلك عندما قدم «أعشى بنى مازن» على النبى صلى الله عليه وسلم خاطبه بقوله (ياسيد الناس وديَّان العرب)(٢٠) ، والذين كان عندهم علم بأخبار «أهل الكتاب» من بين تلك «الوفود» قارنوا بين محمد وسليمان - الملك النبى - عليهما السلام (فقال قائل منا - وهم قوم عبد الرحمن بن أبى عقيل - يارسول الله ألا سألت ربك «ملكاً» كملك سليمان؟ قال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : فلعل صاحبك عند الله أفضل من ملك سليمان)(٢١) .

وكانت «الوفود» التى وردت على يثرب «المدينة» فى أواخر العام التاسع وأوائل العام العاشر الهجريين «وفوداً سياسية» جاءت لتعلن ولاءها لـ «دولة قريش» وقائدها ، ولم تكن «وفوداً دينية» والذى يؤكد هذه الحقيقة التى تنطق بها موسوعات السيرة النبوية ، هو أن بعض تلك الوفود كان يضم من بين أعضائه نصارى (قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارود بن عمر بن حنش بن المعلى أخو «عبد القيس» فى وفد «عبد القيس» وكان نصرانياً)(٢٢) وضم «وفد تغلب» ستة عشر رجلاً

---

(١٩) ابن كثير ، المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٢٠) ابن كثير ، المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٢١) ابن كثير ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(٢٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ٢٢٤/ ٣١٠هـ ، **تاريخ الرسل والملوك** ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الجزء الثالث ، ص ١٣٦ ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م ، دار المعارف بمصر .

مسلمين ونصارى عليهم الصُلب المذهّبة فنزلوا دار رملة بنت الحارث)[٢٣] أو يكون الوفد كله من «النصارى» مثل «وفد أهل نجران» (وذكر محمد ابن إسحق أن وفد نصارى نجران» كانوا ستين راكباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم . . وأمر هؤلاء الأربعة عشر يؤول إلى ثلاثة منهم وهم «العاقب» وكان أمير القوم وصاحب مشورتهم والذى لايصدرون إلا عن رأيه ، و «السيد» وكان ثمالهم أى ملجأهم وصاحب رحلهم ، وأبو حارثة بن علقمة وكان «أسقفهم» و «حبرهم»)[٢٤] .

وإذا كان بعض هذه الوفود قد دخل فى «الإسلام» بعد مقابلة النبى صلى الله عليه وسلم فذلك لأن «الدين» كان أحد مكونات «الدولة القرشية» والدخول فى الإسلام إعلان من الذى أسلم على خضوعه المطلق للدولة لاعن إيمان صادق ، بدليل أن كثيراً من تلك القبائل إرتد عن الإسلام وخلع ربقته فيما بعد بل وحارب «دولة قريش» ؛ (عن القاسم بن محمد بن أبى بكر عن عمته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فنزل بأبى ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها . اشرأب النفاق بالمدينة وارتدت العرب ، فوالله ما اختلفوا فى واحدة إلا طار بحظها وغنائها عن الإسلام)[٢٥] .

* * *

كان ابن القبيلة يعتز بنسبه اعتزازاً كبيراً ، إذ أنه هو الذى يحدد هويته ، فبدونه يتحول إلى «دعىّ» وهو من ينتسب إلى غير قبيلته أو قومه ، وندر

(٢٣) ابن كثير ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

(٢٤) ابن كثير ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢٥) أورده أحمد بن يحى بن جابر المعروف بـ « البلاذرى » فى كتاب **فتوح البلدان** ، حققه د . صلاح الدين المنجد ، القسم الأول ، ص ١٤٤ ، د . ت . ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

أن اعتزت أمة بأنسابها مثل العرب ، ومن ثم يمكن الجزم بأن النسب «ملمح» عربى أصيل ينفرد به العرب دون سائر الناس (والعرب مهتمون بأنسابهم محتفظون بكيانها ، ومن الضياع عند القوم أن يجهل امرؤ نسبه ، أو أن يكون دعياً أو ملصقاً أو زنيماً)(٢٦) ، ويحكى لنا الإخباريون أن «النعمان بن المنذر» أثناء مفاخرته لـ «كسرى أنو شروان» تباهى بحرص العرب على الحفاظ على أنسابها أن العربى يعرف أباه وجده وجد جده . . إلخ بينما غيره لايعرف أعلى من أبيه .

ولكن ما الباعث على اهتمام العربى بنسبه وحفظه إياه ؟

من المعلوم أن العرب «أمة أمية» ، لم يكن يعرف القراءة والكتابة فيها إلا عدد قليل غاية القلة ، أما الباقون وهم الألوف المؤلفة فقد جهلوها حتى ولو كانوا من سراتهم ، وكانوا يطلقون على من يعرف القراءة والكتابة بالإضافة إلى صفتين أخريين «الكامل» ، من هنا تنبع أهمية حفظ الأنساب وأن تعيها الذاكرة الحافظة وتختزنها جيلاً وراء جيل ، إذن المجتمع العربى آنذاك كان صاحب «ثقافة شفوية» بخلاف عدد من المجتمعات المعاصرة له كانت ذات «ثقافة مدونة» أو «كتابية» سواء تم ذلك على الورق أو على الحجر أو عليهما معاً . ولسنا فى حاجة إلى أن نذكّر أننا نركز اهتمامنا فى المقام الأول على المجتمع العربى وسط الجزيرة وغربها حيث نشأت «دولة قريش» ، إذ الثابت أن «العربية الجنوبية» أو «اليمن» عرفت «الثقافة المدونة» فى صورها المتنوعة ؛ و«الثقافة الشفوية» تعتمد على الذاكرة الفردية ثم الذاكرة الجماعية ، ونظراً لأهمية النسب فى حياة العربى فقد كان «حفظه» أحد روافد «الثقافة الشفوية» ، وتخصص بعض الأشخاص فى هذا النوع من «الفن» إذا صح أن يوصف بذلك ، وكانت لهم مكانة ومهابة منهم أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - ونذكر القارئ

(٢٦) سمير عبد الرازق القطب ، **أنساب العرب** ، ص ٩ ، مرجع سابق .

بما قلناه فى المبحث الخاصة بـ(حكومة الملأ : ملأ قريش) أنه اختير عضواً فيها وتولى «الأشناق» وهى الديات والمغارم بسبب أنه كان «نسَّابة» أى عالم بالأنساب ومن ثم كان فى مقدوره تحديد الديات والمغارم حسب مكانة المجنى عليه وما إذا كان محضاً أو حليفاً أو لصيقاً أو زنيماً . . . إلخ ؛ ومعرفة الجانى ومكانه من القبيلة التى ينتمى إليها ؛ وحول النسب تحلقت الظواهر الاجتماعية التى تحدثنا عنها مثل : الخلع والولاء والحلف . . . إلخ كذلك تترتب على «النسب» آثار اجتماعية لايمكن التهوين من شأنها : منها الميراث ، وتحديد مكانة الفرد فى القبيلة فإن كان لصيقاً أو زنيماً فلا يحق له أن يشارك فى «مجلس القبيلة» أو يتولى رئاستها ، وأيضاً الكفاءة فى الزواج فالمولى لايحق له الزواج من امرأة ذات نسب صريح . ونشير هنا إلى أن هذه الكفاءة انتقلت إلى الفقه الإسلامى فلا يجوز لغير الهاشمى أن ينكح (يتزوج) هاشمية ، وكذا تحديد المهور ؛ إذ أن مهر العربية الصريحة يفوق بما لايقاس مهر غيرها .

ومن منظور النسب (تضم القبيلة عادة ثلاثة أصناف : (أ) صرحاء النسب وهم طبقة الأشراف وهم يتفاوتون فى الشرف بتفاوت بيوتهم فى الحسب (ب) الموالى أو اللصقاء أو الملتصقين بالقبيلة بواسطة الجوار أو الحلف أو الاصطناع (ج) العبيد المسترقين وهم فى الغالب أسرى الحروب والغارات)(٢٧) ولكن ماهو الحسب الذى تتفاوت فيه طبقة الأشراف ذات النسب الصريح ؟ (الحسب هو نسب شريف وخلال حميدة ، وشرف النسب عائد بدوره إلى الخلال والشرف والحسب إنما هو الخلال ، ومعنى الحسب راجع إلى الأنساب) (٢٨) .

---

(٢٧) د . محمد عابد الجابرى ، **العصبية والدولة** ، معالم نظرية خلدونية فى التاريخ الإسلامى ، ص ٤٦٣ ، . د . ت . ، نشر « آفاق عربية » ، بغداد ، مرجع سابق .

(٢٨) د . محمد عابد الجابرى ، المرجع السابق ، ص ٤٤٠ ، نقلاً عن « مقدمة ابن خلدون » ، الجزء الثانى ، ص ٤٣٢ .

إذن النسب الشريف الصريح إذا انضافت إليه الخلال الحميدة تحقق معنى الحسب ، وكلاهما من شروط الرئاسة والسؤدد فى مجتمع الجزيرة العربية ، وقد فطن «القرشيون» إلى ذلك من وقت مبكر فبجانب نسبهم الصريح الشريف حرصوا أشد مايكون الحرص على اكتساب الخلال الحميدة والسجايا الرفيعة والأخلاق العالية والصفات الممتازة فتحقق لهم الحسب المنيف ، وتحفظ لنا كتب السيرة الألقاب التى كانت تطلق على مؤسسى «دولة قريش» والتى تقطع بأنهم كانوا يتمتعون بنسب شريف وحسب منيف أهّلهم لما وصلوا إليه من مجد ، فقد كان هاشم (من أحسن الناس وأجملهم وكانت العرب تسميه «قدح النضار» و «البدر»)(٢٩) وكان أخوه المطلب بن مناف (ذا شرف فى قومه وفضل وكانت قريش إنما تسميه «الفضل» لسماحته وفضله) (٣٠) وكانوا يسمون بنى عبد مناف بـ «المغيرات» مدحاً لهم وتعظيماً :

إن المغيرات وأبناءها خير أحياء وأموات (٣١)

أما عبد المطلب الجد المباشر لمحمد صلى الله عليه وسلم فلقد تعددت ألقابه فهو الفياض والفضل ومطعم الطير وشيبة الحمد : بنو شيبة الحمد الذى وجهه يضئ ظلام الليل كالقمر البدر

وهكذا تكامل فى قيادات قريش النسب الشريف والحسب الرفيع مما لم يتح لأى قبيلة أخرى من قبائل شبه الجزيرة العربية وكان ذلك أحد الدعامات البارزة التى ساهمت فى ترسيخ الدولة التى أقامها الحفيد محمد صلى الله عليه وسلم فى «يثرب» .

---

(٢٩) الإمام محمد يوسف الصالحى الشامى ، **سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد** ، الجزء الأول ، ص ٢١٩ ، مرجع سابق .

(٣٠) الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام ، **السيرة النبوية** ، الجزء الأول ، ص ١٥٨ ، مرجع سابق .

(٣١) المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

كان المجتمع المدينى أو الحضرى يختلف عن المجتمع البدوى ، وإن كان يشابهه فى بعض الملامح ؛ والمراكز الحضرية فى الجزيرة العربية تركزت فى : مكة والطائف ويثرب واليمامة وإن وجدت أصغر منها يمكن أن يطلق على مجتمعاتها حضرية عدا كذلك «العربية الجنوبية» أو اليمن ؛ وتميزت المراكز الحضرية فيما بينها :

فـ «مكة» غلبت عليها التجارة ، و«اليمامة كانت الزراعة فيها هى السائدة ، أما فى كل من «الطائف» و«يثرب» فقد اختلطت فى أرجائها الزراعة والصناعة والتجارة ، ولكن الزراعة كانت هى الأكثر ، وبداهة أن هناك فروقاً بين المجتمع المدينى التجارى ، والمجتمع المدينى الزراعى مع بروز الملامح أو القسمات المشتركة التى تفرقها عن مجتمع البادية .

وفى المراكز الزراعية تنوعت الزراعة فى كل واحدة منها بحسب نوع التربة ومصادر المياه والطقس .

كذلك وجدت فى المجتمع الحضرى بعض الصناعات اليدوية :

كانت هناك صياغة الذهب وبها امتازت «يثرب» وسبق أن نقلنا عن الإخباريين أن يهود بنى زهرة كانوا صياغاً وتملكوا ثلثمائة متجر للمصوغات الذهبية ؛ وازدهرت دباغة الجلود فى «الطائف» حتى إن المياه التى كانت تتخلف عنها تفوح فيها روائح عفنة تزكم الأنوف ، كما كانت تجفف العنب «الزبيب» (٣٢) ، وظهر معدن الحديد فى مضارب قبيلة «بنى سليم» فبرعوا فى صناعته ومن ثم أطلق جيرانهم لقب (القيون) جمع قين وهو الحداد (٣٣) ، كذلك كانت هناك صناعة تحويلية فى مكة تخصصت فى «الأدم» أى الجلود ولو أنها كانت أقل شأناً منها فى الطائف ، ويذكر

(٣٢) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء الرابع ، ص ١٥٤ ، مرجع سابق .

(٣٣) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، الجزء الأول ، ص ٢٠٠ ، مرجع سابق .

الإخباريون أن قريشاً عندما أرسلت عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى (النجاشى) فى الحبشة بشأن المسلمين الذين هاجروا إليها بعثت معهما بهدايا قيمة من «الأدم» إليه وإلى بطارقته ليأمر بطردهم من بلده ولكنه رفض وردّ الهدايا ، أما فى «اليمامة» فقد كانت (مرابع بنى حنيفة مناطق زراعية فى معظمها واشتهرت بزراعة التمور والحبوب حتى اعتمدت عليها فى تصدير «الميرة» أى الحبوب إلى مناطق أخرى فى الجزيرة العربية أهمها منطقة الحجاز وبصفة خاصة قريش فى مكة)(٣٤) ، ولايفهم من هذا النص إقتصار النشاط الاقتصادى فى اليمامة أو اعتماده على الزراعة وحدها (إذ ساعد موقع منازلها فى اليمامة عند ملتقى الطرق التجارية البرية من الحجاز واليمن الى شرق الجزيرة العربية والعراق وفارس ، ساعد هذا الموقع على اشتغال بنى حنيفة بالتجارة أيضاً بما عرف بتجارة الترانزيت فضلاً عن تصدير حاصلاتها الزراعية من حبوب وتمور ، وما اشتهرت به من منسوجات)(٣٥) .

وكان العربى ساكن المراكز المدنية يأنف أيضاً من امتهان الزراعة والصناعة ولكن بدرجة أقل إلى حد ما من الأعرابى نزيل البادية ، ذلك أن ظروف بيئة العربى هى التى اضطرته إلى ذلك .

انقسم المجتمع الحضرى أو المدينى إلى طبقتين : الأغنياء والفقراء :

والأغنياء هم التجار والمرابون وملاك المزارع وكثيراً ماكان الواحد منهم يجمع بين أكثر من نشاط اقتصادى و (تتمثل قنوات استثمار أهل مكة على سبيل المثال - قبل البعثة المحمدية فى : التجارة من الشمال والجنوب «رحلة الشتاء والصيف» والمضاربات والإقراض والاقتراض بالربا الفاحش «ربا النسيئة» واستثمار الأموال فى مشاريع زراعية فى

(٣٤) د . إحسان صادق العمد ، **حركة مسيلمة الحنفى** ، ص ٢٨ ، مرجع سابق .

(٣٥) المرجع نفسه ، ص ٣١ .

مناطق الواحات الغربية كالطائف والمشاركة والمخالطة بين العمل ورأس المال واقتسام الأرباح خاصة فى الأعمال التجارية ، والدعارة والترويج لها ضمن محلات خاصة واستغلال الإماء فى ذلك وتجارة الرقيق)[٣٦] ، وممن كانوا تجاراً ويملكون مزارع فى «الطائف» عمرو بن العاص (اتخذ بستاناً . . . عرف بكثرة كرمه وأنواع أعنابه) [٣٧] وغيره من (أثرياء قريش استغلوا أموالهم فى الطائف واشتروا فيها الأرضين وغرسوها واستثمروها واشتروا بعض المياه وبنوا لهم منازل . . . اتخذوها مساكن لهم فى الصيف وأسهموا مع رؤساء ثقيف فى أعمال تجارية وربطوا حبالهم بحبالهم وحاولوا جهد إمكانهم ربط الطائف بمكة فى كل شيئ)[٣٨] .

وذكر الإخباريون أن (الربا) كان ظاهرة لها قاعدة مستقرة فى المجتمع العربى قبل ظهور الإسلام ، (أما إقراض المال وأخذ الربا فيه فإن الشواهد عليه كثيرة فهى منسوبة إلى أشخاص بأسمائهم ، ويذكر العلماء أن آية تحريم الربا نزلت فى «العباس بن عبد المطلب» و «خالد بن الوليد» وكانا شريكين فى الجاهلية يسلفان فى الربا فجاء الإسلام ، ولهما أموال عظيمة فى الربا فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب) [٣٩] ، ولقد كان من آثار الربا ظهور مايسمى بـ «عبودية

---

(٣٦) عيسى أيوب البارونى ، **الرقابة المالية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين** ، ص ٤٣ ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٨٦م ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس - ليبيا .

(٣٧) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء الرابع ، ص ١٤٢ ، مرجع سابق .

(٣٨) المرجع نفسه ، ص ١٥٣ .

(٣٩) محسن خليل ، **الفكر الاقتصادى العربى الإسلامى** ، ص ٨٦ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م ، دار الرشيد ، بغداد .

الدين» (فقد كان الفرد يقترض لسد رمقه ويعجز عن سداد الدين فيحق للمقرض استرقاقه أو بيعه أو يبيع منه ولده ، وبعضهم كان يقترض للمضاربة فى التجارة ويعجز عن سداد الدين ، قالت بريرة لعائشة : كانت على أهلى تسع أواقى فى كل عام أوقية فأعينينى فاشترتها فأعتقتها) [٤٠] ؛ وعبودية الدين استمر العمل بها فى صدر الإسلام قبل نزول تحريم الربا ، قال الطحاوى : كان الحر يباع فى الدين فى أول الإسلام إذا لم يكن له مال يقتضيه عن نفسه حتى نسخ الله ذلك ، وحكى عن مكى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر به فى صدر الإسلام[٤١] وفى كتابه (الربا) أورد المستشار محمد سعيد العشماوى حديثاً عن الدار قطنى (أن النبى صلى الله عليه وسلم قبل نزول آية الربا وجرياً على سنة العرب قضى باسترقاق شخص يدعى (سُرَّق) ، كان قد عجز عن الوفاء بدينه إلى دائنه)[٤٢] ، إن استمرار ظاهرة عبودية الدين حتى صدر الإسلام وقضاء محمد صلى الله عليه وسلم باسترقاق (سُرَّق) لعجزه عن دفع دينه - وذلك قبل تشريع تحريم الربا - يقطع بتمكن تلك الظاهرة وأنها كانت إحدى القواعد الاقتصادية المتعارف عليها فى تلك الفترة .

وممن ذكره الإخباريون فى المرابين : عبد الله بن جدعان وسبق أن ذكرنا نتفاً من أخباره ، ومسعود بن عمر الثقفى (فى الطائف) وغيرهما فى المراكز المدنية بل وفى المجتمع البدوى ، ولسنا فى حاجة إلى القول إن يهود يثرب كغيرهم أساتذة فى النشاط الربوى .

كانت التجارة من أهم الأنشطة الاقتصادية فى تلك المراكز وقد

---

(٤٠) محسن خليل ، **الفكر الاقتصادى العربى الإسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٩١ .

(٤١) **تفسير القرطبى** ، طبعة دار الشعب ، ص ١١٧٩ ، مرجع سابق .

(٤٢) محمد سعيد العشماوى ، **الربا** ، ص ١٩ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ ، دار سينا للنشر بمصر .

أوضحنا في ما سلف كيف تحولت تجارة مكة على يد القرشيين من المحلية إلى العالمية ، ولقد ساهم فى ذلك عدد من العوامل منها عقود الإيلاف التى أبرمها هاشم بن عبد مناف وإخوته ولقد تحدثنا عن ذلك تفصيلاً فى بحوث سابقة (كذلك كان لاضمحلال الملاحة فى أواخر عهد الروم «القرن الخامس الميلادى وما بعده» أثره فى ظهور طريق البر الحجازى ، فهو طريق رحلة الشتاء والصيف من اليمن والشام واستطاعت قوافل الجمال فى هذا الطريق الذى يصل الجنوب بالشمال أن تحل محل تجارة البحرين من عدن القديمة وخليجى السويس والعقبة ، وقد أفاد عرب الحجاز لاسيما قريش من هذا التحول من تجارة البحر إلى تجارة البر بل كان ذلك أحد العوامل فى ازدياد أهمية مكة وعدد غيرها من محطات القوافل على طول الطريق) (٤٣) .

كان حصيلة تلك الأنشطة الاقتصادية المتنوعة أن تكدست الثروات فى أيدى عدد محدود من رجالات قريش فى مكة ، وثقيف بالطائف ، والأوس والخزرج واليهود بيثرب ، وبنى حنيفة فى اليمامة ؛ وسبق أن أوردنا قدراً كافياً من المعلومات والأخبار عن صناديد قريش مما لاحاجة بنا هنا لتكراره . أما عن الطائف وأغنيائها فقد (ذكر عن عروة بن مسعود «الثقفى» أنه كان من الرجال الذين كان عندهم عشر نسوة عند مجيئ الإسلام) (٤٤) والزواج من عشر نساء فى وقت واحد دليل أكيد على الغنى الوفير أيضاً ؛ ذكر أهل الأخبار أن (من أغنياء الطائف مسعود بن معتب الثقفى ، قيل إن له مالاً عظيماً وإنه أحد من قيل إنه المراد من الآية

---

(٤٣) د . سليمان حزين ، «توسع العرب وانتشار الإسلام» ، الحديث الرابع ، ص ٧٠ ، من كتاب **إسلاميات** ،طبعة ١٩٩٠ م ، دار مودى للنشر ، لندن .

(٤٤) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء الرابع ، ص ١٥٥ ، مرجع سابق .

«على رجل من القريتين عظيم» [٤٥] وقبل سطور قليلة قلنا إن من بين سادة ثقيف بالطائف : مسعود بن عمير بن عجر الثقفى وأنه كان أحد المرابين وعلى الدرجة نفسها من الملاءة واليسار (كان سكان يثرب الأصليون من العرب ، ذوي خبرة فى التجارة ومهارة فى الزراعة حتى نافسوا اليهود بتجارتهم وتنمية أموالهم وأصبحوا أصحاب ثروات وحصون ومعاقل) [٤٦] ، وقد ألمعنا آنفاً فى المبحث الخاص بـ «الأنصار» إلى وجود أثرياء أماثل وأصحاب حيطان «بساتين» وكروم نخيل وأطم «حصون» بين الأوس والخزرج (الأنصار فيما بعد) .

أما عن الثروة فى اليمامة فقد بلغت فى أيدى سادتها حداً كبيراً إذ كانوا فى (أعمال الزراعة يستعينون بالعبيد . . . كما استعانوا بالموالى من العجم المجوس) [٤٧] ، وكان يحكم قبيلة بنى حنيفة «ملك» مما يدل على حسن تنظيمها السياسى وارتفاع مستواها الاقتصادى ؛ (وكان ملوكها يقيمون علاقة تجارية جيدة مع فارس والحجاز واليمن) [٤٨] .

هذه أمثلة سريعة بقدر لزومها للبحث عن الأوضاع المالية المرتفعة التى وصل إليها أفراد طبقة الأغنياء فى المراكز المدنية أو الحضرية فى وسط وغرب شبه الجزيرة العربية حيث تأسست دولة قريش وكان أفراد تلك الطبقة يعيشون حياة رغدة ناعمة :

فى بيوت مبنية (لا فى خيام كأثرياء البوادى) ، مفروشة بأفخر أنواع الرياش ، ويلبسون الملابس الرقيقة ، والنعال المستوردة ، ويعتمون بالعمائم الملونة المجلوبة من الخارج ، ويأكلون أطيب الأطعمة (استقدم

---

(٤٥) محسن خليل ، **الفكر الاقتصادى العربى الإسلامى** ، ص ٨٥ ، مرجع سابق .

(٤٦) عيسى أيوب البارونى ، **الرقابة المالية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين** ، ص ٢٣ ، مرجع سابق .

(٤٧) إحسان صادق العمد ، **حركة مسيلمة الحنفى** ، ص ٢٩ ، مرجع سابق .

(٤٨) المرجع نفسه ، ص ٣١ .

عبد الله بن جدعان طباخاً من فارس ليعد له «الفالوذج» التى تطلق عليها العامة «البالوظة») ويشربون ألذ المشروبات ويركبون الدواب الفارهة ذات السرج المطهمة ، وفى بيوتهم العدد الوفير من العبيد والإماء إما للخدمة أو المتعة ، ويتزوجون من النساء عدداً كبيراً غير محدود ، ويقضون لياليهم فى قصف ولهو ومقامرة ومعاقرة الخمور وسماع غناء الجوارى المدربات على الغناء والرقص ؛ وقد ذكر أهل الأخبار أن عبد الله بن جدعان كانت له جاريتان بارعتان فى الغناء مدحهما أمية بن أبى الصلت فى أشعاره وأشاد بغنائهما ، كما أن عبد الله بن جدعان كان لايشرب إلا فى كؤوس من الذهب الخالص حتى سمى «حاسى الذهب» وكان من أبرز مهام العبيد حراسة هؤلاء الأغنياء الشخصية وحراسة منازلهم - وتفيض كتب الأدب مثل كتاب الأغانى للأصفهانى بالعديد من الحكايات التى تقطع بثرائهم الفاحش .



أما طبقة الفقراء فكانت تضم سائر الأفراد من سكان المراكز المدنية : باقى أعضاء القبيلة حتى ولو كانوا من «الخلص» ، ثم الموالى ، ومن تربطهم علائق ببعض السادة مثل الحلف أو الجوار ، والأرقاء ، ولم تكن تشمل «خلعاء» أو «صعاليك» أو «ذؤبان» أو «أغربة» إلا فيما قل ، لأن هؤلاء كانوا عادة ينزلون البوادى ، فطبيعة حياتهم أو منهج معيشتهم لايتوافق مع الحياة الحضرية المستقرة .

رأينا فيما سبق أن قريشاً انقسمت إلى فرقتين : (قريش الأباطح) و (قريش الظواهر) وهو تقسيم أساسه التمايز الطبقى لا العرقى أو النسبى «من النسب» فكلهم قرشيون ينتمون إلى (النضر بن كنانة) ، (فقريش البطاح من ولد فهر من دخل مع قصى الأبطح ، وقريش الظواهر من ولد فهر : بنو الأدرم بن غالب بن فهر ومعيص بن لؤى ومحارب بن الحارث

إينا فهر فهؤلاء قريش الظواهر ؛ وسائر قريش أبطحيون إلا رهط أبى عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه وهم هلال بن أهيب وضبة بن الحارث بن فهر ورهط سهل وسهيل ابنى البيضاء وهم هلال بن ضبة بن الحارث بن فهر فإنهم دخلوا مع قصىّ فهم أبطحيون)[٤٩] ، فهنا نجد الذين انسلخوا عن رهطهم ودخلوا مع قصىّ لحقتهم صفة «الأبطحية» - فهى إذن تفرقة فى الثروة والمكانة الاجتماعية المؤسسة على (المال) لا على الأصل أو النسب ، كما أنها «الأبطحية» تعطى صاحبها شرفاً وامتيازاً حتى إن معاوية بن أبى سفيان قد إفتخر بها وهو خليفة وحاكم بأمره للعالم الإسلامى فى زمانه .

هكذا تبين لنا أنه فى المركز المدينى ينقسم أفراد القبيلة الواحدة : فيلحق أحدها أو بطن أو فخذ منها بطبقة بينما يظل الباقون فى طبقة أدنى ، لأن المقياس هو «تملك أدوات الثروة ووسائل الإنتاج» ، ففى «باب القسامة» روى البخارى أن رجلاً من بنى هاشم استأجره رجل من قريش من فخذ أخرى ثم قتله لاعتقاده أنه أهمل فى أداء عمله وظل الخبر سراً حتى وصل إلى علم أبى طالب بن عبد المطلب وكان آنذاك زعيم بنى هاشم فتوجه إلى القاتل (فقال : اختر منا إحدى ثلاث : إن شئت أن تؤدى مائة من الإبل فإنك قتلت صاحبنا ، وإن شئت حلف خمسون من قومك أنك لم تقتله «وهذه هى القسامة . . . من القسم» وإن أبيت قتلناك به)[٥٠] ، فهذا هاشمى من أسمى فروع قريش يعمل أجيراً لدى قرشى من فخذ آخر وتدفع غطرسة رأس المال صاحب العمل إلى قتله لمجرد توهمه أنه تقاعس فى شغله ولو كان معيار التمايز نسبياً «من النسب» لكان الهاشمى هو صاحب العمل لا الأجير ، ولكنه تفاوت طبقى أساسه

---

(٤٩) سمير عبد الرازق ، **أنساب العرب** ، ص ٤٧ ، مرجع سابق .

(٥٠) رواه البخارى فى صحيحه فى **باب القسامة** ، وأورده أحمد أمين فى **فجر الإسلام** ، ص ٢٢٦ ، مرجع سابق .

المال ؛ بل إن أبا طالب نفسه (. . . كان لا مال له . . . وكان إذا أكل عيال أبى طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا . . . وكان بنو أبى طالب يصبحون رمصاً عمصاً . . وكان أبو طالب يقرب إلى الصبيان صفحتهم أول البكرة (يعنى فى الصباح الباكر) فيجلسون وينتهبون . .)(٥١) ؛ هذه عبارات صريحة النص والدلالة معاً على أن أبا طالب كان يعانى بشدة من قلة المال ، حتى إن أولاده كانوا لايجدون كفايتهم من الطعام ولا ماءً يغسلون به وجوههم و يزيلون عن عيونهم الرمص والعمص ؛ ويبدو أن حالة أبى طالب المالية استمرت كذلك بل تدهورت حتى غدا عاجزاً عن إعالتهم مما دفع محمداً عليه السلام بعد عدة سنين لأن يقترح على عمه الآخر الغنى - العباس - أن يتوجها معاً إلى منزل أبى طالب ليعودا باثنين من أبنائه لتخفيف العبء عن كاهله فأخذ العباس جعفراً وكفل محمد صلى الله عليه وسلم علياً ، ولعله بذلك كان يرد الجميل لأبى طالب لأنه بعد وفاة جده عبد المطلب آواه وضمه إلى أسرته .

إذن مواضعات ذلك المجتمع كانت تجيز أن يلحق الفقر برجل شريف من فرع سامق فى القبيلة وله مكانة أدبية مرتفعة فيها بيد أن ذلك كله كان لايخوله حق كسب (عضوية نادى الأغنياء) أو حتى مجرد دخوله ، نخلص من ذلك كله أنه كان يوجد من بين طبقة الفقراء فى المركز المدينى أو الحضرى أفراد خلص أو صرحاء من القبيلة .

أما الفقراء فقد كانوا من الموالى أو اللصقاء أو المرتبطين بحلف أوجوار مع أحد الصناديد ، ثم الرقيق أو العبيد وسبق لنا فيما تقدم أن وصفنا هذه الفئات ولا موجب للإعادة أو التكرار ، وكانت عيشة هذه الطبقة فى عمومها - على تفاوت بين فرد وآخر أو فئة وأخرى - صعبة أشد ماتكون

---

(٥١) الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، **السيرة النبوية** ، تحقيق د . مصطفى عبد الواحد ، الجزء الأول ، ص ٢٤٢ ، مرجع سابق .

الصعوبة بائسة أبلغ مايكون البؤس . (أما الفقراء المستضعفون فكانوا يؤلفون سواد «العرب» أو جمهور العوام وكانو يتألفون من رعاة الأنعام وفقراء الفلاحين والعمال وصغار الباعة والفعلة وكانوا يسكنون فى خيام بسيطة أو عشش أو أكواخ حقيرة يعيشون فيها عيشة ضنكة وجوعاً مستمراً) [٥٢] ، وكانوا يقنعون من العيش بالكفاف وليست لهم طاقة كالسادة الأغنياء كى يتفننوا فى المطاعم والملابس بل كانوا يتبلغون بالتافه من المآكل ويلبسون الأسمال ، بل إنهم فى بعض الحالات قد لايجدون مايسدون به رمقهم . ونذكّر هنا بما سبق أن أوردناه فى المبحث الخاص بـ «هاشم» أن بعض الأسر حتى فى قريش ذاتها كانت تضطر إلى «الاحتفاد» أو «الاعتفار» عندما لاتملك قوت يومها وتفضل الموت جوعاً على أن تمد أيديها إلى غيرها تطلب منه الإحسان ، وكيف أن هاشماً شجب هذه العادة القبيحة وعمل على علاجها ، ولعله من نافلة القول أن نذكر أن ذلك «الاحتفاد» أو «الاعتفار» من أثر الخلل الاجتماعى الذى حايث المجتمع المكى والذى شطره إلى : طبقة قليلة منعمة مرفهة وأخرى معوزة مملقة خالية الوفاض مما يحفظ عليها حياتها و الاثنتان من أرومة واحدة !!!

كما سبق أن قلنا من المبحث الخاص بـ (حلف الفضول) أن من بين أسباب عقده «التآسى فى المعاش» حسبما أورده صاحب «السيرة الشامية» فهو «مشروع» لإعادة التوازن ولو نسبياً بين طبقتى الأثرياء والمعدمين ولمنع ثورة توشك أن تهب فتطيح بذلك الوضع الجائر وبالفعل قامت بعض الفئات المضطهدة المحرومة بالشروع فى ذلك (ومن بيان أهل الأخبار عن الذين كانوا قد اعتصموا فى «جبل تهامة» أنهم كانوا من الخارجين على الأعراف ومن الرقيق الأبق ، تجمعوا فى هذا المكان المرتفع

---

(٥٢) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الأول ، ص ١٥٧ ، مرجع سابق .

وتحصنوا وأخذوا يغتصبون من المارة ؛ وبقوا على ذلك حتى ظهر الرسول صلى الله عليه وسلم على أعدائه فوجدوا إذ ذلك أنهم لن يتمكنوا بعد ظهور الرسول من الاستمرار فى التحرش بالمارة والتحرز بهذا الجبل وأن ظروفاً جديدة قد ظهرت ستؤمن لهم سبل العيش ، وأن الرسول سيعفو عنهم ويغفر لهم ماوقع منهم قبل الإسلام فجاءوا إليه وأسلموا عنده وكتب لهم كتاب أمان بذلك) (٥٣) ، هذه مجموعة من الفقراء والعبيد الآبقين لم تطق صبراً على العيش الذليل الضيق فانتفضت وثارت على الأعراف الجائرة واعتصمت بـ «جبل تهامة» وأخذت تقطع الطريق على السابلة وتنهب ماتقع أيديهم عليه وظلت على ذلك إلى أن ظهر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على من عاداه ، وعلم أولئك المتنفضون أن ظرفاً جديداً قد حدث أى أن هناك تنظيماً سياسياً قد تخلق أو بمعنى آخر أن دولة قد تأسست لن تسمح لهم بالاستمرار فى «خروجهم» ، ومن ناحية أخرى نمى إلى علمهم المبادئ الاجتماعية العادلة التى كان محمد صلى الله عليه وسلم يدعو إليها ، فانتهوا فيما بينهم إلى أنه لابد من الانصياع لسلطة تلك الدولة ومن ناحية أخرى الاستفادة من العدالة الاجتماعية التى تنشرها .

يرى العميد د . طه حسين أن مرآة الحياة «الجاهلية» يجب أن تلتمس من القرآن ، أى أنك إذا أردت أن تكوّن فكرة كاملة عن حياة العرب قبل الإسلام (يسميها العميد : الجاهلية) فـ (أدرسها فى القرآن ، فالقرآن أصدق مرآة للعصر «الجاهلى» ، ونص القرآن ثابت لاشك فيه)(٥٤) ؛

---

(٥٣) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء الرابع ، ص ٢٦٧ ، مرجع سابق .

(٥٤) د . طه حسين ، **فى الشعر الجاهلى** ، ص ١٦ ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

والقرآن الكريم يحدثنا أن بعض العرب كان يئد أولاده خشية العوز والإملاق (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم) (٥٥) ومن البديهى أن الذى كان يقدم على تلك الفعلة الشنعاء ، إنما كان من الفقراء المستضعفين لا من الأغنياء المترفين ، ووصول الأمر بالبعض ليفعل ذلك دليل أكيد على انحداره لحد هاوية العسر الشديد إذ أنه لم يجد مايطعم به أولاده ففضل قتلهم على موتهم جوعاً بين يديه ، واضطراب الأحوال الاجتماعية فى مجتمع مكة - على سبيل المثال - واختلال أحواله ووجود النسبة الغالبة فيه من المعوزين المملقين جعل هؤلاء يسارعون إلى الاستجابة لنداء محمد عليه السلام ، بمحو الفوارق الطبقية والتمايز الاجتماعى (روى يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس فى المسجد جلس المستضعفون من أصحابه : عمار بن ياسر ، وخباب بن الأرت ، وصهيب ابن سنان وبلال بن رباح وأبو فكيهة ، وعامر بن فهيرة وأشباههم من المسلمين ، فتهزأ قريش بهم ، ويقول بعضهم لبعض : هؤلاء جلساؤه قد منّ الله عليهم من بيننا) (٥٦) ، ولم يكن المستضعفون من الرجال وحدهم هم الذين استجابوا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، بل فعلها كذلك عدد من النساء منهن : سمية أم عمار بن ياسر ، ولبينة جارية بنى المؤمل من رهط عدى بن كعب ، وزنيرة جارية أبى جهل ، والنهدية مولدة نهد بن زيد ثم صارت لامرأة من بنى عبد الدار وأم عبيس أمة لبنى زهرة) (٥٧) ، هذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن تردى الأحوال الاجتماعية بلغ حداً

---

(٥٥) سورة الإسراء الآية / ٣١ .

(٥٦) أحمد بن يحى المعروف بـ (البلاذرى) فى **أنساب الأشراف** ، تحقيق د . محمد حميد الله ، الجزء الأول ، ص ١٥٦ ، الطبعة الأولى ١٩٥٩ ، سلسلة «ذخائر العرب» سنة ٢٧ ، أخرجه معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر .

(٥٧) المرجع نفسه ، ص ١٩٨ .

اضطر النساء للثورة مع ملاحظة وضع المرأة ووعيها حينذاك ، وهؤلاء العبيد والإماء كانوا فى ملك أفخاذ وبطون بارزة من قريش مثل : بنى عبد الدار ، بنى مخزوم ، بنى زهرة ، بنى عدى ، بنى تيم ، بنى جمح . . إلخ ولاشك أن ما عانوه من ظلم اجتماعى فادح أوقعه عليهم سادتهم المترفون دفعهم دفعاً إلى الهرولة للاستجابة الى الصيحة التى أطلقها محمد صلى الله عليه وسلم والتى انتهت فى آخر الشوط إلى إقامة الدولة فى «يثرب» ، خاصة وأن تلك الصيحة كانت مضمخة بروح العدالة الاجتماعية والمساواة .

* * *

ولم يكن حال طبقة الفقراء أحسن منها فى المراكز المدينية أو الحضرية الأخرى ، بيد أن المصادر (كتب التراث) ركزت أكثر على مكة لأنها شهدت ظهور البعثة المحمدية ثم على «يثرب» مهد دولة قريش ، ولكننا مع ذلك نجد نتفاً إخبارية عن حال المستضعفين فى باقى المراكز المدنية ، فعلى سبيل المثال : كانت نسبة العبيد والموالى مرتفعة فى «اليمامة» لشدة الحاجة إليهم لأداء الخدمة الشاقة فى المزارع وتجارة الترانزيت وصناعة المنسوجات ، ولقد سجل الشاعر «جرير الخطفى» هذه الحقيقة فى شعره

صارت حنيفة أثلاثاً فثلثهم   من العبيد وثلث من مواليها [٥٨] ؛

ويرجح د . صالح أحمد العلى قلة عدد العبيد فى «يثرب» لأن الصناعات كان يقوم بها اليهود مثل النجارة والحدادة وصياغة الذهب أو النساء فى البيوت مثل الغزل والنسيج وخياطة الملابس (ومن المحتمل اشتغال العبيد ببعض الصناعات غير أنه لايوجد دليل على كثرة العبيد فى «المدينة»)[٥٩]

---

(٥٨) إحسان صادق العمد ، **حركة مسيلمة الحنفى** ، ص ٢٩ ، مرجع سابق .

(٥٩) د . صالح أحمد العلى ، **الدولة فى عهد الرسول صلى عليه وسلم** ، المجلد الأول ، ص ٢٧ ، مرجع سابق .

وهو رأى يؤخذ به على علاته أو بتعبير آخر يتعين ألا نسلم به تسليماً مطلقاً بل علينا أن نمحصه ، ذلك أن «يثرب» كانت منطقة زراعية تحتاج إلى عبيد لفلاحتها ، بيد أن نص الدكتور العلى تحدث عن استخدام العبيد فى مجال الصناعة فحسب ، فقد جاء فى كتب السيرة النبوية أن «سلمان الفارسى» رضى الله عنه كان عبداً مملوكاً ليهودى يعمل فى حائطه (بستانه) فى «يثرب» ولما دخل الإسلام نصحه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكاتب على العتق أى يدفع له مالاً نظير تحريره من رق العبودية ففعل وعاونه الرسول فى ذلك(٦٠) ، هذا مثل يدل على استخدام الرقيق فى المزارع والبساتين والكروم وإذ أن الرقعة الزراعية فى «منطقة يثرب» لم تكن ضيقة فلا شك أنها احتاجت لعدد ملحوظ إلى الكثرة من الأرقاء هذا بخلاف الأنشطة الأخرى ونعنى بها الأنشطة الصناعية .

كذلك فى «الطائف» التى امتازت بكثرة زروعها وبساتينها يتحتم أن يكون (الثقفيون) سادتها قد جلبوا عبيداً ليشتغلوا لهم فى مستغلاتهم الزراعية خاصة وأنهم (حضر مستقرون متقدمون بالقياس إلى بقية أهل الحجاز وفاقوا غيرهم فى الزراعة)(٦١) ، إن الصفات التى اسبغها عليهم د . جواد على فى النص المذكور تجعلنا نؤكد أنه من الصعب نفى استعانتهم بـ«الرقيق» فى مزارعهم ، وينقل الينا الإخباريون من كتب السيرة المحمدية أن محمداً صلى الله عليه وسلم عندما توجه إلى «الطائف» يدعو ثقيفاً إلى الإسلام قابل هناك (عداساً - غلام أى عبد - عتبة وشيبة إبنى ربيعة) وهو من أهل «نينوى» وكان يعمل لهما فى

---

(٦٠) د . حسن إبراهيم حسن ، **زعماء الإسلام** ، ص ٩٥ ، الطبعة الثالثة ١٩٨٠ ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

(٦١) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء الرابع ، ص ١٥١ ، مرجع سابق .

مزارعهما وأنه قدَّم للنبى «قطفاً» من عنب بأمر سيديه من إنتاج كرومهما هناك (٦٢) .

تلك الواقعة تدل على أن استخدام العبيد فى مزارع « الطائف » كان أمراً شائعاً .

* * *

هذه هى الطبقة الأخرى ، طبقة الفقراء المستضعفين التى تضم المملقين المعوزين من أبناء القبيلة الصرحاء الخلص ، ويجانبهم الموالى ومن على شاكلتهم من الملتصقين والمستجيرين والمتحالفين ثم الرقيق من عبيد وإماءوهم عصب الإنتاج فى الأنشطة الاقتصادية كافة ، ومع ذلك كانوا يعيشون حياة كلها قساوة وشظف ومسغبة مما يقطع أن المجتمع العربى المدينى الحضرى دخل فى مأزق وأنه لابد من البحث عن حل من قبل فئات الطبقة التى تحمل عبء هذا المأزق ، لقد وجد أفرادها بكل فئاتها الخلاص مما تعانيه فى المسارعة للاستجابة للنداء الذى جهر به محمد صلى الله عليه وسلم لا لما كان يحمله من قسمات واضحة للعدالة الاجتماعية فحسب بل لأن هذا النداء جاء فى أوانه ونضجت كل الظروف الموضوعية لانبعاثه من ناحية ولقبوله من الناحية الأخرى – فهو النداء الذى تداعى فى الختام إلى قيام دولة قريش فى يثرب على يد المنادى عليه السلام ، والقارىء المتمعن لوقائع تلك الحقبة سوف يتبين أن أفراد هذه الطبقة كان لهم دور بارز فى شد أزرها فى البداية بتحمل جميع أنواع الضغوط من قبل خصومها لوأدها وهى فى المهد ويورد لنا

(٦٢) أبو القاسم السهيلى ٥٠٨ / ٥٨١ هـ ، **الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام** ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ، الجزء الثانى ، ص ١٧٩ ، طبعة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م ، من منشورات مكتبة ومطبعة عباس عبد السلام شقرون بمصر .

الإخباريون أسماء أولئك المستضعفين وقصصهم التى تبين مقاومتهم العنيدة لأعداء محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته نذكر منهم : الأرقم ابن أبى الأرقم وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت ، وصهيب وسلمان وعمار وبلال وأبو فكيهة وعامر بن فهيرة وغيرهم - رضوان الله عليهم ، ولذلك ظل محمد (ص) حتى آخر لحظة من حياته يقدرهم ويعرف لهم فضلهم فيما قدموه مبكراً ، إن موسوعات السيرة النبوية حافلة بالعديد من الأمثلة على ذلك (روى أن خالد بن الوليد أغلظ لعمار بن ياسر وانطلق عمار يشكو إلى الرسول ، وجاء خالد يشكو وأغلظ له القول والرسول ساكت لايتكلم ، فبكى عمار وقال : يارسول الله ألا تراه؟ فرفع الرسول رأسه وقال : من عادى عماراً عاداه الله ومن أبغض عماراً أبغضه الله)[٦٣] ؛ خالد بن الوليد أحد رجالات قريش المعدودين ومن بنى مخزوم أحد فروعها البارزة ومن أغنيائها وكان شريكاً للعباس بن عبد المطلب - عم النبى عليه السلام - ويتمتع بمواهب عسكرية فذة إذ قيل عنه أنه (لم يهزم قط لا فى «الجاهلية» ولا فى الإسلام) ، بيد أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يعبأ بذلك والتفت إلى ماقدمه عمار فى الأيام الصعبة الأولى ، هؤلاء المستضعفون عندما ترسخت أقدام الدولة فى «يثرب» كان محمد يقدمهم على صناديد قريش من أمثال أبى سفيان فكان يأذن لهم بالدخول عليه قبلهم ذلك وفاءً منه لما أسدوه من خدمات عظيمة تجل عن الوصف فى البدايات المبكرة للمسيرة .

لقد كانت طبقة الفقراء أصدق حساً تجاه نداء محمد صلى الله عليه وسلم فقد عرفت بفطرتها الطبيعية أنه النداء الذى تكاملت له الشروط وآذنت بانبعاثه ، ولا غرو فإن تلك الطبقة ذاتها كانت نتاجاً شرعياً أومولوداً شرعياً للمجتمع الحضرى - خاصة فى مكة - فنحن بسهولة

---

(٦٣) د . حسن إبراهيم حسن ، **زعماء الإسلام** ، ص ٩٠ ، مرجع سابق .

ويسر (نستطيع أن نتلمس حركة صيرورة تاريخية كانت علاماتها تبرز متوالية ومتداخلة فى مختلف نواحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية . . .)[٦٤] ويرى د . حمود العودى أن (الدعوة وصاحبها كانت محكومة إلى حد كبير بطبيعة المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية السائدة . . . ولم تكن مجرد تعبير عن مفاهيم دينية وغيبية مثالية بحتة منبثقة عن مفاهيم مجردة ومنفصلة عن الواقع الاقتصادى والإجتماعى السائد . . لقد كانت هى التعبير المباشر إلى حد وبشكل ما عن طبقة اجتماعية مسحوقة من عبيد وفقراء وصعاليك . . فلم يكن الخلاف والعداء والمقاومة الشرسة التى لقيها محمد وأتباعه من قبل الأرستقراطيات السياسية والاقتصادية فى المجتمع المكى القديم هو عداء وخلاف دينى بقدر ما أنه كان خلافاً وتناقضاً اجتماعياً وطبقياً فى الأساس . . ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية انتشار مبادئ الدعوة فى أوساط الفئات والطبقات المقهورة من العبيد والموالى وفقراء وصعاليك المجتمع المكى)[٦٥] . والذى يؤكد ماذهبنا إليه وأيدنا فيه حسين مروة وحمود العودى أن الغالبية الساحقة من الذين استجابوا لمحمد صلى الله عليه وسلم هم من طبقة المسحوقين من المجتمع المكى والذين كانوا موضع سخرية وهزء صناديد قريش ويحدثنا القرآن الكريم أن خصوم الرسل وهم (الملأ) كانوا يطلقون على المستضعفين الذين يتبعون الرسل لقب (الأراذل) .

ويؤكد «علم اجتماع المعرفة» حقيقة علمية هى أن الأفكار والآراء

---

(٦٤) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، الجزء الأول ، ص ٢١٨ ، مرجع سابق .

(٦٥) د . حمودة العودى ، **المدخل الاجتماعى فى دارسة التاريخ والتراث العربى – دراسة عن المجتمع اليمنى** ، فصل عنوانه «تناقضات المجتمع المكى القديم» ، ويقصد المؤلف بـ «القديم» السابق على ظهور الإسلام ، ص ١٦٣/ ١٦٤ ، الطبعة الثانية ، سبتمبر ١٩٨٩ م ، د . ن .

والعقائد والمعتقدات والقيم ماهى إلا إفراز أو نتاج للواقع المادى ، والمقصود بهذا الواقع تركيبة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية وتبرز (أهمية المصالح الاقتصادية فى تكوين المعتقدات والآراء والقيم الإنسانية)[٦٦] ، ويرى إميل دوركهايم - عالم الاجتماع المشهور - أنها (وليدة التركيب الاجتماعى لمجتمعنا فهى جزء منه وغالباً ما تؤيده وتسنده وتعكس الظواهر الأساسية للحياة الاجتماعية) [٦٧] ، ويصدق هذا التوصيف على المجتمع المكى آنذاك - بصفة خاصة - ونذكر هنا بما سبق أن سطرناه وهو أن عاملاً آخر قد امتاز به ذلك المجتمع وهو تسرب أفكار إليه من الديانتين الساميتين الإبراهيميتين : الموسوية والعيسوية اللتين كانتا تتمتعان بحضور ثابت الأركان فى منطقة الحجاز ومنها مكة - من بين تلك الأفكار فكرة ظهور نبى منتظر أطل أو أظل زمانه ، وهذا العامل من المقطوع به أنه ساهم بفعالية شديدة فى الترحيب بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ من المهم (أن نلاحظ كيف ترتبط الحياة الفكرية فى فترة تاريخية معينة بالقوى الاجتماعية والسياسية القائمة . . وأضاف كارل مانهايم إليها مجموعة أخرى من الكيانات الاجتماعية مثل الأجيال والطوائف الدينية والمهن والكنائس والمدارس . .) [٦٨] ، أى أن الآراء والعقائد والأفكار والمعتقدات التى تسود مجتمعاً معيناً فى فترة زمنية محددة لاتتأثر فحسب بالبُنى الاقتصادية والسياسية بل تضاف إليها مايصدر عن بعض كيانات ذلك المجتمع مثل الطوائف والكنائس

---

(٦٦) البروفيسور د نكن ميشيل ، **معجم علم الاجتماع** ، ترجمة ومراجعة د . إحسان محمد الحسن فى باب «علم اجتماع المعرفة» ، ص ٢٤٣ ، الطبعة الثانية ، مارس (آذار) ١٩٨٦م ، دار الطليعة ، بيروت .

(٦٧) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٦٨) د . محمد عاطف غيث ، **قاموس علم الاجتماع** ، باب « علم اجتماع المعرفة» ، ص ٤٦٠ ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية .

والمهن . . فهذه بدورها تؤثر على سائر بنيات المجتمع ولو أنها فى الوقت نفسه تتأثر بها إلى حد ما ، فإذا طبقنا هذه الحقيقة العلمية التى أكدها علماء الاجتماع وخاصة فى «علم اجتماع المعرفة» ، إذا طبقناها على المجتمع المكى السابق على البعثة المحمدية نجد أن العقائد والأفكار والمعتقدات والقيم التى ذاعت أو حتى ظهرت فيه هى إنبثاق بطريق مباشر من واقعه الاقتصادى الاجتماعى وأيضاً وبدرجة ما عما كانت تبثه فيه الديانتان المتغلغلتان فيه وهما اليهودية والنصرانية (سبق أن شرحنا ذلك) من أفكار ومعتقدات ، ومن بينها أو أبرزها فكرة ظهور نبى منتظر قد أطل أو أظل زمانه .

الباب الخامس

المقدمات الاقتصادية

مصادر الثروة

فى البداية كانت مصادر الثروة لدى القبيلة العربية : المراعى ، قطعان الماشية ، العيون والآبار وكانت ملكيتها مشاعاً بين أفرادها ؛ وشيئاً فشيئاً - مثل المجتمعات كافة - بدأ فى الظهور أفراد يتميزون بقدرات خاصة وملكات فريدة مثل : القوة العضلية ، الشجاعة ، الذكاء ، الدهاء . . . . إلخ أخذوا يستأثرون لأنفسهم ولعائلاتهم الصغيرة (الزوجة والأولاد) بشطر من هذه المصادر ، ومن مجموع هؤلاء الأشخاص تخلقت أرستقراطية تملكت (أعداداً كبيرة من الإبل وصارت تستأثر بالإنتاج بهذه المشاعيات لمواشيها الخاصة)[1] ، والحال نفسه بالنسبة لمنابع المياه الأرضية مثل العيون والآبار ، هى أيضاً أصبحت (توزع بين ملكية خاصة وأخرى عامة ، وقد تكون خاصة بمدينة بأسرها وقبيلة معينة أو لأسرة أو لفرد يستفيد منها أو يبيع مياهها للناس وقد يؤجرها أو يبيعها)[2] ؛ ثم تطورت الأحوال فيما بعد حتى إن هذه الأرستقراطية إحتازت جل مصادر الثروة ولم تترك لغيرها إلا مايمكن أن يوصف بالفتات الذى يتساقط من موائد الطاعمين ، يضرب لنا د . عبد الجواد الطيب مثلاً من قبيلة (هذيل) فيقول عن قطعان الماشية وهى من أبرز

---

(١) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الأول ، ص ١٥٥ ، مرجع سابق .

(٢) محسن خليل ، **فى الفكر الاقتصادى الإسلامى** ، ص ٨٣ ، مرجع سابق .

مصادر الثروة عند القبيلة العربية آنذاك (وهذه الإبل والشاة كان يرعاها في العادة فقراؤهم ويقتنيها الأغنياء منهم ، وتبدو آثارذلك واضحة فى أشعارهم وفى أخبار غاراتهم وحروبهم)[٣] ، وبذلك انقسمت القبيلة إلى (أ) طبقة الأغنياء وهم الأرستقراطية أو (الملأ) أو النخبة أو الصفوة أو السادة (ب) وطبقة الفقراء أو المستضعفين أو (الأراذل) .

وضمن مصادر تمويل القبيلة : الغنائم التى كانت تأتى من الغارات ، بيد أننا رأينا فيما سلف كيف كان يستأثر بـ (نصيب الأسد) منها أعضاء الملأ وعلى رأسهم (شيخ القبيلة) وقد عددنا الأصناف التى كان يختص أو يخص بها نفسه ، والباقى تجرى قسمته بعد ذلك ويذهب الجزء الأكبر منه للسادة . وكان لكل قبيلة (حمى) هو فى الأساس الموضع الذى ترعى فيه إبلها ثم أطلق فيما بعد على مايجوز أن نسميه موطنها أو مستقرها حيث مضارب خيامها وما حولها ، هذا (الحمى) لايحق لقبيلة أخرى أن تتعدى عليه وإلا هيأت نفسها للدخول فى معركة شرسة من جانب القبيلة المعتدى عليها ، إن الذى يهمنا فى هذا المبحث ، بشأن هذه الخصوصية ، أن القبيلة كانت تستقضى من القوافل التجارية التى تمر بحماها أو أرضها أجراً وجُعلاً فى مقابل هذا المرور ، فهو نوع من الضريبة الإلزامية لبروز عنصر الإكراه أو الجبر فيه ؛ وإذا لم تدفع القافلة هذا الأجر والجُعل تعرضت للنهب والسلب والقتل حتى ولو كانت لكسرى نفسه (بعث كسرى أنو شروان إلى عامله باليمن بعيراً تحمل «نبعاً» ، وكانت بعير كسرى تبذرق من المدائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالحيرة والنعمان يبذرقها بخفراء من بنى ربيعة حتى تدفع إلى هوذة بن على الحنفى باليمامة فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بنى حنيفة ، ثم تدفع إلى تميم وتجعل لهم جعالة فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن ، وتسلم إلى عمال

(٣) د . عبد الجواد الطيب ، **هذيل فى جاهليتها وإسلامها** ، ص ٩١ ، مرجع سابق .

كسرى باليمن ولما بعث كسرى بهذه العير ووصلت إلى اليمامة قال هوذة ابن على للأساورة الذين يرافقونها : انظروا الذى تجعلونه لبنى تميم ، وأنا أكفيكم أمره وأسير بها معكم حتى تبلغوا مأمنكم ؛ وخرج هوذة والأساورة والعير معهم من هجر حتى إذا كانوا بنطاع ، بلغ بنى تميم ماصنع هوذة ، فساروا إليهم فأخذوا ماكان معهم واقتسموه وقتلوا عامة الأساورة وسلبوهم ، وأسروا هوذة بن على فاشترى هوذة نفسه بثلاثمئة بعير ، فساروا معه إلى هجر وأخذوا منه فداءه)(٤) .

هذه الجعالة التى كانت تأخذها القبيلة من أى قافلة تجارية تعبر أرضها هى الأصل التاريخى لـ (العشور) التى عرفت فيما بعد فى الإسلام .

وسبق أن ذكرنا «الإيلاف» الذى كانت تقدمه طواعية واختياراً فى صورة منح أو هدايا قوافل قريش التجارية إلى زعماء القبائل التى تجتاز حماها والذى سنه هاشم بن عبد مناف وجاء ذكره فى سورة (قريش) وفصَّلنا القول فيه بالمبحث الذى يحمل عنوان (هاشم يوضح القسمات) .

هذه الجعالات أو الأجور والإيلافات كان معظمها يدخل جيوب رؤساء القبائل والمتنفذين فيها ، بينما لاينال منها أفراد (القبيل) ، ونعنى بهم المستضعفين ، إلا اليسير .

بالإضافة إلى أن أفراد طبقة الفقراء كان بعضهم يقدم خدمات إلى قوافل التجار مثل : العمل كأدلاء أى يهدونها الطريق ، أو كحراس ، أو كخدم فى الأعمال الشاقة مثل سقى الإبل وعلفها . . . إلخ خاصة أنها فى بعض الأحيان تبلغ المئات بل عشرات المئات كما سنذكر ، وعادة

---

(٤) محمد أحمد جاد المولى بك وآخران ، **أيام العرب فى الجاهلية** ، ص ٢ - ٣ ، مرجع سابق .

مايكون هؤلاء من العبيد أو الموالى أو الملتحقين بالقبيلة فيذهب الشطر الغالب من أجورهم إلى سادتهم .

وعندما تنامت حركة التجارة فى الجزيرة العربية فى المراكز الحضرية مثلما أوردنا فيما سلف ساهم العديد من شيوخ القبائل ووجهائها فى عروض القوافل التجارية خاصة تلك التى تكون على مقربة من (المراكز المدينية) أو تربطها بها علاقات كالحلف أو الجوار أو المصاهرة وهذه (توفر فوائد مالية للقبائل بتسويق مالديها من بضائع ، إضافة إلى ماتفيده من الخدمات التى تقدمها للقوافل من جهة أخرى)[٥] ؛ والإقراض بالربا لم يقتصر على الأغنياء فى المراكز الحضرية وحدهم بل تعامل به عدد من سادات القبائل فى البوادى ، وألمعنا إلى ذلك فيما تقدم .

كل هذه الدخول التى كانت تصب فى خزائن سادات ووجهاء القبائل مما جعلهم يتغولون ويزدادون استكباراً على طبقة الفقراء فيها ، الأمر الذى ساعد على تجذير الفوارق بين الطبقتين ، إذ مما لا مشاحة فيه أن هذا التمايز فى الثروة أدى بدوره إلى التمايز الاجتماعى مما أثر تخلخلاً فى الروابط القبلية ، فبعد أن كان أفراد القبيلة - على الأقل الصرحاء أو الخلص - يشعرون بالمساواة فيما بينهم ، طفق الفقراء والمستضعفون منهم يلمسون أنهم غدوا فى مرتبة أدنى بكثير من أغنيائهم الذين يمسكون بأيديهم بزمام الثروة ، أى أن الجانب الاقتصادى لعب دوراً خطيراً فى تحطيم الروح القبلية وغدت المصالح المادية هى الرابطة الجديدة التى تجمع بين أبناء كل طبقة وتوحد بينهم .

* * *

---

(٥) د . عبد العزيز الدورى ، **التكوين التاريخى للأمة العربية - دراسة فى الهوية العربية والوعى** ، ص ٣٠ ، طبعة ١٩٨٥ م ، من مطبوعات مركز دراسات الوحدة العربية ، نشر دار المستقبل العربى .

تحدثنا فيما سبق عن العوامل التى ساهمت فى نمو الحركة التجارية فى المراكز الحضرية وخاصة فى مكة وأدت إلى تكديس الثروات فى أيدى عدد محدود ، ومن بينها عوامل خارجية - فى مقدمتها - حياد القرشيين فى النزاع الذى كان دائراً بين الفرس والروم ، مما أتاح لهم التعامل مع الطرفين معاً .

من ناحية الإمبراطورية الرومانية البيزنطية فإن (إقبالها ونهامتها على منتجات الهند والصين لم تصرفهم عن الاستعانة بالقرشيين كوسطاء للتجارة الهندية وكانت القسطنطينية تستخدم منتجات الشرق لإبراز مظاهر العظمة والأبهة فى البلاط الإمبراطورى فالأباطرة أنفسهم كانوا يحيطون أنفسهم بحاشيات مترفهة تلبس الثياب الحريرية ، وكانت أبهة الكنائس البيزنطية وفخامتها تتطلب مزيداً من البخور الطيوب ومزيداً من الأقمشة الحريرية المصنوعة فى الصين والهند . .) [٦] ، بل إن اهتمام الروم الشرقيين بالتجارة مع مكة دفع إلى إنشاء وكالات تجارية فيها للاهتمام بالشئون التجارية والتجسس على أحوال العرب [٧] ونذكِّر بما أوردناه فى (المقدمات الدينية) أن هذه البيوت أو الوكالات التجارية الرومانية كانت من بين المنابع التى صدرت عنها « النصرانية » فى مكة .

أما من ناحية الفرس فقد أوضحنا أن نوفل الأخ الأصغر لهاشم عبد مناف قد أخذ عهداً من كسرى (فاختلف تجار قريش إلى أرض العراق وأرض فارس آمنين) [٨] ، ولم تكن الحبال أو العهود التى أبرمها (الإخوة عبد مناف) قاصرة على فارس ، بل امتدت إلى دول مجاورة أخرى مثل

---

(٦) د . السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص ٣٠٦ ، مرجع سابق .

(٧) عيسى أيوب البارونى ، **الرقابة المالية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين** ، ص ٢٢ ، مرجع سابق ، نقلاً عن « أسواق العرب » ، لـ سعيد الأفغانى .

(٨) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، المجلد الأول ، ص ١٣٤ ، مرجع سابق .

الحبشة ، وقد سجل شعر ماقبل البعثة المحمدية تلك الحقيقة التاريخية ، فهذا مطرود بن كعب الخزاعي يقول :

يأيهـا الرجـل المحول رحلـه هلا نزلت بآل عبد مناف

الآخـذين العهـد من آفـاقـه والراحلين لرحلة الإيلاف

ويكاد الباحثون يجمعون على حياد سادة مكة بين القوتين الأعظم لذاك الزمان وأنه كان دليلاً على كياسة القرشيين وبعد نظرهم وحسهم السياسي العميق ، إذ (أفادت هذه السياسة مكة كثيراً فظهرت زعامتها على القبائل وجعلت القبائل تعترف لها بالتفوق)[9] ؛ وحتى بعد الحملة العسكرية الخائبة التي قادها أبرهة الأشرم ضد مكة والتي ساهمت في هزيمته فيها حرارة الصحراء اللافحة (فإن قريشاً) ظلت متمسكة بحيادها الحذر الذي أثنى عليه خيراً جمهور الباحثين (فلم تصطدم بالأحباش رغم حملة أبرهة بل نشطت تجارتها مع اليمن)[10] .

وعندما نقول سادة قريش فإنه يشمل وجهاء ثقيف في الطائف ، إذ أنهم كانوا من أهم المشاركين في تجارة قوافل مكة ، وقد سبقت الإشارة إلى توثق وتداخل العلاقات الاقتصادية بين البلدين[11] . ولعل ما يؤكد ذلك أن القرآن الكريم ربط بين مكة والطائف وسماهما (القريتين)[12] .

أوردنا فيما تقدم أن العهود التي أبرمها هاشم بن عبد مناف وإخوته قد نقلت التجارة في مكة من المحلية إلى العالمية أو الدولية ، ولعل مايثبت ذلك عظم القوافل التجارية التي تخرج من مكة إلى تلك البلاد التي عقدت معها عهود ومواثيق «الإيلاف» ثم تعود منها وهي محملة بعروض أخرى لبيعها في الأسواق (سوف نتحدث عنها بعد قليل) ؛

(٩) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، مرجع سابق .

(١٠) د . عبد العزيز الدوري ، **التكوين التاريخي للأمة العربية** ، ص ٢٩ ، مرجع سابق .

(١١) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، المجلد الأول ، ص ١٣٥ ، مرجع سابق .

(١٢) سورة الزخرف ، الآية ٣١ .

يحدثنا الإخباريون أن القافلة الواحدة كانت تضم مابين ألف وألفى بعير مما يقطع بتنامى ثروات القرشيين وشركائهم من الثقفيين وغيرهم ، ونذكر قافلة قريش التى كانت السبب فى غزوة بدر الكبرى ، كمثل على مابلغته تجارة أولئك القوم (قال ابن إسحق : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان بنى حرب مقبلاً من الشام فى عير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجارتهم وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص ، وقال ابن عقبة وابن عائذة فى أصحاب أبى سفيان : هم سبعون رجلاً وكانت عيرهم ألف بعير . . إلخ)(١٣) .

يضيف د . سليمان حزين عاملاً خارجياً آخر لازدهار التجارة فى وسط وغرب الجزيرة وخصوصاً منطقة الحجاز وعلى الأخص مكة فقد (كان لاضمحلال طريق الملاحة فى البحر الأحمر فى أواخر عهد الرومان (القرن الخامس الميلادى وما بعده) أثره فى ظهور طريق البر الحجازى وهو طريق رحلة الشتاء والصيف بين اليمن والشام ، واستطاعت قوافل الجمال من هذا الطريق الذى يصل الجنوب بالشمال أن تحل محل تجارة البحرين بين عدن القديمة وخليجى السويس والعقبة ، وقد أفاد عرب الحجاز لاسيما قريش من هذا التحول من تجارة البحر إلى تجارة البر ، بل كان ذلك أحد العوامل فى ازدياد أهمية مكة وعدد غيرها من محطات القوافل على طريق القوافل)(١٤) .

إن التنافس بين الروم والفرس والحبشة على تجارة العربية الجنوبية «اليمن» (وضعف سلطان جنوبى الجزيرة العربية الإقطاعى ، والحروب

(١٣) ابن سيد الناس ، **عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير** ، المجلد الأول ، ص ٢٣٩ ، مرجع سابق .

(١٤) د . سليمان حزين ، **إسلاميات** ، الحديث الرابع ، ص ٧٠ ، مرجع سابق .

الإقطاعية والدينية المهلكة ، وذلك فى الفترة الواقعة بين القرنين الثالث والسادس الميلادى) [١٥] قد أدى إلى تنامى التجارة البرية التى تنقل بالجمال فى قوافل تسير بين اليمن والشام والعراق (وما إن حل عام ٦٠٠م حتى كان القريشيون فى مكة يتحكمون فى هذه التجارة إلى حد كبير)[١٦] ، وهكذا أصبحت قريش قبيل ظهور الإسلام سيدة التجارة فى وسط وغرب الجزيرة بدون منازع ، والذى لاريب فيه أن ازدهار تجارة القرشيين كان من أهم أسبابه احتدام الصراع السياسى والنزاع المسلح بين القوى الدولية الكبيرة آنذاك ، ونعنى الرومان والفرس ثم الأحباش ، وذلك كان بكل المقاييس فى صالح دولة قريش التى قامت بعيد ذلك فى يثرب (ولو أن مثل ذلك الضعف السياسى سبق الإسلام بقرنين مثلاً لتغير وجه التاريخ فى الشرق الأدنى والعالم الإسلامى تغيراً واضحاً ولما أتيح للدين الجديد أن يستفيد من توسع العرب السياسى على حساب الإمبراطوريتين القديمتين على نحو ماحدث فى صدر الإسلام)[١٧] .

ولعله من البديهى أن نذكر أن توسع العرب الذى حدث فى صدر الإسلام كان هو الثمرة المباشرة لقيام دولة قريش فى يثرب ، التى منها انطلقت جيوش الفتح التى حققت ذلك التوسع .

* * *

تلك لمحات خاطفة عن العوامل الخارجية التى أدت إلى تعاظم التجارة فى مكة ومن ثم فى الطائف وتكدس الثروات فى أيدى قلة محدودة ، أما العوامل الداخلية التى وظفتها قريش فى سبيل ذلك فأهمها : الحج والأسواق .

(١٥) **دائرة المعارف الإسلامية** ، المجلد السادس ، ص ٤٧٣ ، مرجع سابق .

(١٦) المرجع نفسه ، ص ٤٩١ .

(١٧) د . سليمان حزين ، المرجع السابق ، ص ٧١ .

الحــــج

أحد الطقوس الدينية الجماعية ، عرفه العديد من الشعوب القديمة ، وهو بنية عضوية فى عبادتهم ، وإن اختلفت صورته من عقيدة لأخرى ، ونكتفى بمثل واحد وهو الديانة المصرية القديمة :

كانت مواسم الحج عند المصريين القدماء تسمى الأعياد المقدسة (ومن أشهرها عيد المعبودة (باستت) إلهة (بوبسطة) ، فقد روى هيرودوت أن المحتفلين بهذا العيد كانوا يتقاطرون رجالاً ونساءً على هذه المدينة من أقاصى البلاد فى زوارقهم . . . وعندما يصلون قبلتهم يقربون القرابين العظيمة . . . وقيل إن عدد الزوار الذين اشتركوا فى أحد هذه الأعياد بلغ ما لايقل عن ٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، وقد يكون هذا العدد مبالغاً فيه ، غير أن مما لا مشاحة فيه أن (بوبسطة) كانت تضم بين جدرانها فى مثل هذا العيد من الزوار ماتضمه مدينة طنطا الحالية . . . والأغانى التى ينشدها الكهنة ودهماء القوم معددين مناقب آلهتهم العظيمة ، وبعضها يثير شعوراً دينياً طاهراً وينبئ عن حماس شعرى)[١٨] ، وفى عيد الإله (آمون) بمدينة الأقصر أو طيبة (كانت تقدم مختلف أنواع القرابين مثل الثيران المسمنة الخاصة لهذه المناسبة)[١٩] ويحدثنا الآثريون وعلماء المصرولوجيا أن من أبرز الشعائر التى كان المؤمنون يقومون بها فى تلك الأعياد وخاصة فى مدينة «منف» هو الطواف حول مبنى مقدس (والطواف حول الحائط كان طقساً خاصاً بـ «منف»)[٢٠] بالإضافة إلى تقديم (الذبائح التى تصاحب

(١٨) إستيندوف الألمانى ، **ديانة مصر القديمة** ، تعريب سليم حسن ، ص ٧٠ - ٧١ ، الطبعة الأولى ، ١٩٢١ ، مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر .

(١٩) باروسلاف تشرنى ، **الديانة المصرية القديمة** ، ترجمة د . أحمد قدرى ، مراجعة د . محمود ماهر طه ، ص ١٧٣ ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م ، العدد السادس من سلسلة «الثقافة الأثرية » ، مشروع المائة كتاب ، هيئة الآثار المصرية ، القاهرة .

(٢٠) مرجريت مرى ، **مصر ومجدها الغابر** ، ترجمة محرم كمال ، مراجعة د . نجيب ميخائيل إبراهيم ، ص ١٦٨ .

الاحتفال بالحادث ، وكانت هناك أنشودة تخلد ذكرى احتفال فى طيبة تقول (ماأشد سرور معبد آمون فى العام الجديد عن ذبح الضحايا عندما يتقبل آمون أشياءه الجديدة وتنحر ثيرانه بالمئات)[٢١] . هكذا يبين أن الحج أو العيد المقدس أو الاحتفالية المقدسة بإله معين أو موسم دينى ، كان من أبرز أركان العبادة لدى المصريين القدامى ، وكان يتعين على المؤمنين الذين يحجون إلى المدينة المقدسة التى يجرى بين جنباتها العيد المقدس (الحج) أن يمارسوا شعائر منها :

أ) ذبح ضحايا - يفضل أن تكون من الثيران المسمنة - وتقدم كقرابين للإله صاحب الاحتفالية وهو يُسرّ كثيراً بذلك .

ب) ترديد أناشيد معينة تمجيداً لمعبودهم .

ج) الطواف حول حجر أو مبنى مقدس .

بالمثل فى الفترة السابقة على ظهور الإسلام كانت العرب تتوافد على مكة مدينة القداسة بالألوف لأداء الحج ، حتى القبائل التى دانت باليهودية والنصرانية كانت تشارك فيه باعتبار أن الكعبة - كعبة مكة - بناها إبراهيم عليه السلام الذى تعظمه الديانتان المذكورتان ، كذلك الصابئة الذين يعدون الكعبة أحد البيوت المقدسة لديهم . وإذا كان المصريون القدماء يتقاطرون على مدنهم المقدسة بالمراكب أو الزوارق عن طريق النيل ، كان العرب يسافرون إلى مكة بالإبل سفن الصحراء ، و(كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون . . ويطوفون بالبيت سبعاً . . وكانوا يلبون ، إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته فى قوله : ألا شريك هو لك تملكه وما ملك ، . . ويقفون المواقف كلها . . . وكانوا يهدون الهدايا - أى الضحايا . . .) [٢٢] ، هذه الشعائر التى كان يمارسها عرب

(٢١) مرجريت مرى ، **مصر ومجدها الغابر** ، مرجع سابق .

(٢٢) د . محمد إبراهيم الفيومى ، **فى الفكر الدينى الجاهلى** ، ص ٢٢١ ، مرجع سابق .

ماقبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فى الحج تشبه إلى حد مذهل تلك التى كان يؤديها قدماء المصريين فى أعيادهم المقدسة ، فهم كانوا يطوفون بالكعبة - البناية المقدسة - والتى بها الحجر الأسود وكانوا يلبون وهذه التلبية تقابل التراتيل التى كان يترنم بها قدماء المصريين كهنة ودهماء على حد تعبير إستندوف الألمانى ، معددين مناقب آلهتهم ، وكان العرب يقربون (الهدى) ثم ينحرونه تماماً كما كان أولئك المصريون القدامى يقدمون القرابين من ثيران مسمنة وغيرها لآلهتهم ، ويقدم لنا لامنس وصفاً بديعاً لطوافات العرب آنذاك وخاصة (العمرة الرجبية) بمكة (. . . شوارع ضيقة مزدحمة بالعابدين . . . مواكب تطوف بحجارة الأحياء . . . جمال مترنحة حاملة القباب الفاقعة الألوان . . . يقودها زعماء القوم ويسير وراءها على الجمال نسوة قريش وقد حللن شعورهن ، وضربن بالدفوف والغرابيل ، وصحن بأصوات الفرح والحماسة حتى يصل الجميع إلى فناء الكعبة)[٢٣] ، هذه الصورة التى خطها قلم لامنس تتطابق إلى حد بعيد مع ما كان يجرى فى عيد المعبودة «باستت» إلهة «بوبسطة» (كان هذا العيد آية فى الأنس والسرور إذ كان الوافدون إليه يمرحون ويلعبون طوال طريقهم إلى «بوبسطة» ، وكان صدى الغناء والموسيقى يملأ سطح الماء ، والنساء يضربن على الدفوف والرجال يلعبون على المزامير يغنون أو يصفقون)[٢٤] .

إذن تشابهت لدرجة مدهشة شعائر (الحج) لدى عرب الجزيرة قبل الإسلام بتلك التى كان يؤديها قدماء المصريين فى (أعيادهم المقدسة) .

اعتقد أولئك العرب أن الحج كان من إرث أبويهم إبراهيم وإسماعيل

(٢٣) د . يحى الشامى ، «الشرك الجاهلى وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام» ، ص ٨١ ، مرجع سابق ، نقلاً عن **مجلة المشرق** ، ص ٣٦ -٣٧ ، مجلد ٣٧ ، المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٣٩ م ، بيروت .

(٢٤) إستيندوف الألمانى ، **ديانة قدماء المصريين** ، ص ٧١ ، مرجع سابق .

عليهما السلام ، ولما جاء الإسلام أبقى على الحج بجميع مناسكه تلك ، خلا التلبية فقد نقاها من عبارات الشرك التى كانت بعض القبائل تضمنها إياها .

* * *

استثمر أغنياء قريش الحج والعمرات لتنشيط التجارة فى منطقة الحجاز إذ من غير المعقول أن يؤم مكة ألوف العرب من جميع أنحاء الجزيرة لأداء هذه المناسك دون أن يستفيدوا منهم أقصى ماتكون الفائدة وينتفعوا أكبر منفعة ، وأول مافعلته قريش فى هذا السبيل أن (عززت أيضاً وضعها القبلى بتشريعاتها الوثنية وارتباطها بالبيت حتى أصبح كل من يتمرد على قريش يتمرد على قدسية البيت ومن يتمرد على قدسية البيت فهو يتمرد على قريش)(٢٥) .

رغم وجود نيف وعشرين كعبة فى جزيرة العرب آنذاك ، فإن أياً منها لم يبلغ ماوصلت إليه كعبة مكة من مكانة مقدسة ، وذلك بفضل ذكاء القرشيين ودهائهم حتى غدا القسم بها يساوى القسم بالآلهة فنحن نجد «زهير بن أبى سلمى» فى معلقته المشهورة يقول :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

وغيره من شعراء ذلك العصر فعل ذلك .

إن البيت الذى يرتفع إلى هذا الحد من القداسة ، يتعين على العربى فى أى مكان أن يحج إليه ولو فى العمر مرة واحدة ، والذين يحجون إليه (كانوا إذا عزموا على الرحيل والرجوع إلى ديارهم البعيدة يحملون معهم الحجارة المتواجدة بفناء الكعبة لينصبوها فى ديارهم النائية على شاكلة حرم البيت) (٢٦) ، إلى هذه الدرجة نجحت الدعاية الذكية التى أطلقها القرشيون الدهاة بين القبائل فى تعظيم كعبة مكة .

---

(٢٥) د . محمد إبراهيم الفيومى ، فى **الفكر الدينى الجاهلى** ، ص ٢٤١ ، مرجع سابق .

(٢٦) د . يحى الشامى ، **الشرك الجاهلى وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام** ،ص ٨٥ ، مرجع سابق .

أيضاً سمح القرشيون أو بمعنى أدق استحثوا تلك القبائل على نقل (نسخ) أوثانهم ووضعها فى فناء الكعبة حى قيل إن عددها بلغ ثلثمائة وستين صنماً كما روى الكلبى فى كتابه (الأصنام) ، والهدف من ذلك واضح وهو جذب أكبر عدد من القبائل العربية إلى مكة ليؤدوا مناسك الحج ثم ليعرجوا على معبوداتهم أو أصنامهم المنصوبة فى حرم الكعبة ليذبحوا لها .

وسبق أن أوضحنا أن القرشيين استغلوا (وقعة الفيل) وهزيمة أبرهة الحبشى فى تجذير قداسة البيت العتيق الذى حماه ربه بـ (طير أبابيل) رمتهم بـ (حجارة من سجيل) ؛ وفى ذلك يقول أحد شعراء تلك الفترة وهو (رؤبة بن العجاج) :

ومسهم ما مس أصحاب الفيل   ترميهم حجارة من سجيل

ولعبت طير بهم أبابيل[٢٧] .

وكان القرشيون يسمون (الحُمس) أى أصحاب الحماسة فى الدين و (أهل الحرم) ومن ثم كان يرى سائر العرب أن الحج إلى بلدهم الحرام والإتصال بهم شرف لهم وبلغ من إكبار العرب لهم أنهم كانوا يستعيرون منهم ثيابهم للطواف بها حول الكعبة لأن ملابسهم هم لاتليق بذلك ، كل هذه الأمور جعلت منطقة الحجاز مقصداً ومزاراً لجميع العرب ومكة محجة لجميعهم من أقطار الجزيرة كافة .

إن الذى لامشاحة فيه أن هناك أمراً ساعد القرشيين فى سمو قدر كعبة مكة لدى العرب هو قناعة الأخيرين أن الذى بناها هو إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ، والأخير فى نظرهم هو جدهم الأعلى . أى أنها إرث جدهم أو أبيهم .

---

(٢٧) أورده المستشار محمد سعيد العشماوى ، فى كتابه **الخلافة الإسلامية** ، ص ٤٦ ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، دار سينا للنشر ، القاهرة .

بيد أن أيام الحج كانت أيام عبادة ، فما لها وللتجارة والمرابح والمكاسب ؟

إن القرشيين كانوا أذكى من أن يخلطوا بين الأمرين ، ومن ثم فإنهم أقاموا أسواقاً ارتبطت بموسم الحج وتعلقت بمواقيته .

* * *

الأسواق

انقسمت الأسواق إلى عامة وخاصة (محلية) أو خارجية و (داخلية) ، ونبدأ بالأخيرة التى كانت تقام فى منطقة الحجاز هى :

«عكاظ» وهو أشهرها ، ومدته من واحد إلى عشرين من ذى القعدة ، و«مجنة» من عشرين إلى ثلاثين من ذى القعدة ، و«ذو المجاز» من غرة ذى الحجة إلى الثامن منه وهو يوم التروية وبه كانت - ومازالت - تبدأ أيام الحج الأكبر ، ثم «خيبر» عقب الحج إلى أواخر شهر المحرم . (سوق عكاظ التى تقع إلى الجنوب الشرقى من مكة وعلى بعد عشرة أميال من الطائف ونحو ثلاثين ميلاً من مكة ، من أعظم أسواق العرب وكانت تنزلها قريش وهوازن وغطفان وخزاعة وعضل) [٢٨] ويصف الإدريسى «عكاظ» بأنها سوق عامة (. . . ويقع سوق «ذى المجنة» الذى يقصده التجار فى بداية شهر ذى الحجة فيقيمون فيه حتى يوم التروية ؛ وفى العشرة الأخيرة من ذى القعدة تقوم سوق «مجنة» التى يقصدها التجار بعد انفضاض سوق «عكاظ» وهى تقع قرب مكة) [٢٩] ، ويؤكد الباحث ماسبق أن قررناه أن قريشاً ربطت هذه الأسواق بموسم الحج الأكبر ولأن مواسم بعض الأسواق « عكاظ وذى المجنة » تقع أيام حجهم . . . وتلك ميزة لاتتمتع

---

(٢٨) د . حمدان عبد المجيد الكبيسى ،« أسواق العرب التجارية» ، هيئة كتابة التاريخ سلسلة الموسوعة التاريخية ، **الميسرة** ، ص ٢١ ، طبعة ١٩٨٩م ، دار آفاق ، بغداد - العراق .

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

بها بلدة غير مكة ولا قوم إلا قريش ، ومازال موسم الحج الموسم الأكبر للتجارة وخاصة فى الحجاز)[30] وكان أجدر بالباحث أن يفطن إلى أن هذه الميزة كانت من تدبير تجار قريش وليست مصادفة عشوائية إذ فى تلك الأيام كانوا يروجون تجارتهم فـ (فتنشط وتعود على أهلها بالأرباح الوفيرة ، ولتأمين هذا الموسم اتخذت قريش كل ما استطاعت أن تتخذه من وسائل لحماية الوافدين وإراحتهم وتقديم الخدمات اللازمة لهم . . .)[31] ؛ إذن فقريش هى التى سعت لنصب تلك الأسواق فى موسم الحج الأكبر وأمنت للوافدين إليها الأمن والحماية والخدمات لأن تلك الأسواق كانت تأتى لصناديد مكة والطائف بالأرباح الوفيرة والمكاسب الهائلة ، إذ البيع والشراء عماد ثروة قريش على الأخص بعكس غيرها من القبائل التى اعتمدت على الغارات والغزوات وما تأتى بها من غنائم وأنفال (ويرجع الثعالبى سبب إقبال قريش على التجارة هو تمسكهم بالدين « فتركوا الغزو كراهة السبى واستحلال الأموال ، فلما زهدوا فى الغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة» . . .)[32] ؛ ولقد صدق الثعالبى فلم نقرأ عن قريش أنها شنت غارة على قبيلة أو سلبتها شيئاً ، ولعل هذا يفسر لنا أمرين :

أولها : كثرة المتحنفين من قريش كما أوردنا فى مبحث «الحنيفية» .

والآخر : نجاح قريش فى توظيف الدين لتدعيم دولتها .

بعد هذه الاستطرادة التى جرنا إليها «الثعالبى» نعود إلى الأسواق .

إذ عقب انتهاء موسم الحج الأكبر يقوم سوق «خيبر» فى منطقة يثرب المركز الحضرى حيث يؤمه بعض القبائل أثناء رجوعها إلى مواطنها

---

(٣٠) د . حمدان عبد المجيد الكبيسى ، «أسواق العرب التجارية» ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .
(٣١) المرجع السابق ، ص ١٣ .
(٣٢) المرجع السابق ، ص ٧ .

خاصة تلك التى تقطن العربية الجنوبية ونواحيها ، ذلك أن الحج الأكبر كانت تؤديه القبائل من كل أقطار الجزيرة العربية (فقد كانت طرق التجارة والحج تمتد من عدن إلى مكة عبر الجبال فتمر من عدن إلى الجند إلى ذى أشرف (النجد الأحمر) إلى أب ، إلى النفيل «نفيل سمارة» إلى ذمار إلى صعدة إلى الطائف فمكة(٣٣) .

عدا الأسواق الأربع التى ذكرناها والتى تقع فى منطقة الحجاز ، كان هناك العديد من الأسواق فى أمكنة أخرى منها «دومة الجندل» و«المشقر» و«صحار» و«دبى» و«صنعاء» و«حضر موت» و«اليمامة» و«بصرة» و«دير أيوب» و«أذرعات» و«هجر» و«عمان»(٣٤) ، ويطلق حسين مروة على النوع الأخير منها «الخارجية» وعلى الأول «الداخلية أو الموسمية» وينعتها بأنها (أسواق موسمية كموسم الأشهر الحرم خلال الأشهر التى تعارفوا على تحريم الاقتتال فيها . . . وقد كان الحج من أكبر مواسم الربح لقريش)(٣٥) ، ولاحظ د . حمدان عبد المجيد الكبيسى أن بعضاً منها مما يمكن أن نسميه «الخارجية» (كانت تقوم على فرض البحر ومثل أسواق : «عدن» و «صنعاء» و «عمان»)(٣٦) وهذه لم تستعص على قوافل قريش التى كانت كما ذكرنا تجوب الجزيرة وتصل إلى خارجها . ولم تقتصر وظيفة الأسواق على صب الأرباح الطائلة فى جيوب أثرياء مكة والطائف واليمامة ويثرب « وهى المراكز المدنية» فى وسط وغرب

(٣٣) سيف على مقبل ، **وحدة اليمن تاريخياً** ، ص ٤٥ ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، بيروت - لبنان .

(٣٤) عيسى البارونى ، **الرقابة المالية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين** ، ص ٢٧ - ٢٨ ، مرجع سابق .

(٣٥) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، الجزء الأول ، ص ٢٢٤ ، مرجع سابق .

(٣٦) د . حمدان عبد المجيد الكبيسى ، **أسواق العرب التجارية** ، ص ٢٨٠ ، مرجع سابق .

الجزيرة» بل حققت أهدافاً أخرى منها أنها (حملت كثيراً من ألوان الترف إلى العرب)(٣٧) ، ذلك أن البضائع التى كانت تحملها قوافل الحجيج والعروض التى كانت تباع فى الأسواق الخارجية وخاصة فى الفروض أو الموانى يمكن أن يوصف البعض منها بأنه من «بضائع الترف» ؛ مثل الملابس الحريرية والعطور والطيوب والنعال الرقيقة والعمائم الملونة والسروج المطهمة والسيوف الهندية . . إلخ التى كان يقبل على شرائها سراة مراكز الحضر وفى مقدمتهم وجهاء ثقيف وصناديد قريش ؛ مما عمق الهوة التى فصلت بين الفقراء والأغنياء . وأيضاً كانت الأسواق لا فى داخل حدود الجزيرة بل فى الدولة المحيطة ندوات سياسية يتدارس فيها كبار التجار الأوضاع السياسية لأن الارتباط بين السياسة والاقتصاد قديم (وعرفت مكة أيضاً نوعاً آخر من الندوات السياسية تمثل بالأسواق . . . فإنها تمثل أيضاً وجهاً سياسياً فهى مجتمعات ذات أهمية ومؤتمرات تقرر فيها كثير من الأمور التى لها صلة بسياسة القبائل وصلاتها بعضها ببعض) (٣٨) ، كما لعبت الأسواق دوراً بارزاً فى الحياة الثقافية باعتبارها مهرجانات أدبية وسوف نتناول هذا الموضوع فى المبحث الخاص بـ «المقدمات الثقافية» .

بيد أن المهمة الأخطر التى حققتها الأسواق هى (نشر العامل النقدى داخل المجتمع القبلى بمختلف أنواع النقد المتداول فى مختلف البلدان الأجنبية)(٣٩) ، إذ كان العرب آنذاك يتداولون النقود الرومانية والفارسية

(٣٧) د . حمدان عبد المجيد الكبيسى ، **أسواق العرب التجارية** ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(٣٨) منذر الجبورى ، **أيام العرب وأثرها فى الشعر الجاهلى** ، ص ٦٥ ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ ، دار الشئون الثقافية « آفاق » ، بغداد - وقد نقل الباحث هذا الرأى عن د . جواد على فى « المفصل » .

(٣٩) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، الجزء الأول ، ص ٢٢٨ ، مرجع سابق .

ولم يكن لهم نقد خاص بهم ومعلوم أن أول من سك النقود العربية فيما بعد هو عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى .

إذا مما لا يستسيغه العقل أن تتم المتاجرة فى تلك الأسواق - داخلية أو خارجية - بطريقة «التبادل البضاعى» - والتعامل بالنقد غدا من أبرز أسباب التعجيل بتفكيك النظام القبلى والقضاء على الروح القبلية .

* * *

لم تكن التجارة وحدها هى مصدر ثراء سادة المراكز المدينية ، بل انضافت إليها الزراعة فى : الطائف ويثرب واليمامة وإن تباينت فى كل منها حسب المناخ والتربة ومصادر المياه .

الطائف

تقع على ظهر جبل « غزوان » من جبال السراة ، وهى أبرز مكان فى الحجاز ، وربما تجمد ماؤها فى الشتاء (وهى على العكس من مكة ، أرض مرتفعة ذات جو طيب فى الصيف فيه زرع وضرع وقد جادت الطبيعة على أهله ، وقد كانت وما زال مصيفاً طيباً يقصده أهل مكة فراراً من وهج الشمس)[٤٠] ، وسبق أن ذكرنا أن عدداً من سادات مكة كان يملك المزارع فى الطائف وقد (ساعد اعتدال حرارة الطائف وجودة تربتها بالإضافة إلى توفير مياهها وعذوبتها على قيام نشاط زراعى على نطاق واسع وتعتبر الحنطة الإنتاج الزراعى الأول فى الطائف وعلى حنطة الطائف كان تعتمد كل حواضر الحجاز وخاصة مكة)[٤١] ، كذلك اشتهرت بفاكهتها المتعددة الأنواع ففيها يكثر النخيل والأعناب والموز

---

(٤٠) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، المجلد الرابع ، ص ١٤٢ ، مرجع سابق .

(٤١) د . السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص ٣٢٢ ، مرجع سابق .

والرمان والتين والخوخ والسفرجل والبطيخ وكلها كانت تحمل إلى مكة خاصة وباقى نواحى الحجاز . . . واشتهرت الطائف . . . بعناية سكانها بالأشجار المثمرة وبجلب أنواع جديدة لغرسها ، كما اشتهرت بإنتاج العسل فيها)(٤٢) .

يثرب

(نظراً لجفاف المناخ وقلة الأمطار فى يثرب فإن الزراعة اعتمدت على مياه الوديان التى تغزر فى الشتاء والربيع بعد هطول الأمطار وتشح فى الصيف ، أما المناطق البعيدة عن الوديان فقد إعتمدت على مياه الآبار . . .) (٤٣) ولكن جواد على من رأيه أن الماء كان متوفرا بعض الشيئ فى يثرب وغير بعيد عن سطح الأرض (. . . ومن الممكن الحصول عليه بسهولة بحفر أبار فى البيوت ولهذا كان فى إمكان أهلها زرع النخيل وإنشاء البساتين والحدائق)(٤٤) وقد اشتهرت يثرب بـ «الحرَّات» و «الغدران» وهى (من أخصب أراضى الحجاز فهى أرض بركانية خصبة تتوافر فيها مياه الأودية والآبار والعيون ، وأرض على هذا النحو من الخصب تكون صالحة للزراعة (٤٥) وأهم مزروعاتها النخيل الذى كان يطرح تمراً طيباً والشعير والقمح والكرم والرمان والموز (ومن مصادر الثروة الزراعية - منها - حب البان ومنها كان يحمل إلى سائر البلدان) (٤٦) .

---

(٤٢) محسن خليل ، فى **الفكر الاقتصادى العربى الإسلامى** ، ص ٣٨ ، مرجع سابق .

(٤٣) د . صالح أحمد العلى ، **الدولة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم** ، المجلد الأول ، ص٢٦ ، مرجع سابق

(٤٤) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، المجلد الرابع ، ص ١٣٢ ، مرجع سابق .

(٤٥) د . السيد عبد العزيز سالم ، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ص ٣٥٢ ، مرجع سابق .

(٤٦) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

اليمامة

(تعتبر اليمامة من الأماكن الخصبة والصالحة للزراعة وقد ذكر أهل الأخبار أن اليمامة من أحسن بلاد الله أرضاً وأكثرها خيراً وشجراً ونخيلاً وأطلق البعض عليها « ريف مكة » لكثرة إنتاجها الزراعى من الحبوب وبها مياه كثيرة وبها يقع « وادى حنيفة » وبه مياه ومواضع كانت عامرة ثم خربت ، وقد اشتهرت قراها ومزارعها وكانت من أهم الأرضين الخاصة لملكة «كندة» . . .)[٤٧] وكانت اليمامة ذات شهرة فائقة فى إنتاج الحنطة الممتازة الفائقة الجودة (. . . كانت مرابع بنى حنيفة مناطق زراعية فى معظمها واشتهرت بزراعة التمور والحبوب حتى اعتمدت عليها فى تصدير الميرة أى الحبوب إلى مناطق أخرى فى الجزيرة العربية أهمها منطقة الحجاز وبصفة خاصة قريش فى مكة . . . وأما حنطتهم فكانت تسمى «بيضاء اليمامة» . .)[٤٨] ونظراً لاشتغال بنى حنيفة بالزراعة ، فقد عيرهم غيرهم من العرب بها ، لأن الأعراب والعرب كانوا يحتقرون من يمتهن الزراعة وبها هجاهم جرير الخطفى فى قصيدة منها :

رأت حنيفة إذ عدت مساعيها ... أن بئسما كان يبنى المجد بانيها
أبناء نخل وحيطان ومزرعة ... سيوفهم خشب فيها مساحيها
قطع الديار وأبر النخل عادتهم ... قدما فما جاوزت هذا مساعيها

* * *

إلى جانب الزراعة وجد فى المراكز الحضرية مايمكن أن يطلق عليه : صناعات كانت تتفق مع الدرجة الحضارية التى وصل إليها العرب آنذاك خاصة فى وسط وغرب الجزيرة ، لأن العربية الجنوبية سجلت تقدماً فى

(٤٧) محسن خليل ، **فى الفكر الاقتصادى العربى** ، ص ٣٨ ، مرجع سابق .
(٤٨) د . إحسان صدقى العمد ، **حركة مسيلمة الحنفى** ، ص ٢٨ ، مرجع سابق .

هذا المضمار ، وكان يغلب عليها التحويلية مثل دباغة الجلود وصنع الخمور من التمور والأعناب ، وكانت الاستخراجية أقل بكثير ؛ عرفت فى مكة دباغة الجلود (الأدم) وإن كانت أقل إتقاناً وجودة من مثيلتها فى الطائف ، والأسلحة المختلفة والفخار وصناعة الأسرة والأرائك (الأثاث المنزلى) [٤٩] ، ولو أننا نرجح أن هذه الصناعات - فيما عدا الأدم - كانت لـ «الاستهلاك المحلى» أى لاتصدر خارج مكة .

أما الطائف فقد كانت مشهورة بدباغة الجلود وتجفيف الأعشاب وكذلك عرفت بصناعات : النجارة والبناء والحدادة . . . وصناعات العرادات والمجانيق والدبابات والصنبور وأوتاد الحديد المستخدمة فى الحرب) [٥٠] فى حين أن يثرب عرفت بـ (صناعة الخمور من التمور والمكاتل والقفف من النخيل ، والنجارة من شجر الطرفاء والأثل . . . وصناعة التحف المصنوعة من المعادن كالحلى وأدوات الزينة وصناعة الأسلحة والدروع . . .) [٥١] ونذكر بما سبق أن قلناه أنه كان فى يثرب ثلاثمئة محل لصياغة الذهب ، وفى مضارب «بنى سليم» شرقى يثرب وجدت صناعة الحديد ولقبهم جيرانهم بـ «القيون» أى الحدادين ، إذ أنهم اشتهروا بصهره وتنقيته وتصنيع سكك المحاريث منه ، (وقد تحالف عدد كبير من رجالات مكة مع «بنى سليم» واشتغلوا معهم فى الإستفادة من المعادن والثروة فى أرض سليم) [٥٢] .

كذلك احترف بعض السادة فى المراكز المدينية حرفاً كانت تدر عليهم دخولاً ، بجانب مصادرهم الأخرى ، فعلى سبيل المثال كان :

---

(٤٩) محسن خليل ، فى **الفكر الاقتصادى العربى** ، ص ٤٦ ، مرجع سابق .

(٥٠) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥١) المرجع نفسه ، ص ٤٧ .

(٥٢) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، المجلد الرابع ، ص ٢٥٧ ، مرجع سابق .

الوليد بن المغيرة (أبو خالد بن الوليد) والزبير بن العوام وعمرو بن العاص وعامر بن كريز «جزارين» ، وعثمان بن أبى طلحة وقيس بن مخرمة «خياطين» وأبو سفيان بن حرب «بياع زيت وأدم» والعاص بن وائل (أبو عمرو) « بيطاراً» وعبد الله بن جدعان « نخاساً» وأمية بن خلف «بياع برم» والحكم بن أبى العاص (أبو مروان) وحريث بن عمرو (حجامين)(٥٣) ؛ وكان هؤلاء من رجالات مكة المعدودين وأثريائها الأماثل ، بيد أن ذلك لم يمنعهم من الإشتغال بتلك المهن التى قلنا إن سكان الجزيرة عرباً وأعراباً كانوا يأنفون من العمل بها ، ولكنها كانت تأتى لهم بمزيد من المال .

وسبق أن تحدثنا عن «الربا» وقلنا إن شيوخ القبائل فى البادية والوجهاء أو الملأ فى الحواضر كانوا يقرضون بالربا وأوردنا أسماء المرابين من القرشيين والثقفيين .

وكان من مصادر دخل السادة إستخدام الموالى والعبيد فى نواحى أنشطتهم الاقتصادية كافة (ويبدو من روايات أهل الأخبار أن عدد موالى قريش كان يشكل نسبة كبيرة من مجموع سكان مكة وقد وسعت قريش المكان بهؤلاء الموالى تبعاً لسياستها التى قامت على تنشيط التجارة والرغبة فى جهودهم وخبراتهم)(٥٤) أما الأرقاء فقد (كانوا فى هذه الفترة قوة منتجة لا استهلاكية فقط . . . إلى جانب كونهم يشكلون حينذاك إحدى السلع التجارية والرائجة)(٥٥) ، وأوردنا فيما تقدم أن عبد الله بن جدعان كان يستغل الإماء فى البغاء وبيع أولادهن ؛ كما كان الوليد بن المغيرة (أبو خالد) (يستأجر اً كثيراً من الموالى فى أعماله ويدفع

---

(٥٣) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٢٥-١٢٦ .

(٥٤) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الأول ، ص ١٧٢ ، مرجع سابق .

(٥٥) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، المجلد الأول ، ص ٢٠٠ ، مرجع سابق .

لهم أجورهم)[٥٦] وقد حفظت لنا كتب السيرة أن عدداً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا من الموالى منهم : زيد بن حارثة أسره وأمه بنو القين وساقوه إلى سوق « عكاظ » فاشتراه حكيم بن حزام لعمته السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها بأربعمائة درهم فأهدته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فأعتقه و (كان صهيب من أحرار العرب ينتهى نسبة إلى زيد مناة . . . ثم دارت الأيام بصهيب فاشتراه رجل من قبيلة كلب ثم باعه فاشتراه عبد الله بن جدعان . . . وكان أبو فكيهة يسار مولى لصفوان بن أمية)[٥٧] .

ولم يكن عدد العبيد (الرقيق) فى الطائف قليلاً إذ استخدمهم أثرياؤها الثقفيون فى مزارعهم وبساتينهم ومدابغهم ، ومن شواهد ذلك ماحدث فى حصار الطائف إذ كان من استجاب للإسلام وغادر الحصون العبيد أمثال : (أبو بكرة نفيع بن مسروح والأزرق وكان عبداً للحارث ابن كلدة والمنبعث وكان اسمه المضطجع فبدل النبى صلى الله عليه وسلم اسمه وكان عبداً لعثمان بن عامر بن معتب وبنو سلمة بن الأزرق)[٥٨] ؛ وعندما نزل أولئك الأرقاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أعتقهم ، ويبدو أن عددهم كان كبيراً لدرجة أن سادتهم كلموا الرسول عليه السلام فى شأنهم أى ليعيدهم إليهم (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، أولئك عتقاء الله» ، وكان ممن تكلم فيهم الحارث ابن كلده)[٥٩] . أما عن يثرب فالراجح أن الأرقاء كان عددهم فيها

(٥٦) اللواء أغا إبراهيم أكرم ، **خالد بن الوليد** ، ترجمة إسماعيل كشميرى ، ص ١٧ ، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ / ١٩٧٤م ، لجنة التعريف بالإسلام - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة .

(٥٧) د . حسن إبراهيم حسن ، **زعماء الإسلام** ، ص ٧٤-٨١ - الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠م ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

(٥٨) السهيلى ، **الروض الأنف** ، الجزء الرابع ، ص ١٥٠ ، مرجع سابق .

(٥٩) ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، الجزء الرابع ، ص ١٥٠ ، مرجع سابق .

ملحوظاً - إذ استخدمهم أهلها فى مزارعهم وحيطانهم وصناعاتهم وضربنا لذلك مثلاً بالصحابى سلمان الفارسى - رضى الله عنه - الذى كان مملوكاً ليهودى يعمل له فى كرمه وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ساعده فى «مكاتبته» أى دفع المقابل النقدى لعتقه من الرق .

وكذلك الحال بالنسبة لـ «اليمامة» - المنطقة الزراعية الشهيرة - فإن بنى حنيفة سكانها (استعانوا فى أعمالهم الزراعية بالعبيد وربما كانوا من الزنج . . . كما استعانوا بالموالى من العجم المجوس ، حتى لقد قسم جرير الخطفى سكان المنطقة التى كان يسيطر عليها بنو حنيفة ثلاثة أقسام : أحدها العبيد والآخر من الموالى والثالث : بنو حنيفة ، : -

صارت حنيفة أثلاثاً فثلثهم   من العبيد وثلث من مواليها

قد زوجوهم فهم فيهم وناسبهم   إلى حنيفة يدعو ثلث باقيها)(٦٠)

* * *

هكذا تعددت مصادر الثروة التى تكدست فى أيدى السادة والوجهاء (الملأ) فى المراكز الحضرية فى وسط وغربى جزيرة العرب من تجارة إلى زراعة إلى صناعة إلى حرف إلى ربا إلى استغلال عرق الموالى والعبيد والإماء ، ونجمت عن ذلك كله آثار عميقة فى تلك المجتمعات .

تكدس الثروة فى أيدى قلة محدودة فى المجتمع المدينى أو الحضرى ، شطره إلى قسمين أو طبقتين : أغنياء وفقراء الأولون يملكون كل شئ يعيشون حياة مترفة والآخرون تعوزهم حتى المقومات الرئيسية ويحيون عيشة ضنك وشظف ، وتخلقت فى أحشاء المجتمع ظواهر ، دلت على أنه مأزوم ومن المستحيل عليه أن يستمر على ذلك وقد ذكرنا منها :

«الاعتفار» أو «الاحتفاد» حتى فى ثنايا قبيلة قريش نفسها ، وحاول

---

(٦٠) د . إحسان صدقى العمد ، **حركة مسيلمة الحنفى** ، ص ٢٩ ، مرجع سابق .

هاشم بن عبد مناف وعمل جهد طاقته لاحتوائها والقضاء عليها . ومنها انتفاض جمهرة من المستضعفين ، والعبيد الآبقين بجبل «تهامة» ، وقطعهم الطريق على السابلة وانتهاب ماتقع أيديهم عليه إلى أن ظهر محمد صلى الله عليه وسلم على أعدائه ، وشعورهم بقيام سلطة جديدة تدعو إلى العدالة الاجتماعية والمساواتية الإنسانية فاستسلموا لها .

ومنها إقدام بعض المملقين والمعوزين على «وأد» أولادهم ، مفضلين إنهاء حيواتهم بأيديهم على موتهم جوعاً أمام عيونهم وهم أعجز من أن يأتوا لهم بما يسد رمقهم ، وينزع فريق من الباحثين منهم (روبرسن سميث الإنكليزى) و (ومستر مارك الفنلندى) إلى (أن أسباب هذا النظام (الوأد) ترجع إلى الإملاق وعدم القدرة على تربية الأولاد ، وأن التبعة تقع على طبيعة بلاد العرب وحالتهم الاقتصادية ، فإجداب أرضهم وضآلة دخلهم من مهنة الرعى التى كان يزاولها كثير منهم واحتكار التجارة فى أيدى أفراد من سراتهم وحياة الشظف التى كان يعانيها الدهماء . . .) [٦١] ويذكر الباحث أن من بين من عرف تلك العادة البشعة (بعض عشائر من قريش وربيعة وكندة وطيئ وتميم)[٦٢] ولكننا نرى أن من مارسها فيهم هم المعدمون داخل تلك العشائر أو القبائل لا الأغنياء أو السادة ، وقد ذكر القرآن الكريم فى أكثر من آية أن (الوأد) ان يشمل الأولاد أى البنين والبنات وأن العلة هى « الإملاق»[٦٣] .

ومنها أيضاً ظاهرة «الصعلكة» وإن كان انتشارها فى المجتمع البدوى أشد غلبة منه فى المجتمع المدينى والحضرى ومنها ظاهرة (رق الدين) أو

---

(٦١) د . على عبد الواحد وافى ، **بحوث فى الإسلام والاجتماع** ، الجزء الأول ، بحث بعنوان « وأد البنات عند العرب فى الجاهلية » ، ص ٢٣٩ ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ م ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .

(٦٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣٨ .

(٦٣) الآية ١٥١ من «سورة الأنعام» ، والآية ٣١ من «سورة الإسراء» .

(عبودية الدين) التى ظلت متفشية حتى ظهور الإسلام ؛ إذ قضى محمد صلى الله عليه وسلم باسترقاق (سُرَّق) لعجزه عن الوفاء بدينه .

كل هذه الظواهر سبق لنا أن تحدثنا عنها بشئ من التفصيل ، وهى لم تكن خافية على سادات المدن أو الحاضر أو على ذوى الفطنة منهم وخاصة فى قريش ، وشرع بعضهم فى تقديم ما ارتآه من حلول لها مثل هاشم بن عبد مناف بالنسبة لظاهرة «الاعتفار» أو «الاحتفاد» بأن دعا موسرى قريش لكفالة فقرائها حتى لايقدموا على ذلك العمل الفظيع .

كذا كان من بين أسباب عقد (حلف الفضول) فى رأى صاحب السيرة الشامية (التآسى فى المعاش) . بيد أن آخرين عمدوا إلى الصرامة والشدة والقساوة خاصة وأنه فيما يبدو أن عدداً من أولاد الطبقة البائسة أخذ يختلس من مال الطبقة الموسرة مايتبلغ به ، ومن أولئك : الوليد بن المغيرة (أبو خالد) فقدسن لقريش حد قطع يد السارق [٦٤] ؛ ولعل من المناسب فى هذه الخصوصية أن نذكر أن هذا الوليد الذى كان (أول) من شرع هذا العقاب الصارم كان (قصاباً أى جزاراً ، يذبح الذبائح لبنى عشيرته)[٦٥] ، وقد وصفه القرآن الكريم بأن له مالا ممدوداً[٦٦] ، فخشيته على ثروته تلك الطائلة بشهادة القرآن الكريم جعلته يسن ذلك الجزاء الرادع حتى يرهب الجوعى ويكف أيديهم الهزيلة عن أن تمتد إلى أمواله وأموال غيره من الصناديد . ولكن تلك المبادرات بنوعيها - من جانب من ذكرناهم - ، لم تطفئ جذوة الثورة الاجتماعية التى كان الفقراء على وشك تفجيرها ، ولم تنجح فى احتوائها والسيطرة عليها وترويضها ، وظلت كامنة لاخامدة - تحت القشرة الرقيقة الهشة من

(٦٤) عيسى أيوب البارونى ، **الرقابة المالية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين** ، ص ٣١ ، مرجع سابق .

(٦٥) اللواء أغا إبراهيم كرم ، **خالد بن الوليد** ، ص ١٧ ، مرجع سابق .

(٦٦) سورة « المدثر » ، الآية ١٢ .

الطاعة والاستسلام الظاهرين للصناديد ، ومن ثم فما إن بادر محمد صلى الله عليه وسلم باشهار دعوته التى ضمنها أو ضمخها بالعدالة الاجتماعية والتسوية بين الناس غنيهم وفقيرهم ، حرهم وعبدهم حتى كان المستضعفون والأرقاء والمسحوقون هم فى طليعة من استجاب لها بل تحملوا فى سبيلها أعتى صنوف العذاب والتنكيل ؛ وهى الدعوة التى تهيأت لها كل الظروف الموضوعية وأقبلت متوافقة مع موجبات مجتمعها وإذا شئت قلت إن تلك الظروف والموجبات هى التى جعلت إنبثاق فجرها أمراً مقضياً وشأناً محتوماً ومن ثم كتب لها النجاح وتأسست دولتها في يثرب .

ولكن أخطر مافى الأمر أن هذا النشاط الاقتصادى الكبير فى تلك الفترة والذى لم تكن تعهده جزيرة العرب من قبل ، عجَّل فى تفكيك القيم القبلية التى ترسخت لقرون طويلة وارتكزت على العصبية القبلية وبرزت إلى الوجود قيم جديدة مغايرة تماماً لا تتمحور إلا على القواعد المادية والركائز المالية ؛ فعندما ازدهرت التجارة بالصورة التى رسمناها وتحولت من المحلية إلى العالمية كان من البديهى ألا تعتمد على (التبادل البضائعى) بل على (التبادل النقدى) ولم تعد العوامل الطبيعة مثل : المناخ - زمان المطر - مكان الرعى ، هى سيدة الموقف فى تحديد الثروات ، ولا فى ربط أبناء القبيلة أو الفخذ بعضهم بعضاً ، ولم تعد الماشية هى المقياس للغنى ، ولم تبق رابطة النسب هى التى توثق العلائق بينهم ، لقد كان «العباس بن عبد المطلب» الهاشمى صديقاً حميماً لـ «أبى سفيان بن حرب» الأموى وشريكاً لـ «خالد بن الوليد» المخزومى ، وهما من أرباب المال . (إن التعامل النقدى داخل المجتمع القبلى . . أدخل إلى هذا المجتمع أهم العوامل فى تعجيل تفكيكه وانحلاله)[٦٧] ،

---

(٦٧) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، الجزء الأول ، ص ٢٢٨ ، مرجع سابق .

لقـد دخلت المجتـمع العـربى لغـة حـديثـة هى لغـة «النقـد» ، حـتى فى العـلاقـات التـقـليـدية الراسـخـة مـثل النكاح (الـزواج) فـ«عند عـرب الجـاهـلية ، كـان المهر ثمنـاً للمـرأة ، يقـبـضـه أبوها أو وليـهـا ، يسـمـيه «النافـجة» وهو كل ماينفـج من مـال الرجل أى يزيد فيـه ويعظمـه ، وكـان المهر عـادة عـدداً من الإبل يسـوقـهـا الخـاطب إلى بيت مـخطوبته فـتـسمى «السياق» ، وكـان عددها يقـدر على مقـدار المرأة فى قـومـها ، وحظهـا من الحسن والجمال ، أما عند عرب المدن فكان المهر يدفع نقداً)[٦٨] .

إن جمهرة الباحثين فى تلك الفترة ، قد أجمعوا على أن تنامى الأموال ، والتعامل بـ«النقد» قد سارع فى خلخلة المجتمع العربى (إن هذا الاتجاه أدى إلى استـغلال شديد للضعـفاء والفقـراء وأوجد تبايناً اجتماعياً قلقاً ، وأكد النظرة الفردية المستقلة ، كما أنه زعزع من ناحية ثانية المفاهيم القبلية وأضـعـف الروح الجـمـاعـيـة القـبليـة)[٦٩] ، ويقـول برهان الدين دلوّ (إن المراكز الزراعية الواقعة على شبكة الطرق التجارية بخاصة ، أدّت إلى نمو الزراعـة ونشـاط التـجـارة ، واستـعـمـال الـربا ، وإلى نشـوء تفـاوت مـادى وتمايز اجـتـمـاعى بين أفـراد القـبائل ، وإلى التـعـجـيل فى عـمليـة التـفكيك الجارية فى بيئة المجتمع القبلى)[٧٠] .

بيـد أن تفكك الروح القـبلية ، نتـيـجـة لذلـك كله ، قد أدى إلى الاتجاه نحـو الوحـدة بين عـرب الجـزيرة و (نمـو نوع من الوعـى القـومـى الجـنينى ، عبر عن نفسه بالنزوع نحو التوحيد ، وإقامة سلطان العرب الذى يتصدى

(٦٨) د . عبد السلام الترمانينى ، **الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام - دراسة مقارنة** ، ص ٢٠٠ ، سلسلة « عالم المعرفة » ، العدد الثمانون ، ذو القعدة ١٤٠٤هـ / أغسطس ١٩٨٤م ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

(٦٩) د . عبد العزيز الدورى ، **مقـدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى** ، ص ١١ ، الطبعة الخامسة ، آب (أغسطس) ١٩٨٧م ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان .

(٧٠) برهان الدين دلّو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الأول ، ص ١٦٥ ، مرجع سابق .

لنفوذ البيزنطيين والأحباش والساسانيين فى الجزيرة العربية)(٧١) .

بعد ذلك كله لم تعد القبيلة صالحة لأن تظل هى «الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية» كما كانت من قبل ، بعد أن تجاوزتها الظروف الموضوعية التى ألمعنا إليها فيما سلف ، وآن الأوان لوحدة تشمل الجزيرة العربية ، وبدت إرهاصاتها فى الأفق :

معركة «ذى قار» ؛ والثورة التى نشبت فى اليمن ضد أبرهة ، بعد فتح الحبشة لها ؛ والجهود التى بذلها «سيف بن ذى يزن» من أجل تحرير اليمن ، ومحاولاته الاستفادة من صراع الدولتين البيزنطية والساسانية لكسب تأييد إحداهما لجهوده التحريرية ، وقدوم وفود العرب إليه لتهنئته بانتصاره على الأحباش (٧٢) ؛ وكان على رأس وفد «قريش» «عبد المطلب» جد محمد صلى الله عليه وسلم وقد واكب ذلك كله «وحدة ثقافية» أخذت تظهر فى الأفق - وهذا ماستتناوله بالدراسة فى المبحث القادم .

والذى لاشك فيه أن كل عوامل التوحيد فى مختلف مناحيه ، كانت هى الظروف الموضوعية التى مهدت لنشوء دولة قريش وتأسيسها فى «يثرب» على يد الحفيد محمد (ص) .

(٧١) محسن خليل ، فى **الفكر الاقتصادى العربى الإسلامى** ، ص ١٠٧ ، مرجع سابق .
(٧٢) المرجع السابق نفسه ، والصفحة نفسها .

الباب السادس

المقدمات الثقافية

الشعر و الخطابة

الثقافة كلمة ذات مدلول واسع ، فهى تشمل جميع نواحى الحياة : الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية والسياسية والأخلاقية والتربوية والجمالية «الفنية» واللغوية ، ولذا اختلف علماء الاجتماع فى تعريفها اختلافاً بينا ، لاحتوائها كل الإنجازات المتميزة للجماعات الإنسانية .

وفى نطاق هذا المبحث سوف نقصر كلامنا على « المنتجات اللغوية » إن جاز هذا التعبير أى اللغة وما أحرزته من شعر وخطابة وأمثال لدى عرب ماقبل البعثة المحمدية ، والتى ساهمت فى عملية التوحيد وفى تهيئة الظروف أو المساهمة فى إنضاجها وهى التى انتهت بقيام الدولة القرشية فى يثرب .

(اللغة ظاهرة اجتماعية تتوافر فيها خصائص الظواهر الاجتماعية ، وهى لذلك تتأثر فى جميع مناحيها بجميع ظواهر الحياة الاجتماعية كما تؤثر بدورها فى هذه الظواهر)(١) .

كانت قبائل الشمال تتكلم اللغة العربية ، إنما بلهجات متباينة ، فيها : الفصيح المقبول والوحشى المرذول ، وذلك بتأثير التحضر والبداوة ،

---

(١) د . على عبد الواحد وافى ، مادة « لغة » من **معجم العلوم الإجتماعية** ، تصدير ومراجعة د . إبراهيم مدكور ، إعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب ، الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة «يونسكو» ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فسكان الحواضر تكلموا بلهجات رقيقة لطيفة وأهل البوادى اتسمت لهجاتهم بالخشونة والجفاوة ، وأضاف علماء اللغة العربية أن لهجات بعض القبائل تميزت بسمات معينة مثل (الكشكشة) لدى «أسد وهوازن» (والكسكسة) عند «ربيعة ومضر» ، والفحفحة » فى لهجة «هذيل» أما (العنعنة) فهى من نصيب «تميم وقيس» .[٢] بل إن بعض الكلمات التى كانت تضمها لهجة قبيلة معينة كان يعسر فهمها على أبناء قبيلة أخرى ، وأجمع العلماء على أن لهجة قريش كانت أفصح لهجات عرب الشمال وأرقها وأحسنها وقعاً فى الأذن (ويعلل الباحثون سهولة لغة قريش وعذوبة لهجتهم ، بأنهم كانوا ينتقون من لغة الوافدين عليهم وهم كثير ، لمكانة قريش الدينية والاقتصادية ، ماعذب لفظه وخف حتى صارت لغتهم المثل الأعلى لسائر العرب ، لما فيها من عذوبة وجمال ولما لهم من سيادة ونفوذ)[٣] ؛ إن السيادة والنفوذ اللذين أشار إليهما الباحث لم يجيئا من باب السياسة لأن قريشاً حينذاك لم تكن قد أنشأت دولتها بعد ، ولكن هى (الظروف التاريخية التى جعلت مكة تتمتع بمكانتها الخاصة من لهجة قريش قطباً جاذباً تتلاقى عنده وتتفاعل به سائر اللهجات العربية الشمالية بالأخص) [٤] فألوف العرب التى تفد إلى مكة من شتى نواحى شبه الجزيرة للحج والاعتمار وتتعامل مع القرشيين ، وتسمع منهم لهجتهم لابد أنها تتأثر بها لأن الأقل تحضراً يولع بتقليد من هو أكثر تحضراً كما يرى ابن خلدون ، وكذلك يلتقط أهل مكة بعض الألفاظ والتعبيرات من الوافدين عليهم فيتداولونها ويضمونها إلى لهجتهم وبهذا يحصل تأثر وتأثير ،

---

(٢) أحمد حسن الباقورى ، **أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية** ، ص ٣٦-٣٧ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣م ، دار المعارف بمصر .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

(٤) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، المجلد الأول ، ص ٢٥٥ ، مرجع سابق .

ولكن المحصلة فى النهاية هى أن اللهجة القرشية هى التى تكون لها الغلبة والهيمنة ، ورويدا رويدا غدت هى «اللهجة الأم» إن جاز هذا التوصيف ومن ثم أصبحت أحد الدوافع الهامة فى عملية الدمج والصهر .

كما لعبت (الأسواق) التى بدأت قريش فى نصبها مطلع القرن السادس الميلادى دوراً ملحوظا فى التوحيد ، ففى مجال النشاط التجارى كان يتم التخاطب بلهجة القرشيين لأنهم يملكون زمامه أى أن العرب الذين كانوا يقصدون تلك الأسواق - خاصة تلك التى كانت تقام فى منطقة الحجاز - يجدون أنفسهم ملزمين أو شبه ملزمين بالحديث بتلك اللهجة أو أنهم يسمعونها من أهلها فيستجيدونها ويستعذبونها فينطقون بها ثم عند عودتهم إلى أوطانهم ومرابعهم ينقلونها لمن خلفهم وهكذا تنتشر وتتفشى وتذيع وتشيع فى سائر القبائل .

أيضاً كانت تلك الأسواق بالفعل مواسم أدبية وثقافية يحضرها كبار الشعراء ومتوسطوهم وصغارهم ، وعشق الشعر وحب الشعراء يكاد يصل لدى العربى آنذاك منزلة الطبع أو الغريزة ، ويلقى كبار الشعراء قصائدهم أو معلقاتهم وللتحكيم بين شعراء الصف الثانى ولسماع أشعار غيرهم من الفحول ، كما يحضر الخطباء مثل «قس بن ساعدة الإيادى» الذى ذكرنا أن محمداً (ص) كان يستمع إلى خطبه فى «عكاظ» وأنه حكى ذلك لوفد قبيلته «إياد» واستعادهم إحداها وأثنى على قس خيراً ، و (. . يمكن اعتبار سوق عكاظ بمثابة مجمع أدبى لغوى رسمى) (٥) ويؤكد ذلك برهان الدين دلّو بقوله (ولم تكن عكاظ سوقاً تجارياً وموسماً إجتماعياً وحسب بل كانت ندوة أدبية عربية موسمية عامة يجتمع فيها الشعراء والخطباء يتبارون فى الشعر والخطابة) (٦) ، ويروى لنا

---

(٥) د . حمدان عبد المجيد الكبيسى ، **أسواق العرب التجارية** ، ص ٢٢ ، مرجع سابق .

(٦) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الأول ، ص ٢٥٦ ، مرجع سابق .

الإخباريون أن النابغة الذبياني» كانت تضرب له قبة من أدم بسوق «عكاظ» ، يدخل إليه فيها الشعراء يعرضون عليه أشعارهم ومن مَن فعل ذلك «الخنساء بنت عمرو بن الشريد» و «حسان بن ثابت» ، ولم تنفرد سوق «عكاظ» وحدها بذلك بل شاركتها سائر الأسواق إنما هى فاقتها شهرة ، (ولقد أسهم ظهورها (الأسواق) فى تسريع العملية الموضوعية للتوجهات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية نحو الوحدة)[٧] .

بيد أن الأسواق أدت وظائف أخرى خطيرة مثل الفصل فى الخصومات بين العشائر والقبائل وإيجاد الحلول لها ، وعقد حبال الصداقة والتعاون وحسن الجوار بينهم ، ودفع الديات لأهل القتلى وتبادل الأسرى وإعلان خلع الخلعاء والتبرؤ منهم ، وإذا كانت هذه الأنشطة خارج دائرة (الإنتاج اللغوى) الذى قصرنا بحثنا عليه فإنها بلا شك ساهمت بفاعلية كبيرة فى نبذ عوامل الفرقة والتشرذم والتناحر التى كانت تسود المجتمع العربى حينذاك ، أى أنها بذلك حققت تقدماً فى طريق التوحيد .

* * *

نبدأ بالشعر أشهر وسيلة تعبير عرفها العرب و (الإنتاج اللغوى الأول) فى مجتمعهم الذى سادت فيه الأمية وغلبت عليه ومن ثم كانت ثقافته شفوية ، وهو ديوان العرب (ومعلم رئيس من معالم ثقافة العرب قبل الإسلام ومرآة صادقة تعكس بأمانة خصائص الحياة العربية القبلية والبيئية التى نشأ فيها ، ومصدر تاريخى موثوق لمعرفة أوضاع العرب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين)[٨] ؛ والشعراء فى ذلك المجتمع يمثلون الفئة والطبقة المثقفة (الإنتلجنسيا)

(٧) برهان الدين دلو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، مرجع سابق .
(٨) المرجع نفسه ، ص ٢١٩ .

عندهم لأن (الشعر فى لغة العرب يعنى العلم ؛ يقال ليت شعرى أى ليت علمى وأشعره بالأمر أى أعلمه ، ومن ثم فالشاعر هو العالم ، ويقصد به من يشعر أى يعلم بما لايشعر به (أى يعلم به) ، وقد جاء فى القرآن الكريم لفظ يشعركم بمعنى يعلمكم «وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون « سورة الأنعام(٦) الآية / ١٠٩)[٩] ومن ثم كانت للشعراء منزلة رفيعة (روى عن الأصمعى عن أبى عمر بن العلاء أنه قال : كانت الشعراء عند العرب فى الجاهلية بمنزلة الأنبياء فى الأمم وكانوا يسمون الشاعر : العالم والحكيم)[١٠] ، ولذلك فإن ظهور شاعر فى القبيلة كان يعتبر حدثاً هاماً فتقام له احتفالية صاخبة - وكانت العرب تنظر إلى الشعر نظرة إكبار وتوقير ربما تصل إلى درجة التقديس (انهم كانوا فى بعض الأحوال لاينشدونه إلا وهم على وضوء كما فعلوا فى قصيدة «المتلمس» الميمية وكالخبر الذى يذكر أن الملك عمرو بن هند أمر «الحارث بن حلزة» ألا ينشد . . الهمزية إلا متوضئاً)[١١] وسماع الشعر لدى العرب وحبهم إياه امتزجت فيه الهواية الفنية والعاطفة المشبوبة التى تبحث عما يروى ظمأها مع طلب المعرفة والاستزادة من العلم والاستكثار من المعلومات كل هذا مجتمعاً (فهم يحبون الشعر والاستماع إليه لأنه ديوانهم الذى يخلد مفاخرهم ويسجل أنسابهم ووقائعهم ويذكى نار الحماسة فى نفوسهم ، كان لكل قبيلة شاعر أو أكثر يناضل عن أحسابها ويشيد بمفاخرها ويذود عن حياضها)[١٢] .

وكان الشعر أخطر وسائل الإعلام فى تلك الأيام (. . . وربما كان

---

(٩) المستشار محمد سعيد العشماوى ، **الخلافة الإسلامية** ، ص ٤٠ ، مرجع سابق .

(١٠) د . سامى مكى ، **الإسلام والشعر** ، ص ١٥ ، سلسلة «عالم المعرفة» ، العدد السادس والستون ، شعبان / رمضان ١٤٠٣هـ - يونيو / جزيران ١٩٨٣م ، الكويت .

(١١) المرجع نفسه ، ص ١٥ .

(١٢) سمير عبد الرزاق القطب ، **أنساب العرب** ، ص ٣٣٣ ، مرجع سابق .

للشعراء فى الجزيرة العربية أيام الجاهلية سلطان يفوق سلطان الصحافة فى الأزمنة الحديثة ، إذ كان العرب يحسون أن فيهم شيئاً خارقاً أو سحرياً)(١٣) ، ولاغرو فإنه بالنسبة لانتشار الأمية ولأن العربى كان يتمتع بذاكرة حافظة قوية تحفظ القصيدة من أول مرة ، وهكذا تنتقل من شخص لآخر ومن مكان إلى مكان بسرعة فائقة ؛ فقد كان للشعر تأثير فى النفوس يعادل تأثير السحر ، وتحكى فى هذا المجال قصص غريبة مثل : رفع شأن قبيلة ببيت من الشعر ، أو تزويج بنات عوانس بعد إلقاء بضعة أبيات ، أو نشوب عراك مسلح من جراء قصيدة .

* * *

أدرك كل من محمد صلى الله عليه وسلم ، مؤسس دولة قريش وأبو سفيان كبير تجار مكة وصناديدها الذين كانوا يعادونه ، حرصاً على مصالحهم ، وخوفاً من ذهاب مكاسبهم ما كان يقوم به الشعراء فى الصراع الدائر بينهما فحاول كل منهما بأسلوبه الخاص ضم الشعراء إلى صفه ، أو إسكات صوته وسنورد أمثلة للتدليل على ذلك :

(أ) عزم الشاعر المشهور «الأعشى» وهو ميمون بن قيس بن جندل وكنيته « أبو بصير» التوجه إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فتصدى له أبو سفيان وبدأ أولاً بتنفيره منه حتى لايمدحه بقصيدة يطير ذكرها بين أرجاء الجزيرة ، فذكر له ماينهى عنه مثل الخمر واللهو بالنساء ولكن الأعشى لم يعبأ بذلك ، فلم يجد أبو سفيان أمامه سوى الترغيب (فقال أبو سفيان يامعشر قريش ، هذا الأعشى والله لو آمن بمحمد واتبعه ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة من الإبل ، ففعلوا فأخذها وانطلق إلى بلده ، فلما كان بـ «قاع منفوحة» رمى به بعيره فقتله) (١٤) .

---

(١٣) **دائرة المعارف الإسلامية** ، مادة «بدو» ، ص ٤٩٥ ، مرجع سابق .

(١٤) الشيخ أحمد فهمى محمد ، هامش ص ٣٢٧ ، من كتاب **الملل والنحل** ، للشهرستانى ، مرجع سابق .

(ب) (نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى «زهير بن أبى سلمى» الشاعر المشهور وصاحب المعلقة المعروفة فقال : «اللهم أعذنى من شيطانه فما لاك بيتاً حتى مات» [١٥] ؛ إدراكا منه صلى الله عليه وسلم خطورة دور الشعر والشعراء فى المجتمع الماثل آنذاك .

(جـ) وكان «أمية بن أبى الصلت» الشاعر الذائع الصيت وأحد المتحنفين كما ألمعنا سابقاً (يحرض قريشاً بعد وقعة بدر وكان يرثى من قتل من قريش فيها من ذلك قوله :

ماذا ببدر والعقنقل   من مرازبة جحاجح

وهى قصيدة نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن روايتها [١٦] حتى لاتؤثر فى سامعيها .

(د) ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعاء على الشعراء المناوئين لدولته ، أو النهى عن رواية قصائدهم ، بل أمر بعض أتباعه بقتل أحدهم وهو «كعب بن الأشرف» اليهودى الذى كان يهجوه ويحرض عليه (أخرج البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله» فقام محمد بن مسلمة رضى الله عنه ، وقال : يارسول الله أتحب أن أقتله ؟ قال نعم)[١٧] ، فأخذ محمد بن مسلمة رجلين معه وقتلوا «كعب بن الأشرف» ، وقد حكى ذلك البخارى فى الحديث المطوّل المذكور .

---

(١٥) الشيخ أحمد فهمى محمد ، المرجع نفسه ، ص ٣٣١ .

(١٦) المرجع نفسه ، ص ٢٩٩ .

(١٧) الإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ، **فتح البارى بشرح صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى** ، قام بإخراجه محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقى وقصّى محب الدين الخطيب ، الجزء السابع ، الحديث ٤٠٣٧ ، ص ٣٩٠-٣٩١ ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ من الهجرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة .

لم يكن اغتيال ابن الأشرف إلا بسبب أشعاره المناوئة لمحمد صلى الله عليه وسلم ولدولته التي أسسها في «يثرب» ، ولأن تلك القصائد وأمثالها كان لها مفعول أكيد في مجتمع أمي ثقافته شفوية وكان الشعر له فيها مكانة الصحف والمجلات ووسائل الإعلام الأخرى في مجتمعنا المعاصر .

(هـ) وفي المقابل كان محمد عليه السلام يسبغ كامل رضاه على الشعراء الذين كانوا يمدحونه وينافحون عنه فعندما مدحه «كعب بن زهير» بقصيدته اللامية المعروفة خلع عليه «بردته» التي وصلت إلى خلفاء بني العباس يلبسونها في المناسبات الرسمية .

هذا هو الشعر ، وهذا هو دوره البالغ الخطورة في المجتمع العربي آنذاك ، ولكن الذي يعنينا في هذا المبحث هو إبراز المهمة التي حملهاالشعر على عاتقه سواء في الإسراع بعملية التوحيد أو الترويج للأسباب الموضوعية الممهدة لقيام دولة قريش في «يثرب» .

* * *

(العرب أمة صناعتها الكلام . . . وكان أهل الحجاز من بينهم خاصة أهل لسن وفصاحة . . . اجتمع لهم من الخطابة والفصاحة والبيان العجيب والقول المصيب والكلام الغريب والمنطق الساحر ماردده أسفار الأدب وازدانت به لغة العرب) (١٨) ، فالحجازيون إذن هم أفصح العرب وفاقهم في هذا المضمار « القريشيون » أهل مكة التي امتازت بموقعها الجغرافي المتوسط بين كل من اليمن والشام والعراق والذي أتاح لهم السفر إلى هذه البلاد وغيرها والإختلاط مع أهلها (وقد علمت الأسفار سادة قريش أموراً كثيرة من أمور الحضارة والثقافة فقد أرتهم بلاداً غريبة

---

(١٨) سمير عبد الزراق القطب ، **أنساب العرب** ، ص ٢٧٩ ، مرجع سابق .

ذات تقدم وحضارة وجعلتهم يحتكون بعرب العراق ويعرب بلاد الشام فتعلموا من «الحيرة» أصول كتابتهم وهذبوا لسانهم ودونوا به أمورهم ، وذكر أنهم كانوا من أفصح العرب لساناً وقد شهد العرب لهم بفصاحة اللسان حتى إن الشعراء كانوا يعرضون عليهم شعرهم) [١٩] .

إن فرضية استفادة لغة القريشيين من رحلاتهم الخارجية ومن اختلاطهم بسكان تلك البلاد ومساهمة كل ذلك فى ترقية أو ترقيق لهجتهم (لغتهم) ، فرضية مقبولة ومستساغة ولكنها لاتكفى لتفسير سيادتها على باقى اللهجات أو اللغات المعاصرة لها فى شمال الجزيرة ، فقد تكون لغة أو لهجة ما ؛ فصيحة وعذبة ولطيفة في موقع معين ومع ذلك لايكتب لها الذيوع ، إذن فما الذى أتاح لـ (لهجة قريش) ذلك الحظ من الانتشار فالهيمنة ؟؟؟

نقل إلينا «حسين مروة» رأى يحيى بن زياد الفرَّاء من كبار علماء المدرسة النحوية فى الكوفة (١٦٠هـ) : «إن ذلك (إنتشار لغة أو لهجة قريش) قدتم بطريق الاختيار والاصطفاء الذاتيين» [٢٠] ، وهذا تفسير مثالى لأن الجانب الجمالى ليس هو العامل الحاسم فى تبنى لغة (لهجة) أو النطق بها لأن من المفترض فيها أن تشبع فى الإنسان حاجات متعددة وتؤدى له وظائف متباينة مثل التعبير عن معاملاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وطقوسه الدينية وهذا ماقامت به لهجة قريش على أكمل وجه نتيجة (التأثير الذى كان يمارسه الوضع الإقتصادى والتجارى والإجتماعى والدينى للأرستقراطية المكية القرشية على مجرى

---

(١٩) د . جواد على ، **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، الجزء الرابع ، ص ٢٠ مرجع سابق .

(٢٠) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، الجزء الأول ، ص ٢٥٦ ، مرجع سابق .

التطور بسياقها العام)[٢١] فصيرورة مكة هى المركز التجارى الأول فى منطقة وسط الجزيرة وغربها ، ونصب الأسواق الداخلية على أطرافها ووجود الكعبة فيها وقيام القبائل من الأنحاء كافة بالحج والاعتمار ، هو الذى أثمر فى نهاية المطاف هيمنة لغة قريش أو لهجتها ، فاللغة هى وسيلة أو واسطة التواصل ، وتواصل عرب الجزيرة مع أهل مكة القرشيين أصبح ضرورة لهم اقتصادياً وثقافياً ودينياً وهذا التواصل يتم عبر لغتهم أو لهجتهم قد تكون عذوبتها أو رقتها أو لطافتها عاملاً مساعداً ولكنها أبداً لم تشكل العامل الفعال أو الوحيد وإذا اضطر أو اصطلح أو تواضع عرب الشمال على التخاطب بلغة قريش ، فإن عنصراً هاماً من عناصر التوحيد قد تحقق ، فاللغة فضلاً عن أنها أداة التفاهم بين الأفراد فإنها فضلاً عن ذلك آلة التفكير (ولذلك تجد أن وحدة اللغة توجد نوعاً من الوحدة فى التفكير والشعور وتربط الأفراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية . . . ومجموع الأفراد الذين يشتركون فى اللغة يتقاربون أكثر من غيرهم ويتماثلون ويتعاطفون أكثر من سواهم . . . إن اللغة هى روح الأمة وحياتها)[٢٢] ، فعندما أخذ عرب الشمال تسودهم لغة قريش طفقوا يتقاربون ويسعون لنبذ الخصومات ويتواصلون بحبال الأحلاف والجوار ، عرفوا أن نمطاً جديداً من الحياة بدأ يتعمق فى مجتمعهم وظهرت للوحدة أو التوحيد علامات مثل «يوم ذى قار» وانتصار «سيف بن ذى يزن» . . إلخ (إن التوجه التوحيدى للغة كان يجرى فى سياق منحى التوجهات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

(٢١) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥ .

(٢٢) أبو خلدون ساطع الحصرى ، **أبحاث مختارة فى القومية العربية** ، ص ٣٥ - ٣٦ ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م ، من إصدارات « مركز دراسات الوحدة العربية » ، نشرته دار المستقبل العربى بمصر .

والدينية للانتقال بالمجتمع من مرحلة التجزئة القبلية إلى مرحة التوحيد . . إن اللهجة القرشية فرضت تأثيرها فى مجرى عملية التوحيد اللغوى لا بسبب من خصائصها الذاتية بل نتيجة التأثير الذى كان يمارسه الوضع الإقتصادى والتجارى والإجتماعى والدينى للأرستقراطية المكية القرشية على مجرى التطور العام) [٢٣] .

إن لغة عرب الشمال قد تأثرت وتفاعلت بلهجة قريش ، ثم إن هذه اللغة الموحدة (تقريباً) قد أثرت بدروها فى عملية الصهر والتوحيد ؛ لأن اللغة كظاهرة اجتماعية تتأثر وتؤثر .

* * *

تحدثنا فى «المقدمات الاجتماعية» عن ظاهرة « الصعلكة » وعن الصعاليك وأن من هؤلاء شعراء حملت إلينا كتب الأدب العربى قدراً كبيراً من شعرهم منهم :

«عروة بن الورد» ويطلق عليه «عروة الصعاليك» ، و«السليك بن السلكة» ، و «الشنفرى» و «القتال الكلابى» الذى يرجح أحمد أمين أنه منهم [٢٤] ، و «الأعلم الهذلى» ، و «تأبط شراً» ، و «عبيد بن الأبرص» ، و«أبو النشناش» وغيرهم .

وأهمية شعر هؤلاء الصعاليك - فى رأينا تتمثل فى أمرين :

أولهما : أنهم وصفوا حالة الفقراء فى المجتمع العربى سواء «البدوى» منه أو «الحضرى» وأكدوا انقسامه إلى طبقتين : أغنياء يملكون كل شئ ويعيشون عيشة مرفهة ، وفقراء يكادون لايجدون مايتبلغون به ، ويحيون حياة كلها جوع وشظف .

---

(٢٣) برهان الدين دولو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الأول ، ص ٢١٧ ، مرجع سابق .

(٢٤) أحمد أمين ، **الصعلكة والفتوة فى الإسلام** ، ص ٣٥ ، مرجع سابق .

والآخر : أنهم بشعرهم هذا حضوا الفقراء على التمرد على هذا الوضع الجائر وعدم الاستكانة إليه ومحاولة تغييره ، وسبق أن ذكرنا أنه ليس «شعر ثورة» لأنهم لم يكونوا يملكون الوعى لذلك . والشعر كما ذكرنا آنفاً كان أكثر أدوات التعبير فعالية فى تحريك النفوس لسرعة ذيوعه فى ذلك المجتمع الأمى ذى الثقافة الشفوية ، ومن ثم كان له أثره خاصة بين الفقراء والمعوزين مما دفعهم لسرعة الاستجابة للدعوة التى نادى بها محمد صلى الله عليه وسلم بالمساواة والعدالة الاجتماعية . يقول «عروة ابن الورد» أو «عروة الصعاليك» :

ذرينى للغنى أسعى فإنى ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقرهم لديهم ... وإن أمسى له نسب وخير
ويقضى فى الندىّ وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير

فهنا يؤكد الشاعر أن الفقير مزدرى ، ومحقر ، حتى وإن كان «له نسب وخير» وأن المعيار فى تقييم الفرد فى ذلك المجتمع هو مقدار مايملكه من مال .

ويقول «الأعلم الهذلى» :

وذكرت أهلى بالعراء ... وحاجة الشعث التوالب
المصرمين من التلا ... د اللامحين إلى الأقارب

يصف حالة المعدمين الذين يفترشون الغبراء ويلتحفون بالسماء .

ويقول «الشنفرى» :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم ... إذا أطعمتهم أوتحت واقلت
تخاف علينا العيل إن هى أكثرت ... ونحن جياع أى آل تالت
مصعلكة لاقصّضر الستر ... ولا ترتجى للبيت إذ لم تبيت

هذه صورة ناطقة لأم فقيرة وعيالها فقراء تطعمهم بما يكاد يقيم أودهم وتخشى العيلة إذا هى أكثرت من طعامهم مع أنها تعلم أنهم جياع وهى

صعلوكة ، ليست من ذوات الأستار .

ويقول أحدهم مخاطباً الأغنياء الذين يبيتون متخمين من كثرة الأكل وجيرتهم من النسوة يقضين الليل على الطوى :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم جوعى يبتن خمائصا

ويؤكد «بشر بن المغيرة» أن من الخسَّة ولؤم الطبع أن يشبع الأغنياء فى حين أن إخوانهم فى العشيرة أو أصحابهم لايجدون ما يأكلون فيظلون جياعاً :

وكلهم قد نال شبعاً لبطنه وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

ويقول « السليك بن السلكة » :

وما نلتها حتى تصلعكت حقبة وكدت لأسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى إذا قمت تغشانى ظلال فأسدف

فهو لم ينل أكلاته إلا بعد أن تصعلك وعرض نفسه للهلاك بعد أن عضه الجوع بنابه ويصف «أبو النشناش» الفقر وكيف أنه يصاحب الفتى فى كل حال حتى فى المضجع لايفارقه :

فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ولا كسواد الليل أخفق طالبه

إن دواوين الشعر وكتب المختارات ، تعج بالعشرات من هذا النوع من الشعر ، ولكننا اقتصرنا على عدد قليل من الأمثلة بالقدر الذى يؤكد ماذهبنا إليه من أن شعر الصعاليك لعب دوراً مؤثراً .

وهناك نوع آخر من الشعر وهو شعر (الحنيفيين) ، كان بعضهم شعراء مطبوعين ولهم باع طويل فى فن الشعر مثل أمية بن أبى الصلت ، والبعض الآخر كانت له مقطوعات أو عدة أبيات يعبر بها عما يختلج فى صدره من أفكار وأحاسيس ولا نستطيع أن نعد هؤلاء من الشعراء .

وشعر (الحنفاء) تولى مهمة اختلفت عن المهمتين اللتين أداهما شعر الصعاليك واللتين ذكرناهما فى الفقرة السابقة ، فشعر «المتحنفين» كان

شغله الشاغل هو إدانة التعددية الأوثانية والشرك فى العبادة ، والدعوة لنبذ الأوثان وتوحيد الله فى العبادة ، والكشف عن زيف العبادة للأوثان وفسادها وبطلانها ، وهنا نرجو الرجوع إلى البحث الخاص بـ «الحنيفية» .

كان الشعر أحد أهم وسائل التعبير التى لجأ إليها (الحنفاء) للتعبير عن أفكارهم وآرائهم والدعوة إليها ، ويرى أحمد أمين أن بعضاً من هؤلاء قد تأثر بكل من «اليهودية» و«النصرانية» اللتين انتشرتا بين العرب وظهرت فى أشعارهم نغمة دينية جديدة (٢٥) . ولعله من نافلة القول أن نذكر أن التوحيد فى العقيدة كان أحد الأسباب الهامة التى عاونت فى توحيد الجزيرة العربية بالإضافة إلى العوامل الأخرى .

نورد فيما يلى بعض الأمثلة للأغراض التى تناولها أصحاب «الحنيفية» سواء من الشعراء أو الذين قالوا بعض الأبيات أو المقطوعات :

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولاصنمى بنى طسم أدير

أربا واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور

ولكن أعبد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الرب الغفور

هذه أبيات لـ «زيد بن عمرو بن نفيل» فيها يشجب عبادة الأصنام ويعلن أن الرب واحد كما يعلن فى المقطوعة بصراحة وحسم أنه رضى بالله رباً لاشريك له ويحث على التقوى :

ولكن أعبد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الرب الغفور

فتقوى الله ربكم احفظوها متى تحفظوها لاتبوروا

ويذكر «إسلام الوجه إلى الله» خالق «الأرض» التى «دحاها» والمزن التى ساقها :

اسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقالاً

(٢٥) أحمد أمين «فجر الإسلام» ص ٢٥ - مرجع سابق .

(دحاها) فلما رآها استوت على الماء أرسى الجبالا

ويطلق على الرب الذى يعبده أسماء مثل «الملك الأعلى» :

إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه إله ولا رب يكون مدايننا

وسبق أن وصفه ربه بـ «الرحمن» و بـ «الغفور» .

ويرى «قس بن ساعدة» أن الله لم يخلق الخلق عبثاً :

الحمد لله الذى لم يخلق الخلق عبثاً

ويدعو «ورقة بن نوفل» إلى التوحيد صراحة ، وأن الرب ليس كمثله شئ :

بدينك رباً ليس رباً كمثله وتركك جنات الجبال كما هيا

أدين لرب يستجيب ولا أرى أدين لم يسمح الدهر داعيا

وفى بيت آخر يقول عن نفسه إنه «النذير» لقومه وإنه نصح لقومه أى دعاهم للحنيفية الموحدة :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا «النذير» فلا يغرركم أحد

أما «أمية بن أبى الصلت» فيؤكد أن دين الحنيفية هو الدين الحق وغيره من الملل باطل كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية زور .

وسبق أن ذكرنا أن «عبد الله بن مسعود» ، رضى الله عنه كان يقرأ : «إن الدين عند الله الحنيفية » كما دونها فى مصحفه ، وهى الآية التى وردت فى (المصحف العثمانى) كالأتى «إن الدين عند الله الإسلام » .

وديوان أمية ملئ بذكر الجزاء والجنة التى أعدت لـ «الأبرار» والتى مصفوفة «نمارقها» وحفت بها الحدائق والنار التى يحيط «سرادقها» بالمذنبين الأشرار التى سوف تسوؤهم مرافقها :

أم من «تلظى» عليه واقدة النار «محيط بها سرادقها»

أم أسكن الجنة التى وعد « الأبرار» مصفوفة «نمارقها»

لايستوى المنزلان ولا الأعمال لاتستوى طرائقها

هما « فريقان » فرقة تدخل الجنة حفت بها حدائقها
وفرقة منهم أدخلت النار فساءتهم مرافقها

ويصف أمية الرب بأنه «رب الراسيات من الجبال» وأنه بنى «سبعاً شداداً بلا عمد» وسواها وزينها بنور من الشمس المضيئة و «شق الأرض» فأنجبت عيوناً وأنهاراً «وبارك فى نواحيها» .

إله العالمين وكل أرض ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعاً شداداً بلا عمد يرين ولا جبال
وشق الأرض فانجبت عيوناً وأنهاراً من العذب الزلال
وبارك من نواحيها وزكى بها ما كان من حرث ومال

وينقل إلينا د . سيد محمود القمنى عن «الإمام أحمد» أنه قال :

(حدثنا إبراهيم بن ميسرة أنه سمع عمرو بن الشريد يقول : قال الشريد : كنت ردفاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم (أى راكباً معه على بعير واحد) فقال لى : أمعك من شعر «أمية بن أبى الصلت» شىء؟ قلت : نعم ؛ قال : فانشدنى بيتاً ، فلم يزل يقول لى كلما أنشدته بيتاً إيه (حتى أنشدته مائة بيت) [٢٦] .

وقد أورد عبد البر فى كتابه «الاستيعاب فى معرفة الصحاب» أن لأمية أختا يقال لها الفارعة وهى التى روت للرسول صلى الله عليه وسلم أخبار أمية وأنشدته من شعره (جزء / ٤ - ص ٣٧٩) .

وقد تأثر بعض شعراء «الحنيفية» وغيرهم بـ «اليهودية» و «النصرانية» وظهر ذلك واضحاً فى شعرهم - وهذه نظرية أحمد أمين كما ذكرنا - نذكر بعض الأبيات ، لـ «أمية بن أبى الصلت» :

عن «جبريل» أمين العرض وميكائيل يقول :

---

(٢٦) د . سيد محمود القمنى ، **الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية** ، ص ٧١ مرجع سابق ، وقد نقله بدوره عن **البداية والنهاية** ، لابن كثير ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

أمين لوحى القدس جبريل منهم ... وميكال ذى الروح القوى المسدد
فقلت له إذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذى كان « طاغيا»
وقولا له : أأنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولاله : أأنت « رفعت » هذه ... «بلا عمد» ، أرفق إذا بك بانيا

وعن «مريم» عليها السلام عند ماظهر لها «جبريل» ليهب لها غلاماً زكياً :

تدلى عليها بعد مانام أهلها ... رسولاً فلم يحصر ولم يترمرم
فقال ألا لاتجزعى وتكذبى ... ملائكة من رب عاد وجرهم
أنيبى وأعطى ماسئلت فإننى ... رسول من الرحمن يأتيك بابنم
فقالت «أنى يكون» ولم أكن ... «بغياً» ولا حبلى ولا ذات قيم
فسبح ثم اغترها فالتقت به ... «غلاماً» سوى الخلقة ليس بتوأم
فقال لها «إنى من الله آية» ... وعلنى ، والله خير معلم
وأرسلت ولم أرسل غوياً ... «ولم أكن شقياً» ولم أبعث بفحش ومأثم(٢٧)

وإذا كان شعر «الصعاليك» قد ساهم فى «الجانب الإجتماعى» من المقدمات ، فإن شعر «الحنفاء» كانت له اليد الطولى فى «الجانب العقائدى والدينى» ، إذ أنه حرث الأرض ومهدها لتلقى بذرة عقيدة التوحيد التى جاء بها الإسلام ؛ وكان الدين أبرز الروافع التى ساهمت فى نشوء دولة قريش فى يثرب .

* * *

إذا كان الشعر هو الإنتاج اللغوى الأول فى المجتمع العربى قبل الإسلام ، فإن «الخطابة» هى المنتوج الثانى ، وكان مركز «الخطيب» لايقل عن

(٢٧) الأبيات التى وردت فى هذا المبحث التقطتها من كتابى **الحزب الهاشمى** ، للدكتور سيد القمنى ، و**الخلافة الإسلامية** ، للمستشار العشماوى وهما مرجعان سابقان ومن أراد المزيد من الاطلاع فى هذه الخصوصية فليرجع إليهما .

مركز الشاعر إن لم يفقه فى بعض الحالات ، ولكن هناك ملمح بارز فى الخطباء وهو أنهم كانوا عادة من السادة والمتقدمين وذوى الصدارة فى قبائلهم ، بعكس الشعراء الذين كان عدد منهم من الطبقة الفقيرة والمسحوقة مثل الصعاليك الذين تحدثنا عنهم فيما سلف ؛ وقدنقل إلينا الجاحظ عن عمرو بن العلاء قوله (كان الشاعر فى الجاهلية يقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم على عددهم ومن غزاهم ، ويهيِّب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرَّعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر) (٢٨) ؛ ويعارض حسين مروة وجهة نظر عمرو بن العلاء تلك ويرى أنه (. . ليس صحيحاً أن حاجة الجاهليين إلى الشعراء فى زمن تختلف عن حاجتهم إلى الخطباء فى الزمن نفسه ، لأن كلاً من الشعر والخطابة كان يؤدى الوظيفة الاجتماعية نفسها فى الزمن السابق الذى يتحدث عنه ، أى حتى ذلك الزمن الذى كان الشعر فيه « يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم و . . إلخ) كان هو نفسه ذلك الزمن الذى تفعل فيه الخطابة الفعل ذاته) (٢٩) ولكن حسين مروة يخلى قول عمر وبن العلاء من الحقيقة التاريخية كلها وأنه عبر ضمنياً عن (اتجاه التطور الذى بدأت تبرز مظاهره وآثاره فى المعالم الثقافية المقاربة لظهور الإسلام) (٣٠) ونحن نرى أن ابن العلاء قد

---

(٢٨) أبو عثمان بن عمرو بن بحر ، **الجاحظ** ، **البيان والتبيين** ، الكتاب الثانى ، الجزء الأول ، ص ٢٤١ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، الطبعة الأولى ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

(٢٩) حسين مروة ، **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، الجزء الأول ، ص ٢٨٥ ، مرجع سابق .

(٣٠) المرجع نفسه ، ص ٢٨٦ .

تحيز كثيراً أو قليلاً للشعراء على حساب الخطباء ، فالذى نعرفه عن العرب أنهم أهل لسن وفصاحة ، ومن كان هذا حالهم ، لابد أن يحظى الخطيب عندهم بمنزلة مرموقة ، فضلاً عن أن الخطابة كانت (. . ضرورة من ضرورات حياتهم وحاجة من حاجاتهم ، يتخذونها فى السلم أداة للمفاخرة والمنافرة ويصطنعونها فى الحرب لتثبيت الجنان وتحميس الجبان ، وبعث الحمية فى النفوس وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف)[٣١] وهو الدور نفسه الذى كان يؤديه الشعر ، ولكن هناك فرقاً بين الشاعر والخطيب عند عرب ماقبل البعثة المحمدية وهو أنهم كانوا (يشترطون فيه (فى الخطيب) السيادة فى القوم والكرم فى الخلق والعمل بما يقول ، ولابد أن يكون جهير الصوت ، رابط الجاش ، ثابت الجنان ، قوى الحجة ، فصيح اللسان ، قليل الحركة حسن السمت ، جميل المظهر)[٣٢] ؛ ولكن كان للخطابة مهمة خطيرة وهى أن أربابها كانوا يقومون بوظيفة السفراء بين قومهم والملوك والأقيال أمثال كسرى وسيف بن ذى يزن ، ولشرف الخطابة عندهم كان عدد من شيوخ القبائل يجمع بينها وبين زعامة القبيلة مثل (عامر بن الظرب العدوانى وكان سيد بنى عدوان وحكيم العرب فى الجاهلية)[٣٣] ، بل كان من بين الشروط التى يتعين توافرها فى «شيخ القبيلة» هو أن يكون لسناً فصيحاً ، بليغاً ؛ كما كان الخطيب يجمع بينها وبين الحكومة فى الخصومات أى القضاء بين الناس مثل «ربيعة بن حذار» و «ضبيعة بن نعيم[٣٤] ، أو يجمع بينها وبين «الحكمة» مثل «أكثم بن صيفى» الحكيم المشهور فى عرض الجزيرة وطولها .

---

(٣١) سمير عبد الرازق القطب ، **أنساب العرب** ، ص ٧٧ ، مرجع سابق .

(٣٢) المرجع نفسه ، ص ٧٨ .

(٣٣) برهان الدين دلّو ، **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، الجزء الأول ، ص ٢٧٣ ، مرجع سابق .

(٣٤) المرجع نفسه ، والصحفة نفسها .

وفى كتب السيرة النبوية كان عدة من الوفود التى قصدت الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم تضم فيها خطيبها الذى يلقى خطبة عصماء بين يديه ، وعادة مايكون الخطيب سيد القوم أو من سادتهم مثل عطارد ابن حاجب بن زرارة « وفد قبيلة تميم » ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يندب أحد صحابه ممن يكون اشتهر بالخطابة ليرد على خطيب الوفد ، منهم «ثابت بن قيس بن شماس من بنى الحارث بن الخزرج » رضى الله عنه وعرف بـ «خطيب رسول الله» .

* * *

كانت الأسواق ميداناً واسعاً للخطباء يظهرون فيه براعتهم الخطابية وفصاحتهم وبلاغتهم وطلاقة ألسنتهم ، وسبق أن ذكرنا فى المبحث الخاص بـ «المقدمات الدينية» أن بعض دعاة الدين المسيحى كان يتخذ السوق منبراً لنشر أو للتبشير بـ «النصرانية» ، وفعل ذلك أيضاً بعض المتحنفين ، وأشهرهم قس بن ساعدة الإيادى الذى كان محمد صلى الله عليه وسلم من بين من كان يصغى إلى خطبه ، وذكر ذلك لوفد قبيلته عندما أقبلوا إليه وأنه استعاد «إيادياً» منهم إحدى خطبه (خطب قس) ، إذن كما كان للشعر مكان مرموق فى الموسم الأدبى أو الثقافى الذى كان يقام فى السوق ، فقد كان للخطابة فيه مساحة واسعة ، ولسنا هنا بصدد المقارنة بين هذين الفنين أو المنتوجين اللسانيين ففيما سبق أوردنا ما يعين على ذلك ، ولكن مانقوله أنه حسب بنية كل منهما كان تنبع أو تتجذر الوظيفة التى يؤديها ، ومن المعلوم أن من يقدر على الإتيان بـ «الكلام المنثور» أوفر بما لايقاس من صاحب الموهبة الشعرية ، ولايفهم من هذا أن كل فرد فى ذلك المجتمع كان بليغاً أو خطيباً مفوها وفي حين كان الشاعر - فى أغلب الأحيان - يحرص على تنقيح قصائده بتشذيب ألفاظها وتجويد أبياتها ، نجد أن الخطيب جل اعتماده على بديهته وسرعة

خاطره ، وإذ أنه لايتقيد بوزن ولاقافية (وإن عمد فى بعض الأحيان للسجع) فإن الفرصة تتسع أمامه للاسترسال والتدفق ، ومن ثم تجئ الخطبة أكثر استمالة وأبلغ تأثيراً فى نفس السامع ومن هنا استغلها أصحاب العقائد والنحل لعرض أفكارهم ومبادئهم فى الأسواق ، إذن كانت الخطابة فى الأسواق قناة ذات خطر لتوصيل عقيدة التوحيد أو التبشير بين عرب ماقبل البعثة المحمدية ، وإذ أن الخطابة منتوج لسانى وفرع من فروع القول وفن من فنون اللغة ، واللغة كما قلنا ظاهرة اجتماعية تؤثر وتتأثر بما فى مجتمعها إذن كان حتما ان تتأثر الخطابة بالمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية فأخذت تعالج القضايا العقائدية (التفكر فى الكون كطريق للإقناع بوحدة خالقه وعدم عبثية خلقه) والقضايا الاجتماعية والاقتصادية إذ كان المجتمع القبلى كما ذكرنا قبلاً قد بدأ يتفكك ولم تعد تؤطره المقومات أو القيم التقليدية بل بدأت قيم جديدة تغزوه و تتخلل بنيته التى أفرزتها علاقات اقتصادية مستحدثة ، وكان من الضرورى أن ينعكس ذلك على خطب الخطباء ، فبعد أن كان الخطيب همته المفاخرة بحسب قبيلته ونسبها و بمعاركها وغزواتها وأمجادها وإنتصاراتها أو تحميسها للأخذ بثأرها ورد العدوان الواقع عليها . . . إلخ أصبح الخطيب يتحدث فى قضايا عامة ، لقد خرج من النطاق القبلى الضيق إلى مجال أوسع وأفق أرحب - حقيقة أن الخطباء فى هذا المضمار لم يبلغوا نهاية الشوط ، ولكن خطبهم تعتبر علامات طريق بارزة ، تدل على التغيير الذى بدأ يتغلغل فى بنية المجتمع العربى (البدوى والمدينى) آنذاك ويعمل فيه آثارها التى شرحناها آنفاً ، ولعل أقرب مثل على ذلك : خطب قس بن ساعدة التى كان يحرص على إلقائها فى الأسواق ، فكما أن الخطابة قبيل ظهور الإسلام كانت تعبيراً عن سيرورة التغير الإجتماعى والإقتصادى فإنها ساهمت أيضاً فى عملية الدمج

والصهر والتوحيد إذ أن تلك الخطب كان يحفظها الرواة وينقلونها من مكان لآخر ، فيسمعها من لم يكن قد حضرها وبذلك تتسع دائرتها . ومن ثم فإنه يمكن القول إن الخطابة كالشعر اضطلعت بمهمة بارزة فى نشر عقيدة التوحيد وفى دفع آلياته إلى الأمام وكذا فى عملية التوحيد الإجتماعى والتوحيد السياسى .

إن التوحيد بكل مظاهره : العقائدى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى كان أهم عامل فى قيام دولة قريش فى يثرب .

الخاتمة



مصالح صناديد قريش

وبعـــــد

فإن القارئ بعد أن طالع الصفحات السابقة لابد أن سؤالاً هاماً قد دار بذهنه وهو : ما دامت الدولة التى أقيمت فى «يثرب» هى دولة قريش ؛ فلماذا إذاً ناصبت قريش محمداً صلى الله عليه وسلم العداء وحاربته ؟

وفى بداية الإجابة نلاحظ أن الدقة قد أعوزت السؤال ذلك أن الذى عادى محمداً صلى الله عليه وسلم وحاربه هم «صناديد قريش» : التجار الكبار والمرابون والنخاسون ومستغلو عرق العبيد والإماء ، وذلك لسببين :

الأول : أنه نادى بالتوحيد ونبذ الشرك وعبادة الأصنام ، وهذا شكّل خطراً داهماً على مصالحهم التجارية ومكاسبهم المالية التى كانوا يجنونها من وراء التعددية الأوثانية التى كانت مكة هى عاصمتها الأولى وإليها يحج ويعتمر العرب من كل صوب وحدب من الجزيرة العربية ويقصدون الأسواق التى نصبت فى منطقة الحجاز قبيل وبعيد مواقيت الحج الأكبر .

والآخر : أنه دعا إلى العدالة الاجتماعية والمساواة بين البشر جميعهم لافرق بين غنى أو فقير ولا سيد وعبد وأمة ، وهذه الدعوة ستحرمهم من استرقاق العبيد رجالاً وإماءً الذين كانوا كما ذكرنا قوة إنتاجية وسلعة استهلاكية ، فضلاً عن أن العربى المستكبر فى طبعه الأنفة والكبرياء اللذان يدفعانه إلى رفض مبدأ التساوى مع من هم أقل منه ثروة أو أدنى منه منزلة اجتماعية .

هؤلاء هم وحدهم الذين وقفوا بالمرصاد لمحمد صلى الله عليه وسلم ، إذ وجدنا سادة أماجد استطاعوا برجاحة عقولهم أن يقيّموا دعوة محمد (ص) التقييم الصحيح ويعرفوا أنها تتفق و مسيرة التاريخ وتطابقت مع ظروف المجتمع العربى آنذاك وأنها فى نهاية المطاف وبطريق الحتم واللزوم سوف تحقق مجد قبيلة قريش وعزها وتجعلها سيدة جزيرة العرب دون منازع ، منهم على سبيل المثال :

أبو بكر وعمر ، وعثمان ، وحمزة بن عبد المطلب ، والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبيدة بن أبى الجراح ، وسعيد بن زيد بن نفيل ، والأرقم بن أبى الأرقم (المخزومى) ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وإخوة السيدة زينب بنت جحش (زوجة محمد صلى الله عليه وسلم) وهم : عبد الله وعبد ، وعبيد الله (من بنى أسد) «وهناك رواية مفادها أن عبيد الله اعتنق النصرانية فى الحبشة عندما هاجر إليها» ، وقيس بن عبد الله وهو ظئر عبيد الله بن جحش (من بنى أسد) ، وعتبة بن غزوان بن مازن (من بنى نوفل بن عبد مناف) ، وطليب بن عمير بن وهب (من بنى عبد قصى) ، ومصعب بن عمير أو «مصعب الخير» وأخوه أبو الروم وكان يسمى عبد مناف وفراس بن النضر بن الحارث ، وجهم بن قيس وابناه عمرو وخزيمة (وهم من بنى عبد الدار بن قصى) ، وعمرو بن أمية بن الحارث وخالد ابن حزام ويزيد بن معاوية بن الأسود (وهم من بنى أسد) ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والمطلب وطليب إبنا أزهر بن عبد عوف ، وعبد الجان (سماه الرسول عليه السلام عبد الله) بن شهاب (وهم من بنى زهرة) ، وطليب ابن عمير بن وهب (من بنى عبد قصى) وعمر بن عثمان بن عمر ، والحارث بن صخر بن عمر (من بنى تيم بن مرة) ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وشماس بن الشريد ، وهبار بن سفيان بن عبد الأسد وأخوه عبيد الله ، وهاشم بن أبى حذيفة بن المغيرة وسلمة بن هشام بن المغيرة وعياش

ابن أبى ربيعة بن المغيرة (من بنى مخزوم) وعثمان بن مظعون بن حبيب وقدامة بن مظعون ، والسائب عثمان بن مظعون ، ومعمر بن الحارث بن حبيب وابناه : حاطب وحطاب وشرحبيل بن حسنة مولاهم (من بنى جمح) ، وعبد الله بن حذافه وأخواه : خنيس وقيس ، وهشام بن العاصى بن وائل «أخو عمرو بن العاصى» وأبو قيس بن الحارث وأخوه عبيد الله وعمير بن رئاب (من بنى سهم) ومعمر بن عبد الله بن نضلة ، وعروة بن أبى أثاثة وعدى بن نضلة (من بنى عدى) ، وأبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى ، حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود ، وأخوه السكران بن عمرو ، ومالك بن عبد قيس بن عبد شمس ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو (من بنى عامر بن لؤى بن غالب) - رضى الله عنهم أجمعين .

ونكتفى بهم ، ولعل القارىء قد لاحظ أنهم يغطون جميع فصائل قريش ، وفيهم أغنياء أصحاب ثروات ، ووجهاء لهم مكانة مرموقة بين عشائرهم .

فإذا أضفنا إليهم المستضعفين الذين سارعوا إلى مبايعة محمد عليه السلام ومتوسطى الحال لأدركنا تماماً أن الذين أحجموا عن الدخول فى دعوة محمد عليه السلام هم المستكبرون من المرابين والنخاسين وكبار التجار الذين خافوا الكساد على مصالحهم وتجاراتهم .

* * *

ولم ينفرد أولئك وحدهم بالبصيرة النافذه وسعة الأفق وسلامة الحس فى تقدير الدعوة المحمدية ووزنها الوزن الصحيح وكيف أنها ستغدو الطريق الأمثل لتحقيق سيادة قريش وهيمنتها لا على منطقة الحجاز فحسب بل على الجزيرة بأسرها ، بل كان بجانبهم من لم يؤمن بالدعوة أو أظهر لها البغض وبادأها بالعداء وشن عليها الحرب :-

١ - (عن هشام الكلبى أنه قال : لما احتضر أبو طالب جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : «يامعشر قريش أنتم صفوة الله فى خلقه . . . وإنى أوصيكم خيراً بمحمد فإنه الأمين فى قريش والصديق فى العرب . . . كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وأعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ودورها خراباً وضعفاؤها أرباباً وإذا أعظمهم إليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها وأصفت إليه فؤادها وأعطته قيادها ، يامعشر قريش كونوا له ولاة ولحزبه حماة . . .) [1]

ومن المعلوم أن أبا طالب عم محمد صلى الله عليه وسلم قد دافع عنه رغم عدم دخوله فى دعوته ولكن وصيته لقريش هذه ، تكشف لنا صدق فراسته .

٢- (أخرج أبو نعيم فى «دلائل النبوة» عن ابن عمر رضى الله عنه أن قريشاً اجتمعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد فقال (عتبة بن ربيعة) دعونى حتى أقوم إليه أكلمه . . . ثم ذهب إليه وجلس إليه يكلمه ثم عاد يقول :

يامعشر قريش أطيعونى اليوم واعصونى فيما بعده ، اتركوا الرجل واعتزلوه فو الله ماهو بتارك ماعليه وخلوا بينه وبين سائر العرب ، فإن يظهر عليهم يكون شرفه شرفكم وعزه عزكم)[2] و (عتبة بن ربيعة) هذا

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوى ، **سيرة الرسول وتأسيس الدولة الإسلامية** ، أو **نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز** ، ص ٢٦ ، الجزء الرابع من الأعمال الكاملة للطهطاوى ، تحقيق محمد عمارة الطبعة الأولى ، أيلول - سبتمبر ١٩٧٧ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

(٢) ذكره ابن إسحق بطوله ، وأخرجه البيهقى مختصراً عن ابن عمر رضى الله عنهما - نقلاً عن كتاب **حياة الصحابة** ، الجزء الأول ، ص ٣٩ ، تأليف الكاند هلوى .

كان من صناديد قريش المستكبرين وفى مقدم من عاداه وكان محمد صلى الله عليه وسلم يطمع فى إدخاله دعوته وهو الذى كان يكلمه عندما أتاه ابن أم مكتوم فشغل عنه وهى القصة التى سجلتها سورة «عبس» وفيها وصف القرآن (عتبة) بأن استغنى وقد قتل يوم بدر كافراً ، قتله حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - كما قتل على بن أبي طالب كرم وجهه ابنه الوليد بن عتبة فى الغزوة نفسها ، وهو (عتبة) أبو هند زوج أبى سفيان بن حرب وأم معاوية ، وقد تعمدنا أن نعرف به هذا التعريف الكامل لنتبيَّن مدى عراقته فى الاستكبار واللدد فى العداء للدعوة المحمدية ولكن كل ذلك لم يمنعه من تقييمها تقييماً سديداً وأن صاحبها عليه السلام سوف يظهر على العرب وفى ذلك الشرف والعز لقريش .

٣ - (أتى النبى عليه الصلاة والسلام إلى بنى عامر بن صعصعة» فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم ، يقال له بحيرة بن فراس : « والله لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب)[٣] .

فى هذه الواقعة نجد أن بحيرة أخا بنى عامر بن صعصعة أو زعيمهم أدرك بفراسته أنه لو وضع يده فى يد محمد عليه السلام (لأكل به العرب) أى ساد العرب لأن مايدعو إليه محمد يتوافق مع موجبات ذلك الوقت ومع مقتضيات المجتمع .

٤ - كما نقرأ لبعض من آمن بدعوة محمد عليه السلام سواء على الفور أم على التراخى أخباراً تقطع بأن نظرتهم إليها كانت نظرة ثاقبة (جاء عمير بن وهب رضى الله عنه إلى صفوان بن أمية فى طلبه للمرة الثانية - لأن صفوان فرّ من مكة بعد فتحها - فقال له : ياأبا وهب جئتك

(٣) ذكره ابن إسحاق عن الزهرى وكذلك الحافظ أبو نعيم عن الزهرى أيضاً - نقلاً عن **حياة الصحابة** ، الجزء الأول ، ص ٦٤ ب ، مرجع سابق .

من عند خير الناس (أي من عند محمد صلى الله عليه وسلم) وأوصل الناس وأبر الناس وأحلم الناس «مجده مجدك ، وعزه عزك ، وملكه ملكك»)[٤] ، وهى عبارة ليست محتاجة إلى شرح أو تبيين .

* * *

وخارج نطاق مدافعة أساطين قريش عن ثرواتهم ومكاسبهم ومكانتهم الأدبيه كانت نظرتهم إلى محمد عليه السلام ملؤها التقدير والاحترام والإعجاب بما يسعى إليه :

(خرج أبو سفيان إلى بادية له مردفاً هنداً (زوجه) وخرجت و(معاوية راوى الحديث) أسير أمامهما وأنا غلام على حمارة لى إذ سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو سفيان : انزل يامعاوية حتى يركب محمداً ، فنزلت عن الحمارة وركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمارة وركبتها وأقبلت هند على أبى سفيان وقالت ألهذا الساحر أنزلت ابنى ، قال : لا والله ماهو بساحر ولا كذاب)[٥] .

فهنا نجد أبا سفيان يجادل امرأته هنداً وينفى عن محمد عليه السلام الوصفين البشعين اللذين حاولت إلصاقهما به ، أى أنه يقر بصدق محمد عليه السلام فى دعوته ، ولكن مصالحه ومكاسبه - إذ كان من كبار تجار قريش - ومكانته الأدبية هى التى منعته من الدخول فى الدعوة المحمدية ، وصفوان بن أمية الذى ذكرناه آنفاً - وكان مازال على شركه - أعار

(٤) أخرجه الواقدى وابن عساكر عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه كما أخرجه ابن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، نقلاً عن المرجع نفسه ، ص ١٢٤ .

(٥) أخرجه ابن عساكر عن معاوية رضى الله عنه وأخرجه الطبرانى أيضاً ، نقلاً عن المرجع نفسه ، ص ٥٨ .

محمداً ، مائة درع وكفاه مؤونة حملها - وذلك عند عزمه على غزو قبيلة هوازن فى الوقعة المعروفة بـ « يوم حنين »(٦) فما الذى دعا صفوان إلى ذلك ، وهو آنذاك لم يكن قد دخل فى الدعوة المحمدية ، إلى مد محمد صلى الله عليه وسلم بالسلاح ؟ نرجح أن الإجابة ليست فى حاجة إلى توضيح .

* * *

أما محمد صلى الله عليه وسلم فلم يُكف لحظة واحدة عن النظر إلى قريش بعين المودة والتقدير ؛ بل إنه فى أحلك الساعات التى مرت به وبدعوته ، أو أوقات نصره وغلبته لم تصدر منه كلمة واحدة تنال من قريش القبيلة العربية الوحيدة التي ورد ذكرها فى القرآن الكريم إذ حملت سورة اسمها - وهنا نذكّر بضرورة التفرقة بين قريش والصناديد الذين حاربوه وماتوا على الكفر بدعوته . نذكر على سبيل المثال ، الوقائع التى تؤكد مانذهب إليه من هذا الصدد :

١ - (ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم (بعد فراغه من غزوة بدر وتقسيم النفل الذى أفاء الله به على المسلمين من المشركين) - حتى إذا كان بـ «الروحاء» لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين فقال لهم سلمة بن سلامة - كما حدثنى عاصم بن عمر ابن قتادة ويزيد بن رومان : مالذى تهنئوننا به؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبُدْن المعقلة فنحرناها ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : «أى ابن أخى : أولئك الملأ» ، قال ابن هشام : الملأ : الأشراف والرؤساء) (٧) .

(٦) ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، الجزء الرابع ، ص ١٢٣ ، مرجع سابق .
(٧) المرجع نفسه ، الجزء الثالث ، ص ٥٣ .

هنا نجد أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يسكت على السخرية التى صدرت من أحد أصحابه وهو سلمة بن سلامة بن وقش الأشهلى الأنصارى ، فى حق سادة قريش ووصفه إياهم بـ «البُدن المعقَّلة» أى البهائم المربوطة من أرجلها ، ورد عليه بأدب جم أن أولئك هم أشراف قريش ورؤساؤها .

٢ - العشرة الذين بشرهم محمد صلى الله عليه وسلم بالجنة كلهم من قريش ، ولم تنل قبيلة أخرى هذا الحظ العظيم ولاحتى الأوس والخزرج رغم ماقدمتاه للدعوة المحمدية .

٣ - فى المبحث الذى خصصناه لـ (الأنصار) ذكرنا أن الصحابى الجليل سعد بن عبادة رضى الله عنه كان له موقف من قريش إذ قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ، الأمر الذى أفزع أبا سفيان وعدداً من القرشيين المسلمين فلجأوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فأمر بنزع راية الأنصار من سعد وأعطاها لابنه قيس وروى الإمام ابن كثير أنه (أعطاها للزبير بن العوام فدخل بها من أعلى مكة وغرزها بالحجون)[٨] وقال عليه السلام كذب سعد اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله قريشاً ، ولقد صدق فيما قال إذ استمر سؤدد قريش لما يزيد على سبعة عشر قرناً كما سنوضحه بعد قليل .

٤ - فى فتح مكة قال محمد صلى الله عليه وسلم : «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، وأبو سفيان وحكيم من كبار وجوه قريش» [٩] .

٥ - بعد فتح مكة دخل محمد صلى الله عليه وسلم الكعبة وخاطب

(٨) ابن كثير ، **السيرة النبوية** ، الجزء الثالث ، ص ٥٥٠ ، مرجع سابق .
(٩) المرجع نفسه ، ص ٥٤٩ .

قريشاً قائلاً («يامعشر قريش ماترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء»)(١٠) وشمل هذا العفو الكريم والصفح الجميل الصناديد الذين آذوه أشد الأذى وعذبوا المستضعفين الذين آمنوا بدعوته أقصى مايكون العذاب ، ويضيف ابن سيد الناس أنه (لاخلاف أنه لم يجر فيها قسم ولا غنيمة ، ولاسُبِّى من أهلها أحد)(١١) .

٦ - رغم انتصاره على مستكبرى قريش ، فقد ظل محمد صلى الله عليه وسلم ، بما عرف عنه من خلق عظيم وأدب جم يعاملهم بتقدير يليق بمكانتهم بين قومهم ، ولعل أبلغ مثل نطرحه هو معاملته لرأس أعدائه وكبير مناوئيه أبى سفيان بن حرب (كان أبو سفيان سيداً من سادات قريش فى الجاهلية ، ذكر أنه بعد إسلامه سُمع يمازح النبى صلى الله عليه وسلم فى بيت ابنته أم حبيبة ويقول : إن هو إلا أن تركتك فتركتك العرب ، فما انتطحت جماء ولا ذات قرن ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول له أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة)(١٢) ، إن تبسط محمد (ص) مع أبى سفيان الذى فعل الأفاعيل مع دعوته ومزاحه معه فوق أنه يدل على أدبه وكياسته ، فإنه من جانب آخر يقطع بتقديره له لأنه سيد من سادات قريش .

٧ - أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس ، وكان آخر من دخل عليه أبو سفيان بن حرب فقال : يارسول الله ، لقد أذنت للناس

---

(١٠) ابن كثير ، **السيرة النبوية** ، مرجع سابق ، ص ٥٧٠ .

(١١) ابن سيد الناس ، **عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير** ، المجلد الثانى ، ص ١٧١ ، مرجع سابق .

(١٢) ابن واصل الحموى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ ، **تهذيب الأغانى** لأبى فرج الأصفهانى ، ص ٧٨٦ ، الطبعة الأولى ، ١٨٣٢م-١٩٦٣م ، كتاب التحرير ، دار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة .

قبلي حتى ظننت أن حجارة الخندمة (جبل بمكة صفَّى عنده خالد بن الوليد رضي الله عنه آخر جيوب المقاومة التي كان يقودها عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ضد جيش المسلمين الذى دخل مكة) ليؤذن لها قبلي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أما والله إنك والناس كما قال الأول : كل الصيد فى جوف الفرا (حمار الوحش) أى كل شئ لهؤلاء من المنزلة فإن لك وحدك مثله)(١٣) .

فى هذه الواقعة أقسم محمد صلى الله عليه وسلم بالله لأبى سفيان أن منزلته عنده تعادل منزلة كل أولئك الذين قابلهم قبله فى ذلك اليوم مجتمعين ، وهى عبارة بالغة الدلالة على التقدير الوافر .

* * *

هكذا نجد أن العداء لمحمد من صناديد قريش كان بسبب تخوفهم من أن دعوته سوف تقضى على مكاسبهم ومصالحهم ووجاهتهم بين الناس ، بيد أنهم خارج هذا النطاق لم يكونوا كذلك بل إن بعضهم أدرك بنفاذ بصيرته وثاقب نظره أن دعوته ستعود على « قريش » وهم فى الذروة منها بالعز والمجد والسؤدد ، أما من جانبه عليه السلام فقد كان يحفظ لهم قدرهم ويعترف لهم بمكانتهم ولم يصدر منه أنه قطع صلة الرحم الوثيقة التى كانت تربطهم به وأنه فى الأيام الأولى لدعوته وهى الفترة التى كان فيها فى أشد الحاجة إلى أنصار ومعاونين ومعارضين رفض بحسم حاسم ما كان يشترطه عليه بعض رؤساء القبائل وهو أن يؤازروه ويحموه ويقدموا له كل عون على أن يؤول إليهم الأمر (الحكم بلغتهم آنذاك) من بعده ، لأنه عليه السلام كان يوقن فى قرارة نفسه أن «قريشاً» وحدها دون غيرها من القبائل هى «صاحبة الدولة» التى سوف يحققها على أرض الواقع ، بعد أن وضع اللبنات الأولى فى حجر أساسها جده «قصّى» .

---

(١٣) ابن واصل الحموى المتوفى ، **تهذيب الأغانى** ، مرجع سابق ، ص ٧٨٧ .

ولعلنا بذلك نكون قد أجبنا عن السؤال الذى استجاش فى صدر القارئ وأوضحنا بما فيه الكفاية أن ماجاء به (بالسؤال) من أن قريشاً (هكذا بتعميم وإطلاق) عادت محمداً صلى الله عليه وسلم وحاربته لم يكن صحيحاً ولا دقيقاً ، وأن الحقائق التاريخية - التى أوردنا أمثلة معدودة منها - والتى حملتها كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى تنقضه .

* * *

مع تقديرنا الكامل للدكتو سيد محمود القمنى وللدراسة العلمية الجادة التى قدمها فى كتابه «الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية» فإننا نخالفه فى أن الدولة التى قامت فى «يثرب» كانت لحساب «الحزب الهاشمى» وحده ، بل هى ـ فى نظرنا - «دولة قريش» بكل فصائلها ؛ والأدلة على ذلك كثيرة منها :

١ - أن الذى تولى خلافتها بعد «مؤسسها الفعلى» محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يكن هاشمياً بل من «بنى تيم» وإن كان قرشياً وهو أبو بكر رضى الله عنه ، ثم تلاه قرشي آخر ليس هاشمياً إنما من «بنى عدى» هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أما الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه فمن «بنى أمية» ، ثم خلفه على بنى أبى طالب كرم الله وجهه وهو وإن كان هاشمياً فإن خلافته لم تستغرق سوى خمسة أعوام تقريباً .

٢ - ثم عادت أدراجها إلى «بنى أمية» بزعامة معاوية بن أبى سفيان من سنة ٤١ هـ حتى سنة ١٣٢ هـ إذ ختمت بمروان بن محمد (مروان الثانى) أى أنها استمرت مايقرب من قرن إلا بضعة أعوام .

٣ - نصب عبد الله بن الزبير بن العوام (الأسدى) نفسه خليفة لمدة سبع سنوات من ٦٥/ ٦٦/ هـ إلى سنة ٧٣ هـ وكاد يقضى على الخلافة

الأموية لولا أن الحنكة السياسية كانت تنقصه . ومدة خلافته ، وإن كانت متداخلة فى زمن خلافة عبد الملك بن مروان ، فإن المؤرخين يعترفون بها ومن ثم أسقطوا هذه المدة من زمن خلافة عبد الملك التى اعتبروها ١٤ عاماً بدلاً من ٢١ عاماً (١٤) .

٤ - كذلك أقام « بنو أمية » إمارة مؤمنين ثم خلافة فى « الأندلس » بدأت على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ واستمرت حتى ٣٠٠ هـ أى مايزيد على قرنين ونصف قرن .

حقيقة أن «العباسيين» وهم هاشميون تواصل حكمهم خمسة قرون وربع قرن (من سنة ١٣٢ هـ إلى ٦٥٦هـ) ، ولكن ذلك لايسقط الحقيقة التاريخية وهى أن الدولة كانت لـ «قريش» تناوبتها فصائلها المتعددة ، أما أن فرعاً معيناً حكم مدة أطول فهذا أمر أملته ظروف كثيرة ، كما أنه عند دخول العباسيين إلى الخلافة حاولوا جهدهم الإجهاز على الفصائل القرشية الأخرى بدافع الأنانية (١٥) .

هذا بالنسبة إلى « رأس الدولة » أو « الخليفة » .

٥ - أما إذا وسعنا نظرتنا فسيتضح أن العشائر القرشية كافة ، ساهمت بقوة فى ترسيخ قوائم « الدولة القرشية » ، ولعل أقرب مثل يحضرنا هو «القادة العسكريون » الأوائل الذين كان لهم الفضل الأكبر فى ذلك ، منهم :

خالد بن الوليد بن المغيرة (المخزومى) ، وعمر بن العاصى (السهمى) ، والزبير بن العوام (الأسدى) ، وطلحة بن عبيد الله (التيمى) ، وعكرمة بن أبى جهل (المخزومى) ، وسعد بن أبى وقاص

---

(١٤) الشيخ محمد الخضرى بك ، **تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية** ، الجزء الثانى ، ص ١٦٥ ، طبعة ١٩٦٩ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .

(١٥) المستشار محمد سعيد العشماوى ، **الخلافة الإسلامية** ، ص ١٦٩ ، مرجع سابق .

(الزهرى) ، خالد بن سعيد بن العاص (الأموى) ، ويزيد بن أبى سفيان (من بنى أمية أو أنه ألحق بهم) ، أبو عبيدة بن الجراح (الفهرى) ، وشرحبيل بن حسنه (حليف بنى جمح) ، خالد بن أبى أرطاة (العامرى) ، ومعاوية (الأموى) الذى قاد غزوة قبرس الأولى بإذن من الخليفة عثمان رضى الله عنه ، وحبيب بن مسلمة (الفهرى) وهو فاتح ملطية وأرمينية ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح (من بنى الحارث بن فهر الفهرى) وهو فاتح أفريقية ، والقائمة طويلة فنكتفى بما ذكرنا .

٦ - خلا من حكم الأمصار وعهد إليه بالولايات الشرعية مثل الصدقات والخراج والغنائم . . إلخ من القرشيين وقد بدأ ذلك من حياة محمد صلى الله عليه وسلم .

فهل هى مجرد مصادفة أن يجئ معظم «قواد الجيوش» و «أمراء الأجناد» و «حكام الأمصار» و «أصحاب الولايات الشرعية» من قريش ؟؟؟ .

٧ - لما (تولى عثمان بن عفان الخلافة بعد أبى بكر وعمر ، دخل عليه أبو سفيان فقال : «صارت إليك بعد «تيم» و «عدى» فأدرها كالكرة واجعل أوتادها (بنى أمية) فإنما هو «الملك» ولا أدرى ماجنة ولا نار»)[١٦] فهنا نجد شيخ قريش وحكيمها يعلن صراحة أن الدولة القرشية مرت على «بنى تيم» ثم على «بنى عدى» ولم ينكر من ذلك شيئاً - على الأقل فى هذا النص ثم انتقلت إلى «بنى أمية» ويطلب من الخليفة «الأموى» تثبيت «ملكها» فى «الأمويين» .

وهناك رواية أخرى تقول (وقف أبو سفيان بن حرب على قبر حمزة - رضى الله عنه - فقال :

(١٦) د . أحمد على ، **العهد السرى للدعوة العباسية** ، أو من **الأمويين إلى العباسيين** ، ص ٥٥ ، الطبعة الأولى ، ص ١٩٨٨ م ، دار الفارابى ، بيروت - لبنان ، نقلاً عن المقريزى **النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم** ، ص ١٩ .

«رحمك الله يا أبا عمارة لقد قاتلتنا على أمر صار إلينا» [١٧] وهى عبارة واضحة لاتحتاج إلى تفسير ؛ علماً بأن «الأمر» فى لغة العرب يعنى «الحكم» أما «الحكم» عندهم فهو «القضاء فى الخصومات» .

٨ - استمرت الخلافة الأموية بجناحيها السفيانى والمروانى قرابة قرن (٩١ عاماً) وفى نهاية عهدها تضافرت على دحرها عدة عوامل - يخرج عن نطاق بحثنا تناولها - إنما يهمنا أمران :

الأول : عندما ولى الخلافة : الوليد الثانى ، أخذ يستهتر بالدين (كما تخبرنا أسفار التاريخ أنه كان متهتكاً ماجنا ، وبلغ من الفسق أن أخاه سليمان زعم أنه راوده عن نفسه ، وهو أول من أتى بالمغنيين من البلدان ، وقد غرق فى تعاطى الشراب وسماع العزف ، وقول الشعر و «استخف بالقرآن فخرقه ، يكفى أنه كان يدعى «خليع بنى مروان») [١٨] ويقال إنه ذات مرة فتح المصحف فكانت أول آيه طالعها فيه (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد)[١٩] فثارت ثائرته وصاح قائلاً : «أتتوعدنى وأنا الوليد» ثم مزقه .

أى أن الوليد لم يكتف بالفساد الخلقى والانحلال ، بل دخل إلى منطقة محرمة ونعنى بها الاستهتار بـ « القرآن » وتخريقه أو تمزيقه ؛ والقرآن الكريم هو الكتاب المقدس للدين الذى هو بدوره أهم عواميد «دولة قريش » .

الآخر : فى مقدمة أسباب اضمحلال خلافة الأمويين حروبها مع «الخوارج» الذين التف حولهم عشرات الألوف (وقد تميز فيها الضحاك ابن قيس الشيبانى الذى كان من قبائل ربيعة ، النازلة فى القسم الشمالى

---

(١٧) د . أحمد على ، **العهد السرى للدعوة العباسية** ، ص ٥٥ ، المرجع السابق .

(١٨) المرجع نفسه ، ص ٧٩ .

(١٩) سورة إبراهيم ، الآية / ١٥ .

من الجزيرة ، وكانت ربيعة غير راضية أن تكون الخلافة محصورة فى قريش لاتتعداها ، لهذا بايعت الضحاك الخارجى خليفة ، واجتمع للضحاك جيش هائل)[٢٠] وكان العرب والموالى معاً فيما وراء النهر وخاصة خراسان على استعداد لاعتناق هذه المبادئ مادامت سوف تخلصها من ظلم «بنى أمية»[٢١] وأخطر هذه المبادئ «ألا تنحصر الخلافة فى قريش وحدها» ، حقيقة أن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية أنهك الخوارج إلى درجة القضاء عليهم ولكن (مبادئهم مافتئت انتشرت وذلك لملاءمتها لتلك الحالات الاجتماعية التى نشأت فى الدولة العربية فى الشرق)[٢٢] .

هذان الأمران أو العاملان : الاستهتار بالدين عامة وبالقرآن الكريم خاصة من قبل الوليد الثانى ، واستشراء دعاوى خطرة تنكر على قريش حقها فى الخلافة وتقول بحق غيرها من القبائل فى توليها ، بالإضافة إلى أسباب أخرى ، عجلا بأن يجتمع «سادة قريش» ويقرروا بأنه قد آن الأوان للقضاء على دولة بنى أمية ، وأن المسألة لم تعد هزلاً ، ولايحسن السكوت عليها ، بل إن الصبر عليها سوف ينزع «الملك» لامن بنى أمية وجهم وحدهم بل من «قريش كلها وبكافة فصائلها فتشاور الفرعان الرئيسان وهما «العلويون» و «العباسيون» (فكان أن اجتمع الفريقان فى مكة خلال العهد الآخر من الدولة الأموية المضطربة الأحوال ، وتباحثوا فى الأمر ، فقر رأيهم على مبايعة محمد عبد الله المحض الملقب بـ

(٢٠) د . أحمد علبى ، **العهد السرى للدعوة العباسية** ، ص ٧٧ ، مرجع سابق .

(٢١) د . فاروق عمر ، **الثورة العباسية** ، ص ١٨ وما بعدها ، الطبعة الأولى ، ص ١٩٨٨ م ، دار آفاق عربية ، بغداد .

(٢٢) فان فلوتن ، **السيادة العربية والشيعة والإسرائليات فى عهد بنى أمية** ، ص ٧٣ ، ترجمة د . حسن إبراهيم حسن وآخر ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥ م ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

«النفس الذكية وهو علوى وكان ممن حضر هذا اللقاء . . . أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور)[٢٣] ، وقد نجحوا فعلاً فى اقصاء دولة «بنى أميـة» . بداهة نحن لانسقط الأسباب الأخرى الى دفعت العلويين والعباسيين للتحالف ضد الأمويين والثورة عليهم ، ولكننا نرى أن العاملين اللذين ذكرنا كانا من أبرز الدوافع التى حملتهم للتعاقد على إزاحة بنى أمية من الخلافة لأنهم لم يعودوا جديرين بالاستمرار فيها ولأنهم لو بقوا فيها أكبر من ذلك فسيعرضون «قريشاً» بأسرها لانتزاع الخلافة منها .

* * *

هذه أدلة ثبوت خلا ماطرحناه فى طوايا الأبحاث السابقة - قدمناها لنؤكد أن الدولة التى أقيمت فى «يثرب» لم تكن لحساب الحزب الهاشمى» وحده كما ذهب د . سيد القمنى ، بل إنها (دولة قريش) بكل أفخاذها وبطونها أى بجميع فروعها .

* * *

إذا حسبنا الزمن الذى حكمت فيه قريش :

منه حكم الخلفاء الراشدين ، الأمويين فى المشرق والأندلس ، عبد الله بن الزبير ، العباسيين ثم أضفنا إليها فترات حكم الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية فى مصر ، ودويلات أخرى مثل دولة الأدارسة (ملوك تلمسان وفاس قرطبة) ، هذه المدد جميعها تقرب من ١٧٠٠ سنة ، وأرجح أنه لاتوجد قبيلة أو أسرة على طول التاريخ سواء القديم أو الوسيط أو الحديث فى العالم أجمع ، حكم أبناؤها مثل هذه المدة ، والفضل فى ذلك يرجع إلى (المؤسس الأول) قصّى ثم إلى حفيده (المؤسس الفعلى) محمد (ص) .

---

(٢٣) د . أحمد علبى ، **العهد السرى للدولة العباسية** ، ص ٤٣ ، مرجع سابق .

المصادر
والمراجع

- **القرآن الكريم**
- عدد من **الصحاح والمسانيد وكتب الأحاديث النبوية** .
- **الكتاب المقدس** بقسميه : العهد القديم والعهد الجديد

- أ -

- **الإتقان فى علوم القرآن** ، شيخ الإسلام جلال الدين السيوطى
- **الأخبار الطوال** ، أبو حنيفة الدينورى ، تحقيق عبد المنعم عامر
- **الاكتفاء فى مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء** ، الإمام أبو الربيع سليمان الكلاعى .
- **إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون** ، المعروف بـ (السيرة الحلبية) على بن برهان الدين الحلبى .
- **أسد الغابة فى معرفة الصحابة** ، الإمام عز الدين بن الأثير ، تحقيق د . محمد إبراهيم البنا وآخر .
- **أنساب الأشراف** ، أحمد يحى المعروف بـ « البلاذرى » .
- **أنساب العرب** ، سمير عبد الرازق القطب .
- **أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية** ، أحمد حسن الباقورى .
- **إسلاميات** ، د . سليمان حزين وآخرين .
- **الإسلام وحضارته** ، أندريه مكيل ، ترجمة د . زينب عبد العزيز .
- **الإسلام وحضارة العرب** ، د . محمد كرد على .
- **أيام العرب فى الجاهلية** ، محمد أحمد جاد المولى بك وآخران .
- **أيام العرب وأثرها فى الشعر الجاهلى** ، منذر الجبورى .
- **أسواق العرب التجارية** ، د . حمدان عبد المجيد الكبيسى .
- **أطلس تاريخ الإسلام** ، د . حسين مؤنس .

- **الأمة والجماعة والسلطة** ، رضوان السيد .
- **أخبار أبي القاسم الزجاجي** ، أبو القاسم الزجاجي .
- **أبحاث مختارة في القومية العربية** ، أبو خلدون ساطع الحصري .
- **الأنثربولوجيا السياسية** ، جورج بالانديه ، ترجمة جورج أبي صالح
- **آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية** ، د . محرم كمال .
- **البيان والتبين** ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون .
- **بحوث في الإسلام والإجتماع** ، د . على عبد الواحد وافى .
- **السيكوجيا الاجتماعية** ، غالينا أندريفا .

- ت -

- **تاريخ الرسل والملوك** ، المعروف بـ (تاريخ الطبرى) ، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى .
- **تاريخ القرآن** ، د . عبد الصبور شاهين .
- **تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والإجتماعى** ، د . حسن على حسن .
- **تاريخ الأمم الإسلامية** ، الشيخ محمد الخضرى بك .
- **تاريخ الشعوب العربية** ، كارل بروكلمان ، تعريب أمين فارس وآخر .
- **تاريخ العالم** ، السيرجون أ . هامرتن .
- **تاريخ أوروبا - العصور الوسطى** ، أ . ل . فيشر ، ترجمة محمد مصطفى زيادة وآخر .
- **التاريخ الوسيط - قصة حضارة البداية والنهاية** ، نورمان ف . كانور ، ترجمة د .قاسم عبده .
- **التنازع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم** ، تقى الدين المقريزى - تحقيق د . حسن مؤنس .
- التكوين التاريخى للأمة العربية - دراسة فى الهوية العربية والوعى ، د . عبد العزيز الدورى .
- **تهذيب الأغانى للأصفهانى** ، ابن واصل الحموى .
- **التوحيد فى تطوره التاريخى - التوحيد يمان** ، ثريا منقوش .
- **تمهيد فى علم الاجتماع** ، بوتومور ، ترجمة نخبة من أساتذة علم الاجتماع فى الجامعات المصرية .

- ث -

- **الثورة العباسية** ، د . فاروق عمر .

- ج -

- **الجامع لأحكام القرآن** ، المعروف بـ (تفسير القرطبى) الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى .
- **جزيرة العرب قبل الإسلام** ، برهان الدين دلوّ .
- **الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية** ، خليل عبد الكريم .

- ح -

- **حياة محمد** ، د . محمد حسين هيكل .
- **الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية** ، د . سيد محمود القمنى .
- **حركات ومؤامرات مناهضة فى تاريخ الإسلام** ، د . أحمد الحفناوى .
- **حياة الصحابة** ، الكاندهلوى .

- خ -

- **خاتم النبيين** ، الشيخ محمد أبو زهرة .
- **خالد بن الوليد** ، اللواء أغا إبراهيم أكرم ، ترجمة إسماعيل كشميرى .
- **الخلافة الإسلامية** ، المستشار محمد سعيد العشماوى .

- د -

- دراسات **فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، د . السيد عبد العزيز سالم .
- **دراسات فى النظم العربية الإسلامية** ، د . توفيق سلطان اليوزبكى .
- **دراسات فى التاريخ اليمنى** ، سيف على مقبل .
- **الدولة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم** ، د . صالح أحمد العلى .
- **ديانة مصر القديمة** ، استندوف الألمانى ، تعريب سليم حسن .
- **الديانة المصرية القديمة** ، باروسلاف تشرن ، ترجمة د . أحمد قدرى .

- ر -

- **الروض الأنف** ، الإمام السهيلى ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد .

- **رسم المصحف** ، غانم قدور الحمد .
- **الربا** ، المستشار محمد سعيد العشماوى .
- **الرقابة المالية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين** ، عيسى أيوب البارونى .

- ز -

- **الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام** ، د . عبد السلام الترمانينى .
- **زعماء الإسلام** ، د . حسن إبراهيم حسن .

- س -

- **سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد** ، المعروفة بـ (السيرة الشامية) ، الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى .
- **السيرة النبوية** ، المعروفة بـ (سيرة ابن هشام) ، الإمام محمد بن عبد الملك بن هشام .
- **السيرة النبوية** ، ابن كثير ، تحقيق د . مصطفى عبد الواحد .
- **السنة قبل التدوين** ، د . محمد عجاج الخطيب .
- **السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية** ، فان فلوتن - ترجمة د . حسن إبراهيم حسن .
- **السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى القرن السادس الميلادى أو عصر جوستنيان** ، د . محمد فتحى الشاعر .

- ش -

- **الشرك الجاهلى وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام** ، د . يحى الشامى .

- ص -

- **الصديق أبو بكر** ، د . محمد حسن هيكل .
- **الصعلكة والفتوة فى الإسلام** ، أحمد أمين .
- **الصفوة والمجتمع** ، بوتومور ، ترجمة د . محمد الجوهرى وآخرين .

- ط -

- **الطبقات الكبرى** ، ابن سعد .

- ع -

- **عائشة والسياسة** ، سعيد الأفغانى .
- **عبقرية عمر** ، عباس محمود العقاد .
- **عثمان بن عفان** ، الشيخ صادق عرجون .
- **العرب قبل الإسلام** ، جورجى زيدان - مراجعة د . حسين مؤنس .
- **عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير** ، ابن سيد الناس .
- **علم الحديث** ، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحرانى .
- **العهد السرى للدولة العباسية - أو - من الأمويين إلى العباسيين** ، د . أحمد علبى .
- **العقل السياسى فى الإسلام** ، د . على شلق .
- **علم الفولكلور - دراسة فى المعتقدات الشعبية** ، د . محمد الجوهرى .
- **علوم الاجتماع** ، مجموعة من علماء الاجتماع السوفييت .
- **علم النفس الاجتماعى والتاريخ** ، بـ . بورشنيف - ترجمة سعد رحمى .

- ف -

- **فتح البارى شرح صحيح البخارى** ، الإمام ابن حجر العسقلانى - أخرجه محب الدين الخطيب وآخرون .
- **فى منزل الوحى** ، د . محمد حسين هيكل .
- **فقه السنه** ، الشيخ السيد سابق .
- **فجر الإسلام** ، أحمد أمين .
- **فكر ابن خلدون - العصبية والدولة - معالم نظرية خلدونية فى التاريخ الإسلامى** ، د . محمد عابد الجابرى .
- **فى الفكر الدينى الجاهلى** ، د . محمد إبراهيم الفيومى .
- **الفكر الاقتصادى العربى الإسلامى** ، محسن خليل .
- **فى الشعر الجاهلى** ، د . طه حسين .
- **فتح القسطنطينية** ، د . عبد السلام عبد العزيز فهمى .
- **فكر غرامشى** ، جمعها كارولوس سالينارى وآخر .
- **الفاروق عمر** ، عبد الرحمن الشرقاوى .

- ق -

- **قصة الكتابة العربية** ، إبراهيم جمعة .

- ل -

- **لطائف الإشارات لفنون القراءات** ، الإمام شهاب الدين القسطلانى .

- م -

- **محمد رسول الله** ، آيتين دينيه ترجمة د . عبد الحليم محمود وآخر .
- **محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم** ، محمد رضا .
- **محمد رسول الله** ، **سيرته وأثره فى الحضارة** ، جلال مظهر .
- **المصاحف** ، الإمام أبو بكر عبد الله السجستانى .
- **مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية** ، عباس محمود العقاد .
- **مرآة الإسلام** ، د . طه حسين .
- **مجتمع قريش السياسى والدينى فى عام الفيل** ، عطا الله جليان .
- **المفصّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** ، د . جواد على .
- **الملل والنحل** ، **الشهرستانى** ، تحقيق الشيخ أحمد فهمى .
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، المسعودى - تحقيق محمد محى الدين عطية .
- **معارك النبى (ص) مع اليهود** ، محمد على قطب
- **مقدمة ابن خلدون** ، عبد الرحمن بن خلدون - تحقيق د . على عبد الواحد وافى .
- **مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى** ، د . عبد العزيز الدورى .
- **المدخل الاجتماعى فى دراسة التاريخ والتراث العربى** ، د . حمود العودى .
- **مبادئ القانون الرومانى** ، د . محمد عبد المنعم بدور وآخر .
- **مصر ومجدها الغابر** ، مرجريت مرى - ترجمة محرم كمال .
- **مساهمة فى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى** ، برهان الدين دلو .

- ن -

- **نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز** ، رفاعة رافع الطهطاوى - تحقيق محمد عمارة .
- **النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية** ، د . حسين مروة .
- **نظام الغريب فى اللغة** ، عيسى بن إبراهيم الحميرى تحقيق محمد بن على الأكوح .

- **النفس وانفعالاتها وأمراضها وعلاجها** ، د . على كمال .

- هـ -

- **هذيل فى جاهليتها وإسلامها** ، د . عبد الجواد الطيب .

- و -

- **الوفا بأحوال المصطفى** ، الإمام الجوزى .
- **وقعة صفين** ، نصر بن مزاحم المنقرى .
- **وحدة اليمن تاريخياً** ، سيف على مقبل .

- ى -

- **اليمين واليسار فى الإسلام** ، أحمد عباس صالح .
- **اليمن دنيا ودين** ، عز الدين كشار .

المعاجم والقواميس والموسوعات وكتب المفردات :

- **المفردات فى غريب القرآن** ، الراغب الأصفهانى .
- **مختار الصحاح** ، الإمام الرازى .
- **المعجم الوسيط** ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
- دائرة المعارف الإسلامية .
- **الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية** ، د . عبد المنعم الحفنى .
- **قاموس التراث** ، هادى العلوى .
- **معجم العلوم الاجتماعية** ، نخبة من الأساتذة المصريين والعرب بإشراف د . إبراهيم مدكور .
- **معجم علم الاجتماع** ، د نكن ميشيل ترجمة د . إحسان محمد الحسن .
- **قاموس علم الاجتماع** ، د . محمد عاطف غيث .
- **المعجم الاقتصادى الاسلامى** ، الدكتور الشيخ أحمد الشرباصى .

الدوريات والمجلات

- مجلة « الاجتهاد » ، بيروت .
- مجلة « أدب ونقد » ، القاهرة .
- مجلة « الوعى الإسلامى » ، الكويت .
- مجلة « كلية التربية » ، عدن .
- سلسلة « نحن وهم » ، الإمارات العربية المتحدة .
- مجلة « اليقظة العربية » ، القاهرة .
- « حوليات كلية الآداب » ، جامعة الكويت .
- « المجلة العربية للعلوم الإنسانية » ، جامعة الكويت .